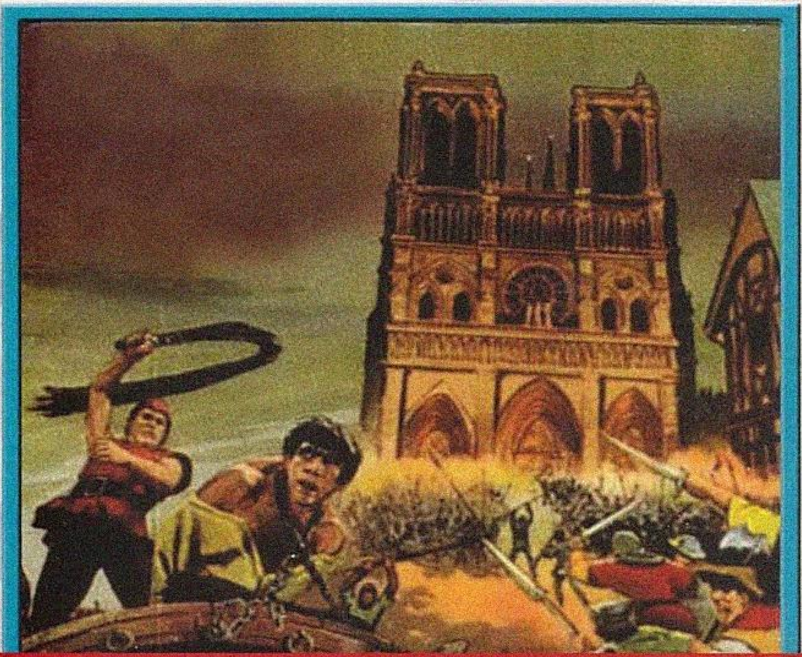
روايات عالمية روايات عالمية روايات عالمية روايات عالمي

فيكتور هيجو

أحدب نوتردام



نقلها إلى العربية رمضان لاوند

فيكتور هيجو

أحدب نوتردام

نقلها إلى العربية

رمضان لاوَند

فيكتور هيجو

أحدب نوتردام

لقد تمّت إعادة تصحيح وتنضيد هذه النسخة
لتصدر في هذه الطبعة الأنيقة، كطبعة تذكارية
لذكرى الأستاذ الكبير منير البعلبكي

سنة الطبع : 2007

إصدار

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 2303339-2-212+
فاكس: 2305726-2-212+
E-mail: markaz@wanadoo.net.ma
بيروت: شارع جاندارك - بناية المقدسي
ص.ب: 113/5158
هاتف: 352826 (1-00961)
فاكس: 343701 (1-00961)

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
بيروت - لبنان:
شارع مار الياس - بناية متكو - ط2
ص.ب: 1085 بيروت - 2045 8402 لبنان
هاتف: 306666 - 701656 (1-00961)
فاكس: 701657 (1-00961)
الموقع على شبكة الإنترنت:
http://www.malayin.com

الكتاب الأول

1 ـ البهو الكبير

هذه ثلاثمائة وثمان وأربعون سنة وستة أشهر وتسعة عشر يوماً تأتي على سكان باريس، منذ أيقظتهم ضجة كل الأجراس التي كانت تدق بعنف بالغ، في ضواحي المدينة القديمة الثلاث، وفي المدينة الجديدة والجامعة.

على أن هذا اليوم، 6 كانون الثاني 1482، لم يكن مما يحفظ التاريخ بذكراه كما لم يكن في الحادث الذي أثار أجراس باريس وبورجوازييها ما يلفت النظر، فلم يكن غزوة من غزوات البيكارديين أو البورجونيين، ولا قافلة من الصيد تنطلق في كامل أبهتها، أو ثورة طلاب في كنيسة، أو موكب «السيد الملك، المرهوب المقام»، داخلاً إلى المدينة، بل ولا مهرجان شنق جميل للصوص ولصّات في قصر العدل بباريس. كما لم يكن مناسبة لهبوط موكب سفارة ذي زينات ورايات، مما كثر حدوثه خلال القرن الخامس عشر. إذ كان قد مرّ يومان فقط على وصول السفراء الفلامانديين، المكلفين بإنجاز عقد الزواج بين ولي العهد ومارغريت دي فلاندر، إلى باريس، والذين استقبلهم الكاردينال دي بوربون مرغماً، وهو المنزعج منهم، ليسرّ الملك فبش وهش لهذا الجمهور الغفير الخشن من الحكام الفلامانديين، واستضافهم في قصره، بينما كانت الأمطار الشديدة تغمر طنافسه وسجاجيده الرائعة بمائها عند بابه.

إن الذي بعث الانفعال الشديد في شعب باريس كله، صباح السادس من كانون الثاني، كما قال جان دي تروا، هو البهاء المضاعف ليوم الملوك وعيد المجانين، اللذين يجتمعان منذ عصر مغرق في القدم. لقد كان المقرر في هذا اليوم وجوباً أن توقد نيران الفرح في جريف، وأن يحتفل بغرسة أيار في كنيسة «براك»، ومشاهدة التمثيل في قصر العدالة. وقد نودي بها كلها في مساء اليوم السابق على صوت البوق في مفارق الطرق، من قبل رجال رئيس الشرطة الذين يحملون صلباناً كبيرة بيضاء على صدورهم.

وهكذا كان جمهور البورجوازيين والبورجوازيات يتجه في كلٍ مكان، منذ الصباح الباكر، نحو واحد من هذه الأمكنة الثلاثة المعينة. كُلٌ قد اختار لنفسه، فمنهم من آثر نيران الفرح، ومنهم من اختار غرسة أيار، وفضَّل فريق ثالث أن يشهد التمثيل. والواجب هنا أن نقول، إعجاباً منا بسلامة إدراك رعاع باريس، إن القسم الأكبر من هذا الجمهور قد اتجه نحو نيران الفرح، التي كان قد آن أوانها، أو اتجه لمشاهدة التمثيل الذي سيجري في بهو القصر ذي السقف المغطى، والأبواب المغلقة إغلاقاً محكماً، وأن الفضوليين منه قد اتفقوا على ترك أيار المسكين الذي لم تتفتح أكمامه بعد، يرتجف وحيداً تحت سماء كانون الثاني في مقبرة كنيسة براك.

كانت جموع الشعب تتدفق، بخاصة، في الشوارع المؤدية إلى قصر العدالة، لأنهم كانوا يعلمون أن السفراء الفلاماندييين الذين هبطوا باريس أول البارحة قد عزموا على مشاهدة مسرحية «السر» وانتخاب بابا المجانين، الذي سيجري أيضاً في البهو الكبير.

ولم يكن من السهل يومئذ أن يدخل المرء إلى هذا البهو، وهو الذي اشتهر بأنه أكبر قاعدة مسقوفة في العالم كله. كان ميدان القصر الذي ملأه أفراد الشعب، يبدو للفضوليين المطلين من نوافذهم، بحراً عجاجاً، تصبّ فيه خمسة أو ستة من الشوارع موجات جديدة من الرؤوس كما لو

أنها روافد الأنهار. وقد كانت موجات هذا الجمهور، المتضخمة أبداً، تصطدم بزوايا المنازل هنا وهناك، فكأنها رؤوس بارزة في حوض الميدان غير المنتظم. كانت السلم الكبيرة القائمة في وسط الشرفة الغوطية[1] العالية، والتي يجتازها دون توقف تيار مضاعف صعوداً ونزولاً، لا يلبث أن ينكسر عند المصطبة الوسطية ثم يمتد في موجات كبيرة فوق منحنييها الجانبيين، أقول كانت السلم الكبيرة تجري منطلقة دون توقف نحو الميدان فكأنها شلال فوق بحيرة. لقد كانت الصيحات والضحكات وصدى دبدبات هذه الآلاف من الأقدام تبعث ضجيجاً شديداً وصيحات احتجاج منكرة. وكانت هذه الصيحات وذاك الضجيج يتضاعفان بين الفينة والفينة، والتيار الذي يدفع هذه الجماهير نحو السلم الكبيرة يتراجع فيضطرب: وينشر فيه شبه دوار شديد. ذلك لأن لطمة مفاجئة من لطمات جندي من الرماة أو حصان رقيب من رجال الشرطة قد انطلق لإعادة النظام إلى نصابه، إنه تقليد رائع عجيب حملته الشرطة إلى خَلَفها حتى بلغ رجال الدرك عندنا في باريس اليوم.

كانت آلاف من الوجوه البورجوازية الطيبة الهادئة الفاضلة تنظر إلى القصر والجماهير الغفيرة من خلال الأبواب والنوافذ والكوى ومن فوق السطوح، غير طامعة فيما وراء ذلك، فكثير من سكان باريس يكتفون بمشاهدة جموع المشاهدين.

وإنه لغريب طريف بالنسبة إلينا أن يحدث شيء ما وراء جدار قائم.

فلو قدِّر لنا نحن أبناء 1830 أن نمتزج في خيالنا بهؤلاء الباريسيين أبناء القرن الخامس عشر فندخل معهم، تتجاذبنا وتزحمنا وتضيق علينا كتل الناس في بهو القصر الكبير، والذي بلغ من الضيق ما بلغه في 6

---

(1) إن كلمة «غوطية» غير صحيحة بالمعنى الذي نستعملها له بصورة عامة. ولكننا كرسناها له تكريساً تاماً. فنحن إذن نقبله ونتبناه كما ألف اليوم، لنصف به الهندسة المعمارية للنصف الثاني من القرن الوسيط.

كانون الثاني 1482 فإن المشهد لن يفقد رواءه وقيمته وظرفه، ثم لا يكون من حولنا غير أشياء هي من القدم بحيث تبدو لنا جديدة كل الجدة.

فإذا وافق القارئ على ذلك فإننا سنحاول أن نجد عن طريق الخيال أيضاً الأثر الذي كان سيحس به معنا عند اجتيازه عتبة هذا البهو الكبير خلال الجمهور الغفير ذي الأسمال البالية.

هناك أولاً، الطنين في الأذنين ثم البهر في العينين. فوق رؤوسنا قبة مضاعفة يصفحها خشب منحوت ويغطيها دهان لازوردي، وتنتثر خلالها زهور من الذهب، أما تحت أقدامنا فأرض مبلطة تناوب فيها رخامان، أسود وأبيض. وقد برزت على بُعد خطوات منا دعامة ضخمة، ثم دعامة أخرى، فثالثة حتى تصبح سبعاً على امتداد البهو، حاملة في وسطه الحوافي المتدلية للقبة المضاعفة. كما ظهرت حول الدعامات الأربع الأُوَل أكشاك التجار لامعة بما فيها من الزجاج والدقائق المعدنية البراقة.. وانتصب حول الثلاث الأخرى مقاعد من خشب السنديان لمعتها واستهلكتها أحذية المدافعين من المحامين وأثواب المدّعين العموميين. أما على امتداد السور العالي، حول البهو الكبير، بين الأبواب والنوافذ، وبين الدعامات، فنجد صفاً لا ينتهي من تماثيل ملوك فرنسا كلهم ابتداء من فارامون: ففيهم الملوك الكسالى بأجفانهم المسبلة وأذرعهم المتدلية وفيهم الشجعان المغاوير وقد ارتفعت رؤوسهم وأيديهم إلى السماء بجرأة بالغة. وتبدو من وراء هذا كله النوافذ الطويلة ذات الزجاج الملوّن بألف لون، وفي مخارج البهو أبواب غنية منحوتة بدقة بالغة، والكل، قباباً، ودعامات، وجدراناً، وأُطراً، وصفائح، وأبواباً، وتماثيل ـ غطيت من أعلى إلى أدنى بفنون من الزينة والتزاويق الزرقاء والذهبية، التي اغبرّت ألوانها في العهد الذي نشاهدها فيه، واختبأت وراء طبقة من الغبار وخيوط العنكبوت في عام الغفران سنة 1549 حيث كان دودرول يعبّر عن إعجابه بها عملاً بالتقاليد فقط.

لنتخيل الآن هذا البهو الكبير المستطيل، الذي انتشر فيه نور أغبر

ليوم من أيام كانون الثاني، واكتسحته جماهير ذات أثواب مرقشة وضجيج شديد، تنبثق فيه على امتداد جدرانه وتدور حول دعاماته السبع، وبذلك تتكون لنا فكرة غامضة عن مجموع اللوحة التي سنحاول جاهدين الإشارة إلى تفصيلاتها الطريفة بدقة وعناية.

ومن الثابت أنه لو لم يكن رافاياك قد قتل هنري الرابع لما حُفظت وثائق قضيته في خزانة سجلّات قصر العدالة أبداً، ولما قامت محاولات لإتلاف هذه الوثائق. وبكل تأكيد، لما وقع حريق سنة 1618.

كان من الممكن بقاء هذا القصر العجوز قائماً على قواعده مع بهوه الكبير القديم، وحينئذ أقول للقارئ: «اذهب وشاهده»، بحيث يعفي كلانا نحن الاثنين أحدنا من تدبيج الوصف والتوضيح وآخرنا من قراءة هذا الوصف كاملاً غير منقوص. ـ مما يثبت هذه الحقيقة الجديدة، وخلاصتها: إن للأحداث الكبيرة ذيولاً ليست في الحسبان.

والحق أنه كان من الممكن أن لا يكون لرافاياك شركاء، فإذا قدر بالمصادفة أن يكون له شركاؤه، فقد لا يكون لهؤلاء دخل في حريق 1618 فهناك تفسيران آخران للحادث: أولهما النجم الكبير الملتهب الذي سقط فوق القصر من السماء بعد نصف ليل من آذار، كما عرف الجميع. ثانياً، رباعية تيوفيل:

كانت لعبة حزينة على التأكيد،
حين وضعت سيدة العدالة في باريس،
النار في القصر كله،
لأنها أكثرت من تناول الأفاويه.

ومهما يكن رأينا في التفسير الثلاثي، من سياسي وفيزيقي وشعري، لحريق قصر العدالة سنة 1618، فالحريق واقع ثابت مع الأسف الشديد. وبفضل هذه الكارثة، وبصورة خاصة بفضل مختلف الإصلاحات المتتابعة التي أكملت ما لم تلتهمه النار من القصر السابق لقصر اللوفر، والذي أبعد في القدم حتى أيام فيليب لوبل يوم كانوا يفتشون فيه عن البقايا الرائعة

للمباني التي رفع الملك روبير قواعدها: كل شيء منه قد اختفى تقريباً. فماذا أصاب غرفة المستشارية حيث مارس القديس لويس زواجه؟ وماذا أصاب الحديقة التي كان يقضي فيها بين الناس؟ أين هي غرفة الامبراطور سيجسمون؟ وغرفة شارل الرابع؟ بل أين غرفة جان «الذي لا أرض له»؟ أين هي السلم التي أعلن منها شارل السادس مرسوم عفوه؟ والغرفة التي ذبح فيها مارسيل، بحضور ولي العهد، كلاً من روبير دي كليرمون والمارشال دي شامباني؟ وأين البهو الكبير بكل ما فيه من مذهبات ولازورد وتماثيل ودعامات والقبة العظيمة بما فيها من منحوتات؟ والغرفة المذهبة؟ والأسد الحجري الذي كان جاثماً أمام الباب برأسه المنحني، وذيله القابع بين ساقيه، كأسود عرش سليمان، تماماً كما يكون موقف الذلة الذي تقفه القوة أمام العدالة؟

أين الأبواب الجميلة؟ وصفائح الزجاج الفاتنة؟ ونجارة دي هانسي الدقيقة اللطيفة؟ ماذا فعل الزمن، وماذا صنع رجال هذه الروائع المُعْجِبَة؟ وما الذي أعطيناه بديلاً عن هذا كله، عن كل هذا التاريخ العالي، وهذا الفن الغوطي؟ أما الفن ففي حنيات السيد بروس الثقيلة، وأما التاريخ ففي الذكريات الثرثارة للدعامة الضخمة، والتي ما تزال أصداء أقاويل البروسيين قائمة فيها حتى اليوم.

ليس هذا بالشيء الكثير. ـ فلنرجع إلى البهو الكبير الحقيقي من القصر القديم الحقيقي أيضاً.

لقد كان طرفا هذا المستطيل المتضخم مشغولين. أما أولهما فبالمنضدة الرخامية الشهيرة وأما ثانيهما فبالكنيسة التي أقام فيها لويس الحادي عشر تمثالاً جاثياً له أمام العذراء.

وارتفعت في وسط البهو مصطبة معلقة بالجدار ينفذ إليها الداخل من خلال مدخل خاص عن طريق ممر الغرفة المذهبة.

لقد رفعت هذه المصطبة خصيصاً للسّفراء الفلاماندين والشخصيات الكبيرة المدعوة لمشاهدة مسرحية «السر». وتعارف الناس على أن يجري

التمثيل فوق المنضدة، وقد هيئت لهذه الغاية منذ الصباح.

كان يقف حول زوايا المنضدة الأربع أربعة جنود خلال فترات الأعياد أو حفلات تنفيذ الإعدام. وكان من المنتظر أن تبدأ مشاهد المسرحية عند تمام الدقات الاثنتي عشرة لساعة القصر الكبيرة. ولا شك أن مثل هذا التوقيت متأخر جداً بالنسبة للتمثيل المسرحي، ولكنه وضع خصيصاً من أجل السفراء.

وعلى ذلك فقد كانت هذه الجماهير الغفيرة تنتظر منذ الصباح. حتى أن عدداً غير قليل من الفضوليين كانوا يرتجفون من البرد منذ انبلاج الفجر أمام درج القصر الكبير، بل إن بعضهم كان يؤكد أنه قد قضى الليل كله عند الباب الكبير ليكون أول الداخلين. كان الجمهور يتضخم في كل فترة فأخذ أفراده، كما يكون الماء حين يطفو فيتجاوز حواجزه، يتسلقون الجدران ويحتشدون حول الأعمدة، ويتكاثرون فوق الشرفات البارزة والحواجب المنحوتة. يُضاف إلى هذا كله، الضيق، ونفاد الصبر، والضجر، والحرية التي يوفرها يوم من أيام التهتك الوقح والجنون، والخصومات التي تنفجر لأتفه الأسباب.تبعثها صدمة مرفق حادة، أو دعسة حذاء، والتعب الذي يسببه الانتظار الطويل، هذه كلها كانت تثير نوعاً من الأسى والمرارة في صخب الجمهور الذي حُبس وديس وكبس وخنق، قبل حلول ساعة وصول السفراء. فلا تسمع غير الشكاوى والشتائم ضد الفلاماندييين، ورئيس التجار، وكاردينال دي بوربون، وقاضي القصر، والسيدة مارغريت دوتريش، والجنود حاملي القضبان الخيزارنية، والبرد، والحر، والجو السيئ، وأسقف باريس وبابا المجانين، والدعامات، والتماثيل، وهذا الباب المغلق، وتلك النافذة المفتوحة، كل هذا يحدث مع تسلية طوائف الطلاب والخدم المتفرقين بين الناس والذين كانوا يمزجون هذا العبوس الغاضب بلجاجاتهم وفكاهاتهم الشريرة، فيخزون، كما يُقال، نفسية الجماهير السيئة برؤوس الإبر.

كانت بين هؤلاء طائفة من هذه الشياطين المرحة التي تجلس بجرأة بالغة فوق السور أو فوق قمم الدعامات والعمد بعد أن تحطم زجاج إحدى النوافذ، ومن هناك ترسل أبصارها وفكاهاتها إلى الداخل والخارج، إلى جمهور البهو وإلى جمهور الميدان الخارجي. ومن خلال حركاتهم الساخرة، وضحكاتهم المتفجرة، والنداءات الهازئة التي كانوا يتبادلونها من أقصى البهو إلى أدناه يسهل على المراقب أن يلاحظ بأن هؤلاء الشبان مع رفاقهم لم يكونوا يشاركون بقية المشاهدين في ضجرهم وتعبهم. وأنهم تحقيقاً للذتهم الخاصة كانوا مهرة في استخراج مشهد مما يقع تحت أبصارهم يساعدهم على الصبر في انتظار المشهد القادم.

كان أحدهم ينادي صبياً أشقر كشيطان صغير فيقول له: «أقسم إنك جوهان فرولو دي مولاندينو! أفلا تسمى جان المطحنة، لأن لذراعيك وساقيك هيئة الأجنحة الأربعة لمطحنة هوائية. ـ فمتى أتيت إلى هنا»؟

فيجيبه جوهان: «أقسم برحمة الشيطان إنني هنا منذ أكثر من أربع ساعات، وإنني لأرجو أن تدرج هذه الساعات في حساب الزمن الذي سأقضيه في المطهر! لقد سمعت منشدي ملك صقلية الثمانية يرتلون الآية الأولى لقداس الساعة السابعة في الكنيسة المقدسة.»

فأجابه الآخر: «إنهم منشدون فاتنون حقاً، والأَوْلى بالملك أن يسأل القديس حنا إذا كان يحب اللاتينية مرتلة بلهجة بروفانسية.»

فصرخت امرأة عجوز واقفة تحت النافذة قائلة: «لقد فعل هذا خصيصاً ليستخدم مرتلي ملك صقلية الملعونة!»

فأجابها شخص ضخم وقور كان يغلق منخريه إلى جانب العجوز بائعة السمك قائلاً: «هدوءاً أيتها العجوز. لقد كان من الواجب إقامة القداس فهل تريدين أن يمرض الملك مرة أخرى؟»

قال الطالب الصغير: «لقد تكلمت بشجاعة أيها السيد جيل لوكورنو. حائك أثواب الملك.»

وهنا انفجرت قهقهة الطلاب الشديدة مستعيدة اسم الحائك المسكين لأثواب الملك.

كان بعضهم يقول: «لوكورنو! جيل لوكورنو!»

فردد آخر: «كورنوتوس وهيرسوتوس.»

وتابع الصغير قائلاً: «هذا شيء لا ريب فيه. فلماذا يضحكون؟ إن جيل لوكورنو رجل فاضل، هو أخ لجان لوكورنو سيد قصر الملك، وابن لماهيا لوكورنو الحاجب الأول لغابة دي فانسين، كلهم بورجوازيون من باريس، كلهم متزوجون من الأب حتى الابن.»

وهنا تضاعف المرح. أما الحائك الضخم فقد كان يحاول جاهداً، دون أن ينبس ببنت شفة، أن يختفي عن الأنظار المركزة عليه من كل جانب، ولكنه كان يعرق وينفخ دون جدوى، كالإسفين الذي ينغرز في الخشب، والمجهود الذي كان يبذله يزيد وجهه المحتقن لصوقاً بأكتاف جيرانه، وقد احمر غيظاً وغضباً.

وأخيراً بادر أحد هؤلاء الجيران إلى مساعدته وكان ضخماً مثله ووقوراً:

ـ «إنها لعنة أن يتحدث طلاب على هذا النحو مع بورجوازي! كانوا في أيامنا يجلدونهم بحزمة من العصي ثم يحرقونهم بها بعد ذلك.»

فانفجرت جماعة الطلاب كلها ضاحكة مقهقهة.

قال أحدهم: «لقد عرفته، إنه الأستاذ أندريه مونييه.»

وقال آخر: «إنه أحد كتبيي الجامعة المحلفين الأربعة!»

وصرخ ثالث: «كل شيء في هذه البلدة من أربعة: الأوطان الأربعة، والجامعات الأربع، والأعياد الأربعة، والمدّعون العموميون الأربعة، والناخبون الأربعة، والكتبيون الأربعة.»

فردد جوهان فرولو: «يجب أن نصنع لهم شيطاناً من أربعة.»

ـ مونييه، سنحرق لك كتبك.

ـ مونييه، سنضرب خادمك.

ـ مونييه، سنمزق ثياب امرأتك.

ـ الآنسة اودارد الضخمة الطيبة.

وهي من الصبا والمرح كما لو كانت أيِّما.

وغمغم الأستاذ أندريه مونييه قائلاً: «ليحملكم الشيطان.»

فأجاب جوهان: «اسكت يا أستاذ أندريه أو ألقي بنفسي فوق رأسك!»

ورفع الأستاذ أندريه بصره، وظهر كأنه يقيس أبعاد الدعامة، وقوة جاذبية الأرض للصبي ثم يضرب، في ذهنه، هذه الجاذبية بمربّع السرعة، ويسكت.

ويتابع جوهان بعد أن أصبح سيد المعركة:

ـ «كم هم فاتنون رجالنا في الجامعة! إنهم لا يحترمون امتيازاتنا الخاصة في يوم كهذا! وأخيراً فإن في المدينة أياراً، ونيران الفرح، ومسرحية «السر» وبابا المجانين والسفراء الفلاماندليين في المدينة القديمة، أما في الجامعة فلا شيء هناك!»

فقال طالب آخر جالس فوق قاعدة النافذة: «على أن ميدان موبير كبير واسع..»

فصرخ جوهان: «ليسقط عميد الجامعة والناخبون والمدّعون العموميون.»

ويتابع آخر: «يجب أن نقيم نار الفرح في ميدان غايار هذا المساء بكتب الأستاذ أندريه.»

فقال جاره: «ومناضد الصفوف!»

ـ «وعصي المستخدمين في الكنيسة!»

ـ «ومنافض رؤساء الكليات!»

ـ «ومقاصف المدّعين العموميين!»

ـ «ومعاجن الناخبين!»

ـ «وكرسي العميد!»

فردد الصغير جوهان: ليسقط! «ليسقط الأستاذ أندريه، والمستخدمون في الكنائس، والكتبة، واللاهوتيون، والأطباء، والمدعون العموميون، والناخبون، والعميد!»

فدمدم الأستاذ أندريه وهو يسد أذنيه: «هذه إذن نهاية العالم!»

وصرخ واحد ممن كانوا على النافذة: «ها هو العميد، بالمناسبة، إنه يمر في الميدان.»

وسأل جوهان فرولو، وهو الذي كان يتسلق دعامة في الداخل فلا يستطيع أن يرى ما يحدث في الخارج: «هل حقاً أن عميدنا الوقور المحترم الأستاذ تيبو هناك؟»

ـ «نعم، نعم، أجاب الجميع، إنه هو بالذات، إنه هو بالذات، الأستاذ العميد تيبو.»

والواقع أن العميد والشخصيات الجامعية كانوا ساعتئذ يتجهون في موكب جليل أمام السفارة ويجتازون ميدان القصر. أما الطلاب المتزاحمون على النافذة فقد استقبلوهم بسخريتهم اللاذعة وتصفيقهم الهازئ. وقد تلقى العميد، وهو على رأس جماعته، الدفعة الأولى من هذا التصفيق وتلك السخرية، فكانت قاسية شديدة.

ـ «مرحباً أيها السيد العميد! هولاها! مرحباً إذن!»

ـ «كيف صنع حتى صار هنا، هذا المقامر العجوز؟ لقد ترك إذن كعابه وزهره؟»

ـ «هل رأيتموه كيف يخب ببغلته؟ إن لها أذنين أقصر من أذنيه!»

ـ «هولاها! مرحباً أيها السيد العميد تيبو! أيها الأبله العجوز! والمقامر الهرم!»

ـ «ليحفظك اللّه! هل قامرت أكثر هذه الليلة؟»

ـ «أوه هذا الوجه المتداعي، القصديري، الذي يبدو مشدوداً محطماً حباً بالقمار والنرد والكعاب!»

ـ «إلى أين أنت ذاهب، مستدبراً جامعتك، متجهاً إلى المدينة؟»

وصرخ جوهان: «إنه ينطلق، دون ريب، مفتشاً عن مسكن له في شارع تيبو تودا.»

ورددت العصابة كلها هذه القولة الأخيرة بصوت كهزيم الرعد وصفقة بالأكف الثائرة الغاضبة.

ـ «إنك ذاهب للتفتيش عن مسكن لك في شارع تيبو تودا، أيها السيد العميد، يا لاعب الشيطان؟»

ثم جاء دور الشخصيات الجامعية الأخرى.

ـ «ليسقط خدام الكنائس! وليسقط حجاب الكليات الجامعية!»

ـ «قل لي يا روبان بوسبان، من هو ذاك الذي يمر هناك؟»

ـ «إنه جيلبرت دوسلي، جيلبرتوس دوسولياكو، مستشار كلية أوتان.»

ـ خذ حذائي، فإن مكانك أفضل من مكاني واقذف به في وجهه.»

ـ «ليسقط اللاهوتيون الستة مع أثوابهم الكهنوتية البيضاء!»

ـ «إنهم هنا هؤلاء اللاهوتيون! لقد ظننت أنهم الأوزات الست البيضاء التي منحتها القديسة جنفياف للمدينة.»

ـ «ليسقط الأطباء.»

ـ «ولتسقط المناقشات والخلافات الكاردينالية.»

ـ «هوذا! الأستاذ يواكيم دو لادوهور! هوذا لويس داهويل! هوذا لامير هوكتمان!»

ـ «ليختنق الشيطان المدعي العمومي للأمة الألمانية!»

ـ «وكهنة الكنيسة المقدسة!»

ـ «هولاها! وأساتذة الفنون والآداب! كل البرانس السوداء الجميلة! وكل البرانس الحمراء الفاتنة!»

ـ «يبدو هذا المشهد ذيلاً جميلاً للعميد.»

ـ «يخيّل إليّ أنه مشهد دوق ينطلق ليتزوج البحر.»

ـ «انتبه جوهان! ها هم كهنة القديسة جنفياف!»

ـ «لتذهب الكهانة إلى الشيطان!»

ـ «أيها الأب كلود شودار! الدكتور كلود شودار!»

ـ «أيها الرفاق! هذا هو الأستاذ سيمون سانجان، ناخب بيكاري، الذي أردف امرأته إلى مؤخرته.»

ـ «إنه السفيه الأستاذ سيمون!»

ـ «مرحباً أيها السيد الناخب!»

ـ «عمت مساء، أيتها السيدة الناخبة!»

ـ «هل هما سعيدان برؤية هذا كله؟» قالها جوهان ده مولاندنيو، الذي كان ما يزال متسلقاً إحدى دعامات البهوْ.

في هذه الأثناء كان كتبي الجامعة المحلف، الأستاذ أندريه مونييه، يميل على أذن حائك أثواب الملك، السيد جيل لوكورنو:

ـ «أقول لك، أيها السيد، إنها نهاية العالم. إننا لم نشهد من قبل أبداً مثل هذا التجاوز يصدر عن جماعة الطلاب. إنها مبتدعات العصر الملونة التي أضاعت كل شيء. المدفعية، والأحجار الثمينة الدقيقة، والمنجنيقات، ولا سيما الطباعة، هذا الطاعون الآخر الذي أتانا من ألمانيا. فلم تعد هناك مخطوطات، بل ولا كتب! فالطباعة تقتل مهنة الكتبي. إنها نهاية العالم التي تقترب.»

ـ «إنني ألاحظ هذا في ما تسجله الثياب المخملية من تقدم ونجاح» أجابه التاجر الفرَّاء.

وهنا دقت ساعة الظهيرة.

فصرخ الجمهور بصوت واحد قائلاً: «ها!...» وسكت الطلاب ثم انبعثت حركة كحركة نقل الأثاث في البيت وصعدت أصداء الأقدام والرؤوس وارتفعت معها انفجارات عامة من السعال والمناديل، كل يحاول الانتظام والتمركز، والارتفاع وجمع النَّفس، ثم شاع صمت كبير، فبقيت الأعناق كلها مشدودة والأفواه جميعها مفتوحة، والأنظار كلها متجهة نحو المنضدة الرخامية. ولكن شيئاً لم يظهر أبداً. فقد كان الجنود الأربعة دائماً هناك ساكنين جامدين، كتماثيل مدهونة. واتجهت الأبصار كلها نحو المرتفع المخصص للوفود الفلاماندية. كان الباب مغلقاً وكان المرتفع خالياً. والجمهور ينتظر منذ الصباح ثلاثة أشياء: الظهر، وسفارة الفلاندر، ومسرحية السر. وقد وصل الظهر في الوقت المحدد فقط!.

كانت الصدمة شديدة..

وانتظر الجميع دقيقة، فاثنتين، فثلاثاً، فخمساً ثم ربع ساعة، ولكن شيئاً لم يأتِ ولم يحدث أبداً. فبقي المرتفع خالياً والمسرح صامتاً. وهنا انبعث الغضب بعد نفاد الصبر. فانطلقت الكلمات الهائجة تسري بصوت منخفض، هذا صحيح. «السر! السر!» كانوا يدمدمون بصوت خافت. كانت الرؤوس تمتد. إنها العاصفة التي ما تزال في مرحلة الدمدمة، تطفو منتشرة فوق الجماهير، وكان جوهان أول من اجتذب شرارتها الأولى.

ـ «السر، وليذهب الفلامانديون إلى الشيطان!» صرخ ملء رئتيه وهو يتلوى كالحية فوق دعامته.

فراح الجمهور يصفق مكرراً:

ـ «السر، وليذهب الفلامانديون إلى كل الشياطين!»

وردد الطالب قائلاً: «نريد السر حالاً أو نشنق قاضي القصر كبديل عن التمثيل الهزلي والأخلاقي.»

وصرخ الشعب: «حسناً ما قلت، ولنبدأ بجنوده الواقفين.» وتبع ذلك هتاف كبير. فبدأ الجنود الأربعة يصفرون وينظر بعضهم إلى بعض،

أما الجمهور فقد اتجه نحوهم وقد أخذ المرتفع الخشبي الذي يفصل الجنود عن الجمهور يهبط متهاوياً تحت ثقل الناس وضغطهم.

كانت الفترة حرجة جداً.

وفي هذه البرهة بالذات ظهرت شخصية جديدة، لم يكد الجمهور يراها حتى توقف فجأة، وتحوّل غضبه إلى فضول وكأنه سحر ساحر.

ـ «سكوت! سكوت!»

وتقدمت هذه الشخصية حتى حافة المنضدة الرخامية، وكل عضو من أعضائها يرتجف لا سيما وأنها لم تكن بعد واثقة مطمئنة.

وهنا شاع الهدوء شيئاً فشيئاً مرّة أخرى. ولم يبقَ غير الدمدمة الخافتة التي تنتشر دائماً في صمت الجماهير.

قال: «أيها السادة البورجوازيون، والآنسات البورجوازيات، إن علينا شرف تقديم مسرحية أخلاقية جميلة أمام صاحب النيافة الكاردينال وعنوانها «القضاء الصالح للسيدة مريم البتول.»

أما أنا فسأمثل دور جوبيتر. ونيافته يرافق في هذه البرهة السفارة المحترمة للسيد دوق دوتريش، التي حجزت، في هذه الساعة، للاستماع إلى خطاب السيد عميد الجامعة عند «بورت بوديه» وسنبدأ مباشرة بعد وصول النيافة الكاردينالية.»

والثابت أنه كان من الواجب ألا يتدخل شيء أقل أهمية من جوبيتر لإنقاذ هؤلاء الأربعة المناكيد. وكان جوبيتر يلبس ثوباً رائعاً يذكّر الناس بأزياء اليونانيين القديمة، امتزج فيه المخمل والأشرطة الملونة واللحية التي تملأ صفحتي الوجه.

2 ـ بطرس جرنجوار

وبينما الخطيب يخطب، كان الإعجاب الذي أثاره ثوبه الرائع بالإجماع، يختفي مع أقواله، وعندما بلغ الخاتمة المنكودة لخطابه التي

يقول فيها: «وسنبدأ مباشرة بعد وصول النيافة الكاردينالية» ضاع صوته في خضم راعد من الهتافات الصاخبة: «ابدأوا حالاً! السر، السر! حالاً» هكذا كان يصرخ الشعب. ويسمع صوت الطالب، جوهان دومولاندينو، مرتفعاً فوق كل الأصوات مخترقاً لغط الجماهير كما لو كان صوت مزمار في جوقة متنافرة الموسيقى من جوقات تيم قائلاً: «ابدأوا حالاً.»

ويعربد الطلاب المتسلقون فوق النوافذ وعلى رأسهم روبان بوسبان، قائلين: «ليسقط جوبيتر وكاردينال دو بوربون!»

والجمهور يردد: «المسرحية الأخلاقية حالاً وسريعاً!»

«الكيس والحبل للممثلين الكوميديين والكاردينال.»

أما جوبيتر المسكين فقد ترك الصاعقة تنزل به مشدوهاً ضائع الرشد مصفر الوجه، وحمل قبعته بيده وأخذ يحيّي الجماهير ويرتجف متمتماً: «نيافته... السفراء... السيدة مارغريت دوفلاندر...» لم يكن يعرف ما يقول. كان في أعماقه خائفاً من أن يشنق. أن يشنق من قبل الجماهير لأنه ينتظر، أو أن يشنق من قبل الكاردينال لأنه لم ينتظر، فلا يرى من جهته غير الهوة، أي غير المشنقة. وكان من حسن حظه أن بادر أحدهم إلى إنقاذه من هذا الحرج وتحمّل المسؤولية مكانه.

كان إنساناً يقف في الفراغ الذي يحيط بالمنضدة الرخامية، ولم يكن أحد قد رآه بعد، لأن قامته الطويلة الرقيقة كانت مختبئة وراء قطر دعامة يستند إليها. ولنقل إن هذا الإنسان، إنسان طويل رقيق أشقر يميل إلى الصفرة، وشاب أيضاً رغم التجاعيد في جبهته ووجنتيه مع عينين لامعتين وفم باسم، وقد اقترب من منضدة الرخام وأشار إلى المريض البائس المسكين ولكن هذا الأخير لم ير إشارته.

فتقدم القادم الجديد خطوة أخرى منه وقال له: «جوبيتر! يا عزيزي جوبيتر!»

ومع ذلك فلم يسمع نداءه.

وأخيراً صرخ الرجل الطويل الأشقر تحت أنفه تقريباً:

ـ «ميشال كيبورن.»

فقال جوبيتر وكأنه استيقظ فجأة: «من يناديني؟»

فأجابه الرجل ذو اللباس الأسود: «أنا.»

قال جوبيتر: «آه!»

ـ «ابدأ حالاً! وأرضِ الناس. وأنا أضمن تهدئة السيد قاضي القصر الذي يضمن بدوره تهدئة السيد الكاردينال.»

وتنفس جوبيتر.

ثم صرخ بكل ما في رئتيه من قوة في الجمهور الذي كان يتابع هتافاته الصاخبة ضده: «سادتي البورجوازيين، سنبدأ حالاً.»

وانفجر البهو بتصفيق الأيدي المدوي، وبقي البهو راجفاً تحت وطأة الاحتجاجات الصاخبة بعد أن اختفى جوبيتر وراء السجاجيد المدلاة.

أما الرجل المجهول الذي استطاع أن يحيل العاصفة بسحر ساحر إلى هدوء تام كما يقول عزيزنا كورناي، فقد دخل ثانية بكل تواضع في ظل دعامته، وكان حرياً به أن يبقى متخفياً، ساكناً، صامتاً شأنه من قبل، لولا أن امرأتين شابتين جالستين في الصف الأول من صفوف المشاهدين كانتا قد لاحظتا حديثه مع ميشال كيبورن ـ جوبيتر.

قالت إحداهما مشيرة إليه بالاقتراب: «أيها المعلم!» فبادرت جارتها قائلة ـ وقد كانت جميلة، رائعة المحيا متزينة بأبهى الثياب: صه يا عزيزتي ليانارد.. إنه ليس كاهناً. فهو علماني، ولذلك لا تناديه بلقب المعلم بل بلقب السيد.»

قالت ليانارد: «أيها السيد.»

واقترب الرجل المجهول من الحاجز الذي يفصل الجمهور عنه.

ثم سألها باهتمام بالغ قائلاً: «ماذا تبغيان مني أيتها الآنستان؟»

فأجابت ليانارد خجلة: «أوه! لا شيء يا سيدي، إنها جارتي

ـ جيسكات لا جانسيان ـ التي ترغب في التحدث إليك.»

فرددت جيسكات محمرة: «لا، أبداً، إن ليانارد هي التي نادتك بلقب المعلم فصححت لها نداءها قائلة لها إن النداء يكون عادة بلقب السيد.»

وخفضت كلتا الفتاتان عينيها. أما الآخر فقد نظر إليهما باسماً: «وإذن فليس عندكما ما تقولانه لي؟»

قالت ليانارد: «لا شيء يا سيدي.»

وما كاد الرجل الأشقر يخطو خطوته الأولى منسحباً حتى بادرته جيسكات قائلة له: «هل تعرف الجندي الذي سيلعب دور السيدة البتول في مسرحية السر؟»

فردد المجهول: «تقصدين جوبيتر أليس كذلك؟»

قالت ليانارد: «نعم فهل تعرف جوبيتر؟»

أجاب المجهول: «نعم يا سيدتي إنني أعرفه فهو ميشال كيبورن.»

فرددت ليانارد: «إن له لحية فخورة.»

قالت جيسكات: «هل تعدنا بأن يكون السر اليوم جميلاً؟»

فأجابها: «لا ريب في ذلك»، ثم أضاف قائلاً في نوع من تنفخ وغرور:

ـ «إنني يا سيدتي واضع هذه المسرحية ومؤلفها.»

قالت الفتاتان مشدوهتين: «أحقاً ما تقول!»

فأجاب الشاعر في قليل من التيه: «نعم حقاً، أعني أننا اثنان: جوهان مارشال الذي نشر الخشب وأقام بناء المسرح وأنا الذي صنعت القطعة المسرحية ـ إنني أدعى بطرس جرنجوار.»

والحق أن مؤلف مسرحية «السيد» الشهيرة لا ينطق باسم «بطرس كورناري» بأكثر تيهاً وغروراً من هذا الرجل.

ومن الطبيعي أن يكون قراؤنا قد لاحظوا أن فترة من الوقت قد مرّت

منذ قفل جوبيتر راجعاً إلى الداخل وراء الستارة حتى الوقت الذي ظهر فيه كاتب المسرحية موضع الإعجاب الساذج من قبل جيسكات وليانارد.

والطريف فيما حدث: إن هذا الجمهور، الذي كان منذ دقائق خلت ثائراً غاضباً، قد أصبح ينتظر بارتياح بالغ، وذلك ثقة منه بالممثل، مما يثبت هذه الحقيقة الخالدة، التي ما تزال ثابتة حتى يومنا هذا في كل دور التمثيل، وهي أن أفضل وسيلة لجعل الناس ينتظرون بداية التمثيل هي في التأكيد لهم بأننا سنبدأ حالاً.

ومع ذلك فإن الطالب جوهان لم يكن نائماً.

فصرخ فجأة قائلاً وسط جو الانتظار المسالم الذي عقب جو الضجيج الصاخب: «جوبيتر، السيدة البتول، التمثيلية! ابدأوا أو نعاود سيرتنا الأولى.»

ولم تكن هناك حاجة إلى مزيد من الكلام والانتظار.. فقد انبعثت موسيقى من آلات عالية ومنخفضة، ثم ارتفعت الستارة وظهر من خلفها أربعة أشخاص مرقشين ملونين، ثم تسلقوا سلم المسرح الثابتة وانتظموا في صف واحد أمام الجمهور، فحيوه تحية عميقة، ثم صمتت الموسيقى. وابتدأت مسرحية السر. وبدأ الأربعة بعد أن تلقوا من الجمهور ثمن تحياتهم تصفيقاً حاداً مدوياً، في وسط صمت ديني عميق. والواقع أن الجمهور كان يهتم بالأثواب التي يحملها الممثلون أكثر مما يهتم بأدوارهم التي يؤدون ـ وهو ما يحدث حتى اليوم ـ، وكان هذا في الحقيقة عدلاً وحقاً. كانوا يرتدون أثواباً ذات لونين أصفر وأبيض. ولم تكن الأثواب تتمايز إلا بجودة القماش ونوعه، فكان الثوب الأول من البروكار، ذهب وفضة، والثاني من الحرير، والثالث من الصوف والرابع من الكتان. وكان أول الممثلين يحمل سيفاً في يمينه، والثاني مفتاحين من الذهب، والثالث ميزاناً، أما الرابع فقد كان يحمل مِعزَفاً، وكان في وسع المشاهدين أن يقرأوا في أطراف الأثواب الكلمات المطرزة الآتية، والتي وضعت لمساعدة الأذهان الكسولة التي تعجز عن إدراك ما وراء

شفافية هذه الخصائص، ففي أسفل الثوب البروكار: إنني أُدعى نبالة، وفي أسفل الثوب الحريري: إنني أُدعى كهانة. وفي أسفل ثوب الصوف: إنني أُدعى تجارة. وفي أسفل ثوب الكتان: إنني أُدعى فلاحة. أما جنس الكِنايتين الذكريتَين فقد أشير إليه بوضوح بالغ لكل مشاهد حاذق في ثوبيهما القصيرين والقبعة الخاصة بهما، بينما كانت الكنايتان الأنثويتان أكثر طولاً، وهما يغطيهما غطاء آخر خاص بهما أيضاً.

وقد نكون في حاجة إلى كثير من الإرادة السيئة لكي لا ندرك من خلال شعر التمهيد، الذي قدِّم للمسرحية، أن الفلاحة كانت متزوجة من التجارة وأن الكهانة كانت متزوجة من طبقة النبلاء. وأن الفريقين السعيدين كانا يملكان مشتركين، ولي عهد رائعاً ذهبياً، يزعمان أنهما لن يعطياه غير أجمل الفتيات. وإذن فهما ينطلقان عبر العالم يبحثان عن هذه الفتنة، وبعد أن رفضا على التتابع كلاً من ملكة غولكونده وأميرة ترابيزونده، وابنة خان التتار الكبير إلخ إلخ.. تأتي الفلاحة والكهانة ثم النبالة والتجارة أمام المنضدة الرخامية لقصر العدالة، لتلقي على مسامع المشاهدين الفضلاء من الحكم والكلمات السائرة ما يستعمل يومئذ في كلية الآداب خلال الامتحانات وحيث يجاز الأساتذة في علومهم وفنونهم.

الواقع أن هذا كله كان فاتناً وجميلاً.

وفي هذه الأثناء، لم يكن بين الجماهير، التي كانت الكنايات الأربع تصب عليها سيولاً وفيوضاً من مجازاتها وصورها الأدبية، أُذُن أكثر تنبهاً، وقلبٌ أشد خفقاً، وعينٌ أعظم ضياعاً، وعنق أكثر امتداداً، من عين وأذن وعنق وقلب المؤلف الشاعر، بطرس جرنجوار الجريء، والذي لم يسعه، قبيل ذلك بقليل، أن يقاوم لذة إعلانه عن اسمه أمام الفتاتين الجميلتين. كان قد وقف على بعد خطوات منهما، وراء الدعامة، وهناك كان يصغي وينتظر ويتذوق. وكان صدى التصفيق المشجع الشديد الذي استقبل به تمهيد مسرحيته ما يزال يتجاوب في أحشائه. تستغرقه التأملات

المنتشية التي يشهد بها المؤلف أفكاره تهبط واحدة وراء الأخرى في فم الممثل وعبر صمت المشاهدين فأعظم بك يا بطرس جرنجوار.

وإنه ليؤلمنا أن نقول بأن هذه النشوة الأولى لم تلبث حتى جاءها ما يشيع الاضطراب فيها. فلم يكد جرنجوار يقرب شفتيه من الكأس المسكرة لفرحه وانتصاره حتى سقطت قطرة من المرارة فامتزجت بها.

إنه شحاذ ذو أسمال بالية، لم يخرج من جولته بطائل، وقد ضاع في خضم هذه الجماهير التي لم يجد في جيوب جيرانه منها تعويضاً له عن خسارته، فتخيل أن انتصابه في مكان مناسب، قد يلفت إليه الأنظار والصدقات. فتسلق، خلال الأبيات الأولى من التمهيد بمساعدة دعامات المرتفع المخصص للضيوف، الحاجب الذي يحيط بحاجز المسرح في جانبه السفلي، وهناك، جلس مستدراً انتباه الجموع وشفقتها بأسماله الممزقة وبجرح بشع كان يغطي ذراعه اليمنى ثم لم ينبس ببنت شفة.

وقد أتاح صمته للتمهيد أن ينطلق دون ضجة أو عقبة. وما كان لأية فوضى محسوسة أن تجري هنا لولا أن سوء الحظ قد وضع الشحاذ وحركاته المتصنعة تحت بصر الطالب جوهان، المقيم في قمة دعامته. فغلبت عليه قهقهة مجنونة ثم صرخ قائلاً دون أن يعير أي اهتمام لمقاطعة المشهد وإشاعته الاضطراب خلال الصمت الشامل العميق: «انظر هذا الخبيث المريض يسأل الصدقة!»

في وسع كل من يلقي حجراً في مستنقع ممتلئ بالضفادع أو يطلق طلقاً نارياً من بندقية على سرب من الطيور، أن يكوِّن فكرة عن الأثر الذي أحدثته هذه الكلمات الوقحة الماجنة وسط الصمت الشامخ. لقد اضطرب جرنجوار كما لو أصابته رعدة كهربائية. وتوقف التمهيد، وتلفتت الرؤوس كلها إلى الشحاذ الذي لم يَنْشَدِه أو يفقد توازنه، بل اغتنمها فرصة مناسبة للربح الوفير، فأخذ يضحك ضحكة كسولاً مغمضاً عينيه نصف إغماضة ويقول:

ـ صدقة للّه، أرجوكم!»

وردد جوهان قائلاً: «ولكن هذا صديقنا كلوبان ترويفو. هولاها! لقد كان جرحك في ساقك فكيف نقلته إلى ذراعك؟»

وبينما كان يقول هذا، أرسل إليه بمهارة القرد قطعة صغيرة من النقود سقطت في القبعة التي كان يمدها الشحاذ بيده اليمنى. وتلقى الشحاذ الصدقة والسخرية اللاذعة دون أن يطرف له جفن، ثم تابع قائلاً بلهجته المحزنة المؤلمة:

ـ «صدقة للّه، أرجوكم!»

وبعث هذا المشهد في نفوس المستمعين سروراً بالغاً. فصفق عدد غير قليل من المشاهدين، على رأسهم بوسبان والطلاب الآخرون، فرحين بهذا الثنائي الطريف الذي ارتجله خلال التمهيد المسرحي كل من الطالب بصوته الصارخ، والشحاذ بترتيله الرصين الهادئ.

كان جرنجوار شديد الغضب. فلم يكد يرجع إلى نفسه بعد زوال أثر المفاجأة، حتى راح يصرخ في الممثلين الأربعة: «تابعوا، يا للشيطان، تابعوا عملكم!» دون أن يتنازل فيلقي نظرة احتقار على هذا الثنائي الطريف.

في هذه الأثناء، شعر بيد تشده من الخلف، فاستدار في شيء من الغضب وبذل جهداً لكي يتبسم. على أنه كان من الواجب أن يفعل ذلك. فقد كانت الذراع الفاتنة ذراع جيسكات لا جانسيان التي مرت خلال الحاجز مستلفتة نظره بهذه الطريقة.

قالت الفتاة: «سيدي، هل سيتابعون؟»

ـ «طبعاً!» أجاب جرنجوار، وقد أزعجه السؤال وصدمه. فأوجزت الفتاة قائلة: «في هذه الحالة أرجو أن تتفضل سيدي فتشرح لي ما سيقولون؟»

ـ «أصغي إذن إليّ!»

قالت جيسكات: «لا بل ما قالوه حتى الآن.»

فقفز جرنجوار كمن وخزت الحية جراحه، وقال مدمدماً بين أسنانه:

«إنها الطاعون، هذه الفتاة البلهاء المغفلة!»

وهكذا ضاعت جيسكات في ذهنه منذ تلك الدقيقة.

وفي هذه الأثناء خضع الممثلون لإلحاحه. أما الجمهور، الذي شهدهم يرجعون إلى ما كانوا فيه من الكلام، فانقلب يستمع وقد فقد كثيراً من المتعة خلال الانقطاع الحادث بين جزءي المسرحية.

وفكّر جرنجوار صامتاً في هذا كله. ومع ذلك فقد انتشر الهدوء شيئاً فشيئاً مرة أخرى، وكان الطالب قد سكت، أما الشحاذ فكان يعد قطع النقود المتجمعة لديه ويضعها في قبعته. وتغلبت المسرحية في النهاية.

كان هذا الإنتاج جميلاً حقاً، وقد يبدو لنا أننا اليوم قادرون على الاستفادة منه، بعد أن نُدخل عليه بعض التعديلات..

إنه عرض طويل خال من القواعد الفنية وبسيط جداً، وجرنجوار الغارق في قداسة ذاته العميقة، معجب بوضوح هذا الإنتاج الجميل. لقد كانت الشخصيات الأربعة المجازفة قد تعبت قليلاً بعد أن اجتازت ثلاثة أرباع العالم دون أن تجد ما تتخلص به من ولي عهدها الذهبي بطريقة مناسبة. تُضاف إلى هذا كله، المدائح الموجهة إلى السمكة العجيبة، مع ألف كناية لطيفة عن خطيب مارغريت دوفلاندر الشاب، وهو يومئذ في عزلته الحزينة، في امبواز، دون أن يخطر في باله أبداً أن الفلاحة والكهانة والنبالة والتجارة قد طافت حول العالم من أجله. وإذن فقد كان ولي العهد المذكور آنفاً، شاباً وجميلاً وقوياً وبصورة خاصة (وهذا هو المصدر الرائع لكل الفضائل الملكية) كان ابناً لأسد فرنسا. إنني أعلن أن هذه الاستعارة المجازية الجريئة رائعة حقاً، وأن التاريخ الطبيعي للمسرح لا يجد غضاضة في ولي عهد، متحدر من أسد. إن هذه الصيغ المقعرة النادرة هي التي تعبِّر عن الحماسة وتصورها. على أننا لا نجد بداً من القول، لكي نتيح مكاناً للنقد، إنه قد كان بوسع الشاعر أن يعبِّر عن هذه الفكرة بأقل من مائتي بيت من الشعر. مع العلم، أن على مسرحية السر أن تدوم منذ الظهيرة حتى الساعة الرابعة عملاً بأوامر السيد رئيس الشرطة، وأن من

الواجب أن يُقال شيء. وعلى كل حال، فقد كان الجميع يستمعون بصبر فائق.

وفجأة، وفي وسط خصومة بين الآنسة التجارة والسيدة النبالة، وفي الوقت الذي كانت فيه الفلاحة تلقي هذا البيت العجيب المدهش:

«ليس في الغابات وحش أروع مجداً منه»

فتح باب المرتفع المخصص للضيوف، وهو الذي كان مغلقاً، في وقت غير مناسب، ثم أصبح فتحه الآن أقل مناسبة للوقت، وتردد صدى صوت الحاجب معلناً وصول «صاحب النيافة سيادة كاردينال دو بوربون.»

3 ـ السيد الكاردينال

مسكين جرنجوار! كانت فرقعة كل الأسهم النارية الضخمة لعيد القديس حنا، وانطلاق نيران عشرين بندقية، وانفجار المدفعية الشهيرة لبرج بيلي، التي قتلت سبعة من البورغونيين في طلق واحد بعد الحصار الذي منيت به باريس في 29 أيلول 1465، وتفجر كل بارود المدافع المختزن في باب الهيكل، كانت هذه كلها أقل تأثيراً في قسوة تمزيق أذنيه، خلال هذه البرهة التمثيلية الرائعة، من الكلمات القليلة التي أطلقها فم حاجب: «صاحب النيافة سيادة كاردينال دو بوربون.»

ولم يكن ذلك لأن بطرس جرنجوار يخاف السيد الكاردينال أو يحتقره. فما كان له ذاك العطف ولا هذا الزهو. لقد كان رجلاً متحرراً حقاً كما يُقال اليوم. كان جرنجوار من ذوي الأذهان المرتفعة الصلبة، والمعتدلة الهادئة، من الذين يعرفون دائماً كيف يحتفظون بأنفسهم أمام كل طارئ وممن شاع المنطق في نفوسهم وامتلأوا بفلسفة متحررة، في الوقت نفسه الذي يدركون به خطورة السادة الكرادلة. إنه عنصر ثمين لا ينقطع مدده من الفلاسفة الذين تبدو الحكمة وقد زودتهم بكبة من خيط يسحبونه منذ بداية العالم عبر المعضلات المعقدة للأشياء البشرية. فهم

موجودون في كل الأزمان هم أنفسهم دائماً، أي أنهم دائماً تبعاً للظروف والمناسبات. فلو توصلنا إلى تقديم الصورة التي يستحقها السيد بطرس جرنجوار لما كانت لنا حاجة إلى التأكيد على أنه واحد منهم وهو الذي كان يمثلهم في القرن الخامس عشر.

وإذن فلم يكن هناك حقد على الكاردينال، ولا كراهة لحضوره الذي بعث في نفس بطرس جرنجوار إحساساً شديد البشاعة. وبالعكس، فقد كان لشاعرنا كثير من سلامة الرأي بحيث يضع ثمناً خاصاً لبلوغ تلميحاته المتعددة في تمهيده المسرحي، وبخاصة تمجيد ولي العهد، ابن أسد فرنسا، إلى أذن ذات نيافة. ولكن المصلحة الخاصة ليست هي التي تسيطر في طبيعة الشعراء النبيلة. ولأفترض أن تتمثل شخصية الشاعر بالرقم عشرة، فالثابت أن الكيميائي حين يقبل على تحليله، كما كان يقول رابليه في سخريته اللاذعة، فإنه سيجده مؤلفاً من جزء واحد من المصالحة الخاصة مقابل تسعة أجزاء من حب الظهور. وهكذا، في الوقت الذي فتح فيه الباب أمام الكاردينال كانت الأجزاء التسعة لحب الظهور عند جرنجوار، منفتحة متورمة تحت نفثات الإعجاب الشعبي، وكانت في حالة تضخم فائق، اختفى به، كالمختنق، الجزء الضئيل المتهافت للمصلحة الخاصة، والذي أشرنا إليه منذ قليل خلال حديثنا عن تركيب الشعراء.

كان جرنجوار مستمتعاً بما كان يحس به ويراه ويلمسه في هذه الجموع كلها التي رغم كونها من سفلة القوم ورعاعهم، كانت مندهشة معروكة بل تشهق أمام فقراته اللامتناهية، التي تنبجس في كل آن من أجزاء قصيدته في تهنئة ولي العهد بزفافه. وإنني أؤكد أنه هو نفسه كان يشارك في الشعور بالغبطة العامة بحيث إنه على العكس من لافونتين الذي كان يتساءل عند عرض مهزلته عن الفلورنسي قائلاً «من هو الوقح الذي صنع هذه القصيدة المتنافرة الأجزاء»؟

كان جرنجوار هنا جديراً بأن يسأل جاره عن مؤلف هذه الرائعة

العظيمة. وهكذا نستطيع أن ندرك الأثر الذي يتركه مجيء الكاردينال المفاجئ في وقت غير مناسب.

لقد حدث ما كان ينتظر حدوثه. وأشاع دخول الكاردينال اضطراباً في صفوف المستمعين، وتلفتت كل الرؤوس إلى المرتفع الخاص. فلم يعد يسمع غير: «الكاردينال! الكاردينال!.» تردده كل الأفواه. أما التمهيد المسرحي المسكين فقد صمت مرة أخرى.

ووقف الكاردينال برهة من الزمن فوق عتبة المرتفع الخاص، بينما كان يطوف بنظره اللامبالي بين المستمعين. فتضاعفت الضجة.

كل كان يريد أن يراه رؤية أحسن. فكانت هذه الرؤية نصيب من وضع رأسه فوق أكتاف جيرانه.

الواقع أنه كان شخصية عالية المقام. فكان مشهده خيراً من أية مسرحية تمثيلية أخرى. شارل، كاردينال دو بوربون أسقف وكونت ليون، وجاثليق الغاليين، كان في الوقت نفسه حليفاً للويس الحادي عشر عن طريق أخيه بطرس، سيد بوجو، الذي كان قد تزوج البنت الكبرى للملك، وحليفاً لشارل العنيد عن طريق أمه، أنياس دو بورغونيا.

وعلى هذا فإن الصفة الغالية، والخصوصية المتحيزة لشخصية جاثليق الغاليين، هما في ذهنه النديم والمخلص للأقوياء. وفي وسعنا أن نتخيل العدد الذي لا يحصى من مواقف الحرج التي كان يجد فيها نفسه بسبب هذه القرابة المزدوجة، والقبعات الزمنية، التي كان على قاربه الروحي أن يعاكس فيها الريح حتى لا يتحطم، أمام لويس أو أمام شارل، هذه النار، وتلك الرمضاء اللتان كانتا قد التهمتا، من قبله، دوق نيمور وقائد الجيش الأعلى لسان بول. وكان من فضل السماء عليه أنه خلص نجياً من رحلته هذه، فبلغ روما من غير مضايقات تذكر.

وهو وإن بلغ المرفأ، ولأنه بلغه على التحديد، فإنه لا يذكر، دون قلق بالغ، المناسبات المختلفة لحياته السياسية، تلك التي طالت أمام نذر الخطر وتزايدت معها أسباب النشاط. ومن عادته القول بأن سنة 1476

كانت بالنسبة له سنة سوداء وبيضاء، يقصد بذلك أنه قد رزئ في هذه السنة نفسها بوفاة أمه دوقة البوربوني وابن عمه دوق بورغونيا، وأن أحد الحِدَادَيْن قد عزّاه عن الآخر.

وكان إنساناً طيباً فيما خلا ذلك. يقضي حياة كاردينال مرحة، ويستمتع مختاراً بمزارع شايو الملكية، ولهذه الأسباب نفسها كان قريباً من جمهور باريس.

ولا شك أن هذه الشعبية، التي كان قد اكتسبها بحق، قد حالت عند دخوله، دون أن يكون له استقبال سيئ، من قبل الجمهور، الغاضب، قبيل ذلك، والذي كان له قليل من الاستعداد لاحترام كاردينال في اليوم نفسه الذي سيُنْتَخَب فيه أحد الباباوات، على أن السيد كاردينال دو بوربون كان رجلاً جميلاً، وكان يرتدي ثوباً أحمر شديد الملاءمة له، ومعنى ذلك أن كل النساء كانت إلى جانبه، وبالتالي النصف الأحسن من المستمعين. والثابت أنه من الظلم الشديد ومن فساد الذوق، أن يسخر من كاردينال لجعل الناس ينتظرونه في المسرح، حين يكون رجلاً جميلاً وحين يحسن حمل ثوب أحمر.

وإذن فقد دخل الكاردينال، وحيا الحاضرين، بهذه الابتسامة الوراثية التي يستعملها الكبار مع الشعب، واتجه بخطوات بطيئة إلى مقعده المخملي ذي الحمرة القرمزية، متخذاً هيئة من يفكر في شيء آخر. أما موكبه، وهو ما نسميه اليوم أركان حربه من الأساقفة والآباء فقد قام بحملة شديدة على حاشيته في المنصة مع مضاعفة للضجة والفضول في أرض البهو الكبير.

كان كل منهم هدفاً للناس، يتناولونه كما يشاؤون. أما فيما يتعلق بالطلاب فقد كانوا يحلفون مجدّفين. لقد كان اليوم يومهم، يوم عيد المجانين، يوم تهتكهم ودعارتهم، يوم نهم المدرسة المفرط. فلا عيب محرم ولا شفاعة مستقبحة. وكانت هناك ثرثارات مجنونات بين الجماهير، وفي وسط هذا الصخب المتعالي كانت الشتائم الغليظة المنكرة

ترتفع وتنتشر بشكل مخيف من هذه الألسنة المنطلقة، ألسنة الطلاب والكلمات التي تصمت خلال السنة كلها خوفاً من نار سان لويس الحامية. مسكين سان لويس، أي احتقار وازدراء لم يوجها إليه في قصره الخاص، قصر العدالة؟ كل من الطلاب والنساء قد تناول، من بين الحاضرين في المنصة، جبة من الجبب السوداء أو البيضاء أو الرمادية أو البنفسجية. أما جوهان فروللودين مولاندينو فقد حمل بجرأة بالغة على اللون الأحمر، وراح يغني بأعلى صوته، مركزاً نظراته الوقحة على الكاردينال.

هذه التفاصيل كلها، التي نكشف عنها للقارئ تثقيفاً له، كانت مغطاة بالضجيج الشامل فلا تبلغ المنصة الخاصة. على أن التأثر لم يبلغ كثيراً من نفس الكاردينال، ما دامت هذه الحريات جزءاً من تقاليد الناس. لقد كان له همٌّ آخر، دلّت عليه قسمات وجهه، همّ كان يتبعه عن قرب وقد دخل معه تقريباً إلى المنصة في الوقت الذي دخل فيه إليها، إنه همُّ سفارة الفلاندر.

ومصدر همه، ليس في أنه كان سياسياً محترفاً، وأنه كان يفكِّر في النتائج المنتظرة لزواج السيدة ابنة عمه مارغريت دي بورغونيا مع السيد ابن عمه مارشال، ولي عهد فينا، أو في مدى بقاء التفاهم المصطنع بين دوق دوتريش وملك فرنسا، أو في كيفية استقبال ملك بريطانية المزدري لابنته، فقليلاً ما يشغله هذا الأمر كله. لقد كانت هذه السفارة في جانب آخر. كان شديداً عليه، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في أول هذا الكتاب، أن يجد نفسه مرغماً على الاحتفال ببعض من لا يعرف من البورجوازيين، وهو النبيل العظيم شارل دو بوربون، أو ببعض صغار الرؤساء، وهو الكاردينال الكبير، أو بفلاماندیین شاربي البيرة، وهو الفرنسي، فيجد نفسه مرغماً على أن يفعل هذا كله أمام الجمهور. والثابت هنا أنه قد اضطر لأن يرسل أكثر تكشيراته ـ إملالاً وإضجاراً، خلال حياته كلها، إرضاء للملك.

وإذن فلقد تلفّت نحو الباب، بأروع لطف في العالم (وهو يراقب ذلك في نفسه دائماً)، حين أعلن الحاجب بصوته الجهير عن وصول «السادة رسل السيد دوق دوتريش». ولست فى حاجة إلى القول بأن البهو كله قد فعل مثل ذلك.

وهنا وصل الرسل، فدخلوا زوجاً زوجاً، بوقار متعاكس مع الموكب الديني الصاخب للسيد شارل دو بوربون. كانوا ثمانية وأربعين سفيراً لمكسيمليان دوتريش، وعلى رأس الموكب الأب الإلهي الكلي الاحترام، جيهان، كاهن سان برتان، ثم جاك دوجوا، سيد دوبي، وقاضي غان الأعلى. وشاع صمت كبير ترافقه ضحكات مختنقة للاستماع إلى الأسماء المضحكة، والصفات البورجوازية التي كان يدلي بها كل من السفراء إلى الحاجب بوقار هادئ، والذي كان بدوره يرسل الأسماء والصفات مختلطة ممتزجة مشوهة إلى الجماهير. لقد كان من بينهم الأستاذ لويس رولوف حاكم مدينة لوفان، والسيد كلادوتوالد حاكم بروكسل والسيد بول دوبايوست، صاحب فوارميزال، ورئيس الفلاندر إلخ. قضاة وحكام ورؤساء، كلهم جامدون نهمون، متزينون بالمخمل والدمقس، برؤوس مغطاة بقبعات من المخمل الأسود، وهم بعد هذا كله، رؤوس فلاماندية حسنة، ووجوه لائقة حازمة، من تلك المجموعة التي أبرزها الرسام رامبرانت قوية وقوراً في قاعدة لوحته «عسس الليل» شخصيات، تحمل كل منها على جبهتها ما يدل على توفيق مكسيمليان في وضع ثقته التامة بها، كما كانت تقول رسالته، في حسن إدراكها، وجرأتها وتجربتها، وإخلاصها.

ومع ذلك، فإن بينها استثناء واحداً فقط. لقد كان وجهاً ـ دقيقاً ذكياً كيساً، وكان نوعاً من فم القرد والدبلوماسي، تقدم الكاردينال نحوه ثلاث خطوات باحترام عميق، وهو يدعى غليوم ريم، مستشار مدينة غان وحاكمها التنفيذي. كانوا قلة أولئك الذين يعرفون حقيقة غليوم ريم، فهو عبقرية فذة، جديرة أن تطفو بقوة فوق الحوادث في زمن الثورات، ولكنها

كانت في القرن الخامس عشر معزولة في المؤامرات الكهفية، مكتوباً عليها أن تعيش في الدهاليز كما قال دوق سان سيمون. على أنه كان موضع تقدير شديد من قبل أول هدام في أوروبا، أي لويس الحادي عشر، الذي كان يدس معه ويتآمر دون كلفة، ثم يضع يده غالباً على حاجات الملك السرية المجهولة من قبل هذا الجمهور، والتي كان أدب الكاردينال مع هذا الدساس ذي الوجه الحي، يجمِّلها ويمنحها روعة بالغة.

4 ـ الأستاذ جاك كوبانول

وبينما كان حاكم غان وصاحب النيافة يتبادلان الاحترام الشديد ويتكلمان بصوت خفيض، تقدم رجل ذو بسطة في الجسم، ووجه عريض، وكتفين قويتين، داخلاً مع غليوم ريم: فكان منه كما يكون الكلب الكبير من الثعلب. كان غطاء رأسه المصنوع من اللبد، وسترته الجلدية شيئاً كما تكون اللطخة الموحلة وسط المخمل والحرير اللذين يحيطان به. فأوقفه الحاجب ظناً منه أنه سائس ضاع عن طريقه:

«ها، يا صديقي، إنك لن تمر.»

أما الرجل ذو السترة الجلدية فقد دفعه بكتفه، قائلاً:

«ماذا يبغي مني هذا الشاذ؟» قالها بصوت جعل البهو كله متنبهاً إلى هذه المحادثة الغريبة. «ألا ترى أنني تابع له؟»

فسأله الحاجب: «ما اسمك»؟

ـ «جاك كوبانول»؟

ـ «صفاتك»؟

ـ «صانع الأحذية ذات السلاسل الثلاث، في مدينة غان.»

وتراجع الحاجب. لقد كان ممكناً أن يعلن عن مجيء رؤساء المدن

وشيوخ القرى. أما صانع الأحذية، فهذا شيء شديد عليه. كان الكاردينال كمن يقف فوق الدبابيس. الشعب كله يرى ويسمع. وقد مضى عليه يومان وهو يجهد نفسه في لحس هذه الدبة الفلاماندية ليجعلها لائقة أمام الجمهور، لقد كانت الإهانة شديدة فائقة. وفي هذه الأثناء تقدم غليوم ريم، بابتسامته اللطيفة، من الحاجب، وهمس بصوت منخفض:

ـ«أعلن عن المعلم جاك كوبانول، مساعد شيوخ مدينة غان». . فردد الكاردينال بصوت مرتفع: «أيها الحاجب أعلن عن المعلم جاك كوبانول، مساعد شيوخ مدينة غان العظيمة.»

كان الجهر بالصوت خطأ، وكان غليوم ريم قادراً على تجنب هذه الصعوبة. ولكن كوبانول قد سمع ما قاله الكاردينال. فصرخ بصوت كالرعد:

ـ «لا. جاك كوبانول، صانع أحذية، هل نسيت أيها الحاجب؟ لا أكثر ولا أقل. أليس صانع الأحذية شيئاً جميلاً! إن السيد الأرشيدوق قد بحث أكثر من مرة عن قفازه في سراويلي.»

وانفجر الضحك وتعالى التصفيق. فليس أسرع من باريس إدراكاً للنكتة، وبالتالي أكثر تصفيقاً لها.

يُضاف إلى هذا كله، أن كوبانول كان واحداً من أبناء الشعب، وأن الجمهور الذي كان يحيط به يومئذ من أبناء الشعب أيضاً. فكان الاتصال بينهما سريعاً كهربائياً كاملاً غير منقوص. لقد بعثت فورة صانع الأحذية بما فيها من صخب وغطرسة، وفي الوقت الذي أذلت فيه رجال البلاط، في النفوس الرعاعية ما لا أعرف من عاطفة الكرامة التي كانت ما تزال في القرن الخامس عشر مبهمة غامضة. لقد كان هذا الصنع مساوياً للسيد الكاردينال حين وقف أمامه رافع الرأس! إنها خاطرة لطيفة مرّت في خيال الشياطين المساكين الذين اعتادوا تقديم أوفر الاحترام والطاعة أمام خدم أعوان قاضي الأب رئيس دير القديسة جنفياف، حامل ذيل الكاردينال.

وحيا كوبانول صاحب النيافة، بفخر بارز، ورد الكاردينال هذه التحية

إلى البورجوازي الكلي القوة الذي يخافه لويس الحادي عشر نفسه. وبينما كان غليوم ريم، الرجل الحكيم الكيِّس، كما قال فيليب دو كومين، يتبعهما كليهما بابتسامة سخرية واستعلاء، بلغ كل منهما مقعده. أما الكاردينال فقد أفلت زمامه من يده وبدا همه على وجهه، وأما كوبانول فكان هادئاً متكبراً، يرى دون ريب أن صفته كصانع للأحذية لا تقل عن أية صفة أخرى، وأن ماري دو بورغونيا، والدة مارغريت هذه التي كان كوبانول قد أتى لتزويجها اليوم، جديرة ألا تخافه كاردينالاً كما تخافه صانع أحذية: ذلك لأن من يثير أهل غان ضد المقربين من ابنة شارل العنيد لا يكون كاردينالاً، وأن من يكسب الجمهور بأقواله ضد دموع الآنسة دوفلاندر وصلواتها حين تأتي راجية شعبها متضرعة إليه حتى عتبة المشنقة، ليس كاردينالاً أيضاً، ولم يحتج صانع الأحذية إلى أكثر من أن يرفع مرفقه الجلدي ليسقط رأسي سعادة النبيلين غي دنبر كور، والمستشار غليون هوكوتا!

وفي هذه الأثناء لم يكن قد انتهى كل شيء بالنسبة لهذا الكاردينال المسكين. لقد كان عليه أن يشرب كأس هذه المرافقة السيئة حتى الثمالة.

فالقارئ لم ينسَ بعد، الشحاذ الوقح، الذي كان يتكمش، منذ بداية التمهيد المسرحي، بحواجب المنصة الكاردينالية. فهو لم يترك مكانه رغم وصول الضيوف اللامعين. وبينما السادة الأحبار والسفراء يتكومون كالسمك فوق مقاعد المنصة كان هو يجلس في راحة تامة وقد شبَّك ساقيه بشجاعة ظاهرة فوق قاعدة المنصّة. كانت الوقاحة نادرة جداً، فلم ينتبه إليها أحد في بداية الأمر لانشغال الجميع في مكان آخر. أما هو، فلم يكن يلاحظ شيئاً في البهو، فيهز رأسه جيئاً وذهاباً مكرراً في خضم الضجة من وقت إلى آخر، كما لو أنها عادة آلية له: «صدقة للَّه، أرجوكم!.» والثابت أنه كان الرجل الوحيد، بين الحضور، الذي لم يلتفت برأسه ليشهد الشجار الناشب بين كوبانول والحاجب.

وقد أرادت المصادفة أن يأتي السيد، صانع الأحذية في غان، بعد أن

فاز بعطف الجماهير وتركزت عليه الأنظار فيجلس في الصف الأول من المنصة فوق الشحاذ، ولم يندهش أحد من رؤية السفير الفلامندي، يفحص ببصره الشحاذ الغريب الطريف المقيم تحت بصره، ثم يربت بلطف بالغ على هذه الكتف المغطاة بالأسمال. والتفت الشحاذ، فكانت المفاجأة، ثم التعارف، فابتسام الوجهين إلخ، وانطلق صانع الأحذية والشحاذ يتحدثان بصوت منخفض دون أي مبالاة بعالم المشاهدين، وأيديهما متشابكة، بينما كانت أسمال كلوبان ترويفو ممدودة فوق جوخ المنصة الذهبي كأنها أثر دودة الفراش فوق برتقالة.

وقد أثارت طرافة هذا المشهد الفريد من الضجيج المجنون والمتعة الشديدة في البهو ما لم يلبث الكاردينال أن لاحظه وانتبه إليه، فانحنى نصف انحناءة، ولما لم يستطع أن يرى من مكانه غير قبعة ترويفو البشعة، خيِّل إليه أن الشحاذ كان يطلب صدقة، وصرخ في ثورته على هذه الجرأة قائلاً: «ألقِ أيها السيد قاضي القصر بهذا الشاذ في النهر.»

فقال كوبانول: «يا صليب اللّه! يا سيدي الكاردينال، إنه أحد أصدقائي.»

وصرخ الجمهور: «نووال! نووال!» ومنذ ذاك الوقت أصبح لكوبانول رصيد كبير لدى الشعب في باريس وفي مدينة غان، لأن أناساً من هذا الطراز، كما قال فيليب دو كومين، قادرون على كسبه حين يكونون على غير نظام.

وعض الكاردينال على شفتيه. وانحنى فوق جاره الأب رئيس دير القديسة جنفياف، وقال له بصوت خفيض: «كم هم ممتعون هؤلاء السفراء الذين أرسلهم إلينا السيد الأرشيدوق ليطلبوا يد السيدة مارغريت!»

فأجابه الأب: «إن نيافتك تضيع لياقاتك مع هذه الفناطيس الفلامندية.»

والآن، يسمح لنا القُراء الذين يملكون القذرة على تجريد صورة وفكرة كما يقال في طراز التعبير اليوم، أن نسألهم ما إذا كانوا يتخيلون

بوضوح، المشهد الذي يعرضه المستطيل الواسع لبهو القصر الكبير، في الوقت الذي نلفت فيه انتباههم. ففي وسط البهو مسندة إلى الجدار، توجد منصة رائعة عريضة من البروكار الذهبي، تدخل إليها في أبهة موكبية، من خلال باب صغير، شخصيات وقورة، يعلن عن اسمها بالتتابع بصوت الحاجب الصارخ، وفي المقاعد الأولى، وجوه شديدة الاحترام، لفَّت بالفراء والمخمل والأجواخ ذات الحمرة القانية. وحول المنصة التي بقيت صامتة هادئة، وفي أسفلها وفي كل جانب من جوانبها جمهور كبير وضجة كبيرة. ألف نظرة من الشعب توجَّه إلى كل وجه من وجوه المنصة، وألف همسة حول كل اسم من أسمائها، فالثابت أن المشهد طريف وجدير بانتباه المشاهدين واهتمامهم. ولكن ما هي هذه القوائم التي وضعت هناك في الطرف مع دمى أربع مرقشة في الأعلى وأربع أخرى مثلها في الأدنى؟ ومن هو ذاك الرجل ذو اللباس الأسود والوجه الباهت المصفر الذي يقف إلى جانب القوائم، إنه يا عزيزي القارئ بطرس جرنجوار وتمهيده المسرحي.

لقد نسيناهما جميعاً.

وهذا ما كان يخافه بطرس على التحديد.

لم يكفّ بطرس جرنجوار عن الاضطراب والحركة دفاعاً عن سلامة تمهيده حين دخل الكاردينال. فألح على الممثلين بادئ الأمر، أن يتابعوا عملهم بصوت مرتفع، بعد أن رآهم يتوقفون، ولما لم يجد من يستمع إليهم، أوقفهم ثم لم يكف، خلال ربع ساعة مرّت على انقطاع التمثيل، عن فحص الأرض بقدميه والتحرك إلى كل مكان، والطلب إلى جيسكات وليانارد بأن تشجعا جيرانهما على متابعة التمهيد والإصغاء إليه، ولكن دون جدوى. إن أحداً من الناس لم يترك الكاردينال والسفارة والمنصة، المركز الوحيد لدائرة الإشعاعات البصرية. وعلينا أن نؤمن أيضاً أن المستمعين كانوا قد بدأوا يتضايقون قليلاً من التمهيد، نقول هذا آسفين، حين أقبل صاحب النيافة وزاغ بالناس بهذه الطريقة المخيفة. وبعد هذا

كله كان المشهد هو نفسه فوق المنصة وفوق المنضدة الرخامية:

صراع بين الفلاحة والكهانة وبين النبالة والتجارة. وكان كثيرون من الناس يؤثرون رؤية هذا المشهد، حياً، متنفساً، متحركاً، متزاحماً، بلحمه وعظمه، في هذه السفارة الفلاماندية، وهذا البلاط الكهنوتي، تحت ثوب الكاردينال، وتحت سترة كوبانول، على أن يروه متزيناً مزوراً ومخضباً، يتحدث شعراً، وقد لف تحت أثواب صفراء وبيضاء، ألبسه إياها جرنجوار على طريقته الغريبة المضحكة.

ومع ذلك، فقد تخيّل شاعرنا طريقة جديرة بإنقاذ الموقف حين رأى أن الهدوء قد استتب قليلاً.

قال ملتفتاً إلى رجل شجاع ضخم ذي وجه صبور: «سيدي، ما رأيك لو نبتدئ من جديد؟»

ـ «وماذا»؟ قال الجار.

قال جرنجوار: «ها! السر.»

فأجاب جاره: «كم ستسرك»!

واكتفى جرنجوار بهذا التأييد النصفي، فبدأ يصرخ مختلطاً بالجمهور قدر استطاعته:

ـ «عاودوا السر مرة أخرى! عاودوه»!

فقال جوهان دو مولاندينو: «يا للشيطان! ماذا يغنون هناك، في الطرف؟ (إذ إن جرنجوار كان يثير ضجة أربعة أشخاص) قولوا، يا رفاق! ألم ينته السر بعد! إنهم يريدون معاودته..!

ليس هذا من العدل في شيء.»

فصرخ الطلاب جميعاً: «لا! لا! ليسقط السر! ليسقط!»

ولكن جرنجوار ضاعف جهده فتزايد صراخه:

ـ «عاودوا، عاودوه!»

فلفتت هذه الاحتجاجات الصاخبة نظر الكاردينال.

قال لرجل أسود واقف على بُعد خطوات منه: «أيها السيد قاضي القصر، هل هؤلاء الناس في جرن ماء مقدس فيثيرون هذه الضجة المزعجة؟»

وكان قاضي القصر نوعاً من القضاة البرمائيين، طرازاً من الخفاش في جهاز القضاء، فيه، في الوقت نفسه، نصيب من الجرذ والعصفور، من القاضي والجندي.

فاقترب من نيافته، مع خوفه الشديد من انزعاجه، وشرح له متلعثماً الوقاحة الشعبية، أن الظهر قد وصل قبل نيافته، وأن الممثلين قد أرغموا على الابتداء دون انتظار نيافته.

فانفجر الكاردينال ضاحكاً:

«أقسم إن السيد عميد الجامعة كان جديراً أن يفعل مثل ذلك. ماذا تقول في هذا أيها السيد غليوم ريم؟»

فأجاب غليوم ريم: «سيدي لنكتفِ بما أصبناه من التخلص من نصف المسرحية، فهو ربح لنا.»

وسأل القاضي: «هل يستطيع هؤلاء الصعاليك أن يتابعوا مهزلتهم؟»

قال الكاردينال: «تابعوا، تابعوا، والأمر عندي سواء. إنني سأقرأ في كتاب صلاتي أثناء هذه الفترة.»

تقدم القاضي إلى طرف المنصة، وصرخ قائلاً بعد أن أسكت الجموع بإشارة من يده:

«أيها البورجوازيون، أيها القرويون، أيها السكان، لقد تفضل نيافته فأمر بمتابعة المسرحية إرضاء لمن يريدون معاودتها ولمن يريدون الانتهاء منها.»

فوجب على الطرفين أن يرضوا بذلك. بينما بقي المؤلف والجمهور حاقدين على الكاردينال بسبب ذلك فترة طويلة من الزمن.

ورجعت شخصيات المشهد التمثيلي إلى شروحها، وأمل جرنجوار

أن يستمع الناس على الأقل إلى ما بقي من إنتاجه. ولكن هذا الأمل لم يلبث أن أصابته الخيبة شأن أوهامه الأخرى، لقد استتب الهدوء الصامت حقاً بين المستمعين، ولكن جرنجوار لم يلاحظ أنه في الوقت الذي كان يصدر فيه الكاردينال أمره بالمتابعة، كانت المنصة ما تزال غير ممتلئة وأن شخصيات جديدة تشكل جزءاً من الموكب تتابع بعد دخول الرسل الفلاماندين، وكانت أسماء هذه الشخصيات وألقابها تقذف عبر محاروته المسرحية بصرخات الحاجب المتقطعة، فتحدث فيها تخريباً شديداً.

لنتصور، نصيب حاجب وسط مسرحية تمثيلية، يرسل بين بيتين من الشعر وغالباً بين شطرين لبيت واحد معترضات كهذه:

ـ المعلم جاك شارمولو، مدعي عام الملك في محكمة الكنيسة!

ـ السيد غاليو دو جنوالاك، الفارس، سيد بروسال وقائد مدفعية الملك.

ـ المعلم دنيس لومارسيه، فارس، ووصيف الملك الخاص، أميرال فرنسا، حاجب غابة فانسان!

بأية مرارة كان جرنجوار يشهد ما بناه من المجد والشعر يتساقط قطعة قطعة! ويفكِّر في أن هذا الشعب كان على أهبة الثورة على قاضي القصر، رغبة منه في الاستماع إلى مسرحية! وها هو الآن غير مبال بها. هذه المسرحية نفسها التي بدأت بتأييد إجماعي! إنه مد العطف الشعبي وجزره! ويفكِّر في أن أعوان القاضي من الجنود كانوا على شفا من المشنقة! كم يتمنى لو أنه احتفظ بساعة العسل هذه! الساعة التي كان فيها تأييد الجمهور لمسرحيته تأييداً كاملاً تاماً.

ومع ذلك فقد توقف مونولوج الحاجب الوحشي. لقد وصل الجميع، وتنفس جرنجوار. وتابع الممثلون عملهم بشجاعة. ولكن، السيد كوبانول، صانع الأحذية، يقف فجأة، فيسمعه جرنجوار يلقي وسط الانتباه هذا الخطاب المستهجن:

«سادتي بورجوازيي باريس وسادتها الريفيين، إنني لا أعرف،

وصليب اللّه، ماذا نصنع هنا. إنني أرى هناك في الزاوية فوق القوائم أناساً على وشك الاقتتال. وإنني أجهل ما إذا كان هذا هو ما تدعونه بالسر، إلا أنه غير مسل ولا ممتع. إنهم يختصمون باللسان، ثم لا شيء وراء ذلك. هاك ربع ساعة يمر وأنا أنتظر لطمة واحدة. ولكن شيئاً لم يحدث. إنهم جبناء لا يخدشون أنفسهم إلا بالإهانات. لقد كان من الواجب استدعاء مصارعين من لندن أو من روتردام، وهناك تجدون لكمات بقبضات اليد يسمع صداها من الساحة. أما هؤلاء فيبعثون على الشفقة والرثاء. إن عليهم على الأقل أن يقدموا لنا رقصة موريسكية، أو بعضاً من المساخر المضحكة! فليس هنا ما كان قد قيل لي من قبل. لقد كنت وعدت بعيد للمجانين وقِيل لي إنني سأشهد حفلة انتخاب البابا. واعلموا أن لنا نحن في غان بابا المجانين. فلسنا متخلفين عنكم في هذا الأمر! ولكن هاك ما نصنعه نحن: نجتمع على هيئة جمهور كبير كما هو الأمر هنا. ثم يدخل كل رأسه عبر ثقب ويكشر للآخرين. فمن كانت له أقبح تكشيرة بتأييد الجميع انتخب بابا. إنه شيء شديد الإمتاع. فهل تريدون أن نختار باباكم على طريقة بلدي؟ إنه على كل حال سيكون أقل إملالاً من الاستماع إلى الثرثارين هؤلاء فإذا رغبوا أن يصنعوا تكشيرتهم في الكوة مثلنا كانوا من اللاعبين. ماذا تقولون أيها السادة البورجوازيون؟ إن هنا ما يكفينا من النماذج الخشنة الغليظة في كلا الجنسين لنضحك على الطريقة الفلاماندية، ولنا ما يكفي من الوجوه القبيحة لنأمل في تكشيرة رائعة جميلة.»

لقد كان جرنجوار راغباً في الرد. ولكن الاندهاش والغضب والتقزز قد نزعت منه القدرة على الكلام. واستقبل خطاب صانع الأحذية الشعبي بحماسة شديدة من قبل هؤلاء البورجوازيين الذين فتنتهم تسميتهم بالسادة الريفيين، بحيث أصبحت كل مقاومة شيئاً لا فائدة منه. ولم يبق غير الانسياق مع التيار العاصف. فخبأ جرنجوار وجهه بيديه، وهو الذي لم يسعفه الحظ فيكون له معطف يقنّع به رأسه على طريقة آغا ممنون.

5 ـ كوازيمودو

أعد كل شيء في طرفة عين لتنفيذ فكرة كوبانول. فأكب أنواع الناس من بورجوازيين وطلاب على هذا العمل. واختيرت الكنيسة الصغيرة القائمة تجاه منضدة الرخام مسرحاً للتكشيرات. ثم كسر لوح زجاجي رسمت فيه وردة جميلة فوق الباب، ليتيح مجالاً حراً لدائرة من الحجر يمد المتنافسون رؤوسهم منها. وكان يكفي، للوصول إليها، أن يتسلق المتبارون فوق برميلين جيء بهما من مكان لا أعرفه ثم وضع أحدهما فوق الآخر دون عناية مقصودة. وتمّ الاتفاق على أن يغطي كل مرشح، رجلاً أو امرأة (إذ كان في الوسع انتخاب بابا من الإناث) أن يغطي وجهه ويبقى مختبئاً في الكنيسة حتى ساعة ظهوره، ليجعلوا للتكشيرة صفة الجدة والفعالية الكاملة. وامتلأت الكنيسة الصغيرة بالمتنافسين في فترة قصيرة جداً، ثم أغلق عليهم الباب.

وكوبانول، من مكانه يصدر كل الأوامر، ويقود كل أمر، وينظم كل شيء. أما الكاردينال فقد انسحب من حاشيته كلها خلال الفوضى الصاخبة، بحجة الأعمال وأداء صلوات العصر، دون أن يتأثر الجمهور بمبارحته للمكان أيما تأثر، وهو الذي بعث بمجيئه، الحركة والنشاط في حيوية بالغة. وأما غليوم ريم فهو الوحيد الذي لاحظ هزيمة نيافته. هذا والمد الشعبي يتابع ثورته وتطوره كالشمس، فبعد أن ابتدأ هذا المد من طرف البهو ثم توقف قليلاً في الوسط، أصبح الآن في الطرف المقابل. لقد كان للمنضدة الرخامية ومنصة البروكار زمنهما، أما الآن فقد جاء دور كنيسة لويس الحادي عشر. ومن ثم أصبح الميدان حراً أمام كل جنون. ثم لم يبقَ في البهو غير الفلامنديين والصعاليك.

وبدأت التكشيرات. ففجرت الصورة الأولى التي ظهرت في الكوة، بأجفان منقلبة محمرة وفم مفتوح على صورة شدق حيواني وجبهة مجعدة تجعد أحذية فرسان الامبراطورية، قهقهات كانت من القوة بحيث يكاد هوميروس يجد في هؤلاء الناس الغلاظ آلهة. وفي هذه الأثناء لم يكن

البهو الكبير أقل من جبل الأولمب، صخباً وحركة وحيوية وجوبيتر السيد جرنجوار نفسه كان يعرف ذلك أكثر من أي إنسان آخر. ثم تتابعت التكشيرات، ثانية وثالثة، ثم أخرى، والقهقهات تتضاعف باستمرار، تصاحبها دبدبات وأقدام تفحص الأرض وتدقها دقاً. لقد كان في هذا المشهد ما لا أعرف من الدوار الخاص وما لا أعرف أيضاً من الإسكار والبهر بحيث يصعب عليَّ أن أعطي القارئ في أيامنا هذه وفي أنديتنا، فكرة عنه. لنتخيل سلسلة من الوجوه تتمثل فيها على التعاقب كل الأشكال الهندسية ابتداء من المثلث حتى المربع المنحرف، ومن المخروط حتى الشكل الهندسي ذي الصفحات المتعددة، كل التعابير البشرية، من كل الأعمار، ابتداء من تجاعيد الطفل الحديث الولادة حتى تجاعيد المرأة العجوز المريضة، كل الأشباح الأسطورية الدينية، من فون حتى بلزابوت، كل الصفحات الجانبية للوجوه الحيوانية من الشدق حتى المنقار، ومن رأس الخنزير البري حتى الخرطوم، لنتمثل وجوه «الجسر الجديد» الشوهاء، وهذه الكوابيس المعروكة بيد جرمان بيلون، وقد انبثت فيها الحياة وترددت فيها الأنفاس، ثم تأتي كل بدورها تنظر إليك بعيون لامعة ساخنة، كل أقنعة عيد المساخر في البندقية تتعاقب أمام ناظريك، وبعبارة أخرى، منظار بشري سحري غريب.

لقد كان هذا الاحتفال النهم يتحول فلامندياً بصورة متزايدة. ولا شك أن تانيا نفسه عاجز عن أن يعطي عنه فكرة تامة. لنتصور أنفسنا، وسط الصخب الشديد في معركة سلفاتور روزا. لم يعد هناك طلاب وسفراء وبورجوازيون ورجال ونساء. كل شيء قد امّحى وسط الفوضى المشتركة. فلم يعد البهو الكبير غير أتون واسع من السفاهة والمرح حيث كل فم صرخة، وكل عين لمعة، وكل وجه تكشيرة، وكل فرد من الأفراد موقف على هيئة خاصة. كان الكل يصرخون ويعوون. وكانت تنطلق من هذه الجماهير المتحمسة، كبخار الأتون، ضجة خشنة، حادة، لاذعة صافرة، كأجنحة الذباب.

ـ «هو ها! أيتها اللعنة!»

ـ «انظر هذا الوجه!»

ـ «إنه لا يساوي شيئاً!»

ـ «لننظر وجهاً آخر.»

ـ «جيلومات موراكي، انظر هذا الشدق الذي كأنه شدق ثور، لا ينقصه غير القرون.»

ـ «إلى آخر!»

ـ «نووال! نووال!»

ـ «إنني أختنق.»

ـ «هاك وجهاً آخر لم تستطع أذناه أن تمرا» إلخ، إلخ.

أما فيما يتعلق بجرنجوار، فقد استعاد هدوء أعصابه، بعد أن مرت فترة الانهيار الأولى. ثم تصلب أمام الخصومة الشديدة. كان يقول لرجاله الممثلين للمرة الثالثة وهم آلاته الناطقة: «تابعوا». ولم يلبث، وهو يمشي بخطوات واسعة أمام المنضدة الرخامية، حتى أحس برغبة خاصة في الظهور بدوره أمام كوة الكنيسة الصغيرة، لا لشيء، إلا لتكون له لذة التكشير أمام هذا الشعب العاق. ثم قال مردداً: «ولكن لا، فهذا شيء لا يليق بنا نحن، فلا انتقام! ولنقاوم حتى النهاية، إن سلطان الشعر كبير على الشعب، إنني سأعود بهم. وسنرى من ينتصر عليه، التكشيرات أم الفنون الجميلة!»

والمؤسف أنه قد بقي هو المشاهد الوحيد لمسرحيته. وزاد الموقف سوءاً حتى إنه لم يعد يرى وسيلة صالحة غير أن يمد رأسه من الكوة.

بل إنني مخطئ. فالرجل الضخم الصبور، الذي كان جرنجوار قد استشاره في موقف حرج سابق، بقي متوجهاً نحو المسرح. أما جيسكات وليانارد فقد هربتا منذ زمن بعيد.

وتأثر جرنجوار في أعماق قلبه بإخلاص مشاهده الوحيد. فاقترب

منه ووجّه إليه كلامه وهو يهز ذراعه هزاً خفيفاً، لأن الرجل الشجاع كان قد اتكأ على الحاجز وأخذته سنة من النوم.

قال جرنجوار: «سيدي، إنني شاكر لك.»

فأجاب الرجل الضخم وهو يتثاءب: «على ماذا؟»

فرد الشاعر: «إنني أرى ما يزعجك. إنها هذه الضجة التي تحول دون أن تسمع بسهولة. ولكن كن مطمئناً: سينتقل اسمك إلى الأحفاد. هل تسمح باسمك؟»

ـ «رينو شاتو، حافظ أختام الحصن وأختام باريس في خدمتك يا سيدي.»

ـ «سيدي، إنك هنا الممثل الوحيد لآلهة الشعر.»

فأجاب حافظ الحصن: «إنك شديد اللطف يا سيدي.»

وردد جرنجوار: «إنك الإنسان الوحيد الذي تفضل بالاستماع إلى المسرحية فكيف تجدها؟»

فأجاب الحكم الضخم في نصف يقظة: «لا بأس بها.» كان على جرنجوار أن يكتفي بهذا المديح، لأن عاصفة من التصفيق، ممتزجة بالهتافات السخية، قطعت حديثهما. لقد انتخب بابا المجانين.

كان الشعب يصرخ في كل مكان:

«نووال! نووال! نووال!» والحق أنها تكشيرة رائعة تلك التي شعت في ذاك الوقت من خلال الكوة. فبعد أن تتابعت كل الوجوه ذات الزوايا المخمسة والمسدسة أو الوجوه الشاذة، من خلال الكوة دون أن تحقق البشاعة للنموذجية المتكونة في الخيالات التي أثارها الاحتفال النهم الشديد، لم يبقَ للفوز في الاستفتاء، غير تلك التكشيرة الفائقة السمو التي بهرت المجتمعين منذ قليل. لقد صفق المعلم كوبانول نفسه، وكلوبان الذي اشترك في المباراة، واللّه يعلم ما عسى يبلغه قبح وجهه، قد اعترف بالهزيمة. وسنفعل نحن مثل ذلك. فلا نحاول أن نقدم إلى القارئ فكرة

عن الأنف الصلب ذي الوجوه الأربعة، وذاك الفم الذي يشبه حدوة الحصان، وتلك العين اليسرى الصغيرة التي يسدها حاجب أصهب أشعث بينما كانت العين اليمنى مختفية اختفاء كاملاً وراء ورم شديد الضخامة، وهذه الأسنان المنخورة المتكسرة المفلولة والمنتشرة هنا وهناك في فوضى ظاهرة، كأنها شرفات الحصن، وهاتيك الشفة الجاسية التي علتها سن من أسنان الفم فبرزت إلى الخارج كأنها ناب فيل، وتلك الذقن المتشعبة. كما يعجزنا بصورة خاصة أن نقدم فكرة عن صورة الوجه الممتد فوق هذا كله، عن هذا المزيج الذي اجتمعت فيه الدهشة والحزن والخبث.

لنحلم، إذا استطعنا، بهذا المجموع.

كان التأييد الهاتف تأييداً إجماعياً. فانطلق الناس نحو الكنيسة الصغيرة، وأخرج منها، بفخامة فائقة، الرجل السعيد، بابا المجانين. وهنا كانت المفاجأة والإعجاب قد بلغتا القمة. لقد كانت التكشيرة هي وجهه. وبتعبير آخر كان شخصه كله تكشيرة. رأس كبير تكاثف فيه شعر أصهب وبين الكتفين حدبة برز جانبها الآخر من الأمام، وجهاز الأفخاذ والأرداف قد ضللت أجزاؤه بصورة غريبة بحيث لا تتلامس إلا بالركبتين، فإذا نظر إليها من الأمام ظهرت وكأنها منجلان تلاقيا عند القبضة، أقدام عريضة، .ويدان مخيفتان بشعتان، وهو مع هذا التشويه كله يملك من الحيوية المرعبة والخفة والشجاعة شيئاً كثيراً. إنه استثناء غريب من القاعدة الخالدة التي تفرض أن تكون القوة كالجمال نتاجاً للانسجام. كان هذا هو البابا الذي اختاره المجانين لأنفسهم.

يكاد يظن الرأي أنه عملاق محطم قد فسد تلاحم أجزائه. وعندما ظهر هذا العملاق ذو العين الواحدة على عتبة الكنيسة الصغيرة، جامداً، ذا شكل مربع، داخلاً طوله في عرضه، مربعاً في قاعدته، كما قال رجل كبير، ذا ثوب فوقي أحمر وبنفسجي، وقد انتشرت أكوام النقود من حوله، وظهر قبحه الكامل بخاصة، أقول: عندما ظهر هذا الرجل عرفه الجمهور سريعاً فصرخ بصوت واحد:

«هذا كوازيمودو المعوج الساقين! نووال! نووال!»

نحن نرى أن لهذا الشيطان المسكين ألقاباً كثيرة للاستعمال.

كانت النساء يغطين وجوههن.

تقول إحداهن: «أوه! أي قرد كريه.»

فتردد الأخريات: «خبيث في حدود قبحه.»

وتضيف الثالثة: «إنه الشيطان!»

ـ من المؤلم أنني أسكن قريباً من نوتردام، فأسمعه الليل كله يدور في الميازيب.

ـ «مع القطط.»

ـ «إنه دائماً فوق سطوحنا.»

ـ «وهو يقذفنا بتمائمه السحرية من خلال المداهن.»

ـ «لقد أتاني في مساء سابق وكشر لي في كوتي. فخفت خوفاً شديداً ظناً مني أنه رجل.»

أما الرجال فقد كانوا، على العكس من النساء، فرحين، وكانوا يصفقون.

وكوازيمودو، موضوع الضجة الصاخبة كان لا يزال واقفاً عند باب الكنيسة لا يريم قاتماً ووقوراً، وقد ترك الناس يعجبون به. ثم تقدم منه أحد الطلاب، روبان بوسبان، على ما أظن، يضحك منه عن قرب. فاكتفى كوازيمودو بأخذه من حزامه ثم قذف به على عشر خطوات منه في وسط الناس. فعل هذا دون أن ينبس ببنت شفة.

واقترب المعلم كوبانول منه، معجباً به.

ـ «يا صليب اللّه! أيها الأب الأقدس! إنك أجمل قبح رأيته في حياتي. وإنك تستحق بابوية روما شأنك في باريس.»

فلم يجب كوازيمودو.

قال صانع الأحذية: «يا صليب اللّه! هل أنت أصم؟» وكان في الواقع كذلك. وتقدمت عجوز تخبر كوبانول عن صممه.

فقال صانع الأحذية ضاحكاً ضحكة فلاماندية ضخمة: «يا صليب اللّه! إنه بابا كامل.»

وصرخ جوهان، الذي كان قد نزل أخيراً من قمة دعامته ليرى كوازيمودو عن قرب قائلاً: «ها! لقد عرفته، إنه قارع أجراس أخي الكاهن. مرحباً، كوازيمودو!»

وفي هذه الأثناء انطلق الشحاذون والخدم والنشالون مجتمعين مع الطلاب، يأتون في موكب حافل بتاج بابوي من الورق المقوى والثوب المضحك لبابا المجانين. وترك كوازيمودو هؤلاء يلبسونه التاج والثوب دون أن تطرف له عين في نوعٍ من خضوع متكبر. ووضع فوق محفة مرقشة. وحمله اثنا عشر رجلاً من جمعية المجانين فوق أكتافهم، وهنا ارتسم على الوجه الحزين العملاق ذي العين المفردة فرح مرّ شديد الازدراء، حين رأى تحت قدميه المشوهتين كل الرؤوس الجميلة لهؤلاء الرجال الذين استقامت أجسادهم وحسن صنع أعضائهم. وابتدأ الموكب المُعوي، بثيابه الرثة البالية، طوافه الداخلي في بهاء القصر ومماشيه قبل خروجه إلى الشوارع ومفارق الطرق.

6 ـ الاسميرالدا

يسرنا أن نُعْلِم القُراء أن جرنجوار ومسرحيته قد صمدا صموداً شديداً أثناء هذا المشهد كله ـ فلم ينقطع ممثلوه، تحت تأثيره، عن إلقاء مسرحيتهم، ولم ينقطع هو شخصياً عن الاستماع إليها. لقد اتخذ موقفه من الضجة القائمة، مصمماً على السير حتى النهاية، مؤملاً رجوع الناس إليه. وقد انتعش شعاع هذا الأمل حين رأى كوازيمودو، وكوبانول، والموكب الصاخب لبابا المجانين يخرجون من الصالة في ضجة عالية. واندفع الجمهور من ورائهم في تعطش شديد. قال: «حسناً، ها هم المفسدون يذهبون.» والمؤسف أن الجمهور كله كان من المفسدين. فخلا البهو الكبير كله في طرفة عين.

والحق أنه قد بقي فريق من المشاهدين، بعضهم متفرق هنا وهناك، والبعض الآخر مجتمع حول الدعامات، نساء وعجزة وأطفال، أرهقهم ما سمعوه من الضجة والصخب.

وكان بعض من الطلاب باقياً فوق حواجب النوافذ ينظر إلى الميدان.

وفكّر جرنجوار قائلاً: «حسناً، هاك عدداً كافياً من الناس للاستماع إلى نهاية السر. إنهم قليلون. ولكنهم من النخبة، من المثقفين.»

أما السيمفونية التي كان عليها أن تحدث الأثر الكبير عند وصول القديسة البتول في فصل من فصول المسرحية، بعد فترة قصيرة، فلم تكن موجودة. لقد لاحظ جرنجوار أن موسيقاه قد حملها موكب بابا المجانين. ثم قال في ألم صابر: «انتقلوا إلى وراء هذا المشهد.»

واقترب من جماعة من البورجوازيين الذين خيِّل إليه أنهم يتحدثون عن مسرحيته. وهاك نتفاً من المناقشة الدائرة بينهم: «هل تعرف أيها المعلم شناتو، فندق نافار الذي كان ملكاً للسيد تيمور؟»

ـ «نعم، إنه القائم تجاه كنيسة براك.»

ـ «حسناً، لقد أجرته خزانة الدولة لغليوم أليكساندر بمبلغ ست ليرات وثمانية دراهم في السنة.»

ـ «كم ترتفع الأسعار!»

فقال جرنجوار لنفسه: «هيا، إن الآخرين يستمعون.»

وصرخ فجأة واحد من أولئك القابعين فوق النوافذ: «الاسميرالدا! الاسميرالدا في الميدان!»

فأحدثت هذه الكلمة أثراً سحرياً. وقفز جميع من في البهو نحو النوافذ متسلقين الجدران لينظروا، مرددين: «الاسميرالدا! الاسميرالدا!»

وفي الوقت نفسه سُمعت في الخارج ضجة تصفيق شديد. قال جرنجوار وهو يشبك يديه حزيناً: «ماذا تعني هذ الاسميرالدا؟ آه! يا إلهي! الظاهر أن دور النوافذ قد أتى الآن.»

والتفت نحو المنضدة الرخامية فوجد أن المسرحية قد توقفت. لقد كانت الفترة فترة ظهور جوبيتر مع صاعقته. ولكن جوبيتر بقي جامداً تحت المسرح.

وصرخ الشاعر الثائر: «ميشال كيبورن، ماذا تصنع هنا! أليس هذا دورك؟ اصعد إذن!»

قال جوبيتر: «آسف يا سيدي، فإن طالباً أتى وأخذ السلم.»

ونظر جرنجوار. فتحقق من الأمر. وانقطعت كل علاقة بين عقدته المسرحية وبين حلها.

فدمدم قائلاً: «ولِمَ أخذ هذه السلم بالذات؟» فأجاب جوبيتر بطريقة مثيرة للشفقة: «أخذها ليرى الاسميرالدا.»

لقد قال: «انظروا، هذه سلم غير مستعملة!» ثم حملها.

كانت هذه آخر الصدمات. وقد تلقاها جرنجوار بصبر راض.

ثم قال لممثليه: «ليحملكم الشيطان! سأدفع لكم إن دُفِعَ لي.»

وهنا تراجع جرنجوار منخفض الرأس، ولكن كقائد الجيش الباسل الذي هو آخر من يتراجع ويعترف بهزيمته.

كان يزمجر بين أسنانه قائلاً وهو ينزل درجات سلالم القصر الملتوية: «كم هم غلاظ حمقى وحمير هؤلاء الباريسيون، إنهم يأتون ليستمعوا إلى مسرحية السر، فلا يسمعون منها شيئاً! لقد شغلوا بكل الناس، بكلوبان ترويفو، بالكاردينال، بكوبانول، بكوازيمودو، بالشيطان! أما بالسيدة مريم البتول فلا. ولو كنت أعلم لأعطيتكم كثيراً من العذارى، أيها الكسالى الأغرار! لقد أتيت لرؤية وجوه، فما رأيت غير الظهور! صحيح أن هومير قد تسول في القرى اليونانية، وأن نازون قد مات منفياً عند المسكوفيين، ولكنني أرجو أن يسلخ الشيطان جلدي إن أنا فهمت ما يعنون بكلمة الاسميرالدا! فما هي هذه الكلمة؟ إنها فيما يخيّل إليّ لغة المصريين القدماء!»

الكتاب الثاني

1 ـ من سيئ إلى أسوأ

يهبط الليل باكراً في كانون الثاني. لذلك كانت الشوارع قاتمة حينما خرج جرنجوار من القصر. وقد سرّه هذا الليل الهابط، كي يسير متخفّياً في شارع قاتم خال من الناس ويتأمل فيه متمهلاً، ولكي تصنع شخصيته الفلسفية جهازها الأول فوق جراح شخصيته الشاعرية. على أن الفلسفة قد كانت له ملجأه الوحيد، فلم يكن يدري أين يقضي ليله، بعد الإجهاض الفاضح الذي أصاب محاولته المسرحية، ولم يكن يجرؤ على الدخول إلى منزله، شارع ـ جرونيا سورلو ـ تجاه بُوراأو فوان ـ وهو الذي اعتمد على ما كان يجب أن يدفعه له السيد رئيس الشرطة مقابل قصيدته في تهنئة الزوجين الملكيين على زفافهما ثم يدفع هو بدوره للسيد صاحب منزله ما كان مديناً له به من أجور سكن لستة أشهر، أي اثني عشر درهماً، أو اثني عشر صنفاً لكل ما كان يملكه في هذا العالم، يدخل في ذلك حذاؤه وقميصه وقبعته. وبعد أن فكّر قليلاً، وهو قابع وقتياً تحت سقف كوخ سجن صاحب صندوق سانت شابل، في الملجأ الذي يختاره لقضاء ليله، وقد وضعت أرصفة باريس كلها تحت تصرفه، تذكر أنه قد لمح في الأسبوع الماضي، في شارع لاسافتري، عند باب منزل مستشار في البرلمان، درجاً، قال في نفسه عنده، إنه قد يصلح يوماً مخدة جيدة جداً لمتسول أو لشاعر.

وشكر العناية الإلهية التي أرسلت إليه هذه الفكرة، ولكنه بينما كان

يستعد لاجتياز ميدان القصر ليبلغ مداخل المدينة القديمة المعقدة الملتوية، حيث تزحف كل هذه الأخوات الهرمات، شوارع الباريباري، وفياي، درابري، وسافاتري، وجويفري إلخ. . . رأى موكب بابا المجانين يخرج من القصر أيضاً ويتجه معترضاً طريقه بصيحات عالية، وأنوار من المشاعل كبيرة، والآلات الموسيقية التي أخذت منه.

وقد بعثت هذه المناظر الألم في تسلخات كرامته فهرب. كان في خضم مغامراته الفاشلة يحس أن كل ما يذكره بُعَيْدَ النهار يؤلمه ويدمي جراحه.

أراد أن يسير فوق جسر القديس ميشال، ولكنه وجد فيه أطفالاً يتراكضون هنا وهناك وفي أيديهم رماح ملتهبة وصواريخ.

قال جرنجوار: «ليصب الطاعون هذه المشاعل النارية.» ثم رجع إلى جسر «أوشانج» الذي كانت قد ربطت بالمنازل المتصلة به ثلاثة أشكال ترمز إلى الملك وولي العهد ومارغريت دوفلاندر، وستة أخرى صغيرة ترمز إلى دوق دوتريش، وكاردينال دو بوربون. والسيد بوجو، والسيدة حنة دو فرانس، ثم السيد نفيل دو بوربون، وما لا أعرف أيضاً من الناس الآخرين. كل من هذه الأشكال كانت تنيره المشاعل. والجماهير واقفة تعجب بها وتتأمل فيها.

قال جرنجوار في زفرة كبيرة: «كم أنت سعيد أيها الرسام جوهان فوربو!» ثم أدار ظهره للأشكال الكبيرة والصغيرة. فوجد أمامه شارعاً، بدا من الظلمة والعزلة بحيث أمل أن يتخلص فيه من كل الأصداء ومن كل إشعاعات العيد. وتقدم فيه. ولم تكد فترات قصيرة تمر به، حتى صدمته إحدى العقبات فعثرت رجله ووقع. إنه حذاء أيار الذي كان صعاليك الصبيان قد وضعوه عند باب رئيس البرلمان، احتفالاً بروعة هذا اليوم. فتحمّل جرنجوار هذه الصدمة الجديدة ببطولة بالغة. ثم نهض واتجه نحو حافة الماء. وبعد أن خلف وراءه البرج الاجرامي، وقطع الجدار الطويل لحدائق الملك، فوق هذه الأزقة غير المبلطة حيث كانت الوحول تبلغ

كعب قدمه، وصل إلى الجهة الغربية من المدينة القديمة، وتأمل قليلاً جزيرة رعاة البقر الصغيرة التي اختفت من ثم تحت حصان البرونز والبون ـ نوف. لقد كانت هذه الجزيرة الصغيرة تبدو له كتلة سوداء فيما وراء المجرى المائي الضيق المائل إلى البياض والذي يفصله عنها. فيتبين فيها الناظر عند بزوغ نور ضئيل، كوخاً على شكل منحلة كان يلجأ إليه رعاة البقر عند الليل.

وفكّر جرنجوار قائلاً: «كم أنت سعيد يا راعي البقر! فأنت لا تفكّر في المجد ولا تنظم قصائد تهنئة على زفاف! وماذا يهمك من الملوك الذين يتزوجون ومن دوقات بورغونيا! إنك لا تعرف من المرغريت(*) غير التي تنبت فوق مراعيك الخضراء وتقضمها بقراتك! وأنا الشاعر الفنان، يُهزأ بي وأُهاجم، ثم أرتجف من البرد الشديد، وأجد نفسي مديناً باثني عشر درهماً، وأما نعلي فهو من الشفافية بحيث يصلح زجاجاً لمصباحك. شكراً يا راعي البقر! لقد أراح كوخك نظري، وأنساني باريس!»

واستيقظ من نشوته الغنائية على التقريب، بفرقعة مزدوجة انطلقت فجأة من الكوخ السعيد. لقد كان راعي البقر يشارك نصيبه في متع النهار ويطلق ألعاباً نارية.

لقد سحقت هذه الفرقعة جلد جرنجوار.

فصرخ قائلاً: «أيها العيد الملعون! هلا ستلاحقني في كل مكان؟ أوه! يا إلهي! حتى عند راعي البقر!» ثم نظر إلى نهر السين عند قدميه وقد استولت عليه رغبة مغرية بشعة.

وقال: «أوه، لكُنت أغرق نفسي مختاراً، لو لم يكن الماء شديد البرودة!»

وهنا سرى في جسده عزم يائس على الاندماج بجرأة في وسط العيد والذهاب إلى ميدان جريف بعد أن عجز عن التخلص من بابا المجانين والأشكال الرمزية المرسومة لجوهان دو فوربو وأحذية أيار والمشاعل الملتهبة والمفرقعات.

وردد قائلاً: «قد أقع هناك في كل حال على جمرة من نار الفرح تبعث الدفء في جسدي، وأتعشى بفتات من الشعارات الكبيرة الثلاثة المصنوعة من السكر الملكي، والتي يجب أن تكون موضوعة فوق مقصف المدينة العمومي.»

2 ـ ميدان جريف

لم يبقَ اليوم غير بقايا ضئيلة جداً من ميدان جريف على هيئتها السابقة يومئذ.

إنه البرج الصغير الذي يشغل الزاوية الشمالية من الميدان، مختفياً وراء الطلاء البشع الذي يلوث الزوايا الناتئة الحادة للمنحوتات تلويثاً شديداً، وقد يختفي فتغرقه موجات البيوت الجديدة التي تلتهم كل شرفات باريس القديمة.

إن أشباهنا من الناس الذين لا يمرون أبداً بميدان جريف دون أن يلقوا نظرة إشفاق وحب على هذا البرج الصغير المختنق بين منزلين متداعيين من عهد لويس الخامس عشر، يستطيعون أن يبنوا مرّة أخرى في أذهانهم مجموع الأبنية التي تنتسب إلى هذا الميدان، فيجدونه، على شكله الغوطي القديم في القرن الخامس عشر، كاملاً غير منقوص.

لقد كان، كما هو اليوم، مربعاً منحرفاً غير منتظم الجوانب يحيط به رصيف الميناء من جهة، وتحيط به من الجهات الثلاث الأخرى بيوت ضيقة قائمة.

كان يرتفع في الوسط، وإلى الجهة الشرقية من الميدان بناء ثقيل مختلط يتكوّن من ثلاثة مساكن متلاصقة. وكان يسمى بثلاثة أسماء تفسر تاريخه والغاية منه وطرازه الهندسي: بيت ولي العهد لأن ولي العهد شارل الخامس كان يسكنه، وبيت التجارة لأنه كان يستعمل كمركز للبلدية، ثم بيت الدعامات لأن سلسلة منها كانت تحمل طبقاته الثلاث. كانت المدينة

تجد في هذا البناء كل ما تحتاج إليه مدينة حسنة كباريس: كنيسة للصلاة إلى اللّه، ومرافعة قانونية للاشتراك في جلسة محاكمة وتعنيف رجال الملك عند الضرورة، ومخزن مملوء بالمدفعية. لأن بورجوازيي باريس يعرفون أنه لا يكفي أن نصلي إلى اللّه وأن نلقي مرافعة دفاعاً عن حقوق المدينة القديمة فهم يملكون، على سبيل الاحتياط دائماً في مخزن من مخازن بناية البلدية، بعضاً من البنادق الجيدة الصدئة.

لقد كان لميدان جريف منذئذ هذا المنظر المشؤوم الذي تحتفظ له به اليوم الفكرة الممقوتة التي يبعثها في ذاكرة الناس، وبناية البلدية القائمة لدومينيك بوكادور، التي حلّت محل بيت الأعمدة. ومن الواجب القول إن مشنقة ووتداً كانا منصوبين أحدهما إلى جانب الآخر في وسط الميدان، ولا يساعدان على إطالة النظر في هذا الميدان المخيف، حيث احتقر كثير من الناس وهم في صحة جيدة وحياة حسنة، وحيث وُلِدت بعد ذلك بخمسين سنة، حمى القديسة فاليا، أو بعبارة أخرى وُلِد وباء إرهاب المشنقة، وهو أخطر الأوبئة لأنه لا يأتي من اللّه بل من الإنسان.

إنها خاطرة تحمل العزاء، نقولها ونحن نمرّ مسرعين، أن نفكّر في أن تنفيذ الإعدام الذي كان يملأ، منذ ثلاثمائة سنة، بعجلاته الحديدية، ومشانقه الحجرية، وأجهزته الدائمة للتعذيب والمركوزة في وسط الساحة وأنه كان بهذا كله يملأ الجريف، والأسواق، وميدان دوفين، وصليب تراهوار، وسوق الخنازير الصغيرة، ومونفوكون الكريه، وحاجز الرقباء من الجنود، وميدان القطط، وباب القديس دنيس، وشامبو، وباب بودا، وباب القديس جاك هذا دون أن نحصي أوتاد رؤساء الشرطة والأسقف ومجالس الرهبان، ورؤساء الأديرة والقضاة من الكهان الرؤساء، ودون أن نحصي أيضاً عمليات الإغراق القانونية في نهر السين... أقول إنه عزاء لنا اليوم، بعد أن فَقَد هذا الميدان أجزاء دروعه على التتابع، وأجهزة تعذيبه، وعقوباته التي يبدعها الخيال والشهوات، وتعذيبه التي يصنع له كل خمس سنوات سرير من الجلد، عزاء لنا أن هذا كله قد أخرج من مجموعة

قوانيننا ومدننا، وطرد من تشريعاتنا واحداً وراء الآخر، وأبعد من ميدان إلى ميدان، ولم يعد له في باريسنا المترامية الأطراف، غير زاوية من الجريف مجردة من كل معاني الشرف، غير مقصلة بائسة قلقة حيية خجلة، تبدو وكأنها خائفة أن تؤخذ بالجرم المشهود مع أنها تختفي سريعاً بعد أن ترسل ضربتها الحاسمة إلى فريستها التي توضع بين يديها.

3 ـ الشاعر المرتبك

كان جرنجوار يرتعد من البرد حين بلغ ميدان الجريف. وقد اتخذ طريقه إلى الميدان فوق جسر الطحانين ليتجنب جسر «أوشانج» وأشكال جوهان فوربو المرسومة، ولكن عجلات مطاحن الأسقف قد أصابته برشاش مائها فابتلّت بزته. وقد كان يبدو له بالإضافة إلى ذلك، أن سقوط مسرحيته قد جعله أكثر صرداً(*) فأسرع مقترباً من نار الفرح التي كانت تشتعل رائعة في وسط الميدان. ولكن جمهوراً كبيراً كان يحيط بها فلا يترك منفذاً.

قال في نفسه: «سحقاً لكم أيها الباريسيون!» لقد كان جرنجوار بصفته شاعراً دراميأ حقيقياً، موضوعاً لأدوار المناجاة الفردية. قال «ها هم يضيقون الخناق عليّ! ومع ذلك فأنا في حاجة ماسة إلى زاوية من زوايا المدفئة. إن حذائيَّ يشربان الماء، كما بكت هذه المطاحن الملعونة من فوقي غزيرة الدموع! كم هو شيطان رجيم، أسقف باريس مع طواحينه! وكم أتمنى أن أعرف ما يستطيع أسقف أن يعمله بطاحونة! فهل ينتظر أن يصبح أسقفاً طحاناً! ولئن لم يبق غير لعنتي ليكونه، فإنني أمنحه إياها كما أمنحها لكاتدرائيته وطواحينه أيضاً! لنرَ قليلاً ما إذا كان هؤلاء البلهاء سيزعجون أنفسهم! إنني أسألكم عما يصنعون هنا! إنهم يتدفأون، كم هذا لذيذ! إنهم ينظرون أكداساً من الأخشاب الضئيلة تحترق، كم هو مشهد جميل!»

ثم أدرك بعد مزيد من التدبر والتفكير، أن الدائرة التي كوّنها المشاهدون حول النار أوسع من أن تسمح بالتدفؤ بنار الملك، وأن هذا الحشد الكبير من المشاهدين لم يكن منجذباً بجمال الهشيم والأخشاب المحترقة فقط.

لقد كانت في الفضاء الرحب بين النار والجمهور فتاة ترقص. وطبيعي أن جرنجوار لم يستطع للوهلة الأولى أن يحكم ما إذا كانت هذه الفتاة كائناً بشرياً أو شيطانة من الجن أو ملاكاً، وهو الفيلسوف الشكاك والشاعر الساخر بكليته، وقد بهره المشهد الساحر الرائع.

لم تكن طويلة، ولكنها كانت تبدو كذلك، وقوامها الدقيق ينطلق جريئاً وكأنه سهم ذو ريش. لقد كانت سمراء، ولكن جلدها في نظر المراقب، يبدو في وضح النهار وكأنه يجب أن تكون له الشعاعة الذهبية للرومانيات والأندلسيات وكذلك قدمها، فقد كانت أندلسية، صغيرة متجمعة بكليتها: ضيقة في راحة، بحذائها الحلو اللطيف. كانت ترقص، وتدور، وتثير من حولها إعصاراً عاصفاً فوق بساط فارسي عتيق ألقي تحت قدميها في غير قصد قاصد، وكانت عيناها السوداوان الكبيرتان تقذفان من حولها الناس ببريق لامع كلما لوحت وهي تدور، بوجهها المشع مارة بالقرب منهم.

كانت الأنظار كلها موجهة إليها، والأفواه كلها فاغرة، والواقع أنها بينما كانت ترقص على صدى دفقات دفّها الذي كانت ترفعه ذراعاها المستديرتان الصافيتان إلى فوق رأسها، دقيقة، دقيقة، مفعمة بالحياة وكأنها الزنبور، وبينما كانت تحمل مشدها الذهبي الأملس، وثوبها المنتفخ المرقش، وكتفيها العاريتين، وساقيها الممشوقتين اللتين تنكشف عنهما «تنورتها» بين الفينة والفينة، وشعرها الأسود، وعينيها اللاهبتين كانت تبدو مخلوقة مما وراء الطبيعة.

قال جرنجوار في نفسه: «الحقيقة، إن هذه هي السمندل، بل حورية من الآلهة، بل هي إلـهة، أو كاهنة من كاهنات قمة مينااليان!»

وفي هذه الأثناء انحلت من شعر هذه «السمندل» ضفيرة ودرجت فوق الأرض قطعة من النحاس الأصفر كانت بها موصولة. قال: «ها! إنها غجرية.»

وهكذا اختفى كل وهم من أوهامه.

وعادت الفتاة ترقص مرة أخرى. ورفعت سيفين عن الأرض وركّزت رأسيهما فوق جبهتها ثم جعلت تديرهما في اتجاه معاكس لاتجاه دوراتها الراقصة. لقد كانت في الحقيقة الصريحة الواضحة فتاة من الغجر. ومهما يكن تحرر جرنجوار من روعة هذه الفتاة، فلم يكن يخلو مجموع هذه اللوحة من سحر وأصالة، وكانت نيران الفرح تبعث بشعاع فياض آخر يضيء هذه اللوحة، ويضطرب حياً فوق دائرة وجوه الحشد من الناس، وعلى جبهة الفتاة، ثم ترسل في أعماق الميدان شعاعاً باهتاً، ممتزجاً بذبذبات ظلالهم، فوق الشرفة السوداء المجعدة لبيت الأعمدة من جانب، وأذرعة المشنقة الحجرية من جانب آخر.

بين هذه الآلاف من الوجوه التي كان يلونها اللهب باللون الأحمر القرمزي، وجه يبدو أكثر استغراقاً في تأمل الفتاة الراقصة. لقد كان وجه رجل، صارم، هادئ وقاتم. لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره فيما يظهر، وهو الذي خفيت بزته وراء الحشود التي كانت تحيط به، وكان أصلع في الوقت نفسه، لم يكد يبقى له في فوديه غير خصلات من شعر أبيض متناثر، وابتدأت التجعدات تنحفر في جبهته العالية العريضة، أما في عينيه الغائرتين فقد كان شباب عجيب وحياة لاهبة، وهو عميق. وقد أبقى عينيه موصولتين بالغجرية. وبينما كانت فتاة السادسة عشرة ترقص مجنونة، وتجنح في غمرة من لذة الناس جميعاً، كانت أحلامه اليقظة فيما يظهر تزداد قتامة بصورة مطردة. وكانت تلتقي على شفتيه بين الفينة والفينة، ابتسامة وزفرة، ولكن ابتسامته كانت أكثر ألماً من زفرته.

وتوقفت الفتاة عن الرقص بعد أن أخذ منها التعب مأخذه، فصفق لها الجمهور في حب خالص.

قالت الغجرية: «دْجالي».

وهنا شاهد جرنجوار عنزة صغيرة جميلة بيضاء، حذرة، شديدة اليقظة يزينها قرنان ذهبيان وأظلاف ذهبية، وعقد ذهبي أيضاً، ولم يكن قد لحظها حتى وقتئذ، وهي الجاثمة فوق طرف من أطراف البساط تنظر إلى سيدتها الراقصة. قالت الراقصة: «دجالي، لقد جاء دورك.»

وقدمت، وهي تجلس، بحركة رقيقة لطيفة، إلى عنزتها، الدف الذي كانت تحمله.

ثم تابعت قائلة: «دجالي، في أي شهر نحن من السنة؟» فرفعت العنزة ظلفها الأمامي ونقرت به الدف نقرة واحدة. لقد كان الشهر الأول من السنة في الحقيقة، وصفق الجمهور.

ثم رددت الفتاة قائلة وهي تقلب دفها: «دجالي، في أي يوم من الشهر نحن؟»

ورفعت دجالي ظلفها الذهبي الصغير، ونقرت على الدف ست نقرات متتابعة.

وتابعت الغجرية أسئلتها مع حركة جديدة من حركات الدف: «في أية ساعة نحن من هذا اليوم؟»

فنقرت دجالي سبع نقرات في الوقت نفسه الذي كانت فيه ساعة بيت الأعمدة تدق السابعة.

لقد كان الشعب في دهشة غامرة حقاً.

ـ «إن وراء هذا كله لسحرا» عبارة أطلقها صوت من الجمهور مشؤوم. لقد كان صوت الرجل الأصلع الذي لم تكن عيناه تفارقان الفتاة.

صمتت الفتاة حائرة، والتفتت تنظر، لكن التصفيق المتفجر قد أغرق هذه الملاحظة التعجبية الشرسة في غمرته. بل إنه محا كل أثر لها في نفس الفتاة التي راحت تتابع محاورتها مع العنزة الصغيرة.

ـ «دجالي، كيف يتصرّف السيد غيشار جران ـ ريمي قائد رماة

المدينة في موكب عيد دخول المسيح إلى الهيكل؟»

فانتصبت دجالي واقفة على قدميها الخلفيتين وأخذت تثغو وهي تمشي بوقار هو من اللطف بحيث إن جموع المشاهدين قد انطلقت في ضحكة عالية أمام الإخلاص المصطنع لقائد رماة المدينة.

وقالت الفتاة، وقد شجعها النجاح المتعاظم: «دجالي، كيف يعظ السيد جاك شارمولو، نائب الملك في محكمة الكنيسة؟»

فجلست العنزة على مؤخرتها جلسة مطمئنة وأخذت تثغو، وهي تمد قدميها الأماميتين بطريقة هي من الغرابة بحيث إن جاك شارمولو قد ظهر فيها، بحركته ولهجته وأوضاعه المختلفة، لولا خلو المشهد من الفرنسية واللاتينية الرديئتين.

هذا والجمهور يصفق بحماسة بالغة متعاظمة. وارتفع صوت الرجل الأصلع مرة ثانية يقول: «هذا تدنيس وانتهاك لحرمة المقدسات!»

والتفتت الغجرية مرة أخرى. وقالت: «آه، إنه هذا الإنسان الكريه نفسه!» وكشرت له، مادة شفتها السفلى إلى ما وراء شفتها العليا في حركة ظهرت وكأن عهدها به قديم، واستدارت حول كعبها، وانطلقت تجمع عطيات الناس في دفها الذي كانت تحمله.

ونزلت قطع النقود كأنها شآبيب المطر. حتى بلغت الفتاة جرنجوار، الذي وضع يده في جيبه، بحركة طائشة ثم لم تلبث حتى توقفت وعقَّب الشاعر قائلاً: «يا للشيطان!» بعد أن وجد الحقيقة في قاع جيبه، وجد الفراغ. وفي هذه الأثناء كانت الفتاة هناك، تنظر إليه بعينيها الكبيرتين، وتمد له دفها منتظرة. أما جرنجوار فقد كان يتفصد حبات كبيرة من العرق.

كان جديراً أن يعطيها «البيرو» كلها لو أنها كانت في جيبه، ولكن جرنجوار لم يكن يملك «البيرو». يُضاف إلى ذلك أن أميركا لم تكن قد اكتُشفت بعد.

ولم يلبث، لحسن حظه، أن أنجده حادث طارئ. لقد صرخ صوت حاد منطلق من أشد أطراف الميدان قتامة يقول: «هل ستذهبين، أيتها الجرادة الغجرية؟»

فالتفتت الفتاة مذعورة، إنه لم يعد صوت الرجل الأصلع، بل كان صوت امرأة، صوتاً خبيثاً.

ومع ذلك فإن الصوت الذي ذعرت منه الغجرية، قد بعث المرح في مجموعة من الأطفال كانت تضطرب بهم خطاهم هناك.

قالوا صارخين وقد أطلقوا ضحكات غير منتظمة: «هذه حبيسة برج رولان، إنها السجينة التي تدمدم! فهل لم تتناول عشاءها حتى الآن، لنحمل إليها بقية من فتات مقصف المدينة!»

وانطلق الجميع نحو بيت الأعمدة.

وفي هذه الأثناء استغل جرنجوار اضطراب الراقصة وانكفأ يختبئ، وذكّره هتاف الأطفال أنه هو أيضاً لم يتناول عشاءه بعد. وانطلق نحو المقصف. ولكن سيقان الأطفال كانت أفضل من ساقيه، فلم يكد يبلغ المكان حتي وجد أنهم قد أتوا على كل ما فيه من الطعام. ولم يبقَ على الجدار غير زهور ممشوقة من الزنبق، تتخللها ورود، مرسومة سنة 1434 بيد ماتيو بيتارن. لقد كان عشاء ضئيلاً.

إنه لمزعج حقاً أن ينام المرء على الطوى، ويزيد الطين بلة أن ينام المرء دون عشاء وألا يعرف أين يقضي ليلته. تلك كانت حال جرنجوار: لا خبز، ولا مأوى، كان يجد نفسه مزحوماً بالفاقة الشديدة من كل مكان، وكانت هذه الفاقة فاقة محشوة مكتنزة. كان قد اكتشف هذه الحقيقة منذ زمن طويل، حقيقة أن جوبيتر قد خلق الناس في غمرة من التشاؤم وأن قدراً يحكم يضع فلسفته، طوال حياته، في حالة طوارئ. أما فيما يتعلق به، فإنه يشهد الحصار كامل مشاهداته يومذاك، لقد كان يسمع معدته تدق طبول الاستسلام، وكان يجد في القدر الغاشم الذي أخذ بفلسفته من خلال الجوع، شيئاً بعيداً عن أن يكون في مكانه الذي وجد

له. كانت أحلام اليقظة هذه تستغرق انتباهه كله بصورة متزايدة، حين انتزعه منها، غناء غريب رغم امتلائه بدفق من الرقة البالغة، لقد كنت الفتاة الغجرية تغني.

كان غناؤها رائعاً روعة رقصها. وجمالها الجسدي كان شيئاً ظريفاً، مستعصياً على التحديد، شيئاً صافياً، رناناً، هوائياً، مجنحاً. إن صح قوله. لقد كان سلسلة لا تنقطع من البشر المنطلق، والألحان، والتوقيعات المفاجئة، ثم جملاً بسيطة انتثرت بينها أنغام حادة صافرة، ثم قفزات في سلم النغم جديرة أن تروّع البلبل، ولكنها لا تلبث دائماً حتى تجد انسجامها وتناغمها، ثم تموجات رخية خلال أبعاد السلم اللحنية ترتفع وتنخفض كما يرتفع ثديا مغنية شابة وينخفضان. وكان وجهها الجميل يتتبع طفرات غنائها في حركية فريدة، ابتداء من الإلهام في أروع حدته حتى الجلال في أروع خفره. فيكاد السامع يقول: إنها مجنونة تارة وملكة تارة أخرى.

كانت الكلمات التي تغنيها من لغة يجهلها جرنجوار، بل كانت تبدو له مجهولة من قبل الفتاة نفسها، ما دام التعبير الذي تسكبه في الغناء ذا صلة ضئيلة بمعنى هذه الكلمات.

كان جرنجوار يحس أن الدموع في عينيه بينما كان غناؤها يتنفس المرح الغامر بصورة خاصة، وهي تبدو في غنائها، كالعصفور، في بساطته وشفافية نفسه.

لقد بعث غناء الغجرية اضطراباً في أحلام جرنجوار اليقظة، ولكن كما يكون الاضطراب الذي تبعثه البجعة في الماء. كان يستمع إليها في نوع من لذة غامرة ونسيان مطلق لكل شيء. لقد كانت الدقائق الأولى التي لم يشعر فيها بالألم منذ ساعات طويلة كثيرة.

وكانت الدقائق قصيرة.

فقد ارتفع الصوت النسائي نفسه يقطع هذا الغناء بعد أن قطع رقص الغجرية من قبل.

قالت المرأة صارخة، من زاوية الميدان المظلمة نفسها: «هل ستسكتين يا زيز جهنم؟»

وتوقف الزيز المسكين عن الغناء. وأغلق جرنجوار أذنيه، قائلاً:

«أوه، يا للمنشار الوحشي الملعون، الذي حطم القيثارة!»

وفي هذه الأثناء أخذ المشاهدون الآخرون يدمدمون مثله: «إلى الشيطان أيتها الحبيسة!» قالها أكثر من واحد. وكادت العجوز الخفية التي بعثت على الاضطراب في هذا العيد أن يصيبها ما يدفعها إلى التوبة عن عدوانها على الغجرية، لولا أن الناس قد شغلوا عنها آنئذ، بموكب بابا المجانين، الذي كان يصب في ميدان جريف بمشاعله وضجيجه كله بعد أن طاف غير قليل من الشوارع ومفارق الطرق.

إن هذا الموكب الذي شهده القُراء يخرج من القصر، قد تجمعت صفوفه خلال الطريق، وتطوع للسير فيه كل من كان في باريس من حثالة الناس، واللصوص العاطلين عن العمل، والمتشردين، فكان يقدم إلى الناظرين مشهداً جليلاً حين وصل إلى جريف.

أما شعب الغجر فكان يمشي في المقدمة. وعلى رأس صفوفه دوق بوهيميا فوق حصانه، مع كبار أعوانه، مشاة على أقدامهم، يمسكون له زمام الحصان وركابه، ووراءهم ينطلق الغجريون والغجريات في فوضى بالغة مع صغار أطفالهم الذين كانوا يصرخون فوق أعناقهم، كلهم، دوقاً، وأعواناً، ودهماء، في ثياب رثة، وأزياء باهتة بالية. ثم تتلو هؤلاء مملكة «الأرجو» أي مملكة لصوص فرنسا، في صفوف متدرجة في القيمة والنوعية، والأدنون يسيرون في الصفوف الأولى. وهكذا يسير أكثر المشوهين في صفوف منتظمة في كل منها أربعة أشخاص، وعلى صدورهم شارات مختلفة تدل على درجاتهم في هذه الكلية الغريبة. هؤلاء عرج، وأولئك مبتورو الذراع ثم الأقزام، فالمتشردون والأوغاد والجبناء والخبثاء والأيتام وكثرة أخرى من صنوف الناس الذين يتعبون هوميروس نفسه لو قصد إلى إحصائهم وتصنيفهم. وفي وسط الصفوف

يكاد ملك «الارجو» يظهر جالساً القرفصاء فوق عربة صغيرة يجرها كلبان كبيران. ثم تأتي بعد مملكة الارجوتية، امبراطورية جبل الجليل. لقد كان غليوم روسو، امبراطور الجليل، يسير بجلال في ثوبه الأرجواني الملطخ بالنبيذ، يتقدمه بهلوانيون يرقصون ويقتتلون، ويحيط بهم حراس يحملون العصي الغليظة، وأعوان آخرون. وأخيراً يظهر زعماء جمعية أخوية المجانين وهم يحملون فوق أعناقهم محفة أثقلتها الشموع بأكثر مما يثقل بها صندوق ذخائر كنيسة القديسة جنفياف خلال أيام الطاعون. ويزدهي فوق هذه المحفة بابا المجانين الجديد، قارع أجراس كنيسة نوتردام، كوازيمودو الأحدب، وقد اعتمر بقبعة الأسقفية وحمل عصاها ولبس ثوبها.

وكان لكل صنف من أصناف الموكب الغليظ موسيقاه الخاصة. وخيرها تلك التي كانت ترافق بابا المجانين نفسه! وإنه لمؤسف حقاً أن قراءنا يذكرون أنها آلات جرنجوار الموسيقية.

ومن الصعب حقاً أن نعطي فكرة عن درجة البشر المتكبر الأبله التي بلغها وجه كوازيمودو القبيح الحزين خلال المسافة المجتازة بين القصر وجريف. لقد كانت المتعة التي أحس بها في إعماق كيانه، أنه لم يكن يعرف حتى ذاك اليوم غير الإذلال، والاحتقار لطبقته، والتقزز من شخصه.

كما أنه كان يتذوق، رغم صممه، كبابا حقيقي، هتافات هذا الجمهور الذي كان يحتقره، لأجل أن يشعر أنه مكروه منه فقط. ولا يعنيه أن يكون شعبه من المجانين، واللصوص والمتسولين! لقد كان شعباً في كل حال وكان هو سيداً له. كان يأخذ هذا التصفيق الهادئ مأخذ الجد، وكذلك الاحترامات الساخرة، التي يمتزج بها، في نفوس الجماهير، قليل من خوف حقيقي واقعي. ذلك لأن هذا الأحدب كان قوياً صلباً، ولأن ذا الساقين المعوجتين خفيف سريع الحركة، ولأن الأصم خبيث فاسد السريرة: خصائص ثلاث تخفف من شدة الهزء والسخرية.

على أننا بعيدون جداً عن أن نظن بأن بابا المجانين الجديد واع مدرك للمشاعر التي يحس بها أو التي يبعثها في نفوس الآخرين. فالعقل الذي كان يتربع في هذا الجسد الناقص هو نفسه يملك بالضرورة شيئاً فيه نقص وقصور وفيه صمم أيضاً. كما أن ما كان يحسّ به حينئذ هو مبهم غامض ضائع الحدود. والفرح وحده هو الذي كان يبرز ويخترق الحواجز، والكبرياء التي كانت تسيطر أيضاً. ثم لم يكن حول هذا الوجه البائس المظلم غير الإشعاع.

لهذا كله، لم يكن من المنتظر أو مما يخلو من الخوف، أن ينطلق أحد الناس نحو كوازيمودو بصورة مفاجئة، حيث استغرقته هذه السكرة المزدهية، ماراً أمام بيت الأعمدة بكل أبهته، وأن ينتزع من بين يديه، وبحركة غاضبة ثائرة، عصاه الخشبية الذهبية، شارة بابويته المجنونة.

لقد كان هذا الرجل الجريء، هو نفسه، الرجل الأصلع الذي بعث القشعريرة في الفتاة الغجرية المسكينة بأقواله وتهديده وكرهه، قبيل ذلك بقليل، حين كان مختلطاً بجماعة الفتاة الغجرية. لقد كان يلبس زيه الكهنوتي. وقد عرفه جرنجوار حين خرج من بين الناس، في صرخة اندهاش: «إنه أستاذي في الهرمس، دوم كلود فروللو. يا للشيطان! ما الذي يبغيه من هذا الأعور الكريه؟ إنه سيقتل نفسه.»

والواقع أن صراخاً مرعباً قد ارتفع. فقد نزل كوازيمودو المخيف من المحفة، واستدارت النساء حتى لا يرينه يمزق الكاهن.

وبقفزة واحدة بلغ الكاهن، ونظر إليه ثم جثا على ركبتيه.

أما الكاهن فقد انتزع قبعته، وحطم عصاه ومزق ثوبه.

وبقي كوازيمودو جاثماً، مطأطئ الرأس مضموم الكفّين.

ثم كانت بينهما محاورة غريبة بالإشارات والحركات لأن كلاً منهما لم يكن يتكلم. أما الكاهن فواقف، ثائر، مهدد طاغ، وأما كوازيمودو فراكع متواضع، ضارع. وفي هذه الأثناء بدا أن كوازيمودو قادر على سحق الكاهن بطرف إبهامه لو أراد ذلك.

وأخيراً أشار الكاهن إلى كوازيمودو، بعد أن هز كتفه القوية بقسوة، أن يقف ويتبعه. ووقف كوازيمودو.

هنا، وبعد أن ذهب الخوف عن أعضاء أخوية المجانين، أرادوا أن يدافعوا عن باباهم الذي عُزِلَ عن عرشه بمثل هذه السرعة المفاجئة. فأقبل الغجريون والأوباش كلهم يصرخون حول الكاهن.

وانتصب كوازيمودو أمام الكاهن وحرك عضلات قبضتيه الحديديتين، ثم نظر إلى المهاجمين بصرير أسنان نمر غاضب.

ثم استعاد الكاهن وقاره مرة أخرى، وأشار إلى كوازيمودو وانسحب بصمت.

وسار كوازيمودو أمامه يبعد الناس عن طريقه.

وبعد أن اجتاز النّاس والميدان، أرادت فئة من الفضوليين والعاطلين عن العمل أن تلحق بهما. فاتخذ كوازيمودو لنفسه مركز الحرس الخلفي، وتبع الكاهن في خطى متراجعة، متجهماً، مخيفاً، مسحوقاً، جامعاً أطرافه، لاحساً نابيه اللتين كأنهما نابا خنزير بري، مزمجراً كالوحش، باعثاً في الجماهير ذبذبات ضخمة بحركة من يده أو نظرة من عينيه.

وترك كلاهما يسيران في شارع ضيق مظلم، حيث لا يجرؤ أحد على المخاطرة باللحاق بهما، ما دام شبح كوازيمودو، صارّاً أسنانه، يغلق مدخل هذا الشارع.

قال جرنجوار: «هذا شيء رائع حقاً، ولكن أين أجد ما آكله؟»

4 ـ سيئات ملاحقة امرأة جميلة ليلاً في الشوارع

وراح جرنجوار يتتبع الغجرية مستسلماً إلى الأقدار.

لقد رآها تسير، مع عنزتها، في شارع ـ الكوتلليري ـ، فسار فيه.

كان يقول في نفسه: «ولِمَ لا؟»

وكان يلاحظ، وهو فيلسوف شوارع باريس العملي، أن لا شيء أعوَد على أحلام اليقظة بالخير من تتبع امرأة جميلة دون أن نعرف إلى أين تسير. ففي هذا التنازل الطوعي عن حرية الاختيار، وفي هذه النزوة الخاضعة لنزوة أخرى، لا تعلم بها أو تستشعر وجودها، مزيج من الاستقلال الغريب والطاعة العمياء، أو ما لا أعرف من الحد الوسطي بين العبودية والحرية مما كان يسر جرنجوار ويلذ له، فهو ذو العقلية المختلطة في جوهرها، والمعقدة المترددة، التي تمسك بالأطراف جميعاً وتتمركز دون توقف بين مجموعة الميول البشرية، ثم تحاول تجريد كل واحدة منها بواسطة الأخرى.

على أن تتبع المارين (ولا سيما المارات) في الشوارع، وهو ما كان يصنعه جرنجوار مختاراً، يفرض، في كل حال، أن يكون خير وضع لنا معه هو وضع من لا يعرف أين يقضي ليله.

وإذن فقد كان يمشي مفكِّراً وراء الفتاة الشابة التي كانت تسرع الخطى، تتقدمها، في تقريب سريع، عنزتها الجميلة وهي تنظر إلى البورجوازيين ذاهبين إلى بيوتهم، وتشهد الحانات التي تغلق أبوابها، وهي الوحيدة التي كان يمكن أن تكون مفتوحة في مثل هذا اليوم.

كان يفكِّر تقريباً، بعد كل ذلك، قائلاً في نفسه: «يجب أن تسكن هذه الفتاة في مكان ما، فللغجريات قلب طيب ـ من يعرف؟...»

وفي هذه الأثناء، وبينما كان يمر، بين الفترة والفترة، بالقرب من آخر مجموعات البورجوازيين، وهم يغلقون أبوابهم، كان يلتقط نتفة من محاوراتهم التي تقطع عليه افتراضاته الضاحكة.

إنهما تارة عجوزان متجاوران:

ـ «هل تعرف أيها المعلم تيبو فرنكيل، أن الجو بارد جداً؟»

(كان جرنجوار يعرف هذا منذ بداية الشتاء.)

ـ «نعم هذا صحيح أيها المعلم بونيفاس ديزوم! فهل سيأتينا شتاء

كذاك الذي أتانا منذ ثلاث سنوات في عام 80، يوم كانت تباع حزمة الخشب بثمانية دراهم؟»

ـ «ياه! هذا شيء ضئيل جداً، أيها المعلم تيبو، بالنسبة إلى شتاء عام 1407، حيث انتشر الجليد ابتداء من عيد القديس مارتان حتى عيد دخول المسيح إلى الهيكل! وكان من قسوة الجليد وشدته أن ريشة كاتب البرلمان كانت تتجمد في البهو الكبير، بعد كل ثلاث كلمات! مما كان يحول دون تسجيل القضايا والأحكام العدلية.»

ثم تبدو بعدهما جارات واقفات وراء النوافذ وبأيديهن مشاعل جعلها الضباب تنقبض وتتشنج.

ـ «هل قص عليك زوجك قصة المأساة، مدام لابودراك؟»

ـ «لا، أبداً. فما هو الخبر، مادموازيل توركان؟»

ـ «إنه حصان السيد جيل جودان، كاتب عدل الشاتليه، الذي أثاره الفلامنديون وموكبهم، فسقط عنه المعلم فيليبو افريللو.»

ـ «هل هذا صحيح؟»

ـ «صحيح تماماً.»

ـ «حصان بورجوازي! إنه قوي جداً. ولو كان حصاناً من خيول كتائب الفرسان لكان خيراً وأسلم عاقبة!»

ثم تنغلق النوافذ. ولكن جرنجوار لم يضيّع أفكاره أبداً.

كان من حسن حظه أنه يجد هذا الخيط سريعاً بعد كل انقطاع فيجمع بين طرفيه دون جهد فائق، وذلك بفضل الغجرية، بل بفضل دجالي، اللتين كانتا تمشيان أبداً أمامه. مخلوقتان رقيقتان، ظريفتان، لطيفتان، قد كان أعجب بما لهما من أقدام صغيرة، وأشكال رائعة جميلة، وحركات ساحرة حلوة، يكاد يمزج بين شخصيتيهما في غمرة تأملاته، فيخالهما، فيما بينهما من مشاركة في توقد الذهن، وحميمية الصداقة، فتاتين شابتين، كما يظنهما كلتيهما عنزتين، فيما بينهما من مشاركة في خفة الحركة ورشاقة الأطراف، وبراعة في السير.

وفي هذه الأثناء كانت الشوارع، في كل برهة، تزداد إظلاماً وخلاء.
وكان جرس إطفاء الأنوار قد قرع منذ زمن طويل، بحيث لم يعد يمر فوق أرض الشوارع غير أفراد، بين الواحد والآخر مسافة طويلة، ومثل ذلك فيما يتعلق بأنوار النوافذ.

وانساق جرنجوار، وراء الغجرية، في هذه المتاهة من الأزقة المبهمة الغامضة، ومفارق الطرق، أو الدروب غير النافذة، تلك التي تحيط بضريح «القديسين ـ الأبرياء» والتي تشبه كبة من الخيوط بعث فيها أحد القطط فوضى بالغة فائقة.

كان جرنجوار يقول: «هذه شوارع لا تملك غير القليل من المنطق» وقد كاد يضيع في هذه الآلاف من المسالك التي تصب دائماً في ما يشبهها، لولا أن الفتاة الشابة كانت تسير في طريق خُيِّل إليه أنه يعرفه، تسير دون تردد، بخطوات تزيد سرعتها باطراد. أما فيما يتعلق به فقد كاد يجهل مواضع قدميه لولا أنه لحظ أثناء سيره، عند مفترق أحد الشوارع، الكتلة المثمنة الزوايا لوتد «الهال»، الذي كانت قمته قد أبرزت ظله الأسود عبر شعاع نافذة لم تزل منيرة في شارع ـ فردلي ـ.

والواقع أنه كان قد نبّه الفتاة الشابة إلى وجوده منذ قليل، فكانت تلتفت إليه برأسها في محاولات متكررة، قلقة مضطربة، حتى أنها قد جمدت في مكانها في إحدى هذه المحاولات، مستفيدة من بروز شعاع من النور عبر أحد المخابز لتثبته بنظرها من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه، ولم تكد تفعل، حتى لحظ جرنجوار تلك التكشيرة الصغيرة التي سبقت له رؤيتها من قبل، وتابعت الفتاة طريقها.

ودفعت هذه التكشيرة الصغيرة، جرنجوار، إلى التفكير. فقد كان فيها على حلاوتها، شيء من الاحتقار والسخرية. وبدأ يخفض رأسه، ويعد بلاطات الشارع، ويتتبع الفتاة على مسافة أبعد قليلاً من قبل، حين سمعها ترسل صرخة ثاقبة، عند مفرق شارع غيّبها عن نظره.

فأعجل الخطى.

كان الشارع غارقاً في ظلمات دامسة. ومع ذلك فإن فتيلاً مبللاً بالزيت، يحترق في قفص حديدي عند قدمي القديسة العذراء لزاوية من الشوارع، قد سمح لجرنجوار أن يتميّز الغجرية متخبطة في أذرع رجلين يجتهدان في إخماد صرخاتها. أما العنزة المسكينة الصغيرة فقد خفضت رأسها، مذعورة، تثغو.

صرخ جرنجوار: «ساعدونا أيها الحرس»، ثم تقدم بجرأة. فالتفت إليه أحد الرجلين اللذين كانا يمسكان الفتاة. فوجد فيه وجه كوازيمودو المخيف.

لكن جرنجوار لم يهرب، إلا أنه لم يتقدم بعد ذلك خطوة واحدة.

فاقترب كوازيمودو، وألقى به أرضاً على أربع خطوات منه بظهر كفه، ثم انطلق سريعاً في الظلام حاملاً الفتاة الشابة مطوية فوق إحدى ذراعيه كأنها منديل حريري. ورفيقه يتبعه، والعنزة المسكينة، تركض وراءهم، بثغائها الذي يبعث على الشفقة.

أما الغجرية البائسة فكانت تصرخ قائلة: «أيها المجرم! أيها المجرم!»

فانطلق صوت كأنه الرعد القاصف أرسله فارس برز سريعاً من مفرق مجاور قائلاً «قفا أيها البائسان واتركا لي هذه الفاجرة!»

كان قائداً من قواد رماة الحرس الملكي، مسلحاً من فوق رأسه حتى أخمص قدميه، وبيده سيف عريض مسلول.

فانتزع الغجرية من على ذراع كوازيمودو المبهور، ووضعها عرضاً فوق سرج حصانه، وبينما كان الأحدب المخيف ينطلق ليسترجع فريسته، بعد أن رجعت نفسه إليه، برز خمسة أو ستة من الفرسان الذين كانوا يتبعون قائدهم عن قرب وفي قبضة كل منهم سيف مستقيم ذو حدين. إنهم كتيبة من الحرس الملكي تقوم بعملية تفتيش، بأمر من السيد روبين دستوتفيل، رئيس شرطة باريس.

وقُبض على كوازيمودو وقُيِّد. فكان يزمجر، ويعض، ولو كان الوقت نهاراً، لما كان هناك شك في أن وجهه وحده، الذي يزيده الغضب

قبحاً وبشاعة، جدير بأن يبعث الرعب في أفراد الكتيبة كلها ويدفعهم إلى الهرب، ولكنه في الليل، يفقد أعتى وأشد أسلحته، أعني قبحه.

أما رفيقه فقد اختفى وسط المعركة.

وانتصبت الغجرية برشاقتها الحلوة فوق سرج الضابط، واعتمدت بيديها على كتفي الرجل الشاب، وأثبتت فيه نظرها لعدة ثوان، كما لو أنها كانت سعيدة بجمال طلعته وبالنجدة الطيبة التي حملها إليها. ثم قطعت الصمت تبادره بقولها، وقد زادت من حلاوة صوتها الرقيق:

«ما اسمك أيها السيد الدركي؟»

فأجاب الضابط وقد انتصب قوامه: «القائد فوبيوس دي شاتوبار، في خدمتك يا جميلتي!»

فردت قائلة له: «شكراً.»

وبينما كان الضابط فوبيوس يفتل شاربيه على الطريقة البورغونية، تركت نفسها لتنزلق إلى أسفل الحصان، كالسهم الواقع على الأرض، ولاذت بالفرار.

قال الضابط وهو يشد قيود كوازيمودو: «يا لسُرّة البابا! لقد كنت أفضِّل الاحتفاظ بهذه الفاجرة.»

5 ـ بقية المساوئ

بقي جرنجوار مطروحاً على بلاط الشارع تجاه العذراء الطيبة وهو في غمرة من الضياع إثر سقوطه. ثم استعاد وعيه شيئاً فشيئاً، فشعر في الدقائق الأولى أنه يطوف في أحلام يقظة لا تخلو من الحلاوة، حيث كانت تمتزج في خياله الصور الهوائية لكل من الغجرية والعنزة، مقترنتين بقبضة كوازيمودو القاسية، ولم تدم هذه الحالة طويلاً. فقد أيقظه إحساس أليم بالبرد في الجزء الذي يلامس بلاط الشارع من جسده، وقال في نفسه فجأة: «من أين يأتيني هذا البرد؟»

ثم أدرك أنه في وسط جدول الشارع الموحل.

قال: «يا للشيطان الأحدب العملاق ذي العين الواحدة!»

ثم عزم على النهوض. ولكنه كان مرهقاً شديد الضياع. فأرغم على البقاء في مكانه. وسد أنفه بيده التي بقيت حرة غير مقيّدة.

وإذ كان واثقاً من أن الجدول الموحل سيكون مأواه ـ وهل يسع المرء في المأوى غير أن يفكّر؟ ـ قال:

«إن وحل باريس كريه جداً. إنه لا شك محتو على كثير من الأملاح النطرونية السريعة التبخر. هذا على كل حال رأي المعلم نيقولا فلاميل ورأي الحبساء...»

وبعثت كلمة «الحبساء» في ذهنه صورة الكاهن كلود فروللو. فتذكر المشهد العنيف الذي رآه منذ قليل، تذكّر الغجرية التي كانت تتخبط بين الرجلين، وكوازيمودو يرافق شخصاً آخر، كما أن وجه الكاهن المتجهم المتكبر قد مر غامضاً في ذاكرته. ففكّر قائلاً:

«إنه لغريب حقاً!»

وراح جرنجوار يبني في خياله بناءً عجيباً من الأوهام والافتراضات. وفجأة صرخ قائلاً، وقد رجع إلى رشده مرة أخرى: «آه إنني أكاد أتجمد من الصقيع.»

والواقع أن مجلسه أصبح لا يحتمل. لقد كانت كل جزيئة من ماء الجدول تختطف جزيئة حرارية من جسد جرنجوار، وبدأ التوازن بين حرارة جسده وحرارة الجدول ينعقد بطريقة قاسية شديدة.

وفجأة، انتشر في جوانب نفسه إحساس جديد ذو طبيعة جديدة.

لقد كان فريق من الأولاد، من هؤلاء المتوحشين العراة الصغار الذين طالما امتلأت بهم أزقة باريس تحت اسم «المتشردين» والذين يرشقوننا بالحجارة، حين نكون صغاراً، لأن سراويلنا ليست ممزقة، كانت جماعة من هذه الكائنات الغريبة تنطلق نحو المفترق الذي يجثم فيه

جرنجوار، بضحكات وصرخات تبدو غير مبالية بنوم الجيران. كانوا يجرّون وراءهم كيساً لا شكل له، وكانت ضجة «قباقيبهم» جديرة بإيقاظ الأموات. وجرنجوار الذي لم يكن قد أصبح في عدادهم، قد نهض أو يكاد.

كانوا ينادون صارخين بأعلى أصواتهم: «هاللو! هينيكين دانداش! هاللو! جوهان بانسبورد! لقد مات أوستاش موبون العجوز، لقد مات منذ قليل. إننا نحمل فراشه، وسنقيم نار الفرح. إن اليوم هو يوم الفلامانديين!»

وها هم يلقون الفراش فوق جرنجوار، الذي اقتربوا منه دون أن يروه. وفي الوقت نفسه، انتزع أحدهم قبضة من القش ليشعلها من مصباح العذراء الطيبة.

وصرَّ جرنجوار بأسنانه قائلاً: «هل سيصيبني الحر هذه المرة؟»

لقد كان الوقت شديد الحرج. وكاد صاحبنا يضيع بين الماء والنار وبذل جهداً فائقاً، كما يكون جهد مزور النقود حين يهدد بالسلق في النار الغالية فيحاول الهرب. نهض واقفاً وألقى بالفراش فوق الأولاد الصعاليك وفر هارباً.

صرخ الأولاد قائلين: «أيتها العذراء، هذه روح التاجر العجوز.»

وهربوا هم أيضاً.

وبقي الفراش سيداً منتصراً في ميدان المعركة. وقد أكد بلفوريه، الأب القاضي، وكوروزيه أن الفراش قد جُمع في اليوم التالي في أبهة بالغة، من قِبل كُهان الحي ثم حُمل إلى خزانة كنيسة القديسة ـ أوبورتون، حيث جعل منه شماس الكنيسة حتى سنة 1789 مورد رزق لا بأس به، زاعماً أن تمثال العذراء قد استطاع بمجرد حضوره، في ليل 6 ـ 7 كانون الثاني 1482، أن يبعث الحياة في جثة أوستاش بون، الذي خبأ روحه، وهو يموت، بأسلوب خبيث، في كيس فراشه، محاولاً خداع الشيطان.

6 ـ الجرة المكسورة

وبعد أن أطلق شاعرنا ساقيهِ للريح خلال بعض من الوقت، دون غاية مقصودة، متجهاً إلى كل زاوية تعرض له من زوايا الشوارع، متخطياً عدة جداول، مجتازاً عدداً من الأزقة، ودروباً غير نافذة، ومفارق طرق مختلفة، مفتشاً عن منفذ له خلال كل المنعطفات الموجودة في أرض حي «الهال» مكتشفاً في خوفه المذعور كل ما عسى أن يلجأ إليه من المسالك. وقف فجأة: أولاً بسبب التعب الشديد الذي ألمّ به، ثم لهذه الحجة المزدوجة التي برزت من أعماق ذهنه. قال في نفسه وقد ضغط بإصبعه على جبهته: «يبدو لي، أيها المعلم بطرس جرنجوار، أنك تركض كالمعتوه.

إن خوف الأولاد منك لم يكن أقل من خوفك منهم.

يبدو لي أنك قد سمعت ضجة «قباقيبهم» وهم يركضون في الجنوب، بينما تهرب أنت في الشمال.

وعلى ذلك فإن أمامك أحد أمرين: إما أنهم قد هربوا وإذن يكون فراش القش الذي تركوه وراءهم ولا بد، هو السرير المضياف الذي تسعى وراءه منذ الصباح، والذي أرسلته السيدة العذراء إليك بصورة عجائبية لتكافئك على ما صنعته، كرامة لها، من الخير الذي رافقته انتصارات وسخريات، أو أن الأطفال لم يهربوا، وفي هذه الحالة وجب أن يضعوا الشعلة في الفراش، حيث النار الطيبة التي تحتاج إليها لتجفف ثيابك وتتدفأ. وفي كلتا الحالتين ستجد ناراً طيبة أو سريراً طيباً، إن فراش القش هذا عطية من السماء. ويبدو أن مريم العذراء المباركة، الموجودة في زاوية شارع موكونساي، لم تُمِت أوستاش مربون إلا لهذه الغاية، وأنه لمن الجنون حقاً أن تهرب، كما يهرب بيكاردي أمام فرنسي، تاركاً وراءك ما تفتش عنه أمامك، فأنت إذن أحمق!»

وهكذا رجع على عقبيه، مفتشاً باحثاً، بأنف في الهواء يتشمم به

وأذن يتسمع بها، جاهداً في أن يجد فراش القش السعيد مرّة أخرى.

وذهبت جهوده كلها مع الريح. إذ لم يلقَ أمامه غير بيوت متقاطعة ودروب غير نافذة، وقف في وسطها متردداً حائراً، يشعر وكأنه في هذه الشوارع السوداء المتداخلة أكثر التصاقاً وتدبقاً بحيث يمتنع عليه الاهتداء إلى غايته، أكثر منه في متاهة قصر التورنال نفسه. وأخيراً نفد صبره وانهارت أعصابه، فانطلق صارخاً: «ملعونة أنت أيها المفارق! إن الشيطان قد جعلها على صورة مذراته.»

وحملت إليه هذه المحاولة الاحتجاجية شيئاً من العزاء، ولم يلبث نوع من شعاع أحمر، وقع نظره عليه في تلك البرهة، في نهاية زقاق طويل ضيق، حتى شدد من قواه المعنوية.

«حمداً للّه، إنه هناك! هاك فراش القش يحترق.»

ولم يكد يخطو خطوات قليلة في الزقاق الطويل، المتجه نزولاً، والذي تبلط أرضه، ويتزايد فيه الوحل والانحناء بصورة مطردة، حتى وقع نظره على شيء غريب فريد. لم يكن الزقاق خالياً. لقد كانت تزحف هنا وهناك كتل غامضة لا شكل لها، متجهة كلها نحو اللهب الذي يتذبذب في نهاية الشارع، فكأنها تلك الحشرات الثقيلة التي تنتقل متثاقلة من عشب إلى آخر نحو نار الراعي.

لا شيء يبعث على الشعور بالمغامرة أكثر من أن يجهل الإنسان موطئ قدميه، ولكن جرنجوار قد تابع طريقه، ولم يلبث حتى بلغ موطن هذه الديدان التي كانت تنسحب بكسل بالغ، الواحدة وراء الأخرى. وباقترابه منها، لم يجد أمامه غير مُقعَدٍ بائس، يقفز على يديه، فكأنه عنكبوت حقل جريح لم يعد له غير قدمين فقط.

وفي الوقت الذي مرّ فيه أمام هذا النوع من العنكبوت ذي الوجه البشري، سمعه يطلب منه المساعدة بصوت أسيف حزين وباللغة الإيطالية.

فقال جرنجوار: «ليحملك الشيطان، ليحملني معك إن أنا عرفت ما تريد أن تقول!»

ثم التقى كتلة ثانية من تلك الكتل المتنقلة، وتفحصها، فإذا بها كسيح مصاب في الوقت نفسه بعرج وذراعه مقطوعة. وقد بلغ من تشوهه أن الجهاز المعقد من العصي التي يحملها وساق الخشب التي تمسكه من أن يقع تجعل له هيئة كهيئة صقالة البنائين حين ينهمكون في بناء البيت. وقد قارنه جرنجوار في نفسه، وهو الذي كان يحب المقارنات الكلاسيكية النبيلة، بالسلم الحي ذي الأرجل الثلاث الذي يستعمله الإله فولكان.

وحياه هذا الكائن الثلاثي الأرجل وهو يمر به، وقد جعل قبعته في محاذاة ذقن جرنجوار، كما لو أنها إناء حلاق، ثم صرخ في أذنيه يطلب الصدقة باللغة الإيطالية أيضاً.

فقال جرنجوار: «يظهر أن هذا أيضاً يتكلم، ولكنها لغة غريبة، وأنه لأسعد حالاً مني إن كان يفهمها.»

ولم يلبث أن ضرب جبهته متذكّراً متفكّراً: «وبهذه المناسبة، ماذا كانوا يريدون أن يقولوا هذا الصباح بكلمة اسميرالدا؟»

لقد أراد مضاعفة الخطى، ولكن شيئاً حجز الطريق دونه للمرة الثالثة، هذا الشيء أو هذا الكائن، كان رجلاً أعمى، نحيل الجسم، بوجه يهودي ذي لحية، فطلب منه باللاتينية بصوت صافر من أنفه وبلهجة هنغارية، وقد كان يجدف بعصاه في الفراغ حول نفسه، وكأنه يجره كلب كبير.

قال بطرس جرنجوار: «إن حظي لسعيد! فهاك أخيراً إنساناً يتكلم بلغة مسيحية، ومن الواجب أن تكون لي هيئة المحسنين حتى أُسأل الإحسان مع حالة الهزال التي أصيب بها كيس نقودي. والتفت نحو الأعمى يقول له باللاتينية أيضاً: «يا صديقي لقد بعت في الأسبوع الماضي آخر قميص لي.»

ولم يكد يقول ذلك حتى استدار وتابع طريقه، ولكن الأعمى أخذ

يطيل خطواته في الوقت نفسه، ولم يلبث المقعد والكسيح حتى انطلقا مسرعين وفي ضجة شديدة سببها اصطدام العصي ببلاط الشارع. وأخذ الثلاثة يتزاحمون متدافعين وراء جرنجوار المسكين ويغنون أغاني استجدائهم المعهودة كل بدوره: الأعمى والكسيح والمقعد.

وصرخ جرنجوار وقد سد أذنيه قائلاً: «يا لبرج بابل!» ثم راح يركض فركض الأعمى وراءه. وتبعه الكسيح ثم المقعد وراءهما.

وكلما ازداد إمعاناً في اجتياز هذا الزقاق، كان المقعدون والعمي والعُرج ينتصبون من حوله، أما العور والمبتورو الذراع والمصابون بالبرص مع بثورهم فقد اتجهوا كلهم نحو النور، خارجين من المنازل أو الأزقة الصغيرة المجاورة أو كوى الأقبية، يصيحون ويعوون، متمرغين في الوحول فكأنهم البزَّاق بعد المطر.

أما جرنجوار، الذي كان يتبعه مضطهدوه الثلاثة أبداً، ودون أن يعرف ما سينتهي إليه أمره، فكان يمسي مذعوراً وسط الآخرين، مبعداً العُرج، مجاوزاً المقعدين، وقد خارت قدماه في هذه القرية النملية من الكسحاء المشوهين فكأنه الضابط البريطاني الذي غاصت قدماه في قطيع من السراطين.

وخطر في باله أن يرجع القهقرى. ولكن فات الأوان. لقد انغلق هذا الفيلق كله من ورائه، وكان المتسولون الثلاثة يمسكون به. وإذن فقد تابع طريقه، تدفعه في الوقت نفسه، هذه الموجة العاتية، ويدفعه ذاك الخوف، ثم ذلك الدوار الذي يجعل من كل ما هنالك نوعاً من حلم رهيب. وأخيراً بلغ نهاية الزقاق الذي يصب في ميدان كبير، حيث كانت تتذبذب مئات من الأنوار المتفرقة في ظلمة الليل الحالكة. وألقى جرنجوار فيه بنفسه، آملاً أن يتخلص بسرعة ساقيه من الأشباح الثلاثة المشوهة التي تعلقت به.

وصرخ الكسيح، ملقياً عكازتيه، راكضاً وراءه بساقين هما خير ساقين داستا بلاط باريس.

وفي هذه الأثناء، انتصب المقعد على قدميه، وقنَّع جرنجوار بصفحته الثقيلة المغلفة بالحديد، أما الأعمى فقد كان ينظر إليه بعينين ملتهبتين.

قال الشاعر مذعوراً: «أين أنا؟»

أجابه طيف رابع كان قد التحق بهم: «أنت في بلاط العجائب.»

فردد جرنجوار: «قسماً بروحي، إنني أرى العمي يبصرون والعرج يركضون، ولكن أين الرب المخلِّص؟»

فأجيب بضحكة منفجرة متجمعة.

وأجال الشاعر المسكين بصره في ما حوله. لقد كان حقاً في بلاط العجائب المخيف، حيث لم تنفذ قدما رجل شريف إلى هذه الأرض في مثل تلك الساعة، إنها منتدى سحري يختفي فيه ضباط قصر الشاتليه ورقباء الشرطة حين يغامرون بالدخول إليه، إنها مدينة اللصوص، بل إنها شيء مخيف في وجه باريس! وسرداب يخرج منه في كل صباح ويرجع إليه، قابعاً فيه في كل ليلة، جدول من الرذائل والموبقات، من التسول والتشرد، يملأ بها شوارع العواصم، بل قل إنها وكر مخيف، تدخل إليه في كل مساء زنابير النظام الاجتماعي القائم، مع ما تحمله من الغنائم، إنها مستشفى مزور كاذب حيث الغجري، والكاهن الطريد الهارب، والطالب الضائع، وسفلة كل الأمم، اسبانيون، وإيطاليون، وألمان، وأتباع من كل الأديان: يهود ومسيحيون ومحمديون ووثنيون غطيت أجسادهم بجراح مخضبة، متسولين أثناء النهار، وشطاراً صعاليك مجرمين أثناء الليل، إنها بكلمة واحدة، غرفة ثياب كبيرة، كان يلبس فيها أو يخلع فيها الثياب، كل ممثلي هذه المهزلة الخالدة التي كانت اللصوصية والجريمة يومذاك تلعبان فيها دورهما فوق بلاط باريس.

كانت هذه الساحة ميداناً لا شكل له سويت أرضه تسوية فاسدة شأن كل ميادين باريس في هاتيك الأيام.

كانت تلمع فيها النيران هنا وهناك وقد تجمعت حول كل منها جماعات غريبة. وكل هؤلاء كانوا يغدون ويروحون ويصرخون. كانت تسمع ضحكات حادة، وصرخات أطفال، وأصوات نساء. أما رؤوس هذا الجمهور الهائل وأيديه السوداء، فقد كانت ترسم ألف حركة غريبة في القاعدة المنيرة لهذه اللوحة. أما فوق الأرض، حيث كان يرتجف ضوء النيران المشتعلة، ممتزجاً بظلال مبهمة كبيرة، فقد كان يُرى كلبٌ شبيه بالإنسان، إن إنساناً شبيهاً بالكلب يجتاز هذا المكان. لقد كانت فوارق العناصر والأنواع تظهر ضائعة ممحوة في هذه المدينة، فكأنها وادي الشياطين. رجال ونساء، حيوانات، وأعمار، وأجناس، وصحة، ومرض، كلها كانت تظهر وكأنها قاسم مشترك في هذا الشعب، كلهم كانوا يسيرون مجموعين، مختلطين، متمازجين، متراكبين، لكل منهم نصيب من كل ما ذُكر من قبل.

لقد كان الشعاع المضطرب الفقير للنيران المشتعلة يسمح لجرنجوار بأن يتبيَّن، خلال اضطرابه، من حوله في الميدان الشاسع الكبير، إطاراً قبيحاً من بيوت عتيقة هرمة، شرفاتها عفنة، متداعية، ثُقِبت كل منها بكوة منيرة أو كوتين، كما كان يتبيَّن في الظلال رؤوساً كبيرة لنساء هرمات، متجاورات على شكل دائري، وقد بَدَوْنَ مخيفات، عابسات مقطبات، يشهدن هذه الضجة الفائقة وهن يطرفن بعيونهن.

لكأنه عالم جديد، مجهول غريب، لم يسمع به من قبل، ضائع لا شكل له، مشوه المعالم، فيه من الناس ما يكون من النمل في المنملة، بل هو خيالي أسطوري.

أما جرنجوار، الذي يتزايد ذعره، والذي أمسك به المتسولون الثلاثة، كأنهم مقابض حديدية، وأحاطته جمهرة من الوجوه الأخرى التي كانت تزبد من حوله إزباد البحر، وتعوي. أما جرنجوار البائس، فقد كان يحاول استرجاع ما ذهب من عقله ليذكر ما إذا كان اليوم يوم سبت. وذهبت جهوده سدى، لقد انقطع خيط ذاكرته وتفكيره، وبينما هو في

غمرة من شكوكه، يتقاذفه موج طاغ بين ما كان يشهده ويحس به، وضح أمامه هذا السؤال الذي لا حل له، قال: «إذا كنت موجوداً، فهل يكون هذا الذي أراه موجوداً؟ وإذا كان هذا الذي أراه موجوداً، فهل أنا موجود؟»

وفي هذه البرهة بالذات ارتفعت صرخة واضحة النبرات في غمار طنين الجماهير الذي كان يحيط به قائلة:

ـ «لنحمله إلى الملك!»

ودمدم جرنجوار قائلاً: «أيتها القديسة العذراء، أملكٌ هنا! إنه يجب أن يكون تيساً.»

ورددت الأصوات كلها: «إلى الملك! إلى الملك!»

وحُمِلَ المسكين، يتناتشه المخلب الذي يقع عليه. ولكن المتسولين الثلاثة لم يبتعدوا عنه فانتزعوه من الآخرين، وهم يعوون: «إنه لنا نحن!»

وهنا كانت نهاية سترة الشاعر القصيرة وهي المريضة المهترئة. وبينما كان يجتاز الساحة الرهيبة، اختفى دواره ورجع إليه بعد خطوات قليلة شعوره بالحقيقة الواقعة. لقد بدأ يتكيف بجو المكان.

كان يرتفع في الوهلة الأولى دخان، أو قل بخار من رأسه الشاعري، وبتعبير أقرب إلى البساطة، أو بتعبير مبتذل زقاقي، من معدته الفارغة، بخار كان يحول، وقد انتشر بين الأشياء وبينه، دون أن يرى هذه الأشياء إلا من خلال ضباب كابوس غير متلاحم، أو ظلمات أحلام تبعث الرجفة في كل ما كان حوله، والتكشيرة القبيحة في كل شكل، وتراكم الأشياء في مجموعات غير متناسقة، ثم تمدد هذه الأشياء فتمنحها أشكالاً خيالية أسطورية، وتحوّل الرجال فتجعلهم أشباحاً غريبة. ومن ثم أخذت تحل محل هذا الهذيان البصري، شيئاً فشيئاً، نظرة أقل ضياعاً وتضخماً، وبرز الواقع واضحاً من حوله، يؤلم عينيه، ويعثر قدميه، ويحطم تلك الرؤيا المخيفة التي كان يظن أنها تحيط به. لقد صعب عليه التصديق أنه لم يعد

يسير في عالم الشياطين، بل يتخبط في الوحل، وأن الأبالسة ليست هي التي ترافقه بل هم اللصوص، وأن المغامرة لم تعد مغامرة بروحه بل بحياته فقط (لأنه لم يكن يملك ذلك الوسيط بين اللص والرجل الشريف: والذي هو المحفظة). وأخيراً، وبعد أن تفحص الحفل النهم عن قرب، وبمزيد من الأعصاب الهادئة، سقط من شاهق رؤى السحرة المجتمعين إلى حضيض الحانة.

والواقع أن ساحة العجائب لم تكن غير حانة، ولكنها حانة لصوص وفجرة، فيها حمرة الدم كما فيها حمرة النبيذ.

أما المشهد الذي وقع نظره عليه، حين انتهى به مرافقوه بثيابهم المهترئة، إلى نهاية مطافه، فلم يكن جديراً أن يرجعه مرّة أخرى إلى الشعر، حتى ولو كان شعر جهنم. لقد كانت هناك الحقيقة الواقعية للخمارة بكل ما فيها من ابتذال وزقاقية وقسوة. ولولا أننا كنا في القرن الخامس عشر لقلنا: إن جرنجوار قد نزل من ميكالنج إلى كالو.

لقد نثر عدد من المناضد العفنة النخرة، هنا وهناك على غير نظام، متروكة للمصادفة، دون أن يتنازل خادم، فيضبط توازي أبعادها أو يحاول، على الأقل، أن يجعل زواياها صالحة للاستعمال. لقد انتثرت هذه المناضد حول نار كبيرة كانت تحترق فوق بلاطة رحبة مستديرة وكانت تحرق بلهبها الجذوع المحمرة لمقعد ثلاثي خلا مؤقتاً من شاغله. كانت فوق هذه المناضد أكواب مترعة بالنبيذ والجعة، وكانت تتجمع حول هذه الأكواب وجوه باخوسية أشاعت فيها النار والخمرة لوناً أرجوانياً. وبين هذه الوجوه وجه جندي مزوَّر يفك أربطة جراحه الكاذبة، ويحرك ركبته السليمة القوية، بعد أن حزمت منذ الصباح بألف رباط. ووراءه رجل آخر يعد ساق الغد الجريحة بمزيج من الخطاطيف ودم البقر. وخلفهما على بعد منضدتين محتال يلبس زي الحاج الكامل، ويتهجى ترنيمة دينية، دون أن ينسى لحن المزامير وخنخنة الأنف. وفي مكان آخر وقف شاب يتلقى من رجل عجوز دروساً في الصرع. كان

يعلمه فن إخراج الزبد بعلك قطعة من الصابون، وإلى جانبهما رجل مصاب باستسقاء يزيل انتفاخ جسده، ويسد أنوف أربع أو خمس لصات كن يختصمن حول منضدة واحدة، على طفل اختطف عند المساء. إنها مشاهد قد ظهرت، بعد قرنين من السنين، مصدراً لتسلية البلاط الملكي، بحيث إنها كانت تستعمل لتمضية وقت الملك، أو مدخلاً لرقصة «الليل» الملكية، مقسمة إلى أربعة أقسام، وممثلة فوق مسرح «البيتي ـ بوربون» كما قال سوفال. وقد أضاف شاهد عيان عام 1653 قائلاً: «لم تُمَثَّل تطورات بلاط العجائب السريعة أبداً، بمثل الروعة التي مثلت بها يومئذ.»

كانت القهقهة الكبيرة تنفجر في كل مكان، وكذلك الأغنية البذيئة الفاحشة التي يتجاذبها كل فرد هناك، منتقداً، ومقسماً بأغلظ الأيمان دون أن يستمع إلى جاره. أما الأكواب فتتعانق ثم تلد الخصومات عند كل التقاء بينها، وكانت الأكواب المكسورة تمزق الثياب الرثة المهترئة.

يضاف إلى هؤلاء كلب كبير، قد أقعى فوق ذنبه، ينظر إلى النار. كما انتشر عدد من الأطفال في جوانب هذه الوليمة النهمة الفاسقة. والطفل المسروق يبكي ويصرخ. وإلى جانبه طفل آخر ممتلئ الجسم في حدود الرابعة من عمره، صامت لا يتكلم. وهناك طفل ثالث وقور يمدد بإصبعه، الشمع الذائب فوق المنضدة من إحدى الشموع المضاءة. وأخيراً يظهر طفل قابع فوق الوحل، يكاد يكون ضائعاً في قدر صغيرة معدنية، يكشط سطحها بقطعة من الفخار فيبعث صوتاً جديراً بتسبيب الإغماء لستراديفاريوس.

وبالقرب من النار برميل، وفوق البرميل متسول، إنه الملك على عرشه.

أما الثلاثة فقد قادوا جرنجوار ووقفوا به أمام البرميل، وشاع صمت مؤقت في الحفلة الراقصة الصاخبة، اللهم غير القدر الصغيرة المعدنية التي يشغلها الطفل.

فلم يجرؤ جرنجوار على رفع بصره أو التنفس بصوت مرتفع. ثم

قال أحد الثلاثة الذين كان في حوزتهم، كلاماً لاتينياً، فلم يلبث الآخر أن انتزع قبعته عن رأسه قبل أن يفهم ما قِيل. وردد الآخر قائلاً: «إنها قبعة بائسة رثة، هذا صحيح، ولكنها ما تزال صالحة ليوم مطير أو يوم صحو.» فتنفس جرنجوار الصعداء.

وفي هذه الأثناء، وجّه إليه الملك كلامه، من أعلى برميله، قائلاً:

«من هو هذا التافه؟»

فارتعد جرنجوار من الخوف. لقد ذكّره هذا الصوت، بصوت آخر وجَّه إلى مسرحيته في الصباح السابق ضربة قاضية وهو يخنخن وسط المستمعين:

ـ «أرجوكم إحساناً وصدقة!» ورفع رأسه فوجد أمامه ترويفو نفسه.

كان كلوبان ترويفو يحمل شاراته الملكية، أما ثيابه الرثة فلم تزد أو تنقص شيئاً. وقد اختفى جرحه في ذراعه. إنه يحمل بيده واحداً من هذه السياط، ذات الشراريب الجلدية البيضاء، والتي كان يستعملها يومئذ رقباء الشرطة لضغط الجماهير وحجزها. أما على رأسه فكانت هناك تصفيفة مستديرة مغلقة من أعلى، يصعب معها على المشاهد أن يميِّز بين ما إذا كانت طاقية طفل أو تاج ملك لكثرة ما بينهما من التشابه. وفي هذه الأثناء استعاد جرنجوار بعض أمله، بعد أن تعرّف إلى متسوله الملعون في البهو الكبير، في شخص ملك بلاط العجائب.

قال متلعثماً: «أيها المعلم، يا صاحب السيادة.. يا صاحب الجلالة.. كيف يجب أن أدعوك؟» قالها أخيراً وقد بلغ صوته أشد ارتفاع، جاهلاً كيف يرفعه أو كيف يهبط به ثانية.

«ادعني كما تشاء. قل: «يا رفيقي أو يا صاحب السيادة أو يا صاحب الجلالة بشرط أن تسرع.. ما عساك أن تقول دفاعاً عن نفسك؟»

ففكَّر جرنجوار بعد أن كرر «دفاعاً عن نفسك» قائلاً: «هذا شيء لا يسرني».. وتابع متلجلجاً «إنني ذاك الذي في هذا الصباح..»

فقاطعه كلوبان قائلاً: «قسماً بأظافر الشيطان! اسمك أيها التافه، ولا شيء أكثر من ذلك. اسمع، إنك أمام حكام ثلاثة أقوياء: أنا، كلوبان ترويفو الحاكم الأعلى لمملكة الأوباش، ماتياس هونجادي سبيكالي دوق مصر وبوهيميا، وهو هذا العجوز الأصفر الذي تراه هنا معتمراً بقطعة من القماش، غليوم روسو، امبراطور الجليل، وهو هذا الضخم الذي لا يستمع إلينا. نحن قضاتك. لقد دخلت إلى مملكة الأوباش دون أن تكون واحداً منهم، فانتهكت حرمة امتيازات مدينتنا. وإذن يجب أن تعاقب اللهم إلا إذا كنت لصاً، متسولاً أو متشرداً. هل أنت واحد من هؤلاء؟ اذكر ما عندك. وأعلن عن صفاتك.»

قال جرنجوار: «أنا آسف جداً، فليس لي مثل هذا الشرف. إنني مؤلف...»

ـ «يكفي هذا» قالها ترويفو مقاطعاً فلم يدعه يكمل كلامه. «إنك ستشنق. إنه شيء بالغ السهولة، أيها السادة البورجوازيون الشرفاء! فنحن نعاملكم عندنا كما تعاملوننا عندكم. إن القانون الذي تدينون به اللصوص هو نفسه الذي تدانون به. فإذا كان قاسياً فأنتم المسؤولون عنه. إن من الواجب أن نشهد بين الفترة والفترة تكشيرة لرجل شريف فوق أنشوطة القنب، مما يمنح عملية الشنق قيمة وشرفاً. هيا، يا صديقي وقاسم تلك الآنسات مرحاً، ثيابك الرثة. إنني سأشنقك لتسلية اللصوص، كما أنك ستعطيهم محفظتك يشربون بما فيها من النقود. وإذا كان عندك من السخريات ما تحب أن تصنعه، فهناك في المستودع حيث يوجد صليب من الحجر سرقناه من إحدى الكنائس فنمهلك أربع دقائق لكي تلقي بروحك فوق رأسه.»

لقد كان الخطاب رهيباً ـ «أقسم بروحي! إن كلوبان ترويفو قد أحسن القول فهو يعظ كما يعظ قداسة البابا.» قال ذلك امبراطور الجليل، صارخاً وقد كسر كوبه وهو يركز منضدته.

فقال جرنجوار بأعصاب هادئة (لست أدري كيف رجع الحزم إليه

وأخذ يتحدث بعزم شديد): «سادتي الأباطرة والملوك، إنكم لا تعون ما تقولون، إنني أُدعى بطرس جرنجوار، وإنني الشاعر الذي مُثِّلَتْ مسرحيته في هذا الصباح في بهو القصر الكبير.»

قال كلوبان: «آه! هذا أنت! أيها المعلم! أقسم برأس الإله إنني كنت هناك! حسناً، أيها الرفيق، هل ما ذكرته مبرر لعدم شنقك هذا المساء، وقد اضجرتنا عند الصباح؟»

قال جرنجوار في نفسه: «سأجد مشقة في التخلص من هذا المأزق». ومع ذلك فقد حاول القيام بجهد آخر فأردف: «إنني لا أرى مانعاً من تصنيف الشعراء في طبقة اللصوص والمتشردين. لقد كان أوزوبوس متشرداً. وكان هوميروس متسولاً، أما ميركوريوس فكان لصاً خطيراً..»

فقاطعه كلوبان مردداً: «أظن أنك تريد أن تؤثر فينا بسحر كلامك. باللّه عليك، أترك نفسك للمشنقة وكف عن أساليبك وطرقك!»

ـ «عفواً، سيدي الملك، إن في ما أقوله ما يستحق الاهتمام... استمعوا إليّ... لحظة فقط! إنكم لن تدينوني قبل أن تسمعوا دفاعي...»

والواقع أن صوته البائس قد ضاع في غمرة الصخب الذي كان يرتفع من حوله. والطفل الصغير يكشط قِدره بحماسة متزايدة، وقد زاد الطين بلّة أن امرأة عجوزاً قد أتت تضع فوق المثلث الخشبي الحامي إناء مملوءاً شحماً، وكانت ترسل نحو النار صوتاً كريهاً حاداً كما يكون صوت الثعلب مع ضجة شبيهة بصراخ جماعة من الأطفال تلاحق قناعاً.

وفي هذه الأثناء ظهر كلوبان ترويفو وكأنه يتبادل الرأي، وقتاً ما، مع دوق مصر وامبراطور الجليل الذي كان قد بلغ من سُكره أقصاه. ثم صرخ بصوت حاد: «اسكتوا إذن!» وبما أن القدر والإناء لم يكونا قد سمعاه فقد تابعا موسيقاهما الثنائية، فقفز الملك عن برميله إلى الأرض وركل القدر بقدمه فتدحرجت مع الطفل على عشر خطوات منه، ثم فعل مثل ذلك

للإناء فاندلق كل ما فيه من الشحم فوق النار، وصعد مرّة أخرى إلى عرشه بوقار، دون أن يُبالي ببكاء الطفل المختنق، أو بدمدمات العجوز، التي ضاع عشاؤها في اللهب الأبيض الجميل.

وأشار ترويفو، فوقف الدوق والامبراطور وأعوانهما حوله على شكل حدوة حصان، بينما كان جرنجوار يشغل وسط الدائرة مقبوضاً عليه بعنف بالغ. لقد كانت نصف دائرة من الثياب الرثة والفؤوس والمذاري، والسيقان التي تضطرب من السكر، والأذرع الضخمة العارية، والوجوه القذرة المنطفئة البلهاء. وفي وسط هذه المنضدة المستديرة من الفاقة المدقعة، كان كلوبان ترويفو يسيطر وكأنه ملك لهذا الإقطاع، أو بابا لهذا المجمع من الكرادلة، كان يسيطر أولاً من قمة برميله، ثم مما لا أعرف من هذه الهيئة المستكبرة، القاسية الرهيبة التي تطرف لها حدقته وتصحح في صفحة وجهه الجانبية النموذج الحيواني لعنصر اللصوص وقطاع الطرق. فيكاد المشاهد يقول: «رأس خنزير بري مذبوح بين فناطيس الخنازير وخراطيمها.»

قال لجرنجوار وهو يمسح على ذقنه الشائهة بيده الجاسية:

«اسمع! أنا لا أرى ما يمنع من شنقك. صحيح أن في الشنق ما يبدو أنه كريه لك، إنه شيء بالغ البساطة، فأنتم البورجوازيين لم تعتادوا هذا الأمر بعد. إنك تصنع لنفسك من هذا الأمر فكرة ضخمة جداً. فنحن بعد ذلك كله لا نريد بك شراً. وهاك وسيلة تنقذ بها نفسك مؤقتاً. هل تريد أن تكون واحداً منا؟»

في وسعنا أن نحكم على الأثر الذي تركه هذا الاقتراح في نفس جرنجوار، والذي كان يرى الحياة منه، وقد بدأ يستسلم لليأس. وكيف أنه عاد فتمسك بها في عنف شديد فائق.

قال بصوت مرتفع ممتلئ: «نعم أريد ذلك على التأكيد.»

فردد كلوبان: «هل توافق على أن تكون واحداً من رجال العصابة؟»

أجاب جرنجوار: «نعم العصابة على التحديد.»

وردد ملك التون: «وهل تعترف أنك عضو في البورجوازية المحضة؟»

ـ في البورجوازية المحضة.

ـ ومن رعية مملكة الأوباش؟

ـ من مملكة الأوباش.

ـ لص وقاطع طريق؟

ـ لص وقاطع طريق.

ـ في روحك؟

ـ في الروح.

وردد الملك قائلاً: «إنني ألفت نظرك إلى أن نصيبك من الشنق هنا لم يقلّ أبداً.»

قال الشاعر: «يا للشيطان!»

وتابع كلوبان بوقاره المعهود: «إلا أن الشنق هنا سيأتي لاحقاً، مع مزيد من مظاهر الاحتفال، وعلى حساب مدينة باريس الطيبة، في مشنقة حجرية جميلة وبواسطة الرجال الشرفاء. ففي هذا كله عزاء لك.»

ـ «تماماً كما تقول» أجاب جرنجوار.

ـ «وهناك امتيازات أخرى، باعتبارك بورجوازياً مخلصاً، فأنت لن تدفع شيئاً للفقراء والمشاعل والوحول، مما يدفعه بورجوازيو باريس.»

قال جرنجوار: «لتكن مشيئة اللّه، فأنا موافق. أنا قاطع طريق ولص، ونذل من الأنذال، وبورجوازي محض، وعضو في العصابة وكل ما تشاؤه وتريده. لقد كنت هذا كله من قبل، أيها السيد ملك التون، لأنني فيلسوف.» ثم راح يحدثه باللاتينية عن مدلول كلمة الفيلسوف.

فقطب ملك التون خاجبيه.

ـ «من تظنني، أيها الصديق؟ وما الذي تقوله من لغة يهود هنغاريا؟

أنا لا أعرف العبرية. إذا أردت أن تكون مجرماً فعليك ألا تكون يهودياً. واعلم أنني أنا شخصياً لم أعد أسرق أبداً. فأنا فوق ذلك.. إنني أقتل، إنني قاطع رقاب نعم، أما قاطع محفظات، فلا.»

وحاول جرنجوار أن يقدم اعتذاراً ما، خلال هذه الأقوال القصيرة، التي يزيدها الغضب حدة وضراماً.

ـ «عفواً يا صاحب السيادة. هذا ليس من العبرية، إنه من اللاتينية.»

ورد كلوبان ثائراً: «أقول لك: إنني لست يهودياً. وسأشنقك يا بطن كنيس اليهود! كهذا اليهودي الصغير الذي تجده بالقرب منك، والذي أرجو أن أراه يوماً مسمراً فوق مشرب من المشارب، كما تسمر قطعة النقود المزيفة!»

وأشار إلى اليهودي الهنغاري الصغير ذي اللحية، الذي كان قد قارب جرنجوار، ينظر مندهشاً إلى الملك يصب غضبه فوق رأسه، وهو لا يفهم شيئاً مما يُقال.

وأخيراً هدأ صاحب الغبطة كلوبان.

وقال لشاعرنا: «أيها التافه، إنك إذن تريد أن تكون لصاً؟»

فأجاب الشاعر:

ـ «دون ريب.»

ـ «ليست الإرادة كل شيء.»

إن الإرادة الطيبة لا تضيف بصلة واحدة إلى الحساء، وهي لا تصلح إلا للذهاب إلى الجنة، لكن شاعرنا ومملكة الأوباش شيئان اثنان لا يلتقيان. إن حسن استقبالك في مملكة الأوباش يفرض عليك أن تكون نافعاً في عمل من الأعمال، ولأجل ذلك عليك أن تفتش التمثال الخشبي.»

قال جرنجوار: «إنني سأفتش كل ما يحلو لك تفتيشه.»

وأشار كلوبان إشارة خاصة. فانفصل عن الدائرة بعض من الأوباش

ثم رجعوا بعد ذلك بقليل. وقد حملوا بين أيديهم عمادين ينتهي كل منهما في أسفله بمسوطين من خشب يثبتهما فوق الأرض بسهولة. ثم وضعا فوق أعلى العمادين «لوحاً» خشبياً أفقياً، فخرج من هذه المجموعة شكل مشنقة نقالة جميلة، أتيح لجرنجوار أن يراها تنتصب أمامه في طرفة عين. لم يكن ينقصها شيء. حتى الحبل الذي كان ينوس لطيفاً تحت «اللوح» المعترض.

تساءل جرنجوار في شيء من القلق: «ماذا يقصدون من هذا كله؟»

وسمع في الوقت نفسه قرع جرس وضع حداً نهائياً لقلقه. لقد كان تمثالاً خشبياً علقه اللصوص بالحبل في عنقه، إنه شيء لإرهاب العصافير، قد أُلبس قماشاً أحمر، وعُلِّق فيه من الأجراس الصغيرة ما يكفي لتزويد ثلاثين بغلاً كاستيلانياً. كانت هذه الأجراس ترسل طنينها خافتاً بتأثير ذبذبة الحبل.

ثم تضاءل الطنين شيئاً فشيئاً حتى صمت، حين جمد التمثال، بعامل قانون النواس الذي قضى على كل من الساعة المائية والساعة الترابية.

وهنا، أشار كلوبان إلى موطئ قدم خشبي مترجرج، موضوع تحت التمثال وقال لجرنجوار:

ـ «اصعد فوقه.»

واعترض جرنجوار قائلاً: «يا للموت الشيطاني! إنني سأكسر عنقي. إن موطئك الخشبي يعرج كبيتي شعر لمارسيال، إن له طرفاً مسدس التفاعيل، وطرفاً آخر مُخَمَّسُها.»

فردد كلوبان: «اصعد.»

وصعد جرنجوار فوق الموطئ الخشبي، ثم توصل إلى تحقيق توازن بعد ذبذبات في رأسه وذراعيه.

وتابع ملك التونيين: «أما الآن، فارفع قدمك اليمنى إلى ساقك اليسرى. وقف على طرف قدمك اليسرى.»

قال جرنجوار: «يا صاحب السيادة، إنك تصر إذن على أن أكسر عضواً من أعضائي.»

فهز كلوبان رأسه قائلاً:

ـ «اسمع يا صديقي، إنك تكثر من الكلام. هاك في كلمتين الغاية من هذه المحاولة. إنك ستنتصب فوق طرف قدمك كما قلت لك، وبهذه الطريقة تبلغ جيب التمثال، تبحث فيه، ثم تخرج منها محفظة موجودة بها، وإذا فعلت هذا كله دون أن نسمع طنين أي جرس من الأجراس أصبحت من ثم واحداً من النشالين اللصوص. ثم لا نزيد بعد ذلك على أن نجلدك ثمانية أيام متوالية.»

قال جرنجوار: «وإذا طن أحد الأجراس؟»

ـ «نشنقك. هل فهمت؟»

فأجاب جرنجوار: «إنني لا أفهم شيئاً.»

ـ «أصغِ إلي مرة أخرى. إنك ستفتش التمثال وتخرج المحفظة من جيبه، فإذا ارتفع طنين جرس واحد فقط، ستشنق. هل تفهم هذا؟»

قال جرنجوار: «حسن، إنني أفهم هذا. وبعد؟»

ـ «إذا استطعت أن تخرج المحفظة دون أن نسمع الطنين، فأنت لص، وستُجلد ثمانية أيام متوالية. إنك الآن تفهم دون ريب؟»

ـ «لا يا صاحب السيادة، إنني لم أعد أفهم شيئاً. فأين هي أفضليتي؟ مشنوق في الحالة الأولى، ومضروب في الثانية...»

فردد كلوبان: «وأن تكون لصاً؟ أليس لك في هذا أفضلية؟ إننا سنضربك في سبيل مصلحتك، لكي تتعود على احتمال الضرب.»

أجابه الشاعر: «شكراً عظيماً لك.»

ـ «هيا. لنسرع» (قالها الملك وهو يضرب برميله بقدمه فيخرج منه صدى صندوق كبير). فتش التمثال. ولننجز الأمر. إنني أحذرك للمرة الأخيرة أن طنين جرس واحد أسمعه يضعك مكان التمثال.»

وراحت عصابة الأوباش تصفق بعد سماعها أقوال كلوبان، واصطف أفرادها على شكل دائرة حول المشنقة، مع ضحكة بلغت من القسوة والشدة بحيث إن جرنجوار قد رأى أنه كان يسليهم كثيراً بسبب عدم خوفه منهم. وإذن فلم يبق له أمل في الخلاص، اللهم غير حظه الضئيل في النجاح في تحقيق العملية الرهيبة التي فرضت عليه فرضاً. وعزم على ركوب الخطر، وبديهي أنه لم يفعل إلا بعد أن توجه ضارعاً إلى التمثال الذي سيسرقه، ألا يتحرك، وقد بدا له أن إثارة عطفه أسهل عليه من إثارة عطف اللصوص.

كانت هذه الآلاف من الأجراس بألسنتها النحاسية الصغيرة، تبدو له وكأنها أشداق صلال فارغة، مستعدة للّدغ والتصفير.

قال بصوت منخفض: «أوه، هل يمكن أن ترتبط حياتي بأقل ذبذبة من أحد هذه الأجراس!» ثم أضاف، ويداه مضمومتان: «أوه، أيتها الأجراس لا تقرعي! أيتها الجلاجل لا تجلجلي!»

وحاول مرة أخرى أن يؤثر في ترويفو.

فسأله: «وإذا هبّت نسمة من الهواء؟»

أجابه الآخر دون تردد: «ستشنق.»

وعندما رأى استحالة التأجيل، أو التهرّب، عزم على ركوب الخطر. فرفع قدمه اليمنى حول قدمه اليسرى، ثم مد ذراعه، ولكنه بينما كان يلمس التمثال، تأرجح جسده الذي لم تبق له غير قدم واحدة، فوق الموطئ الخشبي ذي الأرجل الثلاث، فأراد بصورة آلية أن يستند إلى التمثال، ففقد توازنه، وسقط ثقيلاً على الأرض، وقد أصمه الطنين الرهيب لآلاف أجراس التمثال الصغيرة، هذا التمثال الذي رسم بتأثير يده، دائرة حول نفسه، ثم راح يتأرجح بجلال بين عمادي المشنقة.

وصرخ وهو يسقط قائلاً: «أيتها اللعينة!» ثم بقي كالميت ووجهه في الأرض.

وفي هذه الأثناء، سمع الجلبة الرهيبة فوق رأسه وانتهت إليه ضحكات اللصوص الشيطانية، وصوت ترويفو الذي كان يقول: «ارفعوا هذا الأبله، واشنقوه بقسوة.»

ونهض، وقد رُفع التمثال ليحل هو محله.

ثم حمله الأوباش إلى الموطئ الخشبي. واقترب منه كلوبان فوضع الحبل في عنقه، وقال له وهو يربت على كتفه: «وداعاً، أيها الصديق! إنك لن تستطيع الآن خلاصاً، ومع ذلك فإنك ستهضم طعامك بمصارين البابا.»

استحضرت كلمة «الرحمة» فوق شفتي جرنجوار. ثم نظر من حوله دون أن يتبيَّن أملاً. لقد كانوا كلهم يضحكون.

قال ملك التونيين «بل فيني دي لاتوال» فخرج رجل ضخم الجثة من بين الصفوف وتسلق اللوح المعترض.

لقد صعد بل فيني إلى اللوح خفيفاً، ونظر إليه جرنجوار مذعوراً، بعد قليل، متربعاً على اللوح فوق رأسه.

وردد كلوبان ترويفو: «أما الآن فإنك يا أندري لورج ستلقي بالموطئ الخشبي أرضاً بركلة من ركبتك بعد أن أصفق بيدي، وسيتعلق فرنسوا شانت برون بقدمي هذا التافه، ويلقي بل فيني بنفسه فوق كتفيه، أنتم الثلاثة مرة واحدة، هل تسمعون؟»

وارتجف جرنجوار. ثم قال كلوبان ترويفو للأوباش الثلاثة المتهيئين للانقضاض على جرنجوار انقضاض ثلاثة عناكب على ذبابة: «هل أنتم على استعداد؟» وقضى البائس المسكين فترة انتظار رهيبة، بينما كان كلوبان يدفع إلى النار بطرف قدمه بعضاً من أفراع الكرم الصغيرة التي لم تمسها النار المشتعلة. ثم كرر قائلاً: «هل أنتم مستعدون؟». وباعد ما بين يديه ليصفق. وينتهي الأمر بعد ثانية واحدة.

ولكنه توقف، كما لو أن فكرة مفاجئة قد أنذرته وحذرته.

«قال: انتظروا قليلاً! لقد كدت أنسى. لقد جرت العادة عندنا ألا نشنق رجلاً إلا بعد أن نسأل ما إذا كانت ترغب فيه إحدى النساء أيها الرفيق. هذه فرصتك الأخيرة. يجب أن تتزوج نشالة أو مصيرك الحبل.»

إن هذا القانون الغجري، هو حتى اليوم، على غرابته في نظر القارئ، مكتوب بكامله في لوائح التشريع البريطاني القديم. انظر ملاحظات بورنجتون.

وتنفس جرنجوار. لقد كانت المرة الثانية التي يعود فيها إلى الحياة خلال نصف ساعة فقط. على أنه لم يطمئن إليها اطمئناناً تامّاً. وصرخ كلوبان قافزاً فوق برميله: «هولا! أيتها النساء والإناث، هل بينكن، ابتداء من الساحرة حتى هرتها، فاجرة ترغب في هذا الفاجر؟ هولا، كولات لا شارون! اليزابيت تروفان! سيمون جودوين! ماري بيادابو! تون لا لوفج! بارارد نانوال! ميشال جاناي! كلود رونج أوراي! ماتورين جيرورو! هولا! ايزابو لاتياري! تعالين وانظرن! رجلاً دون مقابل! من تريده منكن؟»

وطبيعي أن يكون جرنجوار، في هذه الحالة البائسة، قليل الإغراء.

وبدت النشّالات قليلات التأثر أمام هذا الاقتراح. فسمعهن البائس يقلن: «لا! لا! اشنقوه.»

وفي هذه الأثناء خرجت ثلاث منهن من صفوف الجمهور وأتين يتشممن، كانت الأولى فتاة ضخمة ذات وجه مربع. تأملت بانتباه شديد، سترة الفيلسوف المحزنة. لقد كانت بالية، ذات ثقوب أكثر من ثقوب مشواة الكستناء، وكشرت الفتاة. ثم قالت مجمجمة: «راية قديمة.» وأردفت متوجهة إلى جرنجوار «النر معطفك؟» ـ قال جرنجوار: لقد أضعته. ـ وقبعتك؟ ـ لقد أخذت مني. ـ وحذاءيك؟ لقد بدآ يفقدان نعليهما. ـ ومحفظتك؟ فتمتم جرنجوار: آسف، إنني لا أملك درهماً. ـ أجابت النشالة وهي تدير ظهرها له: «أترك نفسك تشنق، وقل شكراً!»

أما الثانية، فهرمة، سوداء، متغضنة، كريهة، ذات قبح يلفت النظر

حتى في بلاط العجائب، دارت حول جرنجوار الذي كان يرتجف من مجرد تصوره أنها غير راغبة فيه.

ولكنها قالت في جمجمة بين أسنانها: «إنه هزيل جداً» وابتعدت.

وكانت الثالثة فتاة، ذات شباب متوسط، غير شديدة القبح.

فقال لها الشيطان المسكين بصوت خفيض «أنقذيني!». فتأملته مشفقة خلال برهة قصيرة، ثم خفضت عينيها، وعقدت ثنية في تنورتها، ووقفت مترددة. كان يتابع حركاتها كلها بنظرته: لقد كانت آخر أمل له. «لا»، قالت الفتاة الشابة أخيراً، «لا! إنني إن فعلت ضربني غليوم لونجين» ودخلت بين الجماهير.

فقال كلوبان: «أيها الرفيق، إنك شقي بائس.»

ثم صرخ مقلداً لهجة الحاجب في غمرة من مرح الجميع وقد نهض واقفاً فوق برميله: «ألا ترغب فيه إحداكن؟ واحد، اثنان، ثلاثة!» واتجه نحو المشنقة، مع إشارة برأسه قائلاً: «لقد أبرمت الحكم!»

واقترب من جرنجوار كل من دي لاتوال، وأندري لاروج، وفرنسوا شانت برون.

وفي هذه البرهة ارتفع صراخ بين الأوباش:

ـ «الاسميرالدا! الاسميرالدا!»

فارتعد جرنجوار واستدار نحو الجهة التي صدر عنها الصوت. وانفرجت صفوف الجماهير، لتوسع الطريق أمام شكل صاف مشع.

لقد كانت الغجرية هناك.

قال جرنجوار: «الاسميرالدا!» مبهوتاً، وسط انفعالاته، من الأسلوب المفاجئ الذي ربضت به هذه الكلمة السحرية بين ذكريات نهاره.

لقد كانت هذه المخلوقة النادرة تبدو ذات سلطان قاهر بظرفها وجمالها حتى في بلاط العجائب. واصطف الجميع رجالاً ونساء

يستقبلونها وهي تمر، وقد بدا البِشْر في وجوههم القاسية حين كانت أنظارها تقع عليهم.

ثم اقتربت من البائس بخطوات خفيفة، تتبعها عنزتها الظريفة، دجالي. وجرنجوار أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. فتأملته الفتاة صامتة في برهة وجيزة.

ثم قالت لكلوبان بوقار: «هل ستشنقون هذا الرجل؟»

أجابها ملك التون: «نعم يا أختاه، إلا إذا قبلت باتخاذه لك زوجاً.»

وتحركت شفتها السفلى في تكشيرتها الصغيرة الحلوة. ثم قالت: «إنني آخذه.»

وهنا اعتقد جرنجوار أنه قد عاش منذ الصباح حلما، . وأن ما يحدث الآن هو جزء لاحق به.

لقد كانت حلقات الحوادث، في الواقع، عنيفة، رغم حلاوتها. وفُكت أنشوطة الحبل المتحركة، وأُنزل الشاعر عن الموطئ الخشبي. ثم أُرغم على الجلوس، وقد كان ارتجاجه ارتجاجاً بالغ الأثر فائق الفعالية.

ثم حمل، دوق مصر، دون أن ينبس ببنت شفة، جرة من الطين، قدمتها الغجرية إلى جرنجوار وقالت له:

«ارم بها الأرض.»

وانحطمت الجرة فكانت قطعاً أربعاً.

وهنا قال دوق مصر واضعاً يديه فوق الجبهة: «أيها الأخ، إنها زوجتك. أيتها الأخت، إنه زوجك لأربع سنوات. اذهبا.»

7 ـ ليلة عرس

وجد شاعرنا نفسه، خلال وقت قصير، في غرفة صغيرة مقببة، محكمة الإغلاق، بالغة الدفء، جالساً أمام منضدة تبدو وكأنها لا تطلب

خيراً من لقيمات في قفص للطعام معلق غير بعيد، وله سرير طيب فيما يرى أمامه، وحيداً مع فتاة جميلة. لقد كان في هذه المغامرة شيء من السحر. وبدأ يعتبر نفسه بصورة جدية، شخصية من شخصيات قصص الجن، ويرسل بين الفينة والفينة، نظراته فيما حوله، كما لو أنه يبحث عما إذا كانت عربة النار التي شد إليها شبحان مجنحان، والتي استطاعت وحدها أن تحمله سريعاً من بلاد التتار إلى الجنة، ما تزال هناك. كما كان في فترات متقاربة يثبت نظره بعناد في ثقوب سترته، كي يتشبث بالحقيقة الواقعة فلا يتيه بعيداً عن الأرض بعداً تاماً. أما عقله الذي كان يتقاذفه الفضاء الخيالي، فلم يعد يمسك بغير هذا الخيط.

أما الفتاة الشابة فلم تكن بادية الاهتمام به أو الانتباه إليه: كانت تروح وتجيء، وتحرك بعض المقاعد، أو تتحدث مع عنزتها، وتصنع تكشيرتها الصغيرة هنا وهناك. وأخيراً أتت تجلس قريباً من المنضدة، فاستطاع جرنجوار أن يتأملها ملياً.

كنت طفلاً أيها القارئ، وعساك أن تكون سعيداً لو أنك الآن كذلك. كنت أكثر من مرة (أما فيما يتعلق بي فقد قضيت أياماً كاملة من الطفولة، وهي خير ما استمتعت به من حياتي) تتبع فراشة طائرة خضراء أو زرقاء، متنقلاً بين النباتات الشوكية، عند شاطئ مياه لامعة صافية، في يوم مشمس، وقد كسرت هذه الحشرة طيرانها في زوايا مفاجئة حادة، مقبلة أطراف كل الأغصان. إنك تذكر كيف كان الفضول المستهام لفكرك ونظراتك مرتبطاً أشد الارتباط وأوثقه، بهذه الدوامة الصافرة الضاجة، ذات الأجنحة الأرجوانية واللازوردية، وقد طفا في وسطها شكل يتعذر الإمساك به وغشته سرعة حركته نفسها. إن الكائن الهوائي الذي كان يرتسم غامضاً خلال رجفات الأجنحة يبدو لك خيالياً يتعذر لمسه أو النظر إليه. ولكن حين تستقر هذه الفراشة الطائرة أخيراً فوق قصبة من قصبات الحقل، فتستطيع أن تتفحص، وأنت ممسك بأنفاسك، الأجنحة الطويلة الرقيقة، وثوب الميناء السابغ، وكرتي البلّور، أية دهشة عساك لا تحس

بها، بل أي خوف لا يخامرك، من أن ترى هذا الشكل بعيداً عنك في الظلال وهذا الكائن بعيداً عنك في الخيال! تذكر هذه الانطباعات كلها، فتدرك من ثم بسهولة بالغة ما كان يستشعره جرنجوار وهو يتأمل هذه الاسميرالدا في شكلها المرئي الملموس الذي لم يكن قد نظر إليه حتى وقتئذ إلا من خلال دوامة الرقص والغناء والضجيج.

كان يقول وهو يتبعها بنظراته بصورة غامضة، مستغرقاً أكثر فأكثر في أحلامه اليقظة: «هذه هي الاسميرالدا؟ أية مخلوقة سماوية! بل أية راقصة شوارع! ومهما يكن الأمر! فهي التي وجهت إلى مسرحيتي في الصباح ضربتها المميتة، وهي التي أنقذت حياتي عند المساء. يا عبقريتي الرديئة! ـ يا ملاكي الطيب! ـ قسماً بشرفي، إنها امرأة جميلة! لقد وجب أن تكون مغرمة بي غراماً حتى الجنون إذ أخذتني على هذه الطريقة.» ثم قال وقد نهض فجأة شاعراً بالواقع يشكّل قاعدة خلقه وفلسفته: «وبهذه المناسبة لا أدري كيف حدث هذا كله، ولكنني زوجها!» ولم تكد تستقر هذه الفكرة في رأسه وفي عينيه، حتى اقترب من الفتاة، فكان في حركته من الحزم العسكري البالغ والرقة الفائقة ما جعلها تتراجع إلى الوراء.

قالت: «ماذا تريد مني؟»

ـ «هل لك أن تسأليني عنه يا اسميرالدا المعبودة؟»

أجابها جرنجوار بلهجة بلغت من الانفعال حداً جعله يندهش حين سمع نفسه يتكلم.

وفتحت الغجرية عينيها كبيرتين: «إنني لا أعرف ما تريد أن تقول.»

فردد جرنجوار «ما هذا! ألستُ لكِ أيتها الصديقة الرقيقة؟ ألست لي»، قال ذلك وقد تزايد ضرام نفسه، ظاناً أنه لا يقابل غير فضيلة من فضائل بلاط العجائب.

وأحاط قوامها بذراعيه، في سذاجة تامة.

وانزلق أعلى جسد الفتاة من يديه كما لو أنه ثوب سمكة السلّور.

وقفزت مرة واحدة إلى الطرف الآخر من الحجيرة، ثم انحنت واستقامت مرة أخرى، وقد نضت في يدها خنجراً صغيراً قبل أن يتاح لجرنجوار من الزمن ما يرى به مصدر هذا الخنجر الذي كان قد خرج منه، فعلت هذا وهي ثائرة، فخورة، منتفخة الشفتين، مفتوحة المنخرين، محمرة الوجنتين فكأنها تفاحة ذات لونين أحمر وأبيض، أما الحدقتان فقد كانتا تشعان ببروق لامعة. وفي الوقت نفسه، وقفت العنزة البيضاء إلى جانبها، وكشفت لجرنجوار عن جبهة مقاتلة عنيدة، بدا فوقها قرنان جميلان، مذهبان ودقيقان في طرفيهما. حدث هذا كله في طرفة عين.

وتحولت الفراشة دبّوراً ثم لم تكن تطلب غير أن تلسع.. أما فيلسوفنا فقد وقف مسمراً على قدميه، ينقل بين العنزة والفتاة نظرات مبهوتة بلهاء.

ثم قال أخيراً حين سمحت له الفرصة بالكلام: «أيتها القديسة العذراء! هاتان شخصيتان حازمتان جريئتان!»

وقالت الغجرية: «يجب أن تكون إنساناً غريباً شديد الجرأة!»

وقال جرنجوار مبتسماً: «عفواً يا آنستي، ولكن لِمَ اتخذتِني زوجاً لك؟»

ـ «هل كان يجب أن أتركك تشنق؟»

فردد الشاعر وقد شاع في نفسه قليل من الخيبة: «وإذن فلم يكن في نفسك، حين تزوجت مني، غير فكرة إنقاذي من المشنقة؟»

ـ «وأية فكرة أخرى تريد أن تكون لي؟»

فعض جرنجوار على شفتيه وقال: «دعك من هذا فلست حتى اليوم صاحب انتصارات في ميدان الحب فيما كنت أعتقد. ولكن ما هي المصلحة في تحطيم هذه الجرة المسكينة؟»

وفي هذه الأثناء كان خنجر الاسميرالدا وقرنا العنزة في وضع دفاعي.

قال الشاعر: «لنستسلم، أيتها الآنسة اسميرالدا. فلست مسجلاً مساعداً في الشاتليه، كما لن ألومك موبخاً على حملك خنجراً في باريس على مشهد من أوامر رئيس الشرطة ونواهيه. ومع ذلك فأنت لا تجهلين أن نويل لاسكريبفان قد حكم عليه بدفع جزاء لأنه كان يحمل شفرة جارحة. ولكن هذا ليس من شأني، وها أنا أرجع إلى الواقع. وأقسم لك بنصيبي من الجنة ألا أقترب منك دون أن تأذني لي بذلك ولكن أعطيني ما أتعشاه...»

ولم تجب الغجرية. بل كشرت تشكيرتها الصغيرة المزدرية. ورفعت رأسها كالعصفور ثم انفجرت ضاحكة، واختفى الخنجر الصغير كما كان قد ظهر، دون أن يرى جرنجوار أين كانت تخبئ النحلة إبرتها.

وبعد برهة قصيرة، كان فوق المنضدة رغيف من قمح الشيلم، وقطعة من الشحم، وبضع تفاحات متغضنة وكوب من النبيذ. وراح جرنجوار يأكل في شراهة شديدة. فقد يقول من يسمع الصليل الغاضب لشوكته الحديدية وصحفته الفخارية أن حبه كله قد تحول إلى شهية.

كانت الفتاة تنظر إليه يأكل، وهي جالسة أمامه، مشغولة فيما يبدو بوضوح، بفكرة أخرى، تبتسم لها بين وقت وآخر، بينما كانت كفها الرقيقة تمر حادبة فوق رأس عنزتها الذكية المضغوطة ضغطاً خفيفاً بين ركبتيها، وشمعة صفراء تنير هذا المشهد من الشراهة والأحلام اليقظة.

وفي هذه الأثناء، وبعد أن هدأت ثورة معدته، استفاض في نفس جرنجوار شعور بالخجل الكاذب من أن يرى أنه لم يبق غير تفاحة واحدة قال: «هلا تأكلين أيتها الآنسة اسميرالدا؟» فأجابت بالنفي بإشارة من رأسها، وكل نظرها يتمركز في قبة الحجيرة.

وفكر جرنجوار، ناظراً إلى ما كانت تنظر إليه: «يا للشيطان! ما الذي يشغلها؟» لا يمكن أن تكون تكشيرة هذا القزم الحجري المنحوت في القبة هي التي تسترعي انتباهها.

ورفع صوته: «يا آنستي!»

لم تكن تبدو سامعة له.

فردد بصوت أعلى: «أيتها الآنسة اسميرالدا!» لقد كان جهده ضائعاً. إن ذهن الفتاة في مكان آخر، ولم تكن لصوت جرنجوار القوة على ردها إليه. وكان من حسن حظه أن العنزة قد تدخلت في هذا الأمر. فأخذت تشد كُمَّ سيدتها، برقة وهدوء، فقالت الغجرية بحدة كما لو أنها استيقظت في قفزة واحدة: «ماذا تريدين يا دجالي؟» فقال جرنجوار وقد سر بالاشتراك في الحديث: «إنها جائعة.»

فأخذت الاسميرالدا تفتت قطعة من الخبز، فتأكلها العنزة من جوف كفها سعيدة رقيقة.

على أن جرنجوار لم يترك لها من القوت ما ترجع به إلى أحلامها اليقظة. فوجه إليها سؤالاً، قائلاً: «وإذن فأنت لا تبغينني زوجاً لك؟»

وأثبتت فيه الفتاة نظرها ثم قالت: «كلا!»

وتابع جرنجوار: «أو كصديق؟»

فنظرت إليه أيضاً ثابتة الحدقتين وأردفت بعد فترة من التفكير: «ربما.»

إن «ربما» هذه التي تعز على الفلاسفة قد حملت إلى جرنجوار مزيداً من الشجاعة.

قال: «هل تعرفين ما تعنيه الصداقة؟»

أجابت الغجرية: «نعم، إنها أن نكون أخاً وأختاً، أن نكون روحين تتجاوران ولكنهما لا تتداخلان، كما تكون إصبعان من أصابع اليد الواحدة.»

وتابع جرنجوار: «والحب؟»

قالت، وفي صوتها اضطراب وفي عينيها شعاع: «أوه! الحب! هو أن نكون اثنين ثم لا نكون إلا واحداً فقط. رجل وامرأة يذوبان معاً في ملاك، إنه السماء.»

كانت راقصة الشوارع، وهي تتكلم، تفيض بجمال رائع، فعل فعله في نفس جرنجوار بصورة فريدة. وكان هذا الجمال يبدو على تناغم كامل مع ما في كلماتها من رنّات تكاد تكون شرقية. أما شفتاها الورديتان الصافيتان فتفتران عن ابتسامة، وأما جبهتها الخفرة الخالصة من كل سوء فقد كانت تقتم مضطربة تحت تأثير تفكيرها بين وقت وآخر، كما تكون المرأة تحت تأثير الأنفاس الخارجة من الفم، ويخرج من بين أهدابها الطويلة السوداء نور أروع من أن يوصف بأشياء الحياة الدنيا، فيرسل إلى صفحة وجهها الجانبية تلك العذوبة المثالية التي وجدها رافايل في نقطة التلاقي الصوفية بين البكارة والأمومة والألوهية.

ولم ييأس جرنجوار من متابعة مناقشته فقال:

ـ «وإذن كيف يجب أن نكون حتى نبلغ موضع الإعجاب من نفسك؟»

ـ «يجب أن تكون رجلاً.»

ـ «الرجل هو ذو الخوذة الحديدية في رأسه، والسيف في قبضة يده، والمهمازين الذهبيين في كعبيه.»

قال جرنجوار: «حسن جداً، فليس هناك رجل دون حصان. هل تحبين أحداً؟»

ـ «تقصد الحب؟»

ـ «نعم، أقصد الحب.»

وبعد أن وقفت قليلاً تفكِّر، قالت بلهجة خاصة: «سأعرف ذلك وشيكاً.»

وردد الشاعر برقّة بالغة: «لِمَ لا تعرفين هذا المساء؟ لِمَ لا أكون أنا؟»

فوجهت إليه نظرة وقورة:

ـ «لن يسعني أن أحب إلا الرجل القادر على حمايتي.»

واحمرّ وجه جرنجوار واعتبر التلميح تصريحاً، لقد كان بهديهياً أن الفتاة تلمح إلى القليل من المساعدة التي كان قد قدَّمها إليها في الفترة

الحرجة منذ ساعتين. ورجعت هذه الذكرى إليه بعد أن محتها مغامراته المسائية الأخرى. فضرب على جبهته.

ـ «وبهذه المناسبة يا آنستي، أقول إنه قد كان واجباً عليّ أن أبدأ من هنا. فاغفري لي غفلاتي المجنونة. كيف صنعت حتى تخلصت من مخالب كوازيمودو؟»

فجعل هذا السؤال الغجرية، تقشعر من الهول:

«أوه! يا للأحدب الرهيب!» قالت ذلك وهي تغطي وجهها بيديها، وترتجف كما لو أنها تصطك من البرد.

فقال جرنجوار، وقد أبى التنازل عن فكرته: «الحقيقة أنه رهيب حقاً! ولكن كيف استطعت التخلص منه؟»

وابتسمت الاسميرالدا، ثم تنهدت، واحتفظت بالصمت.

فأردف جرنجوار، محاولاً الرجوع إلى موضوعه:

ـ «هل تعرفين لماذا كان يتبعك؟»

قالت الفتاة: «لست أدري»، ثم أضافت بحماسة ظاهرة:

ـ «وأنت يا جرنجوار لِم كنت تتبعني؟»

فأجابها جرنجوار، بنية حسنة: «وأنا أيضاً لست أدري!»

ثم شاع الصمت. فراح جرنجوار يقتطع من المنضدة الخشبية قطعاً صغيرة بسكينه. والفتاة تبتسم فيبدو كأنها كانت تنظر إلى شيء ما عبر الجدار. وفجأة، انطلقت تغني بصوت لا يكاد يُسمع. ثم أقلعت عن الغناء بمثل ما أقبلت عليه، وراحت تمرّر كفها فوق جسد دجالي.

قال جرنجوار: «إنك تملكين هنا حيواناً جميلاً.»

فأجابت: «إنها أختي.»

ـ «لِمَ يسمونك الاسميرالدا؟»

ـ «لست أدري.»

وأخرجت من صدرها نوعاً من كيس صغير مستطيل معلق في عنقها بسلسلة، وتصدر عنه رائحة قوية من الكافور. . وتغطيه قطعة من الحرير الأخضر، في وسطه بلورة خضراء شبيهة بالزمرد. .

قالت: «من الممكن أن يكون هذا هو السبب.»

حاول جرنجوار أن يتناول الكيس. ولكنها رجعت إلى الوراء، قائلة:

ـ «لا تلمسها. إنها تميمة، فقد تؤذي السحر، أو يؤذيك السحر بدوره.»

وتزايدت يقظة الشاعر وفضوله:

ـ «من أعطاك إياها؟»

فوضعت أنملة فوق فمها وأخفت التميمة في صدرها. وحاول جرنجوار طرح أسئلة أخرى، ولكنها كانت تجيب بإيجاز.

ـ «ماذا تعني كلمة الاسميرالدا؟»

ـ «لست أدري.»

ـ «من أية لغة هي؟»

ـ «أظن من اللغة المصرية.»

قال جرنجوار: «لقد كنت أشك في ذلك. إنك لست من فرنسا؟»

ـ «لست أدري.»

ـ «هل لك أقارب؟»

فانطلقت تغني لحناً قديماً.

فقال جرنجوار: «حسن جداً، ومتى أتيت إلى فرنسا؟»

ـ «كنت صغيرة جداً.»

ـ «إلى باريس؟»

ـ «في السنة الماضية. بينما كنا نجتاز الباب البابوي، رأيت في الهواء دخَّلة القصبات تطير، حدث ذلك في أواخر آب، وقلت في نفسي: «سيكون الشتاء قاسياً.»

قال جرنجوار وقد سرته بداية هذه المحادثة «لقد كان كذلك: فقد قضيته وأنا أنفخ في أصابعي. وإذن فإن لك هبة التنبؤ؟»

وسقطت ثانية في غمرة إيجازها.

- «لا.»

- «هل الرجل الذي تسمونه دوق مصر هو زعيم قبيلتك؟»

- «نعم.»

- «ومع ذلك فهو زوَّجنا» قالها الشاعر في خجل ظاهر، فكشرت تكشيرتها الحلوة المعهودة. «ولكنني لا أعرف اسمك.»

- «بطرس جرنجوار.»

- «إنني أعرف أسماء كثيرة أجمل منه.»

فأردف الشاعر: «كم أنت رديئة! ولكن لا بأس، لن أغضب أبداً. فقد تحبينني بعد أن تزدادي معرفة بي». ثم إنك قصصت عليّ قصة حياتك في ثقة بالغة بحيث أدين لك قليلاً بقصة حياتي. أنت تعرفين أنني أدعى بطرس جرنجوار. كما أنني ابن لمزارع. أبي شنقه البورغونيون، وأما أمي فقد بقر بطنها البيكارديون، بُعيد حصار باريس، منذ عشرين سنة. لقد أصبحت يتيماً في السادسة من عمري، ولم يكن لي من نعل لقدمي غير بلاط باريس. لست أدري كيف قضيت سنوات ما بين السادسة والسادسة عشرة. فقد كانت بائعة الفاكهة تقذفني بخوخة هنا، والخباز يمنحني قطعة خبز هناك، وفي المساء كنت أسلم نفسي لرجال الشرطة الذين يلقون بي في السجن حيث أجد كومة من القش. ولكن هذا كله لم يحل دون أن أنمو وأهزل، كما ترين. كنت في الشتاء أتدفأ بشعاع الشمس تحت سقيفة فندق السانس، وكم كان يبعث السخرية في نفسي أن يحتفظ بنار القديس حنا لفترة الحر الشديدة في تموز وآب. وفي السادسة عشرة من عمري حاولت أن أفوز بمركز من المراكز. وأقبلت بصورة متتابعة على ممارسة كل منهة، فانضويت في سلك الجندية، ولكن لم

يكن لي من الجرأة ما يكفي لها. ثم دخلت في سلك الرهبنة، فلم أكن تقياً. وفي أزمة يأس عنيفة، عملت أجيراً بين النجارين صانعي الفؤوس الكبيرة فحال ضعف جسدي دون أن أتحمل مشاق هذه المهنة.

والحق أنني كنت راغباً في التعليم في مدرسة. صحيح أنني لم أكن أعرف القراءة، ولكن هل هذا بالأمر الهام؟. ولم ألبث حتى تبينت أن شيئاً ينقصني في كل عمل أمارسه، وعندما رأيت أنني لا أصلح لأية مهنة، جعلت نفسي بملء اختياري شاعراً ومؤلف ألحان. إنها وظيفة تسهل ممارستها حين نكون متشردين. وهذا خير من السرقة، كما كان ينصحني بعض أصدقائي. وفي يوم جميل، سعيد التقيت دوم كلود فروللو، الأب المحترم، كاهن كنيسة نوتردام، الذي اهتم بي، بحيث أدين له اليوم باعتباري قارئاً حقيقياً أحيط علماً باللاتينية، ومعرفة بالدراسات السكولاستية والشعرية. فأنا واضع مسرحية «السر» التي مثلت في الصباح بمساعدة الجهود الكبيرة في وسط بهو قصر العدل ولاقت ذلك النجاح المنقطع النظير، كما أنني أنهيت كتاباً من ستمئة صفحة تناولت فيه بالبحث مذنَّب عام 1465 الذي جن به أحد الناس، وسجلت نجاحات أخرى أيضاً.

لقد عملت قليلاً، بوصفي نجار مدفعية، في إنجاز منجنيق جان موج، الذي انهار فوق جسر شارنتون، في اليوم الذي خضع فيه للتجربة، وقتل أربعة وعشرين من الفضوليين.

وهكذا ترين أنني لست زوجاً خبيثاً فاشلاً.

إنني أعرف من الحيل والأحابيل الجميلة ما سأعلمه لعنزتك، من مثل تقليد أسقف باريس، هذا الفرِّيسي اللعين الذي تقذف مطاحنه الماء فوق المارة على امتداد جسر الطحانين. كما أن مسرحيتي ستعود عليَّ بكثير من المال، إن دفعوه لي. وأخيراً إنني في خدمتك، أنا، وعقلي، وعلمي، وكتاباتي، مستعد لمعايشتك، زوجاً وزوجة، إن حلا لك هذا، أو أخاً وأختاً، إن رأيت ذلك أفضل.»

وسكت جرنجوار، مراقباً أثر خطابه في الفتاة الشابة التي كانت عيناها مثبتتين في الأرض.

كانت تقول في صوت خفيض «فوبوس». ثم التفتت نحو الشاعر: «ماذا تعني كلمة فوبوس؟»

ودون أن يدرك جرنجوار العلاقة القائمة بين خطابه وهذا السؤال، لم يجد ضيراً في إبراز علمه. فأجاب في تنفخ وغطرسة: «إنها كلمة لاتينية تعني «الشمس». فأردفت، معجبة: «الشمس!»

وأضاف جرنجوار: «لقد كان اسم أحد الرماة وكان إلهاً.»

ورددت المصرية: «إله». وفي لهجتها شيء مثير يبعث على التفكير.

في تلك البرهة، انفصلت إحدى أساورها وسقطت إلى الأرض. فانحنى جرنجوار يلتقطها في حماسة فائقة. ولكنه لم يكد يرفع رأسه حتى اختفت الفتاة والعنزة. لقد سمع صرير قفل في باب الغرفة الذي يتصل بحجيرة مجاورة، وينغلق من الخارج.

قال فيلسوفنا: «هل تركت لي سريراً على الأقل؟»

ثم دار حول الحجيرة. ولم يكن فيها من الأثاث ما يصلح للنوم غير صندوق خشبي طويل، نحت غطاؤه، مما بعث في جسد جرنجوار، حين تمدد فوقه، إحساساً يشبه على التقريب ذاك الذي كان يحس به ميكروميغاس وهو ينام متمدداً فوق جبال الألب.

قال، وهو يصلح من نومه ما وسعه الإصلاح: «هيا بنا، عليَّ أن أصبر. إنها ليلة زفاف غريبة، وإنها لخسارة فادحة. لقد كان في هذا الزواج ذي الجرة المكسورة شيء ساذج، شيء يذكّرني بعصر ما قبل الطوفان، فيدخل السرور إلى نفسي.»

الكتاب الثالث

1 ـ نوتردام

لا شك أن كنيسة «نوتردام دي باري» ما تزال حتى اليوم بناء جليلاً بالغ الروعة، ومهما يكن احتفاظها بجمالها وهي تهرم، فإن من الصعب ألا نتنهد، ونثور ناقمين، أمام الانهيارات والتشوهات الكثيرة، التي سببها الناس والأيام، على التوالي، لهذا الأثر الوقور، منتهكين حرمة شارلمان واضع حجرها الأول، وفيليب أوغست واضع حجرها الأخير.

وعلى صفحة ملكة كاتدرائياتنا القديمة، إلى جانب تخدد صغير، لا نزال نجد ندبة مكتوبة باللاتينية، ومعناها: «الأيام عمياء، والناس حمقى.»

ولو كان لنا من الفراغ ما يسمح بتفحص كل أثر على حدة من آثار التهديم في الكنيسة القديمة، لبان لنا أن نصيب الأيام منها هو النصيب الأقل، أما النصيب الأوفى فهو نصيب الناس، ولا سيما رجال الفن منهم. ومن الواجب أن أقول: رجال الفن. لأنه قد كان هناك أفراد اتخذوا صفة المهندسين البنائين خلال القرنين السابقين.

ولكي لا نورد، أولاً، غير أمثلة رئيسية قليلة، نذكر أن ما هو أجمل من واجهة الكنيسة الأمامية، من صفحات الفن الهندسي، قليل جداً، حيث حفرت على التتابع وفي مرة واحدة أبواب ثلاثة ذات حنايا، وسلسلة مطرزة مسننة من ثمان وعشرين كوة ملكية غير نافذة، والوردة

المركزية الضخمة التي برزت منها نافذتاها الجانبيتان كما يكون الكاهن من الشماس ومساعد الشماس، ثم الرواق الدقيق العالي للقناطر الصغيرة، والذي يحمل فوق أعمدته الدقيقة سقيفة ثقيلة، وأخيراً البرجان الأسودان الكثيفان مع أطنافهما الاردوازية، أجزاء متناغمة لكل رائع، متراكم بعضها فوق بعض في طبقات عملاقة خمس، تنمو كلها على مشهد من العين، في جمهرة كبيرة خالية من الاضطراب مع ما لا يحصى من تفصيلات التماثيل الصغيرة، والنحت، والنقش، ملحقة كلها إلحاقاً قوياً، بعظمة المجموع المطمئن، لكأنها سمفونية شاسعة من الحجر، نتاج عجيب لرجل ولشعب، إنه كلٌ واحد ومعقد كالالياذات والرومانسيرو الذي هو أخ لها، نتاج خصب اشتركت فيه كل قوى عصر من العصور، حيث نجد، بارزاً فوق كل حجر بمئة طريقة خيال العامل، تنظمه عبقرية الفنان. هو نوع من الإبداع البشري، وبكلمة واحدة، إبداع قوي وخصب كما يكون الإبداع الإلهي الذي يظهر أنه قد سرق عنه صفته المزدوجة: التنوع، والخلود.

وما نقوله هنا عن واجهة الكنيسة الأمامية، يجب أن يقال عن الكنيسة كلها، وما نقوله عن كاتدرائية باريس، يجب أن يقال عن كل كنائس المسيحية في القرون الوسطى.

ولنرجع إلى واجهة نوتردام، كما تبدو لنا اليوم، حين ننطلق معجبين إعجاباً بالغ الورع، بالكاتدرائية القوية الوقور، التي تبعث على الخوف كما يزعم الذين أرَّخوا لها.

إن هذه الواجهة تفقد اليوم ثلاثة أشياء مهمة: السلَّم ذات الدرجات الإحدى عشرة التي كانت ترفعها فوق الأرض، ثم سلسلة التماثيل السفلى التي كانت تشغل الكوى غير النافذة للأبواب الثلاثة، والسلسلة العليا لأقدم ثمانية وعشرين ملكاً من ملوك فرنسا، التي كانت تحيط برواق الطابق الأول، ابتداء من شيلدبار حتى فيليب أوغست الذي يحمل بيده «التفاحة الامبراطورية.»

أما الدرج فقد أخفته الأيام، وهي ترفع مستوى أرض شوارع المدينة بحركة بطيئة لا تقاوم. ولكن الأيام التي ابتلعت هذه الدرجات الإحدى عشرة التي كانت تزيد من علو البناء الجليل.. إن هذه الأيام قد أعطت الكنيسة فيما نظن أكثر مما أخذته منها، فالأيام هي التي نشرت فوق الواجهة الأمامية هذا اللون القاتم للقرون الذي يجعل من هرم الآثار عصر الجمال.

ولكن من الذي قذف بصفي التماثيل؟ من ذا الذي ترك الكوى غير النافذة خالية؟ ومن الذي بنى في الوسط الجميل للباب المركزي هذه الحنية الحديثة النغلة؟ ومن جرؤ على إحاطتها بهذا الباب الثقيل التافه المنحوت حسب طراز لويس الخامس عشر إلى جانب زركشات بيسكورنات؟ إنهم الرجال، المهندسون البناؤون، إنهم رجال الفن المعاصرون.

فإذا دخلنا إلى داخل البناء، تساءلنا عمَّن قلب هيكل القديس كريستوف العظيم، الرائع بين التماثيل، تماماً كما يكون البهو الرئيسي في قصر من القصور بين الأبهاء المختلفة، كما تكون قبة ستراسبورغ بين قباب الأجراس، وتلك الآلاف من التماثيل التي كانت تشغل ما بين أعمدة صحن الكنيسة، راكعة على ركبها، قائمة على أقدامها، ممتطية خيولها، رجالاً، ونساء، وأطفالاً، وملوكاً، وأساقفة، وعسكريين منحوتة من حجر، أو رخام، أو ذهب، أو فضة، أو نحاس، حتى من الشمع نفسه، من الذي كلّسها بمثل هذه القسوة؟ إنها ليست الأيام.

ومن الذي وضع هذا الناووس الرخامي برؤوسه الملائكية، وغيومه، فيكاد يبدو نموذجاً مفرداً للفال ـ دي ـ جراس أو الأنفاليد، موضع المذبح الغوطي القديم، الذي ملأته بصورة رائعة صناديق بقايا القديسين وذخائرهم؟ ومن الذي ألصق هذا الحجر الناتئ الغريب في بلاط هيركاندوس الكارلوفانجياني؟ أليس هو لويس الرابع عشر محققاً أمنية لويس الثالث عشر؟

ومن الذي وضع ألواحاً زجاجية بيضاء باردة محل تلك الألواح ذات الألوان العالية التي كانت تحمل التردد إلى عيون آبائنا المبهورين بين وردة الباب الكبير وحنيات صدر الكنيسة؟ وما عسى مساعد مرتل للكنيسة في القرن السادس عشر، أن يقول، حين يرى الطلاء الأصفر الذي لون به أساقفتنا، كاتدرائياتهم؟ إنه سيذكر أنه اللون الذي كان يغطي به الجلاد الأبنية الأثيمة، كما سيذكر قصر البيتي ـ بورجون، المطلي بالأصفر أيضاً بسبب خيانة القائد الأعلى للجيش الفرنسي، يقول سوفال «إنه على كل حال أصفر بالغ الجودة، تعاقد الجميع على استعماله، بحيث إن قرناً أو يزيد لم يفقده لونه». إنه سيظن أن المكان المقدس قد أصبح مرذولاً، فيهرب بعيداً عنه.

ولو صعدنا إلى ما فوق الكاتدرائية، دون أن نقف عند مئات من البربريات من كل نوع، فما الذي صنع بالقبة الصغيرة الظرفية التي كانت ترتكز على نقطة التلاقي للنافذة، مرتفعة عالياً في السماء، بعيداً عن الأبراج، ممشوقة، حادة، رنانة، وهي التي لم تكن أشد صلابة أو أكثر جرأة من جارها سهم الكنيسة المقدسة (المحطم أيضاً)؟ لقد انتزعه مهندس حسن الذوق عام 1787، ظناً منه أنه في تغطية هذا الجرح بلصيقة الرصاص التي تشبه طنجرة، تعويضاً كافياً عنه.

هكذا عومل فن القرون الوسطى الرائع في كل بلد وبخاصة في فرنسا. وفي وسعنا أن نتبين فوق بقاياه ثلاثة أضرار أصابته على أعماق مختلفة: الأيام أولاً، وهي التي سببت فلولاً هنا وهناك بطريقة غير محسوسة وأشاعت الصدأ فوق سطحه، ثم إن الثورات السياسية والدينية، (وهي بطبيعتها غاضبة عمياء)، التي هاجمته في حشود صاخبة، فمزقت ثوبه الفني بالنحوت والنقوش، مقتلعة وروده المنقوشة والمنحوتة، محطمة عقوده من الزركشات والتماثيل الصغيرة ورافعة تماثيله رغبة منها في تيجانها الأسقفية تارة وتيجانها الملكية تارة أخرى، وأخيراً جاءت طرز الحياة التي تتزايد رعونة وغلظة طبع، فتتابعت، منذ الانحرافات الفوضوية

والرائعة لعصر النهضة، تترك أثرها في الانهيار الضروري لهندسة البناء. وقد تركت الطرز من الفساد فيه أكثر مما تركت الثورات. لقد قطعت منه لحمه الحي وهاجمت هيكل الفن العظمي، فقطعت، وقصت، وأشاعت الفوضى، وقتلت البناء في رمزيته وشكله، وفي منطقه وجماله. ثم حاولت أن تصنعه مرّة أخرى، وهي محاولة فيها من الادعاء والغرور ما لم تزعمه على الأقل الأيام والثورات.

وهكذا لم تعد نوتردام دي باري ما يمكن أن يدعى بالأثر الكامل، المحدد، المصنف. إنها لم تعد كنيسة رومانية، كما أنها ليست كنيسة غوطية. لم يعد هذا البناء بناء نموذجياً. بل هو بناء انتقالي. كان المهندس البنَّاء السكسوني قد رفع الركائز الأولى لصحن الكنيسة وأعمدتها، حين أقبلت الحنية خلال الحروب الصليبية تمتد منتصرة فوق التيجان العريضة للأعمدة الرومانية والتي لم تكن معدة إلا لحمل العقود الحجرية الممتلئة.

وهكذا، وقد أصبحت الحنية سيدة الموقف فقد أكملت بناء بقية الكنيسة. وفي هذه الأثناء وبينما كانت الحنية حديثة عهد بالتجربة، خجلت مترددة في بداية ظهورها، فقد عرضت وتفلطحت، وانكمشت على نفسها، لا تجرؤ على الانطلاق في شكل سهام أو مشارط كما فعلت بعد ذلك في كثير من الكاتدرائيات الجميلة المعجبة، حتى ليقال إنها متأثرة بالأعمدة الرومانية الثقيلة المجاورة لها.

على أن الأبنية الانتقالية هذه من العهد الروماني إلى العهد الغوطي ليست أقل قيمة من النماذج المحضة. إنها تعبِّر عن لون فني هو ضائع حتماً دونها. إنه عهد تلقيح العقود الحجرية بالحنايا.

نوتردام ـ دي ـ باري ـ هي نموذج خاص لهذا التنوع. فكل واجهة وكل حجر من هذا الأثر المعجب هو صفحة، لا لتاريخ البلاد فقط، بل لتاريخ العلم والفن أيضاً. وهكذا، ولكي لا نشير هنا إلا إلى التفصيلات الرئيسية، نذكر أنه بينما يبلغ الباب الأحمر الصغير تقريباً تخوم الرشاقة

الغوطية للقرن الخامس عشر، فإن أعمدة صحن الكنيسة، بما تتميَّز به من الحجم والوقار، ترجع في الزمن حتى عهد الدير الكارلوفانجياني في سان جرمان ـ دي ـ بري. فيكاد يخيَّل للرائي أن بين هذا الباب الكبير وهذه الأعمدة ستة قرون. ليس هناك من لا يرى في رموز الباب الكبير ملخصاً كافياً لعلمه، بحيث إن كنيسة القديس جاك ـ دي ـ لا ـ بوشري، قد كانت هيروغليفية كاملة.

وهكذا نجد أن الدير الروماني، والكنيسة في عهد حجر الفلاسفة، والفن الغوطي، والفن السكسوني، والعمود الثقيل المستدير الذي يُذكِّرنا بجرنجوار السابع والرمزية الفلسفية السحرية التي مهد بها نيقولا فلامل لعصر لوثر، والوحدة البابوية، وعهد الانفصال عن الكنيسة، القديس جرمان ـ دي ـ بري، والقديس جاك ـ دي ـ لا ـ بوشري، هذه كلها مختلطة متمازجة، ذائب بعضها في بعض، في كنيسة نوتردام. إن هذه الكنيسة المركزية المولدة هي من بين كنائس باريس القديمة نوع من خيال وأسطورة، فلها رأس هذه، وأعضاء تلك، ومؤخرة ثالثة، فيها شيء من كل الكنائس.

ولو حاولنا أن نستعرض هنا فن هندسة البناء الأوروبية المسيحية فقط، فإن هذه الأخت الثانية للمنجزات البنائية الشرقية الكبرى، تبدو للناظرين كلاً كبيراً ذا مناطق ثلاث مفصولة إحداها عن الأخرى فصلاً جيداً ثم مركوم بعضها فوق بعض: المنطقة الرومانية، والمنطقة الغوطية، ومنطقة النهضة التي ندعوها مختارين يونانية ـ لاتينية. أما الطبقة الرومانية وهي الأقدم والأعمق فمشغولة بالعقد الحجري الممتلئ، الذي يظهر مرة أخرى محمولاً بالعمود اليوناني في الطبقة الحديثة والعليا لعصر النهضة، والحنية بينهما، والأبنية التي تنتمي لواحدة من هذه الطبقات هي أبنية متميّزة، واحدة وكاملة. من مثل دير جومياج، وكاتدرائية ريمس، وصليب أورليان المقدس. ولكن المناطق الثلاث تتداخل بأطرافها، كما تكون الألوان في الطيف الشمسي. ومن هنا تبدو الأبنية المعقدة ذات

اللون الانتقالي. أحدهما روماني في أسفله، غوطي في وسطه، يوناني ـ لاتيني في أعلاه. وذلك لأن بناءه استغرق 600 سنة. إن مثل هذا التنوع نادر. وبرج ديتامب نموذج له. إن الآثار التي ظهر فيها طرازان هي أكثر تعدداً. إنها نوتردام ـ دي ـ باري، البناء ذو الحنايا، الذي ينغرس بأعمدته الأولى في المنطقة الرومانية حيث يغوص باب القديس دنيس، وصحن القديس جرمان ـ دي ـ بري. إنها كاتدرائية روان التي كان يمكن أن تكون غوطية كاملة لولا أنها لم تكن قد غمست سهمها المركزي في منطقة عصر النهضة.

على أن هذه الألوان والتغيُّرات لا تتناول غير سطح الأبنية. إنه الفن الذي يغيّر جلده. أما بناء الكنيسة المسيحية نفسه فلم يصب في ذاته. فلا يزال هنالك الهيكل الداخلي الثابت، والعلاقة المنطقية نفسها بين الأجزاء. ومهما يكن الغطاء الخارجي، منحوتاً أو مطرزاً، لإحدى الكاتدرائيات، فإننا نجد فيما وراء ذلك، ولو في شكلها البدائي، الكنيسة الملكية الرومانية، التي تتألف دائماً من صحنين متقاطعين على شكل صليب، يشكِّل الطرف الأعلى المستدير في صدر الكنيسة موضع الخورس. أما عدد الأبواب والأجراس والسهام فهو موضوع لتغيّر دائم، وتبعاً لخيال العصر والشعب والفن.

والفن يصنع ما يحلو له بعد أن تتأمن مراسيم العبادة. إنه يمزج التماثيل وألواح الزجاج، ورسوم الزهور، والزركشات، والتسنينات، وتيجان الأعمدة، يمزج هذا كله تبعاً لعلم أنساب الأعداد الذي يلائمه. ومن هنا يبرز التنوع الخصيب الخارجي لهذه الأبنية، والتي يشيع في أعماقها النظام والوحدة. إن جذع الشجرة ثابت لا يتغيّر، أما الأوراق فلا.

الكتاب الرابع

1 ـ الأرواح الطيبة

كان ذلك قبل ستة عشر عاماً من الزمن الذي جرت فيه قصتنا هذه. لقد وضع في صباح يوم جميل من أيام آحاد الكوازيمودو، مخلوق حي، فوق السرير الخشبي إلى اليسار من رواق كنيسة نوتردام، تجاه تمثال القديس كريستوفر الكبير.

لقد جرت العادة أن يوضع الأطفال اللقطاء على هذا السرير على مشهد من الجمهور العاطف المحسن، فيأخذهم من كان يرغب فيهم. وكان أمام خشب السرير حوض نحاسي مخصص للصدقات.

إن هذا الكائن الحي الذي يجثم متمدداً فوق اللوح الخشبي في صباح الكوازيمودو من عام 1467 قد كان باعثاً على فضول عدد غير قليل من الناس، تجمعوا حول السرير. وكان هذا الجمع مؤلفاً في الجزء الأكبر منه من أفراد الجنس اللطيف. إلا أنهن لم يكن على التقريب غير عجائز من النساء.

كان الناظر يميِّز بين نساء الصف الأول ممن كن أكثر انحناء فوق السرير من غيرهن، أربعاً يرتدين جبباً سمراء، ويقدر أنهن ينتمين إلى أخوية دينية ورعة خاصة. والحق أنني لا أرى ما يمنع التاريخ من أن ينقل إلى الأحفاد أسماء هؤلاء الأوانس الوقورات الصامتات. إنهن آنياس لا هارم، جوهان دي لا تارم، هنرييت لاجولتيار، جوشير لافيوليت، كلهن

أرامل، وكلهن نساء طيبات من كنيسة آتيان هودري، قد خرجن من منزلهن بإذن من سيدتهن، وعملاً بقوانين بطرس دالي، كي يستمعن إلى الموعظة في الكنيسة.

قالت آنياس لجوشير وهي تمعن النظر في المخلوق الصغير المعروض وهو يبكي ويتلوى فوق السرير الخشبي، مذعوراً أمام الأنظار الكثيرة: «ما هذا يا أختاه؟»

قالت جوهان: «ما الذي سيؤول إليه أمرنا إذا كان الأطفال اليوم كلهم كذلك؟»

فردّت آنياس: «ليست لي أية دراية بالأطفال، ولكن النظر إلى هذا الطفل يجب أن يكون خطيئة.»

ـ «إنه ليس طفلاً يا آنياس.»

وأشارت جوشير إلى أنه قردٌ مسخٌ ناقص.

فأردفت هنرييت لاجولتيار قائلة: «إنه معجزة.»

وهنا لاحظت آنياس أن هذه هي المعجزة التالية خلال الأسابيع القليلة الماضية وأن معجزة الساخر بالحجاج قد ظهرت للناس منذ ثمانية أيام، وقد عوقب هذا الساخر عقاباً إلهياً من قِبل سيدة أوبرفيليه، فكانت المعجزة الثانية خلال هذا الشهر.

ورددت جوهان: «إن هذا الطفل وحش حقيقي، مقيت، مكروه.»

فتابعت جوشير: «إنه يصخب حتى ليكاد يصم أذن مرتل... أسكت أيها العوَّاء!»

وأضافت لاجولتيار وهي تضم يديها: «غريب حقاً أن يرسل السيد ريمس مثل هذا المسخ إلى السيد باريس!»

قالت آنياس لاهارم: «إنني أتصوّر أنه حيون، أو أي شيء آخر ولكنه شيء غير مسيحي، وأن علينا أن نرمي به في الماء أو في النار.»

فأجابت لاجولتيار: «أرجو ألا يطالب به أحد من الناس.»

وصرخت آنياس: «يا إلهي! ماذا تقلن لو حملناه إلى أولئك المرضعات البائسات الموجودات هناك في دار اللقطاء، القائمة في نهاية الزقاق النازل مع النهر قريباً من غبطة الأسقف! أما أنا فأفضل أن أرضع الوحش مصاص دماء الأحياء على أن أرضع هذا الكائن الغريب.»

فأردفت جوهان: «هل هي بريئة هذه «الهارم» المسكينة؟ ألا ترين يا أختاه، أن هذا الوحش الصغير قد بلغ الرابعة من عمره على الأقل، وأنه أشد رغبة في شواء منه إلى ثديك؟»

الواقع أن هذا الوحش الصغير لم يكن طفلاً حديث الولادة (وطبيعي أننا لن نعتبره نحن على غير هذه الشاكلة.) لقد كان كتلة صغيرة، مقرنة، شديدة الحركة، محبوسة في كيس من القماش رقم عليه اسم السيد غليوم شارتيا، أسقف باريس في هاتيك الأيام، وقد خرج رأس هذه الكتلة من الكيس وكان هذا الرأس شيئاً بالغ التشوه. فلم يكن يرى فيه غير غابة من الشعر الأشقر شديد الشقرة، وعين واحدة، وفم وأسنان. كانت العين تبكي، والفم يصرخ، والأسنان تستعد للعض. وكان الشكل ينتفض في الكيس، أمام دهشة الجمهور الذي يتزايد ويتجدد من حوله دون انقطاع. وتوقفت إحدى السيدات أمام السرير وهي تمر قريباً منه، وكانت امرأة غنية نبيلة تمسك بيدها فتاة صغيرة جميلة في السادسة من عمرها، وتجر قناعاً طويلاً موصولاً بقرن ذهبي في شعرها المصفف، ثم تأملت هذا المخلوق البائس فترة قصيرة من الزمن، بينما كانت ابنتها الظريفة، تهجّي وهي في كامل ثيابها الحريرية والمخملية، بإصبعها اللطيفة، اللوحة الدائمة المعلقة إلى خشب السرير: لقطاء.

قالت السيدة وهي تدور متقززة: «في الحقيقة أنني كنت أظن بأنهم لا يعرضون هنا غير الأطفال.»

وأدارت ظهرها وألقت في الحوض قطعة فضية تردد صداها بين الدراهم الصغيرة وجعلت عيون النساء الطيبات الفقيرات، تنفتح كبيرة محملقة.

ويمر بعد قليل السيد، العالم، الوقور، روبير ميستريكول، المسجل الملكي للوثائق البابوية، يحمل تحت إحدى ذراعيه، كتاب القداديس، ويتأبط بالأخرى ذراع امرأته بحيث يكون إلى جانبيه رقيباه الروحي والزمني.

قال بعد أن تمعن في الشيء الذي أمامه: «لقيط! الظاهر أنه قد وجد على ضفة نهر فلاجاتون!»

وقالت الآنسة غليومات: «ليس له غير عين واحدة. أما الثانية فله فوقها دمل كبير.»

وردد السيد روبير ميستريكول: «إنها ليست دملاً. بل بيضة محتوية على عفريت آخر مشابه له، وفوق عين هذا العفريت بيضة أخرى صغيرة محتوية على شيطان ثالث، وهكذا دواليك.»

وسألت جوشير قائلة: «أيها السيد مسجل الوثائق البابوية، ما الذي تتنبأ به في شأن هذا اللقيط المزعوم؟»

فأجاب ميستريكول: «أكبر المصائب؟»

وقالت عجوز بين المستعمين: «آه! يا إلهي! إن ما كان في العام الماضي من وباء البرص وما يذكر من أن الإنكليز سينزلون إلى شواطئنا بالقوة، هو من إنتاج هذا الكائن العجيب!»

وأردف آخر: «إن هذا قد يمنع الملكة من المجيء إلى باريس في شهر أيلول، لا سيما وأن الأحوال التجارية رديئة جداً.»

فصرخت جوهان دي لاتارم: «في رأيي أن من الخير لأهل باريس أن يمدد هذا الساحر الصغير فوق وقدة من الحطب من أن يعرض على لوح خشبي.»

فأضافت العجوز: «كومة جميلة ملتهبة من الحطب!»

قال ميستريكول: «قد يكون في هذا نصيب أكبر من الحكمة.»

وكان ثمة كاهن شاب يصغي منذ فترة من الزمن، إلى آراء هؤلاء النساء وحكم مسجل الوثائق البابوية.

لقد كان لهذا الرجل وجه عابس، وجبهة عريضة، ونظرة عميقة.

فأبعد الجمهور صامتاً، وتفحص الساحر الصغير ومد يده من فوق فتوهمت العجائز الورعات، وهن يهوين كومة الحطب الجميلة الملتهبة، بأن الوقت قد حان.

ولكن الكاهن، ما لبث أن قال: «إنني أتبنى هذا الطفل.»

وخبأه تحت جبته وانطلق به فتبعه الحاضرون بعيون مذعورة.

وانحنت جوهان دي لاتارم بعد أن ذهبت عنها الدهشة الأولى فوق أذن دي لاجولتيار:

«لقد سبق أن قلت لك يا أختاه، إن هذا الكاهن الشاب، السيد كلود فروللو، هو رجل ساحر.»

2 ـ كلود فروللو

وفي الواقع لم يكن كلود فروللو إنساناً عادياً.

كان ينتمي إلى واحدة من هذه العائلات المتوسطة التي كانت تدعي تمييزاً لها في لغة القرن الماضي المزعجة، بورجوازية عليا، أو نبالة صغيرة. وكانت هذه العائلة قد ورثت إحدى الإقطاعيات بعد مشاحنات قضائية طويلة.

وكان والدا كلود فروللو قد أعدّاه للكهنوت منذ حداثته.

فعُلِّم قراءة اللاتينية. ورُبّي بحيث يخفض عينيه ويتكلم بصوت خافت. وكان أبوه قد حبسه، وهو طفل صغير، في كلية تورستي من الجامعة. فنما وكبر هناك فوق كتاب القداديس وكتاب فقه اللغة.

ومع ذلك فقد كان طفلاً حزيناً، وقوراً، رصيناً، يدرس بحماسة، ويتعلم بسرعة فائقة. لم يكن يصرخ في فترات الاستراحة، ولم يكن يكثر من مخالطة الصاخبين في الشارع، كما لم يشارك أبداً في ثورة 1463 التي

سجلها المؤرخون بوقار بالغ تحت عنوان «الاضطراب السادس للجامعة». وقليلاً ما كان يقبل على الهزء بطلاب مونتاجو الفقراء، أو أولئك الذين كانوا يتعلمون على نفقة الآخرين في كلية دورمان بسبب شعرهم المحلوق على شكل الإكليل وبسبب جبتهم ذات الألون الثلاثة الفيروزي والأزرق والبنفسجي.

يقابل هذا كله، أنه كان يداوم على حضور الدروس في مدارس شارع جان ـ دي ـ بوفيه الابتدائية والثانوية.

إن الطالب الأول الذي كانت عين الأستاذ الكاهن تقع عليه هو كلود فرولو منفرداً بلوحه القرني، عالكاً طرف ريشته، مخربشاً بها على الكتابات فوق ركبته المتعبة المنهوكة، ونافخاً بين أصابعه في الشتاء.

وهكذا فقد استطاع هذا الفتى وهو في السادسة عشرة من عمره أن يصمد في مادة اللاهوت الصوفي، أمام كاهن من الكنيسة، وفي اللاهوت المدرسي أمام دكتور من السوربون.

وتجاوز علم اللاهوت ليقبل على دراسة القوانين الكنسية ثم هضمها لينتقل إلى الطب والفنون الحرة. فدرس علم الأعشاب، فعلم المراهم والدهانات، وأصبح خبيراً في إصابات الحمى، والرضوض، والدمامل.

لقد كان جاك داسبار جديراً باستقباله طبيباً فيزيائياً، وريشار هالان بقبوله طبيباً جراحاً. ثم اجتاز في الوقت نفسه درجات الليسانس وإجازة التدريس ثم رتبة الدكتوراه في الآداب. كما درس اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية، وهي المعبد الثلاثي الذي يندر المقبلون عليه والمكلفون به. كان نوعاً من حمى حقيقية في كسب المزيد من المعرفة العلمية واختزانها.

وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره أنهى دراساته في الكليات الأربع. وكان يبدو للفتى أن للحياة غاية وحيدة هي: المعرفة.

وقد حدث في هذه الفترة تقريباً أن الصيف اللاهب لسنة 1466 قد

فجّر وباء البرص الكبير الذي أودى بحياة ما يزيد على أربعين ألفاً من أهالي فيكرنتيه باريس، وكان من بينهم، كما قال جان دي تروا «المعلم أرنوس، منجم الملك، الذي كان رجلاً حسن السمعة حكيماً مؤنساً.»

وشاع في الجامعة يومئذ أن شارع تيرشاب بصورة خاصة وقع ضحية لهذا الوباء. وهناك كان يسكن أبوا كلود في وسط إقطاعتهما. فانطلق الطالب الفتى مذعوراً نحو منزله الأبوي. ولما دخله كان أبوه وأمه قد ماتا في الليلة السابقة. ثم لم يجد غير أخيه، وهو طفل صغير، غارقاً في لفائفه متروكاً فوق مهده، وكان ما يزال حياً يصرخ. وحمل الفتى هذا الطفل فوق ذراعه وخرج مفكراً.

لقد كان حتى ذاك اليوم يعيش في جو علمي بحت، فبدأ يعيش في الحياة.

كانت هذه المأساة مصدراً لأزمة شديدة في حياة كلود. لقد شعر وهو اليتيم، والأخ الأكبر، وسيد العائلة في التاسعة عشرة من عمره أنه قد أوقظ بقسوة شديدة من أحلام مدرسته ليشهد حقائق العالم الواقعية. وهنا، بلغ به التأثر المشفق حداً قصياً، فأحب هذا الطفل، أخاه، بإخلاص صادق وهوى شديد، لكأن حبه انفعال إنساني حلو بالنسبة إليه، وغريب في الوقت نفسه، فهو لم يكن بعد قد أحب غير الكتاب.

ونمت عاطفته نمواً فريداً، لقد كانت شيئاً كالحب الأول في روح جديدة كروحه. إن هذا الطالب البائس الذي فصل منذ طفولته الأولى عن أبويه اللذين لم يكد يعرفهما، محجوزاً في كتبه أو يكاد، نهماً إلى الدروس والتعلم قبل كل شيء، متنبهاً بصورة كلية لعقله الذي كان يتمادى في العلم، وخياله الذي كان ينمو في الآداب والفنون، إن هذا الطالب لم يكن قد وجد من الوقت فسحة يشعر فيها بموضع قلبه. . لقد جعل منه هذا الأخ الصغير الذي فقد أمه وأباه، هذا الطفل الذي هبط فجأة فوق ذراعه من السماء، رجلاً جديداً. فأدرك أن في هذا العالم شيئاً غير أبحاث السوربون النظرية وأشعار هوميروس، وأن الرجل في حاجة إلى العاطفة،

وأن الحياة التي تخلو من العاطفة ليست غير حركة جافة صارخة ممزقة، ولكنه تصوّر أن عاطفة الدم والعائلة هي وحدها الضرورية فقط، وأن أخاً صغيراً يحبه كاف لملء وجوده بأكمله. لقد رأى هذا كله وهو في مرحلة من عمره تُدفع فيها الأوهام بالأوهام.

وإذن، فقد استسلم لحب صغيره جوهان، بعاطفة متسمة بالعمق، والحماسة، والتركيز. لقد كان هذا اليتيم المسكين، الذي لا سند له إلا ما يكون لكل يتيم، هذا المخلوق الضعيف، الجميل، الأشقر، ذو الشعر المفتول، يثير لواعجه حتى أعمق أعماق أحشائه، فراح وهو المفكِّر الرصين، يتدبر أمر صغيره بعاطفة لا حد لها. وعني به عنايته بشيء سريع العطب فائق الخطورة. فكان لهذا الطفل أكثر من أخ، لقد أصبح له أماً.

كان جوهان الصغير قد فقد أمه وهو في سن الرضاع فأسلمه كلود إلى المرضعة زوجة الطحان القيّم على الطاحونة الموجودة في المقاطعة التي ورثها كلود فروللو، وكان لديها طفل صغير ترضعه.

ومنذئذ أخذ كلود ينظر إلى الحياة نظرة شديدة الرصانة، بعد أن شعر بالحمل الذي تنوء به كتفاه. ولم يعد التفكير في أخيه مناسبة يستجم بها من عناء الدرس، بل أصبح هدف دراسته وغايتها. فقرر تكريس نفسه كاملة لتهيئة مستقبل يُسأل عنه أمام اللّه، وألا تكون له زوجة، أو طفل آخر وما أراد غير سعادة أخيه وحسن ختامه. وهكذا توثقت صلته بنداء الكهانة. ففتحت له كفاءاته، وعلمه، وصفته كمساعد مباشر لأسقف باريس، أبواب الكنيسة. فأصبح كاهناً بإذن خاص من الكرسي المقدس، وهو بعد في العشرين من عمره.

وهنا استطاع أن يكتسب احترام أفراد الدير التابع لكنيسة نوتردام وإعجابهم، بعد أن أمعن في إقباله على كتبه العزيزة التي لم يكن يتركها ساعة من نهار إلا لينتقل إلى إقطاعة المطحنة. وانطلقت شهرته العلمية من الدير إلى أوساط الشعب، فكان الرجل الساحر في نظر الكثير من الناس ـ لا سيما وأن السحر أمر شائع في عصر الخرافات ذاك.

نقول هذا لنسترجع خيط حديثه صباح الكوازيمودو حيث كان قد أنهى موعظة لرواده الكسالى أمام مذبحه، ونبهته مجموعة العجائز الصارخات حول سرير اللقطاء.

فاقترب إذن من المخلوق الصغير البائس الذي كان موضع كره المتجمعين وتهديدهم. وحمل الطفل وقد وجد في هذا البؤس وهذا التشوه وذاك الضياع صورة أخيه الصغير التي هزت نفسه بسرعة مفاجئة، وفكّر في أن هذا الأخ كان سيلقى مثل هذا المصير فيما لو مات هو شخصياً.

لقد وجد الطفل مشوهاً كله في الواقع بعد أن أخرجه من الكيس. فكان لهذا الشيطان البائس الصغير، دمل فوق عينه اليسرى، ورأسه قابع بين كتفيه، وعموده الفقري غير مستقيم، وصدره بارز، وساقاه مفتولتان، ومع ذلك فقد كان يبدو شديد الحيوية، يعلن صوته عن قوته وصحته. وتزايد عطف كلود على هذه البشاعة، ونذر في نفسه أن يربي هذا الطفل حباً بأخيه، بحيث يكون في هذا الإحسان ما يكفِّر عن سيئات جوهان الصغير في مستقبل أيامه. لقد كانت محاولته نوعاً من توظيف الإحسان والصدقة لمصلحة أخيه الصغير.

وعمَّد طفله المتبنى وسمّاه كوازيمودو، إما ليؤرخ بهذه التسمية يوم عثوره عليه والتقاطه له، أو ليشير بها إلى المدى الذي بلغه هذا المخلوق الصغير البائس من التشويه. والواقع أن كوازيمودو، الأعور، الأحدب، الأقفد، كان شيئاً قريباً من الإنسان ولكنه ليس إنساناً أبداً.

3 ـ قارع أجراس نوتردام

وهكذا أصبح كوازيمودو شاباً مكتمل النضج عام 1482. وأصبح قبل ذلك بسنوات، قارع أجراس كنيسة نوتردام، بفضل كلود فروللو، أبيه بالتبني، والذي أصبح بدوره الأرشمندريت الأول، بمساعدة رئيسه السيد لويس دي بومون الذي انتهى إلى كرسي أسقفية باريس عام 1472 بعد

موت غليوم شارتيا، بتأييد من قبل سيده أوليفيه ـ لو ـ دان، خلاق الملك لويس الحادي عشر برحمة من اللّه.

وبمرور الزمن، تكوّن ما لا أعرف من الصلة الصحيحة بين قارع الأجراس والكنيسة. لقد تعوّد هذا البائس المسكين أن لا يرى في العالم شيئاً وراء الجدران الدينية التي أظلته، وهو الذي انفصل عن العالم بحاجزين كأنهما القدر القادر، مولده المجهول وطبيعته البشعة. فكانت نوتردام بالنسبة إليه، وبصورة متتابعة، سيراً مع نموه وتطوره، البيضة والعش، والمنزل، والوطن، فالعالم.

والثابت أنه قد كان تناغم خفي سابق للوجود بين هذا المخلوق وتلك الكنيسة. فبينما كان يجر نفسه متعرجاً أو في قفزات صغيرة في ظلمات قبابها وهو بعد صغير، كان يبدو بوجهه البشري وأطرافه الحيوانية، الحيوان الزاحف الطبيعي لهذا البلاط الرطب القاتم والذي كانت تيجان الأعمدة الرومانية ترسل من فوقه ظلالها في أشكال غريبة مثيرة.

وبعد، وعندما تعلق هذا المخلوق للمرة الأولى، بطريقة آلية، بحبل الأبراج، فحرك الجرس، كانت هذه البادرة بالنسبة إلى كلود، أبيه بالتبني، كبادرة طفل فكّت عقدة لسانه للمرة الأولى وبدأ يتكلم. وهكذا توصل هذا المخلوق إلى التشبه بهذه الكنيسة، وبتعبير آخر، إلى الانغراس فيها، إلى أن يكون قطعة منها لا تنفصم عنها، بعد أن تطور شيئاً فشيئاً، يحيا فيها، وينام فيها، لا يخرج منها أبداً أو يكاد، خاضعاً في كل آن لضغطها الخفي العجيب. بل يمكننا القول إنه قد اتخذ شكلها، كما يتّخذ البزاق شكل صدفته. لقد كانت مسكنه، وجحره، وغطاءه. وكانت بينه وبين الكنيسة القديمة عاطفة غريزية بلغت من العمق مبلغاً قصياً، كما كان بينهما تجاذب مغناطيسي، وتجاذب مادي أيضاً، يساعد على التمكين لهذه العلاقة كما تفعل السلحفاة مع ذيلها. لقد كانت الكاتدرائية الخشنة الصلبة درعه السلحفائية.

على أن جسم كوازيمودو لم يتشكل هو فقط بشكل الكاتدرائية. بل

ذهنه أيضاً. فكيف كانت حالة نفسه، وما هو الشكل الذي اتخذته تحت هذا الغطاء المعقد، في هذه الحياة المتوحشة؟ هذا ما نجده صعباً على التحديد والتعريف. لقد وُلِد كوازيمودو أعرج، أحدب، أعور، وتوصل كلود فروللو إلى تعليمه النطق بعد جهد كبير متواصل، وصبر شديد. ولكن مصيراً آخر كان ينتظر هذا الطفل اللقيط المسكين. لقد أصابته عاهة جديدة بعد أن أصبح قارع الأجراس في الرابعة عشرة من عمره، لقد مزقت الأجراس طبلة أذنيه، فأصبح مصاباً بالصمم. وهكذا أغلق الباب الوحيد الذي كانت الطبيعة قد تركته له مفتوحاً على العالم.

وبانغلاق هذا الباب حيل بينه وبين شعاع النور والمرح الوحيد الذي كان يدخل إلى نفس كوازيمودو. وهبطت هذه النفس في ليل عميق. وأصبحت كآبة هذا البائس كبشاعته، كاملة، مستعصية على الشفاء. يضاف إلى هذا أن صممه قد أصابه بنوع من الخرس أو قل العجز عن النطق. فهو قد صمم على التزام الصمت، لا ينتهكه، إلا حين يكون وحيداً، وذلك كي لا يتيح للآخرين فرصة للسخر منه. وعقد مختاراً هذا اللسان الذي كان كلود فروللو قد فك عقدته بجهد بالغ. ومن هنا أصبح عندما تدفعه الضرورة إلى الكلام ينطق بلسان متجمد متقعر كالباب الذي صدأت مفصلاته.

ولو حاولنا النفاذ إلى نفس كوازيمودو من خلال هذه القشرة السميكة القاسية، ولو استطعنا أن نسبر أعماق هذا الجهاز الذي أسيء صنعه، ولو أتيح لنا النظر إلى ما وراء هذه الأعضاء التي تفقد شفافيتها على ضوء أحد المشاعل، واكتشاف الأعماق المظلمة لهذا الكائن الكثيف، وإنارة زواياه القاتمة، ثم إلقاء نور شديد قوي بصورة مفاجئة فوق نفسه المقيدة في قاع هذا الكهف، فإننا سنجد هذه البائسة المسكينة دون ريب، قصيعة، جزعة مشلولة، كما يكون سجناء مدينة البندقية الذين يهرمون وقد انحنت ظهورهم في علبة من الحجر ضيقة وخفيضة بحيث لا يستطيع المرء فيها انبطاحاً ولا وقوفاً.

الثابت أن النفس تتشوه حين تكون في جسد ناقص. فلم يكن كوازيمودو يحس بحركة نفسه في جسده المصنوعة على شكله إلا حركة بطيئة عمياء. أما صور الأشياء التي تنفذ إليها فقد كانت تخضع لعملية انعكاس ضخمة معقدة قبل أن تبلغ غايتها. لقد كان رأسه وسطاً خاصاً: تخرج الأفكار منه بعد دخولها إليه عقفاء متلوية.

ومن هنا تنشأ أوهامه البصرية، وأخطاؤه في الحكم على الأشياء، وانحرافاته التي كانت تضيع بها أفكاره، المجنونة تارة، والبلهاء تارة أخرى.

أما أول أثر لهذا الجهاز المشؤوم، فهو إشاعة الاضطراب في نظره الذي كان يلقيه على الأشياء. فلم يكن يستقبل منها أية صورة مباشرة. كان العالم الخارجي يبدو له أكثر بعداً عما هو بالنسبة إلينا.

وأما الأثر الثاني لبؤسه، فهو أنه قد أصبح به خبيثاً. لقد كان في الواقع خبيثاً، لأنه كان متوحشاً، وكان متوحشاً لأنه كان بشعاً. ففي طبيعته من المنطق كما في طبيعتنا.

أما قوّته التي نمت نمواً مدهشاً، فقد كانت سبباً آخر كهذا الخبث. على أننا ننتصف له فنقول:

إن هذا الخبث خبث مكتسب لا فطري. لقد كان منذ خطواته الأولى بين الناس، يشعر بأنه مرذول، مهان، من الجميع. فكان النطق البشري في شأنه سخرية أو لعنة ليس إلا، حتى إنه لم يجد خلال نموه غير الحقد من حوله. فأخذ هذا الحقد، واكتسب الخبث العام. لقد التقط السلاح الذي كانوا قد جرحوه به.

على أنه بعد هذا كله، لم يكن يلتفت إلى الناس إلا مكرهاً. لقد كانت كاتدرائيته تكفيه. فهي ممتلئة بصور الرخام، ملوك، وقديسين، وأساقفة، ممن لم يكونوا يسخرون به، لأنه يشبهها إلى حد بعيد، فالقديسون في الكنيسة أصدقاؤه وهم يباركونه أبداً. ثم لا يوجهون إليه غير نظرات هادئة عاطفة. أما تماثيل الوحوش والشياطين فلم يحقد عليها

أبداً، والوحوش حبيبة إليه، لأنها تحتفظ به. وقد يقضي ساعات طويلة في بعض الأحيان فيجلس مختبئاً أمام واحد من هذه التماثيل يتحدث معه في صمت. ثم يهرب حين يفاجئه واحد من الناس كالمحب وقد أُخذ على حين غرة في نشوة مناجاته.

ولم تكن الكاتدرائية بالنسبة إليه مجتمعاً فقط، بل كانت العالم كله، أو هي الطبيعة. لقد أحب فيها كل شيء حتى برج جرس النافذة والبرجين الكبيرين. إنها في نظره أقفاص ثلاثة كبيرة لا تغنّي طيورها التي رباها بنفسه إلا له، ومع ذلك فقد كانت هذه الأجراس سبباً في صممه، ولكن الأمهات يبالغن في الغالب في حب من هو أشد إيذاء لهن من أبنائهن.

إن الصوت الوحيد الذي كان يستطيع أن يسمعه هو صوت الأجراس، وبهذا المعنى كان صوت الجرس الكبير أحب الأصوات إليه. فهو يؤثره على غيره في هذه الأسرة من الفتيات الصاخبات التي تضطرب من حوله في أيام الأعياد. وكان الجرس الكبير يدعى ماري. فهو وحده في البرج الجنوبي مع أخيه جاكلين، وهو جرس أصغر حجماً منه محكم في قفص أصغر من قفصه.

والحق أننا نعجز عن تصوّر فرحة كوازيمودو في أيام الأعياد حين يأذن له كلود فروللو الكاهن قائلاً: «اذهب». وهنا تمر سلسلة من الانفعالات ترافقها أصداء قدمي كوازيمودو صاعدة أو متسلقة حتى تبلغ غرفة البرج العليا. ثم تبدأ الجوقة الرائعة التي تبلغ أصواتها النحاسية إلى أعماقه دون أي صوت آخر.

والواقع أن الكاتدرائية كانت تبدو مخلوقاً لطيفاً وطيعاً تحت يد كوازيمودو. لقد كانت تنتظر إرادته لترفع صوتها العظيم، مأخوذة بكوازيمودو، ممتلئة به، فكأنه عبقريتها الخاصة. حتى ليكاد الناظر يقول: إنه هو الذي يبعث الحياة المتنفسة المتحركة في هذا البناء العظيم. والواقع أنه كان دائماً في كل مكان منها، فيتضاعف فوق كل زوايا الكاتدرائية. كان المشاهدون يرون كوازيمودو في خوف بالغ في أعلى برج من

الأبراج، قزماً غريباً يتسلق ويزحف على أطرافه الأربعة، أو يهبط خارجاً فوق الهاوية قافزاً من نتوء إلى آخر، باحثاً في فجوة من الفجوات المنحوتة عن الغربان. أو يرونه في زاوية مظلمة من الكنيسة خيالاً حياً جالساً القرفصاء يفكِّر في صمت شديد. وفي مرة ثالثة يُرى تحت برج من أبراج الأجراس برأسه الكبير ومجموعة أطرافه الفوضوية يتأرجح غاضباً وهو يقرع الجرس عند صلاة العصر أو الغروب. وقد تقع الأنظار، غالباً، في الليل على شكل قبيح يجري متمهلاً فوق الحاجز المسنن الذي يتوج الأبراج ويحيط بصدر الكنيسة ثم لا تلبث حتى تجد فيه كوازيمودو نفسه.

وهنا، تقول الجارات: لقد كانت الكنيسة كلها تتخذ شكلاً خيالياً، شكلاً فوق الطبيعة، مخيفاً، تنفتح فيها هنا وهناك عيون وأفواه، وإذا كانت الليلة ليلة الميلاد، تبدو الكنيسة، والجرس الكبير يدق داعياً المؤمنين إلى قداس منتصف الليل، وكأن فيها روحاً منتشراً فوق شرفتها القاتمة يبعث على الظن بأن بابها الكبير يفترس الجماهير المقبلة ووردته من فوقه تنظر إليها. وكوازيمودو من وراء هذا كله. لقد كانت مصر جديرة أن تجد فيه إلهاً لهذا الهيكل، أما القرون الوسطى فتجد فيه شيطاناً، وكان هو في حقيقته روح هذه الكاتدرائية.. روحاً بلغت من التأثير بحيث إن من عرف من الناس بوجود كوازيمودو فيها يحس اليوم أنها خالية خاوية ميتة. إنهم يشعرون أن ثمة شيئاً ينقصها، أن هذا الجسد العملاق خاو، أنه هيكل عظمي قد فارقته نفسه، فلا يجدون غير الموضع الذي كانت تشغله ليس إلا. إنها كالجمجمة التي ما تزال محتوية على فتحة العين ولكن العين قد ذهبت.

4 ـ الكلب وسيده

ومع كل ما سبق قوله، نذكر أن مخلوقاً بشرياً واحداً كان كوازيمودو يستثنيه من دون الناس فلا يصيبه بخبثه مع الآخرين وحقده عليهم، بل

يحبه كما يحب كاتدرائيته أو أكثر، إنه كلود فروللو.

والأمر بسيط جداً، فكلود فروللو هو الذي التقطه، وتبناه، وغذاه، ورباه. وكان من عادته أن يلجأ إلى حجر كلود فروللو حين يلحق به الأطفال والكلاب معوين من حوله وهو طفل صغير. وكلود فروللو هو الذي علمه النطق والقراءة والكتابة. وأخيراً، هو الذي جعله قارعاً للأجراس. وهل تعرف ما معنى أن يكون كوازيمودو قارعاً للأجراس؟ ـ أنه أن يعطى روميو حبيبته جولييت.

لقد كان عرفان كوازيمودو بالغ العمق، فائق العاطفة غير ذي حدود، وعرفانه هذا لم ينكص مرة واحدة أو يكذب في مناسبة واحدة رغم ما كان يبين في الغالب على وجه أبيه بالتبني، من خطوط التجهم والقسوة، وما كان في نطقه في العادة من الاختصار، والقسوة، واللهجة الآمرة.

كان للكاهن في كوازيمودو عبد بالغ الطاعة، فائق الخضوع، كان له فيه الكلب الأمين القوي النشيط. وعندما أُصيب قارع الأجراس بالصمم نشأت بينه وبين كلود فروللو لغة من الإشارات، لا يفهمها أحد غيرهما. وهكذا كان الكاهن هو الكائن البشري الوحيد الذي احتفظ كوازيمودو معه بعلاقته وصلاته. إنه لم يكن في هذا العالم مرتبطاً بغير شيئين: نوتردام، وكلود فروللو.

ليس من سلطان في العالم يضاهي سلطان الكاهن على قارع الأجراس. فإشارة واحدة منه كافية لكي يلقي كوازيمودو بنفسه من أعلى أبراج نوتردام إرضاء له وتعبيراً عن عظيم تعلقه به. إنه شيء مدهش حقاً أن توضع مثل هذه القوة الجسدية الهائلة التي يملكها كوازيمودو تحت تصرف إنسان آخر. . فهناك دون ريب بِرٌّ بنوي وتعلق عائلي، كما أن هناك أيضاً انجذاب عقل بعقل آخر. إنسان ذو جسد يتعثر ببشاعته وذو عقل تنقصه المهارة، يخفض رأسه وعينيه الضارعتين أمام ذكاء رفيع، عميق، قوي، متفوق. وأخيراً، كان العرفان فوق كل شيء آخر، عرفان بلغ في مداه حداً نعجز عن مقارنته بأي شيء من مثله. إن هذه الفضيلة

ليست من تلك التي توجد في أروع مثلها بين الناس. وهكذا نستطيع القول إن كوازيمودو يحب سيده، كما لم يحب كلب أو حصان أو فيل سيده أبداً.

5 ـ تابع كلود فroللو

كان كوازيمودو عام 1482 قد بلغ العشرين من عمره تقريباً، وكان كلود في السادسة والثلاثين: أحدهما نما وكبر وثانيهما أسن وشاخ.

لم يعد كلود فروللو طالباً عادياً في كلية تورشي، والحامي الرفيق لطفل صغير، والفيلسوف الحالم الفتيّ الذي يعرف كثيراً من الأشياء ويجهل كثيراً منها أيضاً. لقد أصبح كاهناً رصيناً قاسياً على نفسه وقوراً متجهم الوجه، رجلاً مسؤولاً عن النفوس والأرواح، لقد أصبح شخصية طاغية، فهو مساعد لأسقف باريس ورئيس لمئة وستين من الكهنة الريفيين، ومسؤول عن مركزي مونتلاري وشاتوفور. كلهم كانوا يرتجفون أمامه ابتداء من صبيان الخورس حتى كهنة نوتردام، حين يمر بطيئاً، جليلاً، مفكِّراً مضموم الذراعين، حاني الرأس حتى صدره، فلا يكاد أحد يرى من وجهه غير جبينه العريض الأصلع.

إلا أن كلود فروللو لم ينثن في تلك الأثناء عن العلم أو عن تربية أخيه الصغير. ولكن شيئاً من المرارة قد خالط هذه الأشياء الحلوة في حياته. فالصغير ـ جوهان فروللو ـ الملقب بالطاحونة ـ نسبة إلى المكان الذي أرضع فيه، لم يكن قد نما في الاتجاه الذي أراد كلود أن يعينه له. لقد كان الأخ الكبير ينتظر طالباً، ورعاً، مطيعاً، محترماً حسن الخصال. ولكن الأخ الصغير، كهذه الشجيرات الفتية، التي تخدع الجنائني وتتجه نحو الجانب الذي يخلو من الهواء والنور، إنه لم يكن ينمو، ويتضاعف، ويمد أغصانه الملتفة إلا إلى حيث يكون الكسل، والجهل، والفجور. كان شيطاناً حقيقياً، يبعث التقطيب في حاجبي أخيه، ولكنه كان في

الوقت نفسه، فكهاً غريباً ذكياً، بحيث يبعث الابتسامة بين شفتي أخيه الكبير. وقد أرسل كلود أخاه إلى كلية تورشي التي قضى فيها السنوات الأولى لدراسته ووحدته التأملية الروحية، وكان يؤلمه حقاً أن يصبح هذا المعبد موضعاً لفضائح أخيه الصغير بعد أن كان موطناً يتمجد باسمه. كان يوجه النصائح إلى أخيه الصغير في بعض الأوقات في شيء من الشدة والرصانة ولكن صغيره لا يلبث حتى يتصدّى له بجرأة بالغة. ومع ذلك، فقد كان للفتى قلب طيب، كما يرى عادة في المسرحيات التمثيلية الساخرة. وتمر الموعظة، فلا يقل إقباله على خطيئاته السابقة ولا يكفكف من سيئاته أبداً. هو تارة يضرب طالباً حديث عهد بالجامعة، ـ وهي عادة ما تزال جارية حتى يومنا هذا ـ وطوراً يحرض جماعة من الطلاب ليسطوا على إحدى الحانات ويضربوا صاحبها وقد يحطمون أيضاً جرار الخمرة في كهفها. وهو أخيراً مقصر مهمل شديد الإهمال في تعلُّم اللغة اللاتينية.

لهذا كله، شاع الحزن والأسى واليأس في نفس كلود، فانصرف متحمساً بكليته إلى العلم، الذي لا يغش صاحبه على الأقل، ويكافئه دائماً على فائق عنايته به، وإن تكن هذه المكافأة في بعض الأوقات من فئة النقد المزيف. وهكذا زاد علمه باطراد، وبالتالي، زاد جموده باعتباره كاهناً، ثم زاد حزنه باعتباره إنساناً من الناس. إن في أعماق كل منا بعضاً من التوازي بين ذكائنا وعاداتنا ومقومات شخصيتنا، تنمو هذه كلها بلا انقطاع، ثم لا تنقطع الصلة بينها إلا أمام أحداث الحياة الضخمة التي تزلزل نفوسنا زلزلة شديدة.

وبما أن كلود فروللو قد اجتاز منذ فتوته الأولى دائرة المعارف البشرية كاملة على التقريب، موضوعية، خارجية، شرعية، فقد اندفع إلى ما وراء ذلك باحثاً عن غذاء لحيوية عقله النهمة. إن الرمز القديم للأفعى التي تعض ذيلها مناسب للعلم. والظاهر أن كلود فروللو قد خبر هذه الظاهرة النفسية. فأكد كثير ممن لا شك في رصانتهم أنه قد نفذ إلى العلوم الشيطانية بعد أن استنفد المعارف القانونية المشروعة. لقد كان يُقال

إنه طعم من كل أثمار شجرة العقل الإنساني ثم لم يلبث حتى أقبل على الثمرة المحرمة، يدفعه إليها جوع أو تقزز. لقد اتخذ كما رأى القُراء مكاناً له في محاضرات السوربون اللاهوتية وشارك في مناقشة الموضوعات التشريعية والبحث في مؤتمرات الأطباء، ثم لم يلبث وقد أحاط علماً بمعارف الملكات العقلية الأربع التي كانت شائعة يومذاك، حتى راح يحفر بعيداً إلى ما وراء التخوم الموضوعة له، فينزل هابطاً إلى ما دون العلم، المادي، المحدود. بل لعله خاطر بروحه، وجلس في الكهف حول المنضدة السرية للكيميائيين، والمنجمين، وغيرهم ممن كان ابن رشد، وغليوم الباريسي، ونيقولا فلاميل يشغلون مركز القيادة منهم، ثم يمتدون إلى المشرق، تحت أشعة الشمعدان ذي الفروع السبعة حتى سليمان وفيثاغوروس وزرادشت.

هذا على الأقل ما كان يفترضه الناس ويتخيلونه حقاً أو باطلاً.

والثابت أن الكاهن كان يزور المقبرة التي وضع فيها رفات والديه وبقية ضحايا وباء البرص عام 1466، ولكنه كان يبدو أقل إخلاصاً لصليب قبر والديه منه للرسوم الغريبة التي كان ينوء بها قبر نيقولا فلاميل وكلود بارتال الذي بني قريباً من رفات والديه.

والثابت أيضاً أنه شوهد ماشياً على امتداد شارع لومبارد في أوقات كثيرة، ثم داخلاً في نوع من التخفي إلى بيت صغير قائم في الزاوية التي يلتقي فيها شارع الكتاب وشارع ماريفو. لقد كان هذا المنزل هو ذاك الذي بناه نيقولا فلاميل، ومات فيه عام 1817، والذي بدأ ينهار، بعد أن خلا بموت صاحبه، ومع ذلك فإن سحرة كل البلدان ونافثي العقد من كل أمة قد استعملوا جدرانه ليحفروا أسماءهم. ويؤكد بعض الجيران أنهم قد شاهدوا كلود من خلال إحدى الكوى يقلب الأرض ويحفرها ويجرف ترابها في هذين الكهفين اللذين غطى نيقولا فلاميل جدرانهما بأبيات من الشعر وكلمات من الهيروغليفية. وقد افترض العارفون أن فلاميل قد أخفى في أرضه الحجر الفلسفي، فبقي الخيميائيون قرابة قرنين من السنين

ابتداء من ماجستري حتى الأب باسيفيك، يقلبون أرض هذين الكهفين حتى تحول البيت إلى غبار واندثر تحت تأثير حفرياتهم ومحاولاتهم اليائسة.

والثابت أخيراً أن الكاهن قد اختار لنفسه حجيرة صغيرة قائمة بين البرجين في الكنيسة مطلة على الجرف وإلى جانبها قفص الأجراس، لا ينفذ إليها أحد إلا بإذنه، حتى الأسقف كما يقولون. أما ما كانت تحتويه هذه الحجيرة، فهذا ما لم يكن أحد يعرفه، ولكن كان يرى من محلة الجريف، في الليل البهيم، في كوة صغيرة موجودة في مؤخر البرج، ضياء أحمر، يظهر، ويختفي، ثم يظهر مرة أخرى، بصورة متقطعة غريبة، يبدو وكأنه يصدر عن نار لا عن نور.

لم تكن في هذا كله، براهين كافية على مزاولة السحر، ولكن ما فيها من الدخان كان كافياً لافتراض وجود النار، يضاف إلى ما سبق ما كان للكاهن من شهرة رهيبة. ومع ذلك فعلينا أن نقول إنه لم يكن لعلوم مصر وللسحر في أكثر أشكاله بياضاً وبراءة، من الأعداء ما كان لها في دائرة نوتردام. ومهما يكن مصدر التهمة فإن هذا لم يكن يمنع زعماء الكُهان من اعتبار هذا الكاهن روحاً تائهة في ممرات جهنم، ضائعة في كهوف علم الاتصال بالأرواح والشياطين، متحسسة طريقها في ظلمات علوم السحر والتنجيم الخفية. وأما الشعب فلم يكن خيراً من هؤلاء الكهان رغبة في التحقيق ولا سيما الذين يكرهونه أو يتقززون منه، فقد كان كوازيمودو في نظر الشعب، شيطاناً وكلود فروللو ساحراً.

وإذا كان كلود قد وجد هُوى عميقة في علمه، فقد واجه مثل ذلك أيضاً في قلبه. هذا على الأقل ما يراه المشاهد وهو يتفحص وجهه حيث لا ترى الروح فيه ملتمعة إلا من خلال السحب. فمن أين له هذه الجبهة العريضة، وذلك الرأس المنحني، وذلك الصدر الذي كان يضطرب دائماً بأنفاسه؟ ما هي هذه القوة الفكرية الخفية التي كانت تبعث الابتسامة بين شفتيه بمثل هذه المرارة الشديدة في الوقت نفسه الذي كان يتقارب فيه

حاجباه كأنهما ثوران يقتتلان؟ وما هي هذه النار الداخلية التي تنفجر في نظراته في بعض الأحيان، بحيث إن عينه تكاد تشبه ثقباً في حاجز فرن من الأفران؟

الحق أن الأعراض العنيفة لهذه القضية الخلقية قد اكتسبت مزيداً من القوة في الزمن الذي جرت فيه أحداث هذه القصة. فقد هرب أكثر من طفل واحد مذعوراً لأنه وجده في الكنيسة وحده، يضاف إلى ذلك أن نظراته كانت غريبة متفجرة.

وعلى هذا، كانت رصانته تتضاعف، ولم يكن في حياته أبداً، مثالياً شأنه في هاتيك الأيام. فهو مبتعد عن المرأة بسبب صفته الدينية وخلقه الشخصي، يبدو كارهاً لها أكثر من أي وقت آخر. إن حفيف ثوب حريري كاف لإسقاط قبعته فوق عينيه. وقد بلغ من كرهه للمرأة أنه اعترض، أمام أسقف باريس، على مجيء السيدة بوجو ابنة الملك وزيارتها لدير كنيسة نوتردام، مستشهداً بما ورد في الكتاب الأسود الصادر عام 1334 والذي يحرم على المرأة الدخول إلى هذا الدير. مما أرغم الأسقف على أن يقرأ له النص الذي يستثني من هذا التحريم بعض كبار السيدات. ومع ذلك أصرّ الكاهن على احتجاجه ورفض الظهور أمام الأميرة.

كما سيلاحظ أن حقده على المصريات والغجريات قد تضاعف منذ فترة من الزمن. وكان قد تقدم إلى الأسقف يرجوه أن يصدر قانوناً تمنع بموجبه الغجريات منعاً باتاً من الرقص في ميدان الكنيسة، ثم أقبل على الوثائق والملفات العفنة يفتش فيها عن الحالات التي أدين فيها سحرة وساحرات فقتلوا حرقاً بالنار أو شنقاً بالحبال بتهمة الاشتراك في ارتكاب أعمال سحرية مؤذية مع تيوس أو خنزيرات أو معزى.

6 ـ سمعة شائنة

ذكرنا أن الكاهن وقارع الأجراس كانا موضع بغض الناس كبيرهم وصغيرهم ممن كانوا حول الكاتدرائية.

فإذا خرج كوازيمودو والكاهن معاً، وهذا ما كان يحدث مرات كثيرة، ثم وقعت أنظار الناس عليهما، لم يلبثا أن يتلقيا كلمة رديئة، أو تعليقاً ساخراً، أو إشارة مهينة، اللهم إلا إذا مشى كلود برأس مستقيم مرتفع، مظهراً جبهته بما فيها من قسوة، وجلال للساخرين المبهوتين.

لقد كانا في حيهما كالشعراء الذين يتحدث رينيه عنهم:

«يركض كل الناس وراء الشعراء

كما يركض العصفور صارخاً وراء البوم»

قد يخاطر أحد الأطفال تارة بحياته ليجد اللذة الفائقة التي يحس بها بغرز دبوس صغير في حدبة كوازيمودو. وقد تقترب إحدى الفتيات الجميلات الجريئات تارة أخرى من الكاهن حتى تكاد تلامس ثوبه الأسود وهي تغني أغنية ساخرة متهكمة. وفي بعض الأوقات تصخب مجموعة من العجائز اللاتي يجلسن القرفصاء عندما يمر الكاهن وقارع الأجراس، ثم يقذفهما بمثل قولهن: «هَمْ! هاك إنساناً، ذا روح صنعت على شاكلة جسد الإنسان الآخر!». وأخيراً قد تكون هناك مجموعة من الطلاب أو قاذفي الحصى يقف أفرادها في كتلة واحدة ويحيون الرجلين بهتافات لاتينية.

والغالب أن تكون هذه الإهانات بعيدة عن متناول الرجلين. أما قارع الأجراس فلأنه أصم، وأما الكاهن فلأنه غارق في أحلامه.

الكتاب الخامس

1 ـ نظرة محايدة في القضاء القديم

كان السيد روبير داستوتفيل رجلاً سعيداً حقاً حين صدر المرسوم الملكي الذي يكلفه بالقيام بمسؤولية القاضي الأول في باريس، عام 1465. وقد بقي السيد روبير محتفظاً بهذه المسؤولية رغم تدحرج رؤوس كبيرة عبر السنوات الطويلة التي مرّت قبل حوادث قصتنا عام 1482. كان شديد التعلق بهذه الوظيفة ماهراً في الاحتفاظ بثقة الملك وصداقة من حوله من رجال القصر الأقوياء.

وقد بلغ من قوّته أنه شارك في محاكمة كبار الرجال. فلم يصل أحد منهم إلى الجلاد إلا بعد أن وقف أمامه ليصدر باسم الملك الحكم بإعدامه أو سجنه أو نفيه.

والخلاصة أنه قد كان للسيد روبير من الأسباب ما يجعل حياته يسيرة ممتعة، ولكنه استيقظ صباح السابع من كانون الثاني 1482 متجهم الخلق فاسد النفس. فمن أين أتته هذه الجهامة. إنه هو نفسه لم يكن يعرف ذلك. هل لأن السماء كانت قاتمة؟ أو أن ربطة حزامه القديم غير مشدودة؟ أو أنه شهد أناساً تافهين يجتازون الشارع تحت نافذة منزله وهم يسخرون منه؟ هل هو شعوره المسبق بما سينقصه الملك المقبل شارل الثامن من مخصصاته؟ للقارئ أن يختار من هذا ما يشاء، أما نحن فنميل إلى القول بأنه كان متجهم الخلق لأنه كان متجهم الخلق.

كان الصباحُ صباح ليلة من أيام الأعياد، فيه مصدر ضجر للجميع، ولا سيما القاضي المكلف بكنس كل الأوساخ، بالمعنيين الحقيقي والمجازي، التي يجمعها عيد في باريس.

وقد انتشر مساعدوه في أثوابهم المدنية بين طبقات الناس المختلفة يراقبون من تقع الشبهة عليهم من الأوغاد والسفلة والأرذال. ومساعده فلوريان بارباديان يجلس وراء منبره في غرفة يحجز فيها حاجز خشبي بينه وبين جماعة من الناس ينظرون إليه يحاكم المجرمين واللصوص بأفواه مفتوحة وعيون بلهاء.

أما القاعة فهي صغيرة منخفضة مقببة. وقد جلس كاتب المحكمة يسجل أقوال المتهمين وإلى جانبه كرسي كبيرة من الخشب المنحوت مخصصة للقاضي الأول السيد روبير. والشعب تجاهه. كما يقف أمام الباب والمنبر جنود من الشرطة.

كان القاضي مصاباً بالصمم، وهذا نقص غير خطير. ففلوريان لا يحاكم دون المناداة على المتهم. والثابت يومذاك أن في إصغاء القاضي ما يكفي للقيام بوظيفته. وقد كان قاضينا المحترم يقوم بهذه الوظيفة خير قيام وأكمله، فالمهم ألا يُشغل بأية ضجة عما كان ينصرف إليه من محاكمة الناس.

وكان بين المستمعين مراقب شديد القساوة متمثل في شخصية صديقنا جوهان فروللو دي مولان، طالب الأمس الصغير، الذي كان ينتظر الالتقاء به في كل مكان من باريس إلا أمام منبر الأساتذة في الجامعة.

كان جوهان يحدث رفيقه روبان بوسبان الذي يضحك هازئاً بمن حوله في صوت منخفض. قال له:

ـ «انظر، إنها فتاة مارشيه ـ نوف الجميلة! ـ قسماً بروحي إن القاضي سيدينها. ما هذا؟ إنني أرى كثيرين ممن أعرف من الناس! متى أشهد

عميدنا في الجامعة أمام هذا القاضي الأصم؟ أيتها القديسة العذراء! كم هن كثيرات أولئك الفتيات! إنهن يسرن الواحدة وراء الأخرى تماماً كالنعاج. . .»

ـ «انتبه يا روبان! ما هذا الذي يدخلونه؟ إن كلاب الصيد كلهم هنا. يجب أن يكون الصيد سميناً. خنزير بري! ـ ها هو يا روبان، ها هو. ـ وهو خنزير جميل! انظر! إنه أميرنا بالأمس، بابا المجانين، قارع الأجراس، أعورنا، أحدبنا، تكشيرتنا! إنه كوازيمودو!. . .»

والحق أنه لم يكن شيئاً أقل من ذلك. إنه كوازيمودو، مقيداً مجروراً وتحت حراسة جيدة. كان ضابط الحرس شخصياً يرافق الكتيبة التي تقود كوازيمودو وقد زين ثيابه الملونة من زينة الحرب والسلاح. ولم يكن في كوازيمودو شيء يلفت النظر غير بشاعته وهي وحدها تبرر حمله إلى المحكمة. كان قاتماً صامتاً مطمئناً. فلا تكاد عينه المفردة تلقي نظراتها الساخرة الغاضبة فوق الأربطة التي تثقل كاهله.

ثم نقل نظره فيمن حوله، وهو في حالة من الهمود والنعاس بحيث إن النساء لم يشرن إليه بأصابعهن إلا في ضحكات هازئات.

وفي هذه الأثناء كان القاضي فلوريان يتصفح ملف الشكوى المقدمة ضد كوازيمودو الذي قدمه الكاتب إليه، ثم لم يلبث حتى بدا في هيئة المتبتل المستغرق في تفكيره. وبفضل هذا الاحتياط يستطيع دائماً أن يعرف اسم المتهم وصفته وعمره ويهيّئ الأسئلة المنتظرة والإجابات في حدود ما يتخيلها. وهكذا يحول دون أن يشعر الناس بصممه. كان ملف القضية بالنسبة إليه كلب الأعمى. فإذا حدث أنه تعثر في توجيه بعض الأسئلة أو إدراك بعض القضايا المشكلة وجد البعض في تعثره هذا نوعاً من العمق في الإدراك ووجد فيه البعض الآخر بلهاً. وإذن ظل يحاول دائماً أن يخفي صممه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ونجح حتى كاد يُشَكُّ في صممه.

وبعد أن اجتر طويلاً قضية كوازيمودو، قلب رأسه إلى الوراء

وأغمض عينيه نصف إغماضة، ليستجمع مزيداً من الجلال والحيدة. ثم بدأ تحقيقه قائلاً: «اسمك؟»

وبقي كوازيمودو، الذي لم يسمع شيئاً بسبب صممه، صامتاً لا يحير جواباً وقد أثبت في القاضي نظراته البلهاء.

وظن القاضي أن المتهم قد أجاب جهلاً منه بصممه.

فأردف: «هل هذا هو عمرك؟»

وسكت كوازيمودو أيضاً. واعتقد القاضي أن المتهم راض قانع.

ـ «ما هي وظيفتك؟»

فشاع الصّمت كالمرتين السابقتين. وبدأ الناس يتهامسون ويتبادلون النظرات.

وتابع القاضي يقول: «إنك متهم أمامنا. أولاً: بإثارة الاضطراب أثناء الليل، ثانياً: باعتداء على شخص امرأة مجنونة، ثالثاً: بالعصيان على الرماة من حرس جلالة مليكنا المعظم. فما هو ردك على هذه الاتهامات؟ أيها الكاتب، هل سجلت أقوال المتهم كلها؟»

وانفجرت بعد السؤال الأخير سلسلة من القهقهات القوية الصارخة بين المستمعين ومنضدة الكاتب. ومع ذلك كله لم يستطع كل من القاضي وكوازيمودو أن يسمعا شيئاً منها. والتفت كوازيمودو بازدراء وهو يحرك حدبته، بينما اعتقد القاضي أن الناس قد ضحكوا لصدور جواب وقح عن المتهم، فحدجه بنظرة غاضبة ثائرة.

ـ «لقد أجبت أيها الأبله بجواب يستحق الجلد؟ فهل تعرف مع من تتحدث!»

وانطلقت الضحكات أكثر قوة وعنفاً ثم امتدت حتى بلغت الدهليز الخارجي حيث ارتسمت فوق شفاه حرس الأبواب من الشرطة. وظن القاضي أن عليه متابعة طريقته في معالجة الموضوع، وأن عقاباً صارماً جدير بإشاعة الصمت بين الناس والخوف في قلوبهم جميعاً، وقلب المتهم أيضاً.

ثم انطلق واقفاً يتحدث في خطبة طويلة عن صفته وشخصيته ومسؤولياته، لا يترك كبيرة أو صغيرة من شؤونه القضائية إلا أحصاها.

وفي هذه الأثناء دخل السيد روبير داستوتفيل قاضي باريس الأول. والتفت فلوريان بارباديان إليه يتابع خطته: «يا صاحب السيادة، إنني أطالب بعقوبة شديدة تدخل السرور إلى نفسك، ضد المتهم الواقف هنا لجرأته على العدالة وتحديه للقضاء.»

ثم جلس وجبينه يتفصد عرقاً.

فقطب روبير حاجبيه ثم وجه كلامه إلى المتهم:

ـ «ما الذي صنعته حتى جيء بك إلى هنا أيها التافه؟» فظن كوازيمودو أن القاضي الأول روبير يسأله عن اسمه فقطع حبل الصمت قائلاً بصوته المبحوح: «كوازيمودو.»

وأردف روبير بعد أن انطلقت ضحكات الناس مرة أخرى:

ـ «وهل تهزأ بي أيها السخيف الأبله؟»

فأجاب كوازيمودو: «قارع أجراس كنيسة نوتردام». وزاد غضب روبير الذي لم يكن في ذاك الصباح محتاجاً إلى من يغضبه ولا سيما وقد استيقظ متجهم الخلق كما ذكرنا من قبل. ثم قال: «حكمت بضربك بالقرعة على ظهرك في ساحة من ساحات باريس، هل سمعت أيها التافه؟» وتابع كوازيمودو المسكين: «إذا كنت يا سيدي راغباً في معرفة عمري فإنني سأبلغ تمام العشرين في عيد القديس مارتان.» وهنا لم يعد روبير قادراً على الاحتفاظ بهدوئه:

ـ «آه! أوتهزأ بالقضاء أيها البائس؟»

ـ . . .

ـ «أيها الحرس، خذوا هذا الرجل واربطوه إلى وتد التعذيب في ساحة جريف ثم اضربوه واتركوه ساعة بعد ذلك يدور به الوتد تشهيراً له وزراية به.»

والتفت القاضي الأول ثانية إلى كوازيمودو وأثبت فيه عينيه المتألقتين بالشرر ثم أردف يقول: «أضف أيها الكاتب اثني عشر درهماً إلى عقوبته بسبب اليمين المعظمة التي أقسمها، أظن أنني سمعته يقول: «يا لبطن الإله!»

وسجل الحكم. ثم توجه رجال الشرطة بكوازيمودو المحكوم بعد أن مهر روبير وثيقة الحكم بخاتمه وتوقيعه. أما كوازيمودو فقد بقي ينظر فيمن حوله نظرة لامبالاة واندهاش.

وأشفق الكاتب على كوازيمودو واقترب من القاضي فلوريان يرجوه تخفيض الحكم. وطبيعي أن فلوريان لم يسمع شيئاً. ولكنه رغب في التظاهر بالسماع، فقال: «آه! آه! هذا شيء آخر. لم أكن أعرف ذلك. وفي مثل هذه الحالة أضيف ساعة أخرى إلى عقوبته بالوتد الدائر.»

قال روبان الذي كان يحقد على كوازيمودو بسبب حادث الأمس: «لقد أحسن القاضي صنعاً، إن هذه العقوبة ستعلمه كيف يمتنع عن التعدي على الناس.»

2 ـ جحر الجرذان

ليسمح لنا القارئ أن نرجع به إلى ساحة جريف، التي تركنا فيها جرنجوار بالأمس يتبع الاسميرالدا.

الساعة الآن تدق العاشرة صباحاً ومنظر الساحة يشير إلى أن ذلك الصباح هو صباح العيد، فالبلاط مغطى ببقايا المحتفلين، بفتات أمتعتهم، وأشرطتهم، وقطرات شمع المشاعل. وهناك عدد غير قليل من السكان البورجوازيين يسيرون على غير هدى، وينكتون بأقدامهم الجمرات المنطفئة لحرائق الأمس، أو ينتشون أمام بيت الأعمدة بذكرى الزينات الجميلة لليلة السابقة، ناظرين إلى المسامير التي كانت مربوطة بها. وينتقل بين هؤلاء المشاة بائعو الأشربة المختلفة. بينما يروح ويجيء

بعض المنشغلين بشؤون مهنهم الخاصة. هذا والتجار يتحادثون ويتنادون من على أبواب حوانيتهم، مسترجعين ذكريات العيد، والسفراء، وكوبانول، وبابا المجانين، والفوز لمن هو أقدر على السخرية والضحك منهم. ومرت فترة فإذا بأربعة رقباء من فرسان الشرطة يقفون حول زوايا وتد التعذيب الأربع فاجتمع للتفرج عليهم فريق من مجموعات الناس المتناثرة هنا وهناك، وتحمّلوا الضجر والجمود على أمل أن يشهدوا حادث شنق أو تعذيب.

والآن وقد وعى القارئ الصورة التي قدمناها في الفقرات السابقة فإنه جدير أن يرى بعد هذا المشهد الصارخ الحي، الذي تضطرب جنباته في زوايا الساحة الأربع، إنه جدير بعد هذا كله أن يرى منظراً عجيباً في بيت عتيق، نصف غوطي، نصف روماني، من برج رولان يشكل زاوية الرصيف عند المغيب، هناك يستطيع أن يجد كتاباً كبيراً عاماً للصلاة، موضوعاً في شيء يشبه القفص وقد أحاطت به شبكة حديدية لا تحول دون تصفحه بل دون سرقته. وبدت فيما وراءه حجيرة خالية من الباب والنوافذ ما عدا كوة يأتيها من خلالها قليل من الهواء وشيء أقل من النور.

كانت لهذه الحجيرة شهرة ذائعة الصيت في مدينة باريس، بسبب السيدة رولاند التي أمرت بحفرها بعد موت أبيها في حرب صليبية ولبست ثياب حدادها منذ ثلاثة قرون تقريباً. ثم سجنت نفسها بقية حياتها في هذه الحجيرة بعد أن فرقت أموالها على المحتاجين والأديرة والكنائس وخصصت قسماً منها للنساء اللواتي يصبن بما أصيبت به ثم يعزمن على التوبة بقية حياتهن فيقضينها في هذه الحجيرة.

وقد وجدت المراجع الدينية في انتشار مثل هذه الحجيرات ما يدل على وجود إيمان متقد في النفوس فشجعت عليها وعلى الإكثار من عددها. فكان في مدينة باريس عدد غير قليل من هذه الحجيرات متناثر في مختلف الأحياء.

ثم ظهرت هذه الحجيرات في مدن مختلفة من مدن القرون الوسطى

وإذا حدث أن خلت إحدى هذه الحجيرات من رجل أو امرأة متطوعين مختارين فإن السلطات الدينية تضع فيها أحداً أو إحدى ضحايا البرص استدراراً لإيمان الجماهير وتمكيناً له في النفوس.

والحق أن هذه الحجيرة شيء بين البيت والقبر. بل هي قبر حقيقي تذوب فيه شمعة الحياة قطرة قطرة.

أما الناس فلم يحاولوا يوماً أن يذهبوا إلى ما وراء هذه التضحيات ويتبينوا أسبابها النفسية العميقة. بل كانوا يكتفون بالإشفاق، إشفاقاً سوقياً على أصحابها، أو يحملون إليهم فتاتاً من مساعداتهم بين الفترة والفترة أو ينظرون إليهم من خلال الكوة ليروا ما إذا كان أحدهم قد بقي حياً أو مات، وهم يجهلون كل شيء عنه، حتى اسمه، والزمن الذي أوى فيه الحجيرة وبدأ يموت فيها. أما الجواب الدائم عن سؤال صادر عن أحد الغرباء بصدد من فيها فهو إن كان رجلاً: «الحبيس» وإن كانت امرأة: «الحبيسة».

قلنا: إنه قد كانت حجيرات أخرى في باريس غير حجيرة السيدة رولاند في ساحة جريف. كان منها في مون فوكون وأخرى في منزل كليشون. كما كانت للجامعة حجيرتها.

والواقع أن حجيرة السيدة رولاند لم تخل أبداً من واحد من هؤلاء الحبساء والحبيسات إلا في النادر القليل جداً. فكثيرات هن النساء اللاتي أتين إليها يبكين حتى الموت، قريباً مات أو خطيئة ارتكبت في نزوة طيش.

وقد جرت عادة الناس حتى القرن السادس عشر أن يكتبوا فوق باب الأبنية العامة جملة تشرح الغاية من كل بناء.

وبما أنه لم يكن لحجيرة السيدة رولاند باب فقد كتبت، فوق نافذتها، جملة لاتينية مؤلفة من كلمتي: «تو اورا». وقد حور الجمهور الذي يهتم بالمعاني العميقة هاتين العبارتين إلى «ترو او را» أي «حجر الجرذان.»

3 ـ قصة كعكة مصنوعة من خميرة الذرة

في اليوم الذي جرت فيه أحداث قصتنا كانت حجيرة السيدة رولاند مشغولة. فإذا رغب القارئ في أنْ يتعرف إلى الشاغل أو الشاغلة فليس عليه إلا أن يستمع إلى حديث ثلاث من النساء كن يأتين من الشاتليه إلى ساحة جريف على امتداد المجرى المائي.

كانت اثنتان منهنّ تلبسان لباس بورجوازيتين غنيتين. إنهما من النساء التاجرات اللاتي يضعن الخدم في الوسط بين ما يسمونه بالمرأة وما يسمونه بالسيدة. ولكنهما لم تكونا تحملان صليباً ذهبياً أو خاتماً ثميناً خوفاً من أن تدفعا جزاءً تفرضه السلطات عليهما. أما رفيقتهما الثالثة فلم تكن أقل منهما تزيناً بالملابس الدالة على الغنى. ولكن طريقة ارتدائها لثيابها وطراز زينتها يدلان على أنها لم تعش بعد في مدينة باريس مدة طويلة كما يدلان على فساد ذوقها في اختيار القماش وتفصيل الثوب وعقد الأشرطة، ومئات أخرى من الشناعات التي يتقزز منها الذوق الحسن الحديث.

كانت الاثنتان الأوليان تسيران بهذه الخطوة الخاصة بالباريسيات اللاتي ترافقهن نساء الريف ويُقدِّمن إليهن مدينة باريس. وأما الريفية رفيقتهما فكانت تمسك بيد صبي ضخم يحمل بيده كعكة كبيرة.

ويؤسفنا أن نقول: إنه كان يجعل من لسانه منديلاً له يمسح به ما فوق شفتيه بسبب قسوة الجو في مثل هذا الفصل. وكان الطفل يتعثر في مشيته في كل برهة يسير وكأنه مجرور جراً من يد أمه. والواقع أنه كان ينظر إلى الكعكة أكثر مما كان ينظر إلى بلاط الشارع. ولا شك أن مانعاً خطيراً يمنعه من أن يقضم الكعكة، فهو يكتفي بتأملها في رقة بالغة.

وفي هذه الأثناء بدأت النساء الثلاث يتحدثن مرة واحدة.

قالت صغراهن موجهة حديثها إلى الريفية: «لنسرع يا ماهيات فإنني خائفة من أن نبلغ المكان متأخرات. لقد قيل لنا في الشاتليه إنهم

سيقودونه مباشرة إلى وتد التعذيب في جريف.»

فأردفت الباريسية الأخرى: «آه! ماذا تقولين يا اودارد مونيه، إن أمامنا فسحة من الوقت ولن يبدأ التعذيب قبل ساعتين. هل شهدت يا عزيزتي ماهيات التعذيب بالوتد؟»

قالت الريفية: «نعم، في مدينة ريمس.»

أجابت الباريسية: «آه! ما هو هذا الوتد في ريمس؟ إنه قفص خبيث لا يعذب به إلا الفلاحون!»

فقالت ماهيات: «إلا الفلاحون! لقد شهدنا في سوق الجوخ، في ريمس، مجرمين على قسط كبير من الجمال قتلوا أباً وأماً! فلاحون! ماذا ترين فينا نحن، يا جيرفيز؟»

الثابت أن الريفية كانت على أهبة الغضب لشرف وتدها في ريمس. ولكن لباقة الباريسية الثانية انحرفت بالمحاورة إلى موضوع آخر.

ـ «ماذا تقولين بهذه المناسبة يا آنسة ماهيات عن سفرائنا الفلامانديين! هل عندكم في ريمس من له مثل جمالهم؟»

فأجابت ماهيات: «أعترف أن ليس هناك غير باريس لمشاهدة أمثال هؤلاء الفلامانديين.»

وسألت اودارد: «هل رأيت في السفارة هذا السفير الضخم، صانع الأحذية؟»

قالت ماهيات: «نعم! إن له شكل ساتورن» (إله الزمان عند الرومان).

فأردفت جيرفيز: «وهذا الضخم الذي يشبه وجهه بطناً عارية؟ وذاك الصغير ذو العينين الصغيرتين اللتين يحيط بهما هدب أحمر، متسخ متمزق كأنه رأس قدر؟»

ورددت اودارد: «إن الجمال في خيولهم التي زينوها بثياب من طرز بلادهم!»

وقالت ماهيات الريفية مقاطعة: «آه! يا عزيزتي، ماذا عساك تقولين إذن، لو أنك شهدت عام 61 في ريمس الأمراء الذين كانوا يرافقون الملك، وما كانت تتزين به هذه الخيول من أقمشة مخملية أو حريرية دمشقية أو فراء من الهرمين، وقد علاها الخدم من الأطفال ذوي الجمال الفائق؟»

فأجابت اودارد بخشونة: «إن هذا لا يمنع أن تكون للفلاماندیین خيول بالغة الجمال والحلاوة. وقد تناول هؤلاء السفراء عشاءهم على مائدة نقيب التجار في القصر البلدي.»

وصرخت جيرفيز: «ماذا تقولين؟ لقد تناول السفراء عشاءهم عند الكاردينال في قصر البيتي ـ بوربون.»

ـ «لا، أبداً. بل في القصر البلدي!»

ـ «كلا. لقد كان العشاء في قصر البتي ـ بوربون!»

ـ «في البيتي ـ بوربون يا عزيزتي! حتى إنهم أناروا كلمة «أمل» ـ المكتوبة فوق الباب الكبير، في زجاجات سحرية.»

ـ «في القصر البلدي! في القصر البلدي! حتى إن هوسون لوفوار قد لعب هناك بمزماره!»

ـ «أقول لك: لا!»

ـ «أقول لك: نعم!»

ـ «أصر على قولي: لا!»

وتهيأت اودارد للرد، وكان من المحتمل أن تتحول المعركة إلى تماسك بالشعر لولا أن ماهيات صرخت فجأة تقول: «انظرا هؤلاء الناس الذين تجمعوا هناك عند طرف الجسر! إن في وسطهم شيئاً ينظرون إليه.»

قالت جيرفيز: «الحقيقة أنني أسمع صوت طبل صغير. وظني أن الاسميرالدا الصغيرة هي التي تقدم سخرياتها مع عنزتها... اسرعي يا ماهيات! عجلي الخطى وجرِّي صبيك. لقد أتيت إلى هنا لتزوري مفاتن

باريس. فرأيت أمس الفلاماندين، وعليك اليوم أن تشهدي هذه الغجرية.»

قالت ماهيات وهي ترجع من حيث أتت: «غجرية! ليحفظني اللّه منها! إنها قد تسرق طفلي! تعال يا أوستاش!»

وانطلقت راكضة نحو ساحة جيرفيز حتى أصبحت بعيدة عن الجسر، وتعثر طفلها فوق ركبته فوقفت لاهثة. ثم لحقت بها اودارد وجيرفيز.

قالت جيرفيز: «هل تعتقدين حقاً أن الغجرية تسرق طفلك؟ إن لك خيالاً طريفاً حقاً.»

فراحت ماهيات تهز رأسها في هيئة من تفكر.

وذكرت اودارد، إن الطريف حقاً هو أن لحبيسة جحر الجرذان مثل هذه الفكرة عن الغجرية.

ثم أجابت ماهيات: «وكيف ذلك! أهي المرأة المسكينة التي نحمل إليها هذه الكعكة؟»

فقالت اودارد: «نعم.»

ـ «سترينها الساعة من خلال الكوة في ساحة جريف. إن لها مثل نظرتك أنت في هؤلاء المشتردين من مصر الذين يدقون طبولهم الصغيرة ويقرأون للناس خطوط مستقبلهم. وليس من يعرف من أين أتتها هذه الرهبة من الغجريين. ولكن، أنت يا ماهيات، لم تهربين هكذا، فليس لك إلا أن تنظري فقط!»

قالت ماهيات وهي تضم رأس طفلها بين يديها:

ـ «إنني لا أحب أن يصيبني ما أصاب باغيت لاشانت فلوري.»

فرددت اودارد ممسكة بذراعها:

ـ «إنك ستقصين علينا قصة باغيت هذه.»

ـ «أفعل ذلك، ولكن، ولكن، ليس من الضروري أن نتوقف هنا لأحدثكما حديث هذه الفتاة. كان ذلك منذ ثمانية عشرة عاماً. فتاة جميلة

في الثامنة عشرة من عمرها. مات أبوها عنها وبقيت لها أمها فقط. كل شيء كان جميلاً فيها: أسنانها وعيناها. وقد سماها بعض الرجال ـ شانت فلوري ـ لأنها كانت دائمة الابتسام. وساءت أيام الفتاة وأمها بصورة مفاجئة حتى جاء اليوم الذي لم تعودا تملكان فيه حطباً خلال الشتاء القارس مما منح الفتاة لوناً جميلاً جعل الرجال ينادونها: باغيت. وفي صباح يوم اختفت ثم أتت في يوم من أيام الأحاد بعد ذلك تزور الكنيسة وفي نحرها صليب من الذهب.

قالت جيرفيز: «ليس في هذه القصة شيء يلفت النظر، ولست أرى فيها شيئاً عن الغجريين والأطفال.»

فأردفت ماهيات: «صبراً، أما الطفل فسترينه. ـ لقد وضعت هذه الفتاة عام 66 أي منذ ستة عشر عاماً في عيد القديس بولس من مثل هذا الشهر بنتاً صغيرة. وكم كان فرح هذه البائسة عظيماً... فقد انفجرت فيها عاطفة من الدموع والابتسامات والقبل. وأرضعت طفلتها وخاطت لها أقمطتها من غطاء فراشها ثم لم تعد تشعر بالبرد أو الجوع. واسترجعت جمالها. فتاة عانس تقوم بدور الأم الفتية. ـ قلت لك يا أوستاش: لا تأكل الكعكة أبداً! . ـ والثابت أن ايناس الصغيرة، وهو اسم الطفلة عند العمادة، كانت تحظى بما لا يحظى به ولي العهد نفسه من الأربطة والأحذية الذهبية والأشرطة الجميلة الرائعة! لقد خاطت الأم بنفسها كل هذه الثياب وطرزت بنفسها أيضاً كل هذه الزينات التي كانت تزين بها طفلتها. أما الطفلة فقد كانت جميلة حقاً. جميلة بقدميها الورديتين ويديها الصغيرتين ولون وجهها بل في كل جزء من أجزاء جسدها! ـ إنك ستعرفين يا اودارد أن ليس شيء أجمل في الدنيا من هاتين القدمين الصغيرتين واليدين اللطيفتين.

قالت اودارد متنهدة: «لست أبغي خيراً من ذلك.»

ثم أردفت ماهيات: «كان يجب أن تكون هذه الطفلة اليوم في السادسة عشرة من عمرها. عيناها أكبر من فمها. شعرها رقيق دقيق مفتول

أسود. كان جديراً بها أن تكون اليوم سمراء فخورة! وكانت أمها تزداد بها هياماً في كل يوم حتى الجنون. فتشكر ربها على هذه النعمة. وكم كانت هذه الأم تجلس أمام صغيرتها فتخلع الحذاء عن قدميها الورديتين ثم تقبلهما معجبة بنحافتهما فتعيدهما إلى الحذاء تارة وتعود فتخلعه عنهما مرة أخرى، وهي تود لو تقضي حياتها كلها راكعة على ركبتها لتلبس هاتين القدمين حذاءيهما أو تخرجهما منهما فكأنهما قدما الطفل يسوع.»

قالت جيرفيز: «القصة جميلة جداً، ولكن أين هي بوهيمية الغجرية فيها؟»

فأجابت ماهيات: «هذه هي... وصلت إلى ريمس صباح يوم من الأيام مجموعة من الفرسان والمشاة. كانوا لصوصاً وفقراء، يحملون ثياباً رثة ولهم وجوه سمراء داكنة، وقسمات مخيفة موحشة. يجتازون المدن والبلدان ونساؤهم من ورائهم يحملن أطفالهن في جيوب على ظهورهن. أما لنساء فسود الوجوه قبيحات الأجساد نتنات الرائحة، وأما الأطفال فقد كانوا جديرين بإرهاب القرود. كان يُقال إنهم قادمون من الشرق من مصر السفلى عبر بولندا، وإن البابا قد قضى أن يدوروا العالم سبع مرات متواليات دون أن يناموا فوق سرير، تكفيراً عن ذنوبهم. والظاهر أنهم كانوا من الكفرة الإسماعيليين، يثبت ذلك أنهم يؤمنون بجوبيتر. وكانوا يقرأون للناس خطوط مستقبلهم باسم ملك الجزائر وامبراطور ألمانيا. فيقولون العجب العجاب. وقد عسكروا عند مداخل مدينة ريمس. وانطلق المتهوسون من الناس نحوهم يطلبون إليهم أن يقرأوا لهم أقدارهم في أيديهم. وانطلقت النساء نحوهم يحملن أطفالهن وفي نية كل منهن أن تجد في مستقبل طفلها قائداً عسكرياً أو وزيراً كبيراً أو غنياً مسرفاً في الغنى. وحاول العقلاء منع الناس من زيارة هؤلاء اللصوص المناكيد، فما ارعوى المتهوسون وما تراجعوا. بل كانوا رجالاً ونساء ينطلقون في غفلة من الآخرين ليستمعوا إلى قصة مستقبلهم، فيسمعون أشياء عجيبة غريبة. وذات يوم غدت الأم شانت فلوري بطفلتها راغبة فيما ترغب فيه

الأمهات. وقدمتها إلى الغجريات اللاتي أعجبن بها فقبلنها بأفواههن السوداء وقلن للأم إن طفلتك ستكون ملكة من الملكات.

ورجعت المسكينة سعيدة مفعمة بالهناء، ومددت طفلتها فوق السرير وتركت بيتها مغلقاً نصف إغلاقة، ثم راحت نحو جاراتها تقص عليهن قصة مستقبل طفلتها التي لم تكن قد بلغت بعد تمام السنة الأولى من عمرها فتثغو ثغاء ساحراً رائعاً. ثم رجعت الأم فلم تسمع بكاء ابنتها وظنت أنها نائمة. ولكنها لم تلبث أن وجدت فتحة الباب أكبر من تلك التي تركتها فيه عندما غادرت المنزل فدخلت ولم تجد الطفلة. لقد كان السرير خالياً خاوياً. وانطلقت المسكينة خارج الغرفة ملقية نفسها من فوق السلم باكية تنحب وتصرخ ثم تضرب رأسها بالجدران وهي تقول: «ابنتي، أين ابنتي؟ ومن أخذها؟» وكان الشارع خالياً والبيت بعيداً عن الحي. فانطلقت في طرق المدينة تعوي وتصرخ سائلة عن ابنتها باحثة في كل زاوية مفتشة في كل مكان، فلم تجد غير الفراغ، غير الصدى القاتل. كانت توقف المارة لتقول لهم صارخة: «ابنتي، ابنتي الصغيرة الجميلة! سأكون خادمة لمن يرجعها إليّ، بل سأكون خادمة كلبه» ولقيت الكاهن فقالت له: «أيها الأب، إنني أحرث لك أرضك بأظافري ولكن أعطني ابنتي. رد إليّ طفلتي!»

كان شيئاً يمزق الفؤاد يا اودارد، ولقد رأيت رجلاً يبكي عُرِفَ بقسوة قلبه وشدة خلقه ـ آه! كم كانت بائسة هذه الأم! ورجعت إلى بيتها في المساء، وكانت إحدى جاراتها قد رأت غجريتين تحملان شيئاً لا تدري ما هو، ثم دخلتا إلى بيت المرأة ورجعتا بعد قليل وقد تركتا شيئاً فيه، ومنذئذ أخذت تسمع صراخاً كصراخ الطفل. وضحكت الأم وصعدت السلم لترى من فيه. أتعرفين ماذا وجدت يا اودارد؟ لقد رأت شيئاً مخيفاً قبيحاً مشوهاً بشعاً. وجدت مكان ابنتها الرائعة المنيرة الحلوة الإلهية في جمالها، شيئاً يشبه الوحش أعور أعرج متداخل الأطراف يزحف فوق أرض غرفتها وهو يعوي متلعثماً. وأغمضت عينيها مذعورة خائفة.

قالت: «أوه، هل أن الغجريات قد سحرن ابنتي فجعلنها هذا الوحش الصغير؟ وأسرع الناس يحملون هذا الكائن الغريب الذي كان في الرابعة من عمره خوفاً من أن تصاب بالجنون. ـ وألقت شانت فلوري بنفسها فوق حذاء ابنتها الصغير، وهو كل ما بقي لها منه، وبقيت طويلاً مسمرة صامتة جامدة لا تكاد تتنفس حتى لقد ظن أنها ماتت. وفجأة انفجرت مضطربة وغمرت ذخيرتها من طفلتها (الحذاء) بقبلاتها الصاخبة العاصفة، وانطلقت تبكي كما لو أن قلبها قد انفجر. أؤكد لكما أننا كنا نبكي نحن أيضاً. كانت تقول: «آه! يا ابنتي، أين أنت؟» مما يمزق الأحشاء ويفطر القلوب. إنني ما أزال أبكي لها حتى اليوم كلما عاودتني الذكرى. هل تعرفان من هم أطفالنا، إنهم نخاع عظامنا الشوكي. ثم نهضت شانت فلوري فجأة وانطلقت تركض في مدينة ريمس تقول: «إلى معسكر الغجريين! إلى معسكر الغجريين! أريد جنوداً لإحراق الساحرات!» ولكن الغجريين كانوا قد بارحوا معسكرهم فلم يبق غير رماد نيرانهم. وهناك وجدت أشرطة من أربطة الطفلة ووجدت قطرات من الدم. فلم يشكّ أحد أن الغجريين قد افترسوا هذه الطفلة. ولم تكن شانت فلوري تدرك هذه الحقائق الرهيبة، حتى امتنعت عن البكاء، وحركت شفتيها كما لو كانت ترغب في الكلام ولكنها عجزت. وفي اليوم الثاني ابيضّ شعر رأسها. ثم اختفت في اليوم الذي بعده.»

قالت اودارد: «إنها في الحقيقة قصة رهيبة، وهي جديرة أن تستدر دموع بورغوني.»

ورددت جيرفيز: «لم أعد أستغرب خوفك المذعور من الغجريين!»

ثم أردفت اودارد: «لقد أحسنت صنعاً حين هربت بطفلك أوستاش، فهؤلاء غجريون من بولندا أيضاً.»

قالت جيرفيز: «كلا، يقال إنهم آتون من إسبانيا وكتالونيا.»

قالت اودارد: «كتالونيا؟ هذا ممكن، فأنا أخلط دائماً بين كتالونيا وبولونيا وفالونيا. لكن الثابت أنهم غجر.»

وأضافت جيرفيز: «إن لهم أسناناً طويلة يأكلون بها صغار الأطفال. ولن يدهشني أن تأكل الاسميرالدا أيضاً قليلاً من لحم الأطفال وهي تكشر بفمها هذه التكشيرة الصغيرة. إن لعنزتها البيضاء من الحركات الخفيفة الخبيثة ما لا بد أن يكون من ورائه شيء من الهرطقة والزندقة.»

وانطلقت ماهيات صامتة وكأن ذكرى قصتها قد أثارت في نفسها نوعاً من ذبذبات تمتد واحدة وراء الأخرى حتى تغمر القلب.

وسألتها جيرفيز: «ألم يُعرف مصير شانت فلوري بعد ذلك؟» فلم ترد ماهيات على سؤالها وبدت كأنها لم تسمعه. فأعادت جيرفيز سؤالها وقد أمسكت بذراعها، فأجابت ماهيات وقد استيقظت من غفوة عميقة:

ـ «تسألين عما أصاب شانت فلوري بعد ذلك؟»

ثم انتظرت قليلاً، تبذل جهداً للتفكير في هذا السؤال ثم أردفت: «لا أحد يعرف عنها شيئاً. لقد غابت عن الجميع.» وبعد فترة استراحة قالت:

ـ «لقد انتشرت عنها شائعات كثيرة، ولكنني أعتقد أنها انطلقت في طريق النهر ولا سيما بعد أن وجد الناس صليبها الذهبي في المكان الذي تقوم فيه السوق، إنه الصليب الذي كانت المسكينة تحبه حباً يفوق حبها لحياتها.»

قالت اودارد وهي ترتجف: «مسكينة شانت فلوري، لقد ماتت منتحرة في الماء!»

ورددت ماهيات: «نعم، ماتت في النهر غرقاً، من يقول إن ابنة جيبرتو الذي كان يجتاز الماء تحت الجسر وهو يغني، من يقول ابنته ستمر في المكان نفسه دون غناء ودون قارب؟»

وسألت جيرفيز: «والحذاء؟»

ـ «لقد اختفى أيضاً.»

قالت اودارد: «مسكين هذا الحذاء الصغير!»

وكادت اودارد تكتفي بما ألقته من الأسئلة وهي الفتاة الشديدة

الحساسية، ولكن جيرفيز، التي تفوقها فضولاً، لم تكن قد استفرغت أسئلتها كلها.

فقالت فجأةً: «والوحش؟ ما الذي أصابه؟»

فسألت ماهيات: «أي وحش تقصدين؟»

ـ «الوحش الصغير الذي وضعته الساحرات مكان طفلة شانت فلوري... أرجو أن تكونوا قد أغرقتموه أيضاً؟»

أجابت ماهيات: «كلا.»

ـ «كيف ذلك؟ وهل أحرقتموه! يبدو أن النار أليق به؟»

ـ «لا هذا ولا ذاك، يا جيرفيز. لقد أبدى الأسقف اهتمامه بهذا الطفل الغجري. فباركه وأخرج الشيطان من جسده، ثم أرسله إلى باريس ليعرض فوق السرير الخشبي في نوتردام كأي طفل لقيط.»

قالت جيرفيز مدمدمة: «هؤلاء الأساقفة! إنهم يفعلون ما لا يفعله الآخرون لأنهم علماء فقط.»

ـ «ولكن هذا الوحش هو الشيطان نفسه. فما الذي حدث له في باريس؟»

أجابت ماهيات: «لست أدري، فقد شغلنا عنه بوظيفة كتابة العدل في بارو التي ابتاعها زوجي وهي تبعد عن ريمس مسافة فرسخين.»

وبلغت النساء الثلاث أخيراً ساحة جريف واتجهن نحو وتد التعذيب الذي كانت صفوف المتفرجين تتضخم من حوله شيئاً فشيئاً. وتجاوزت جحر الجرذان ولكن الطفل لم يلبث وقد شغلته الكعكة أن قال لأمه:

ـ «هل أستطيع أن آكل الكعكة الآن؟»

واستيقظت وأدركت أنها نسيت حبيسة حجيرة السيدة رولاند. فقالت لرفيقتها: «لقد نسينا الحبيسة! أرياني إذن موضع جحر الجرذان فأحمل إليه كعكة.»

قالت اودارد: «حالاً وسريعاً، إنها صدقة. أليس كذلك؟»

ورجعت النساء الثلاث القهقرى، وعندما بلغن بيت برج رولان، قالت اودارد للأخريين: «يجب ألا ننظر كلنا مرة واحدة في كوة الحبيسة كي لا نخيفها. تظاهرا أنكما تقرآن في كتاب الصلاة، وأطل أنا عليها من خلال الكوة ثم أشير إليكما بالاقتراب فتنظران.»

وانطلقت وحيدة نحو الكوة ثم نظرت. فلم تلبث عاطفة غامرة من الشفقة أن ارتسمت على قسمات وجهها كله. وتحول فرحها فأصبح حزناً قاتماً. ثم أصبحت عينها رطبة من الدموع وتقلص فمها، كما لو أنها تهم بالبكاء. وبعد ذلك بقليل وضعت إصبعها فوق فمها مشيرة إلى ماهيات أن تقترب. فاقتربت ماهيات صامتة تمشي على رؤوس أصابعها وكان ما رأته المرأتان شيئاً محزناً حقاً.

الحجيرة ضيقة، عرضها أكثر من عمقها، ذات قبة صغيرة، وهي تبدو من الداخل قريبة الشبه بنخروب تاج أسقفي كبير. وقد جلست فوق بلاط تلك الحجيرة امرأة محتبية أسندت ذقنها فوق ركبتيها اللتين كانت ذراعاها المتقاطعتان تشدانهما إلى صدرها. إنها منكمشة على نفسها يغطيها كيس أسمر عريض الثنايا. ويسقط شعرها الأبيض فوق وجهها ثم يمتد حتى يبلغ ساقيها. إنها تبدو للوهلة الأولى شكلاً غريباً يبرز فوق قاعدة الحجيرة المظلمة، أو مثلثاً قاتم اللون، قد منحه ضياء النهار الذي يدخل عبر الكوة طيفين مختلفين أحدهما قاتم شديد وثانيهما فاتح باهت. لقد كانت من هذه الأطياف التي يراها النائم في أحلامه شيئاً بين الظل والنور، أو تلك التي نجدها في مؤلفات غويا صفراء، جامدة، متجهمة، محتبية فوق قبر من القبور، أو مسندة إلى شبكة مخبأ من المخابئ. إنه لم تكن امرأة أو رجلاً بل لم تكن كائناً حياً، ولا صورة محددة، كانت شكلاً ما، نوعاً من رؤيا يتلاقى فيها الواقع والخيال كما يتلاقى الظل والضياء.

ثم لا يكاد الناظر يتبين أمامه غير صفحة جانبية هزيلة وقورة، ولا يكاد ثوبها يكشف شيئاً من جسدها اللهم غير طرف قدم عارية كانت تتقلص فوق البلاط الصلب المجلد. لقد كان القليل من الشكل الإنساني

الذي يُرى تحت هذا الغطاء يبعث الرعدة في الجسد.

على أن المراقب لا يكاد يشعر أن هذه المرأة متألمة من الصقيع الذي يأتيها من الكوة أو أنها تتحرك أو تفكر أو تتنفس. فيظن أنها حجر متصل بالمخبأ، قد تجلد بصقيع كانون الثاني. كانت يداها مضمومتين وعيناها ثابتتين. تبدو طيفاً في الوهلة الأولى ثم تمثالاً بعد النظرة الثانية.

وفي هذه الأثناء كانت شفتاها تنفرجان عن نفس يخرج، وترتجفان، ولكنهما على حال من الضنى، أشبه بالأوراق التي تتباعد حين تمر بها الريح. وتنطلق من عينيها نظرة فائقة، بل نظرة عميقة قاتمة جامدة، مثبتة دائماً فوق زاوية من الحجيرة لا ترى من الخارج، نظرة تبدو وكأنها تربط كل الأفكار القاتمة لهذه النفس البائسة بشيء خفي لا أعرفه.

قالت اودارد بصوت خفيض بعد أن انضمت جيرفيز إليهما: «لا تزعجانها، إنها في نشوتها، إنها تصلي.»

وأدخلت ماهيات رأسها قليلاً في الكوة حتى رأت الزاوية التي كانت تنظر الحبيسة إليها ثم أخرجته وقد امتلأت عيناها بالدموع.

وسألت اودارد: «ماذا تسمون هذه المرأة؟»

ـ «الأخت جودول.»

فرددت ماهيات: «وأنا أسميها باغيت أو شانت فلوري.»

ثم أشارت إلى اودارد أن تنظر. فأدخلت اودارد رأسها في الكوة ونظرت فإذا بها تقع على حذاء صغير مطرز بخيوط من الذهب والفضة.

ونظرت جيرفيز بعد اودارد ثم تبادلت النسوة الثلاث الأنظار وانطلقن يبكين الأم البائسة.

ولكن نظراتهن ودموعهن لم تستطع أن تخرج الحبيسة مما كانت فيه. لقد بقيت يداها مضمومتين، وشفتاها صامتتين، وعيناها مثبتتين على حذائها الذي يفتّت قلب من يعرف قصتها. أما النسوة فلم يستطعن أن ينبسن ببنت شفة حتى في صوت خفيض. لقد كان لهذا الصمت الكبير،

وذاك الألم العظيم، والضياع الذي غابت عنه كل الأشياء، من الأثر ما يكون لصلاة عيد الميلاد. كن صامتات مستغرقات في الصلاة، مستعدات للركوع متبتلات. لقد كان يبدو لهن أنهن قد ولجن الكنيسة في يوم الظلمات.

وأخيراً حاولت جيرفيز، أكثر الثلاث فضولاً، وبالتالي أقلهن حساسية، أن تستنطق الحبيسة: «أيتها الأخت! أيتها الأخت جودول!»

ورددت نداءها ثلاث مرات، وهي ترفع صوتها في كل مرة. فلم تتحرك الحبيسة. فلا كلمة، ولا نظرة، ولا تنهيدة، بل ولا إشارة حياة.

وأرسلت اودارد نداءها بصوت أرق وأكثر حلاوة: «أيتها الأخت! أيتها القديسة جودول!»

الصمت نفسه، والجمود نفسه.

فصرخت جيرفيز: «إنها امرأة فريدة، لا يثيرها شيء حتى المدفع نفسه.»

قالت اودارد متنهدة: «لعلها صماء.»

فرددت جيرفيز: «ولعلها عمياء.»

وأردفت ماهيات: «بل لعلها ميتة.»

فقالت اودارد: «وإذن يجب أن نترك الكعكة على الكوة لكن قد يأخذها أحد الأولاد. كيف نصنع لإيقاظها؟»

أما أوستاش الذي كان منصرفاً عنهن بالنظر إلى عربة يجرها كلب، فقد لاحظ أن النساء الثلاث ينظرن في الكوة. فاقترب ينظر بدوره ثم ألصق وجهه الوردي بالفتحة وهو يصرخ: «أمي، أنظري ما رأيت!»

واضطربت الحبيسة حين بلغها صوت الطفل الواضح الرنان. فلفتت رأسها بحركة جافة سريعة كأنها حركة نابض فولاذي. وباعدت يداها المنهوكتان شعرها عن جبهتها، وأثبتت في الطفل عينين دهشتين، يائستين. ثم لم تكن هذه النظرة غير برق سريع.

وصرخت تقول وهي تغطي وجهها:

ـ «يا إلهي أبعد عني على الأقل أطفال الآخرين!»

وصوتها المبحوح يبدو وكأنه يمزق صدرها.

قال الطفل بوقار شديد: «صباح الخير أيتها السيدة!»

وفي هذه الأثناء كانت الهزة التي أصابتها قد أيقظتها فجرت القشعريرة عبر جسدها من مفرق رأسها حتى أخمص قدميها. ثم قالت وهي تضم قدميها بيديها وكأنها تدفئهما بهما: «أوه! كم هو شديد هذا البرد!»

قالت اودارد في إشفاق عظيم: «هل تريدين ناراً أيتها المرأة المسكينة؟»

فهزت رأسها رافضة.

ورددت اودارد وهي تمد نحوها زجاجة من الهيبوكراس: «خذي هذا الشراب فإنه سيدفئك. اشربي.»

وهزت رأسها مرة أخرى، ونظرت إلى اودارد ثم أجابت: «ماء فقط.»

وألحت اودارد: «لا، أيتها الأخت، فليس هنا شراب من أشربة كانون الثاني. عليك أن تشربي قليلاً من الهيبوكراس، وأن تأكلي هذه الكعكة المصنوعة بخميرة الذرة التي خبزناها من أجلك.»

فردت ماهيات قائلة: «خبز أسود.» وهنا بلغ التأثر من نفس جيرفيز مبلغاً شديداً فقالت: «خذي هذا الثوب فلعله يبعث دفئاً في جسدك.»

فرفضت الثوب كما رفضت الكعكة والشراب من قبل وأجابت: «كيس فقط.»

قالت اودارد: «ولكن يجب أن تدركي أن اليوم يوم عيد.»

قالت الحبيسة: «أدرك ذلك، وقد مر يومان وجرتي خالية من الماء.»

ثم أضافت بعد صمت: «إنه عيد، لقد نسيني الناس. وهم يحسنون صنعاً. فلم يفكر العالم بي أنا التي لا تفكر بنفسها! إن الرماد البارد هو للفحم المنطفئ.»

ثم تركت رأسها يهبط فوق ركبتيها وكأنها قد تعبت من طول ما تحدثت. فظنت اودارد أن المسكينة تشكو من البرد بعد سماعها جملتها الأخيرة فقالت:

ـ «هل تبغين قليلاً من النار؟»

فرددت الحبسية: «ناراً تقولين؟ وهل تستطيعين أن تقدمي منها شيئاً لتلك الصغيرة المسكينة التي تقيم تحت التراب منذ خمس عشرة سنة؟»

وهنا اضطربت أعضاؤها وارتجف صوتها ولمعت عيناها ثم نهضت قائمة فوق ركبتيها ومدت يدها بيضاء نحيلة نحو الطفل الذي كان ينظر إليها نظرة الدهشة والاستغراب صارخة: «احملن هذا الطفل. ستمر الغجرية بعد حين!»

وسقطت بعد ذلك ممدودة فوق الأرض وقد اصطدمت جبهتها بالبلاط كما يصطدم الحجر بالحجر وظنت النسوة الثلاث أنها ماتت. وبعد قليل رأينها تتحرك ثم تزحف متجهة إلى حيث يجثم الحذاء الصغير متكئة على مرفقيها، فلم يستطعن النظر إليها. إنهن لم يعدن يرينها ولكنهن كن يسمعن ألف قبلة وتنهيدة ممزوجة بصراخ يمزق القلوب وكدمات خرساء كأنها صدى اصطدام رأس بالجدار. وبعد أن سمعن إحدى أشد هذه الطرقات، وقد هزتهن هزاً عنيفاً، انقطعت الضجة ثم لم يسمعن شيئاً أبداً.

قالت جيرفيز مغامرة في النظر إلى الحجيرة ظانة أن الحبيسة قد قتلت نفسها: «أيتها الأخت! أيتها الأخت جودول!» ورددت اودارد: «أيتها الأخت جودول!»

ثم أردفت جيرفيز: آه يا إلهي! إنها لم تعد تتحرك! فهل قد ماتت؟

ـ جودول ـ جودول!»

أما ماهيات، وكادت تختنق حزناً، فقد بذلت جهداً آخر وقالت: «انتظروا» ثم انحنت فوق الكوة ونادت: «باغيت! باغيت لا شانت فلوري.»

وارتجفت الحبيسة بكل جسدها ونهضت واقفة فوق قدميها، ثم قفزت نحو الكوة بعينين اشتعلتا لهباً وناراً حتى أن النسوة قد تراجعن فبلغن حاجز الرصيف.

وهنا ظهر وجه الحبيسة ملتصقاً بشبكة الكوة متجهماً قاسي القسمات وصرخت في ضحكة مخيفة: «إنها الغجرية تناديني.»

وفي هذا الوقت بالذات ظهر مشهد عند وتد التعذيب فاستوقف نظراتها الذاهلة، وتجعدت جبهتها من الرهبة والخوف، ثم مدت ذراعي هيكلها المعروقتين وصرخت مرّة أخرى بصوت أشبه بحشرجة المحتضر:

ـ «هذه أنت أيضاً، يا بنت بوهيميا! أأنت التي تناديني، يا سارقة الأطفال! وإذن ليلعنك اللّه! ملعونة! ملعونة!»

4 ـ دمعة من أجل قطرة ماء

كان ما تحدثنا عنه في الفصل السابق مع النسوة الثلاث وما شهدن في حجيرة السيدة رولاند شيئاً جرى في الوقت نفسه الذي حدثت فيه أحداث هذا الفصل الذي ستقرأه أيها القارئ.

لقد ذكرنا أن جموع الناس قد بدأت تتجمع في ساحة جريف حول وتد التعذيب والمشنقة. وقد تضخمت صفوف المشاهدين بسبب تمركز الفرسان الأربعة من شرطة القاضي الأول روبير.

والواقع أن الجماهير لم تبدِ كثيراً من الضجر في انتظارها لما سيحدث. لقد كانت تتسلى بالنظر إلى الوتد، الذي هو عبارة عن مكعب من الحجر المبني أفرغ داخله وارتفع قرابة عشرة أقدام، تصله بالأرض سلم حجرية خشنة الملمس وتصل بالصاعد فوقها إلى السقيفة التي مدت

فوقها أيضاً بشكل أفقي عجلة خشبية من شجر البلوط الممتلئ. فيربط المتهم المدان بهذه العجلة وهو جاثم فوق ركبتيه ويداه خلف ظهره. ويتوسط هذه العجلة جذع خشبي يحركه رجل مختبئ في داخل فراغ الوتد، ومهمته تحريك هذه العجلة حركة دائرية في اتجاه أفقي بحيث تقع أنظار الناس على المتهم المدان حيثما كانوا من ساحة جريف.

والحقيقة أن وتد جريف لم يكن من الفخامة ودقة البناء ما كان عليه وتد ساحة الهال. فلا جمال فيه. ولا هندسة بنائية طريفة. والمشهد في حد ذاته فقير جداً بالنسبة لعشاق الهندسة الغوطية. والحقيقة أيضاً أن أقل الناس فضولاً إلى الاستمتاع بالروائع الفنية هم رعاع القرون الوسطى، فلا يهتمون بجمال وتد للتعذيب.

وصل المتهم المدان أخيراً مربوطاً إلى مؤخرة عربة، وبعد أن رفع العجلة الدائرة مقيداً بالحبال والأحزمة الجلدية، ارتفعت من بين الجماهير هتافات ممتزجة بالقهقهات والتعليقات الساخرة. لقد عرف الناس في هذا المتهم شخصية كوازيمودو. لقد كان هو شخصياً في الواقع. وكان رجوعه إلى هذه الساحة غريباً حقاً. إنه يعذب بالمكان الذي كان فيه بالأمس بابا وأميراً على المجانين يرافقه دوق بوهيميا ومصر وملك التون وامبراطور الجليل. والثابت أنه لا عقل للجمهور. لقد كان بالأمس يهتف له ويصفق، فأصبح اليوم يتسلى بالنظر إلى تعذيبه، أما جرنجوار وفلسفته فقد حرما من هذا المشهد.

وهنا وقف الممثل المحلف لجلالة الملك يعلن حكم القاضي الأول بإدانة كوازيمودو ويصف العقوبة التي ستوقع عليه، ثم انسحب إلى ما وراء العربة مع رجاله.

أما كوازيمودو الهادئ فلم يطرف له جفن. كان يستحيل عليه أن يقاوم أمام شدة الأربطة والأحزمة وما فيها من حلقات حديدية تكاد تنغرس في لحمه...

فاستسلم إلى جلاديه يقودونه ويدفعونه لا يرى أحد في وجهه غير

دهشة إنسان متوحش أو أبله. كان الناس يعرفون صممه. أما الآن فيكاد يُقال إنه أعمى.

ثم وُضع فوق اللوح الدائر على ركبتيه، فانقاد طائعاً، وجُرِّد من قميصه وسترته حتى حزامه. فانقاد أيضاً. وأحيط بطبقة أخرى من الأربطة والأحزمة فتركهم يقيدونه. إلا أنه كان يتنفس تنفساً قوياً بين وقت وآخر، كالعجل الذي يمد رأسه ويؤرجحه أمام عربة الجزار.

ولم يكد الجمهور يرى حدبة كوازيمودو عارية وصدره الكثيف الشعر حتى عصفت به ضحكات شديدة عالية. وفي أثناء هذه الموجة من المرح صعد رجل قصير القامة تبدو عليه الصلابة إلى السقيفة. فعرف فيه الناس جلاد شاتليه المحلف وبدأ بخلع معطفه، ثم رأى الناس سوطه الدقيق بشرائطه الطويلة البيضاء اللامعة المجدولة والمسلحة في أطرافها بأظافر معدنية. كان يطوي بيده اليسرى كُمّ ذراعه اليمنى حتى ما تحت إبطه.

وارتفع صوت جوهان فروللو بعد أن علا كتف صديقه روبان بوسبان قائلاً: «تعالوا انظروا أيها السادة والسيدات! إن المعلم كوازيمودو قارع أجراس أخي، كاهن جوزا، سيجلو في أبهة بالغة، إنه فن هندسي شرقي. في ظهره قبة وساقاه عمودان ملتويان.»

وانطلق الجمهور ضاحكاً ولا سيما الأطفال والفتيات.

وأخيراً ضرب الجلاد الأرض بقدمه. وبدأت العجلة تدور. وتأرجح كوازيمودو تحت أربطته وقيوده. وقد ضاعف الخوف الراعب الذي ارتسم في وجهه البشع ضحك الناس وقهقهاتهم.

وفجأة ارتفعت يد الجلاد بسوطه الذي أرسلت أشرطته صفيراً كصفير الأفاعي ثم هبط عاصفاً فوق منكب البائس المسكين.

وقفز كوازيمودو كمن يستيقظ في حركة مفاجئة. وبدأ يفهم. فأخذ يتلوى تحت القيود، وتمددت عضلات وجهه تحت ضغط الألم

والدهشة، ولكنه لم يرسل تنهيدة واحدة. بل اكتفى بتحريك رأسه إلى الوراء أو إلى اليمين واليسار يؤرجحه كما يفعل الثور الذي تلذعه ذبابة البقر.

وتتابعت لسعات السوط واحدة يلوء الأخرى. فلا تكف العجلة عن الدوران ولا تتوقف الضربات عن الإمطار. ثم لم تلبث الدماء حتى انبثقت من جراحه وسالت في خطوط دقيقة فوق جسد الأحدب العاري الأسود، أما أشرطة السوط الجلدية فقد كانت تنثر هذا الدم فوق المشاهدين كلما ارتفعت في الهواء صافرة.

ثم اتخذ كوازيمودو مرة أخرى هيئة الغائب عن المكان بعد أن حاول بادئ الأمر أن يقطع أربطته وقيوده. ولكن الأربطة والقيود استطاعت أن تصمد أمام مجهوده الجبار الذي جمع له أعصابه وقلص من أجله عضلاته دون جدوى. واستسلم لقدره. فأغلق عينه الوحيدة وأحنى رأسه فوق صدره واتخذ هيئة الميت.

ومنذئذ لم يعد يتحرك أبداً. وقد عجز كل شيء عن أن ينتزع من جسده حركة واحدة، حتى الدم الذي يسيل دون توقف، والضربات التي تعصف به، وغضب الجلاد الذي يتزايد حنقه وينتشي بتعذيبه له، وضجة الأشرطة الجلدية لتي كانت تصفر وتفري لحمه.

وأخيراً أرسل أحد فرسان الشرطة إشارة بعصاه يعلن بها توقف التعذيب. فجمدت العجلة الدائرة وامتنع الجلاد عن متابعة الضرب ثم فتح كوازيمودو عينه ببطء شديد. وأقبل خادمان بعد انتهاء عملية الجلد فغطيا جراح كوازيمودو المسكين بمراهم خاصة لم تبلث أن التأمت بها ثم ألقيا فوقه ثوباً أصفر، بينما كان الجلاد يستقطر أشرطة سوطه ما علق بها من دماء الضحية.

ثم تُرك كوازيمودو بعد ذلك ساعة أخرى فوق عجلته ليكمل العقوبة التي أضافها السيد بارباديان إلى عقوبة السيد روبير.

الواقع أن الشعب في كل مجتمع، ولا سيما في القرون الوسطى، هو

كالطفل في العائلة ومن الممكن أن يقال عنه ما يقال عن الطفل ما دام غارقاً في جهله، مقيداً بقصوره الأخلاقي والفكري.

لقد ذكرنا من قبل أن كوازيمودو كان موضع كره عام وهذا صحيح. لقد كان المرح شاملاً، وكانت الفرحة طاغية، بظهور كوازيمودو مربوطاً إلى عجلة وتد التعذيب، وبدلاً من أن تبعث الشدة التي عومل بها كوازيمودو والآلام التي تحملها، شفقة هؤلاء الناس، فإنها جعلت الحقد العام أكثر خبثاً وأشد سوءاً.

وهكذا، وبعد أن أشبعت نقمة الجماهير، بدأت مئات من الأحقاد الشخصية الخاصة تلعب دورها أمام هذا المسكين. كانت النساء هنا كما كن بالأمس في البهو الكبير أكثر المشاهدين انفجاراً وعبثاً به. كن كلهن ينطوين على حقد دفين. منهن الحاقدات على خبثه، ومنهن الحاقدات على قبحه وقد كانت الحاقدات على قبحه أشدهن نكراً.

وانطلقت تعليقاتهن يتناولن بها قبحه وزندقته فيما يزعمن مرددات لازمتهن الدائمة:

«أوه! الأصم! الأعور! الأحدب! الوحش القبيح!»

بينما كان الطالبان جوهان فروللو وروبان بوسبان يغنيان.

وأمطرت الساحة بآلاف أخرى من الإهانات والهتافات الصاخبة الحاقدة والقهقهات والأحجار من هنا وهناك.

ولئن كان كوازيمودو رجلاً أصم، فقد كان يرى جيداً ما حوله، كان يشهد غضب الجماهير الذي يرتسم على الوجوه ويتمثل في الأقوال. أما الحجارة فإنها تفسر الضحكات المتفجرة.

ولكن كوازيمودو الذي صمد أمام التعذيب لم يسعه إلا أن يغضب ويثور أمام لسعات هذه الحشرات التي تتجمع من حوله.

فنقَّل بادئ الأمر نظراته مهددة ثائرة بين الناس. ولكن هذه النظرات لم تفعل شيئاً وهو المقيد بأربطته وقيوده، وعجزت عن طرد هذا الذباب.

فاضطرب وتلوى تحت أربطته حتى أن عجلة الوتد نفسه كانت تئز تحت وطأة محاولاته الثائرة، ومع ذلك فقد كانت الضجة الساخرة تزيد ولسعات الحصى تتضاعف.

وهنا رجع إلى هدوئه، ولكن الغضب والحقد واليأس قد عملت مجتمعة على إشاعة سحابة قاتمة تتزايد فيها شحنة كهربائية فائقة تتفجر في مئات من بروق عينه الوحيدة.

وبدأت الغيمة تنقشع، حين مرّ بغل يعلوه كاهن وسط المشاهدين، بدأت الابتسامة تبدو في وجه كوازيمودو طاردة حقده وثورته منذ وقع نظره على الكاهن وبغله مطلين من بعيد. وكلما اقترب الكاهن زادت الابتسامة رقة وحلاوة وضياء. كما لو أن كوازيمودو يستقبل به ويحيّي صديقاً مخلصاً له. واقترب الكاهن وعرف كوازيمودو. ولكنه لم يلبث أن لوى رأس بغله وانطلق بعيداً تخلصاً مما كان يمطر به الناس هذا المعذب المسكين من الإهانات والشتائم والرجم بالحصى.

لقد كان هذا الكاهن دوم كلود فروللو.

وهبطت السحابة مرة أخرى فوق جبين كوازيمودو أشد كثافة وقتامة، وبقيت الابتسامة مختلطة بها فترة من الزمن ولكنها ابتسامة مُرّة، يائسة، عميقة الحزن...

ومرّ الزمن وسجل العقرب ساعة ونصف ساعة على الأقل، والمعذب عرضة للتمزيق وسوء المعاملة والسخرية في غير كلل أو ملل.

ثم انتفض المسكين فجأة مرّة أخرى في يأس متضاعف، واضطرب لانتفاضته الجهاز الخشبي الذي كان يحمله، وصرخ، وقد قطع الصمت الذي كان قد التزمه بعناد بالغ منذ وقت طويل، لا كما يصرخ إنسان بل كما يكون العواء. فغطى بصراخه ضجة الهتافات المنطلقة قائلاً: «إليَّ بالماء!»

ولم يكن لهذا النداء المتهالك الحزين من أثر غير ما كان لما قبله من

المشاهد من مضاعفة لفرحة الناس وسخرياتهم. والحق أن هذا الجمهور لم يكن خيراً من طغمة اللصوص المخيفة التي تحدثنا عنها إلى القارئ، ولا فرق بينهما سوى أن قبيلة من اللصوص هي الطبقة الدنيا من طبقات هذا الشعب..

لم يرتفع صوت واحد لينجده. ولو وجد بين المتفرجين من بعث هذا النداء عاطفة الشفقة في نفسه لما جرؤ على اقتحام صفوف هؤلاء الأوغاد والوصول إليه.

ونقَّل كوازيمودو نظراته بين الناس خلال دقائق، وكرر بصوت أشد تمزيقاً للقلوب: «إليّ بالماء!»

والكل يضحكون.

كان روبان بوسبان يصرخ، وقد رمى إليه بإسفنجة مغموسة في مجرى مائي موحل، قائلاً: «اشرب هذه، خذ أيها الأصم الكريه!»

ورجمته إحدى النساء بحجر في رأسه: «هاك ما يعلمك على إيقاظنا في وسط الليل بأجراسك الملعونة.»

وضربه ثالث بعصاه التي كان يتوكأ عليها.

ووضع رابع في صدره جرة مكسورة.

ثم كرر كوازيمودو نداءه وهو يتهاوى: «إليّ بالماء!»

وفي هذه البرهة رأى الناس يتباعدون. وقد بدت في وسطهم فتاة ترتدي زياً غريباً، ترافقها عنزة صغيرة بيضاء ذات قرنين مذهبين وتحمل بيدها دفاً.

وأبرقت عين كوازيمودو. لقد عرف فيها الفتاة التي حاول بالأمس أن يختطفها، والتي كان يعتقد أنه يتلقى الآن عقوبة محاولته تلك. فلم يشكّ لحظة في أنها آتية لتنتقم لنفسها منه، فتسومه من الأذى ما يسومه الآخرون.

والواقع أنه رآها تصعد السلم سريعاً. وقد كاد الغضب والحقد أن

يخنقاها، فودّ لو استطاع أن يحطم الوتد، ولو كان لبرق عينه أن يحطم لوجب أن تستحيل الفتاة هباء منثوراً قبل أن تصل إلى السقيفة.

واقتربت منه دون أن تنبس ببنت شفة بينما كان يتلوى راغباً في التخلص منها، ثم نزعت من حزامها قربة صغيرة، ووضعت فوهتها رقيقة حلوة فوق شفتي البائس المسكين.

وهنا، شوهدت في هذه العين التي كانت جامدة محترقة حتى ذاك الوقت، شوهدت دمعة كبيرة تنسكب بطيئة عبر هذا الوجه المشوه والذي طال تقلصه من اليأس. ومن الممكن أن تكون هذه الدمعة هي الدمعة الأولى التي أرسلها البائس في حياته كلها.

وفي هذه الأثناء كان قد نسي أن يشرب. وكشرت الغجرية تكشيرتها الصغيرة تعبيراً عن نفاد صبرها، ثم أثبتت فوهة القربة وهي تبتسم فوق فم كوازيمودو الممطوط. فشرب في جرعات كبيرة. لقد كان عطشه شديداً.

ومد المسكين شفتيه في حركة من يرغب في تقبيل اليد الجميلة التي أنجدته، ولكن الفتاة لم تكن خالية من الشعور بالحذر والتي كانت تذكر محاولته اختطافها في الليلة السابقة، جذبت يدها في حركة الطفل الذي يخاف أن يعضه حيوان.

وهنا أثبت الأصم المسكين فيها نظرة عاتبة ذات حزن فائق لا يعبّر عنه. والحق أنه كان مشهداً مثيراً، فتاة جميلة، ظريفة، طاهرة، بالغة الضعف في الوقت نفسه، تسرع ورعة لإنجاد مثل هذا البؤس العظيم والبشاعة الكبيرة، والخبث البالغ. لقد كان مشهداً نبيلاً فوق وتد التعذيب.

والحق أيضاً أن الجماهير قد انفعلت متأثرة بنبل هذه البادرة فصفقت قائلة: «نوويل. . نوويل!»

وفي هذه الفترة بالذات شهدت الحبيسة، من خلال كوة جحرها، تلك الغجرية.واقفة فوق الوتد فأرسلت نحوها دعاءها المتجهم: «كوني ملعونة يا بنت بوهيميا! ملعونة! ملعونة!»

5 ـ نهاية قصة الكعكة

وامتقع وجه الاسميرالدا، وهبطت سلم الوتد وهي تتهاوى في مشيتها. أما صوت الحبيسة فقد لحقها أيضاً: «انزلي! انزلي يا سارقة من الغجر، أم أنك ستصعدين مرّة أخرى إليه!!»

قال الشعب مدمدماً: «الحبيسة تهذي» ولم يحدث شيء خلاف ذلك. فقد كان الناس يخافون مثل أولئك النساء، والخوف هو الذي يجعلهن مقدسات فلا يتعرض أحد لمن تقضي ليلها ونهارها في الصلاة.

وجاءت الساعة التي حُلَّت بها قيود كوازيمودو، وتفرّق الناس.

وهناك، قريباً من الجسر الكبير، وقفت ماهيات التي كانت ترافقها الباريسيتان وقالت:

ـ «ماذا صنعت يا أوستاش بالكعكة؟»

قال الطفل: «بينما كنتن تتحدثن مع السيدة في الجحر أقبل كلب كبير وقضم الكعكة. وهنا أكلت منها.»

فأجابته مرددة: «كيف ذلك وهل أكلتها كلها؟»

ـ «إنه الكلب وقد انتهرته، فما أصغى إليّ. ولذلك أكلت أنا أيضاً.»

قالت الأم، مبتسمة مؤنبة في الوقت نفسه:

«إن هذا طفل عجيب. هل رأيت يا اودارد! إنه يأكل وحده كل شجرة الكرز الموجودة في حديقتنا في شارل رانج ويقول أبوه أيضاً إنه سيكون قائداً في الجيش. ـ لئن عدت إليها لأفعلن ما تعرف يا سيد أوستاش. ـ أغرب عني، أيها الأسد الضخم!»

الكتاب السادس

1 ـ من خطر ائتمان عنزة على أسرارنا

ومضت عدة أسابيع.

وكان الناس في بداية شهر آذار. في يوم من تلك الأيام التي يشيع فيها جمال الربيع ودفؤه. فيحتفل الناس به احتفالهم بأيام الآحاد. وفي ساعة من ساعات هذا النهار يحلو التأمل طويلاً في باب نوتردام الكبير. إنها الساعة التي تنظر فيها الشمس إلى الكاتدرائية وهي منصرفة إلى المغيب. إن شعاعاتها التي تنطلق في اتجاه أفقي شيئاً فشيئاً ترتفع عن بلاط الأرض لتصعد على امتداد الشرفة والتي تبرز بها من خلال ظلالها مئات من الحدبات المستديرة، بينما تلتهب الوردة المركزية كما تلتهب عين العملاق المفردة بأشعة لهب الفرن المنعكس.

كان الناس يومئذ في مثل هذه الساعة.

وكانت تجاه هذه الكاتدرائية التي منحها الغروب لونها الأحمر، فتيات جميلات يضحكن ويتحدثن فوق شرفة حجرية لبيت غوطي غني يشكّل الزاوية التي تلتقي فيها ساحة الكاتدرائية مع شارع بارفيس.

وكانت أولئك الفتيات كلهن من بيوت رفيعة العماد تشهد على ذلك الثياب والزينة التي كن يضعنها. وقد اجتمعن كلهن في هذا المنزل الكبير الذي تشغله فلوز ـ دو ـ لي. دو ـ جوندولوريا وأمها. بينما جاءت الأخريات: ديان ـ دو ـ كريسوي، أمالوت ـ دو ـ مونميشال، كولومب ـ

دو جايفونتان والصغيرة دو ـ شان شافريا بدعوة من غبطة السيد بوجو والسيدة زوجته اللذين كان ينتظر وصولهما إلى باريس خلال شهر نيسان ليختارا مرافقات الشرف للسيدة ولية العهد مارغريت. وكان إلى جانب السيدة الأم، ألُوويز ـ دو ـ جوندولوريه، التي فقدت زوجها منذ عهد بعيد، شاب ذو فتوة بهية فخورة، إنه من أولئك الفتيان الذين تتفق النساء كلهن على عظيم إغرائهم وفائق تأثيرهم.

الفتيات جالسات، قسم منهن في الغرفة، وقسم آخر فوق الشرفة، بعضهن يجلسن فوق مقاعد من خشب البلوط ذات رسوم منحوتة وبعضهن يجلسن فوق مربعات من المخمل ذات زوايا مذهبة. إنهن يتحدثن فيما بينهن هامسات مختلطة همساتهن بأنصاف ضحكات مختنقة، على عادة الفتيات حين يكون في وسطهن شاب جميل. أما الشاب الذي أشرنا إليه آنفاً، والذي تدل ثيابه وأسلحته على أنه قائد من قادة رماة حرس الملك، فلم يُلقِ باله إليهن بل شغل نفسه عنهن بأشياء أخرى.

وأما السيدة العجوز ألُوويز التي تبدو في الخامسة والخمسين من عمرها فإنها توجه إليه القول خفيضاً بين فترة وأخرى، فيجيبها الشاب مصطنعاً خير ما يتقنه من أساليب اللياقة والمجاملة ولكنه يبدو محرجاً شديد التعثر. ومن السهل جداً أن ندرك من خلال ابتسامة السيدة ألوويز وإشاراتها الصغيرة ذات المعنى، وعينيها اللتين تطرفان مشيرتين إلى ابنتها فلور ـ دو ـ لي، خلال حديثها مع القائد أن الأمر يدور حول خطبة معقودة وزوج مرتقب بين الشاب وفلور ـ دو ـ لي كما أن من السهل أن ندرك من خلال برود الضابط، أن ليس في هذه العلاقة حب، من جانبه على الأقل. ففي كل وجهه تعبير عن شعوره بالحرج والضجر.

ولكن السيدة الطيبة، التي استغرقها حبها لابنتها، قد عميت عن اكتشاف برود الضابط، فهي تجهد في لفت نظره إلى ما تتحلى به فتاتها من فتنة وفنون وهي تشك إبرتها أو تكر كبتها.

ـ «انظر يا ابن العمّ الصغير! انظر إليها إذن! ها هي تنحني قليلاً.»

وقالت له هذه وهي تشد كمه لتهمس له في أذنيه.

ويجيب الشاب: «صحيح» ثم يرجع إلى صمته البارد.

وبعد قليل تنحني السيدة ألُوويز كرة أخرى لتقول له:

ـ «هل رأيت وجهاً مضيئاً رائعاً كوجه خطيبتك؟ هل هناك من هي أشد بياضاً وشقرة منها؟ أليست هاتان اليدان كاملتين، وهذا الجيد، ألا يأخذ شكل بجعة ساحرة؟ أوليست ابنتي رائعة حلوة وأنت بها مأخوذ؟»

فيجيبها: «لا شك في ذلك» وهو يفكّر في شيء آخر.

وتقول السيدة فجأة: «كلمها إذن!» ثم تدفعه رفيقة به من منكبيه وتوجهه نحوها: «قل لها شيئاً. لقد أصبحت ذا خجل شديد.»

ويحاول الضابط أن يقترب من فتاته ثم يقول لها:

ـ «يا ابنة العم الجميلة، ما هي الفكرة التي تعبّرين عنها في هذه الطنفسة التي تخيطين؟»

وتجيبه فلور ـ دو ـ لي في لهجة حاقدة: «يا ابن العمّ الجميل، لقد سبق أن أخبرتك ثلاث مرات عما أفعل، إنها مغارة نبتون.»

ومن البديهي أن تكتشف الفتاة ما لا تكتشفه الأم في ما يبدو من حرج الضابط وبروده.

ويشعر الضابط أن عليه أن يقول شيئاً آخر فيسألها:

ـ «ولمن كل هذه الأعمال النبتونية؟»

فتجيب فلور ـ دو ـ لي دون أن ترفع رأسها: «إنها لأجل دير (سانت انطوان داشان).»

ويمسك الضابط بزاوية من الطنفسة ليقول: «ومن هو، يا ابنة عمي الجميلة، هذا الجندي الضخم الذي ينفخ في البوق بوجنتين ممتلئتين؟»

فتقول: «إنه تريتو.»

فيدرك الشاب أن عليه أن يقول شيئاً أكثر صميمية لهذه الفتاة الساحرة المغيظة التي ترسل جملتها قصيرة حادة. يدرك أن عليه أن يقول شيئاً

يبعث السرور في نفس محدثته، فيهمس في أذنها بكلمات رقيقة، وهنا ينحني فوقها، ولكنه يعجز عن أن يقول لها شيئاً رقيقاً صميمياً مما يأتي:

ـ «لِمَ ترتدي أمك ثياباً ذات طراز عتيق؟ قولي لها: إن هذه الثياب لم تعد تصلح لأيامنا هذه، وإنها تبدو وكأنها تلبس معطف مدخنة تسير. الحقيقة أن المرأة اليوم لم تعد تجلس مثل هذه الجلسة، أقسم على ذلك.»

وترفع الفتاة رأسها وفي عينيها الجميلتين عتاب شديد: «أهذا هو كل ما تقسم لي عليه؟»

وفي هذه الأثناء تبدو السيدة ألوويز سعيدة بالوشوشات والهمسات المتبادلة بينهما وتقول: «إنها لوحة حب رائعة.»

وهنا صرخت الصغيرة شان شافريا وقد كانت تنظر إلى الساحة من على الشرفة: «انظري يا عزيزتي فلور ـ دو ـ لي هذه الراقصة الجميلة التي ترقص على بلاط الشارع وتضرب بدفها أمام الفلاحين!»

والواقع أنه قد سُمعت أصداء دف من الخارج.

قالت فلور ـ دو ـ لي وهي تتجه نحو الساحة في غير قصد: «إنها مصرية من الغجر.»

أما الشاب فإنه يجد في اتجاهها نحو الشرفة ما ينقذه من حرجه. إنه في الحقيقة لا يشعر نحو الفتاة بالعاطفة التي تربط بين عروسين أو بين شاب وشابة في زهرة العمر، فهو ذو طبيعة متقلبة يفضل ضجيج الحانات والاستماع إلى الكلمات الضخمة رغم منبته الكريم وعائلته العريقة.

ويجمد صامتاً متكئاً على حافة المدخنة المنحوتة فترة من الزمن، حين التفتت فلور ـ دو ـ لي نحوه لتقول له: «يا ابن عمي الجميل، ألم تحدثني منذ شهرين تقريباً أنك أنقذت فتاة غجرية من عصابة لصوص أثناء الليل.»

ـ «نعم، أذكر ذلك.»

ـ «وإذن تعال فانظر إليها لعلها تكون تلك التي أنقذتها يا ابن عمي فوبوس الجميل.»

ويقترب الشاب ليقول لابنة عمه: «نعم، إنها هي، لقد عرفتها بعنزتها الصغيرة.»

وتصرخ الصغيرة ثانية لتقول وقد نظرت إلى قمة بروج نوتردام: «من هو هذا الرجل الأسود الذي يقف هناك في الأعالي؟»

قالت فلور ـ دو ـ لي: «إنه كاهن جوزا». وتردف الآنسة جايفونتان: «إن لك عينين ثاقبتين.»

وتتابع ديان: «كم هي غريبة نظرته إلى هذه الراقصة الصغيرة!»

فتقول فلور ـ دو ـ لي: «لتحذره هذه الغجرية، فهو لا يحب الغجر أبداً!»

وتردد مونميشال: «من المؤسف أن ينظر هذا الرجل إليها مثل هذه النظرة، إنها ترقص فتسحر برقصها القلوب.»

ثم تطلب فلو ـ دو ـ لي من فوبوس أن يشير إلى الفتاة لتصعد إليهن ويستمتعن برقصها وفنونها.

وتصفق الفتيات مؤيدات رفيقتهن. فينحني الضابط فوق حاجز الشرفة وينادي قائلاً: «أيتها الصغيرة.»

فتكف الصغيرة عن الرقص وضرب الدف وتنظر إليه ويصطبغ وجهها بحمرة قانية وتتأبط دفها، ثم تتجه عبر المشاهدين نحو باب المنزل الذي ناداها فوبوس من أعلى شرفته، بخطوات بطيئة، وتتأرجح وفي عينيها نظرة عصفور مضطرب ينهار أمام سحر الأفعى.

وتبلغ الفتاة باب الغرفة وتصفق الصغيرة شان شافريا. وتترك في مجموعة الفتيات أثراً غريباً فريداً. لقد كن قبل أن تطأ الراقصة عتبة غرفتهن في صراع خفي حول الشاب الجميل الذي كان بينهن. ولكنهنّ لا يكدن يرين الراقصة داخل الغرفة حتى يشعرن أنها منافسة جديدة. يدركن

هذه الحقيقة بالغريزة النسوية الفائقة. ويدركن أيضاً أن عليهن أن يتكاتفن ويكففن عن صراعهن إلى أن يتخلصن من هذه المنافسة الجديدة. والحق أن للراقصة فتنة خاصة بها، فكأنها حين ولجت باب الغرفة بدت مصباحاً قوياً مضيئاً انتقل من ضياء النهار حيث يضيع شعاعه في روعة بهاء الشمس إلى غرفة مظلمة فتحولت الغرفة بفضله إلى مكان وضيء دافئ ذي شخصية أخاذة ساحرة. وتحولت الفتيات الجميلات الشقراوات فبدون ضئيلات أمام روعة الراقصة الإلـٰهية.

ويقطع الضابط الصمت قائلاً: «أقسم إن هذه مخلوقة ظريفة! ماذا تقولين يا ابنة عمي الجميلة؟» ويعجز الضابط مع ما قاله أن يمحو غيرة الفتيات وحسدهن وقد بقين يتأملن الغجرية الواقفة أمامهن.

ثم تقول السيد ألويز، وليست بالبداهة أقلهن حسداً، وهي تقف إلى جانب ابنتها: «اقتربي أيتها الصغيرة.»

فتقترب الفتاة من السيدة النبيلة.

قال فوبوس وهو يتقدم خطوات نحوها: «لست أدري أيتها الطفلة الجميلة ما إذا كنت قد تعرفت إليّ...»

وتقاطعه الفتاة، وقد رفعت نحوه ابتسامة ونظرة مفعمتين برقة لامتناهية: «أوه! نعم.»

فتقول فلور ـ دو ـ لي: «إن لها ذاكرة جيدة.»

ويردف فوبوس: «لقد هربت ليلتئذ بسرعة بالغة فهل أخيفك؟»

فتجيبه الغجرية: «أوه! كلا! أبداً!»

وتحس فلور ـ دو ـ لي بحرج في نفسها حين تسمع هذه الأوه منطلقة من فم الغجرية.

ثم يتابع الضابط قائلاً: «لقد حاول كوازيمودو أن يخطفك. فما الذي يبغيه هذا الشيطان منك؟»

قالت الغجرية: «لست أدري.»

ثم يتابع الضابط: «إنها لقحة حقاً أن يقدم قارع أجراس على اختطاف فتاة كأنها فيكونت. ولكنه قد نال عقوبة رادعة.»

قالت الغجرية: «يا للرجل المسكين!»

فينفجر الضابط ضاحكاً ليقول: «هاك شفقة توضع في موضعها كما توضع ريشة...»

ويمتنع فجأة عن متابعة هذا الحديث «عفواً، سيداتي، أظن أنني كدت أرتكب حماقة من الحماقات.»

قالت فلور ـ دو ـ لي بصوت منخفض، وقد أكلها الحقد شيئاً فشيئاً: «إنه يتحدث بلغة هذه المخلوقة.» ولم يقلّ هذا الحقد أبداً حين رأت الضابط، مسحوراً بالغجرية ولا سيما بنفسه، يدور حول كعب حذائه مردداً برشاقة غليظة ساذجة عسكرية: «أقسم بروحي إنها فتاة جميلة.»

قالت ديان ـ دو ـ كريستوي مع ضحكتها ذات الأسنان الجميلة: «إنها تلبس بطريقة وحشية.»

وقد كشفت هذه الخاطرة للأخريات عن نقطة الضعف في الفتاة الغجرية فانقضضن على ثوبها حين عجزن عن النيل من جمالها.

قالت جايفونتان: «هاك تنورة قصيرة تبعث على الرجفة.»

وتابعت كريستوي مبتسمة: «أيتها الصغيرة، لو أنك وضعت كُماً فوق ذراعك بطريقة لائقة، لكان أقل احتراقاً بالشمس.»

والواقع أنه مشهد جدير برجل أذكى من فوبوس، يرى كيف تتلوى هؤلاء الفتيات الجميلات بألسنتهن المسمومة والمغيظة، ويزحفن، وينزلقن حول راقصة الشوارع. إنهن قاسيات رائعات. إنهن يضحكن ويسخرن ويذللن الفتاة الراقصة، يمطرنها بعطفهن المتكبر ونظراتهن الخبيثة، فكدن يفترسنها لولا السيد الذي يقف إلى جانبها.

من عساها تكون هذه الراقصة البائسة أمام أولئك الفتيات اللاتي ينتمين إلى البيوت الكبيرة؟ ومع ذلك فهن لا يبدين تحرجاً أمامها، بل

يتحدثن عنها، إليها، أمامها، بصوت مرتفع، كما يتحدثن عن شيء بادي الوساخة، بادي النتن، ولكنه بادي الجمال.

والغجرية ليست مع ذلك في غفلة عن هذه اللسعات. فاصطبغ وجهها بحمرة الخجل والتهبت عيناها غضباً أمامهن. وبدت كأنها تهم بإرسال كلمة ازدراء واحتقار ولكنها لا تلبث حتى تمتنع عن القول، مكتفية بتكشيرتها الحلوة التي نعرفها لها من قبل فتسكت، وتثبت نظراتها في فوبوس حزينة حلوة.

فيكاد المراقب يقول: «إنها تمسك نفسها أن تنفجر خوفاً من أن تُطرد من هذا المكان.»

أما فوبوس فيضحك ويقف إلى جانب الغجرية الصغيرة في مزيج من الوقاحة والشفقة.

وأردف يقول: «دعن الصغيرة تقول شيئاً، إن زينتك يا صغيرتي على شيء من القسوة، ولكن، وأنت الفتاة الجميلة، ماذا عسى يهمك من هذا كله؟» وتبتسم جايفونتان الشقراء لتقول: «يا إلهي! أرى أن السادة رماة حرس الملك يتأثرون سريعاً بالعيون الغجرية الجميلة.»

فيقول فوبوس: «ولِمَ لا؟!»

وهنا سالت من عيني فلور ـ دو ـ لي دمعة حرّى ورفعت الغجرية عينيها فرحة فخورة وأثبتت في فوبوس نظرها من جديد.

أما السيدة العجوز فقد شعرت بالإهانة دون أن تفهم شيئاً:

ـ «أيتها القديسة العذراء! ما الذي يتحرك بين ساقي؟ آي! إنه الحيوان الكريه!»

إنها العنزة التي أتت تبحث عن سيدتها وقد علق قرناها بالهضبة من الثياب المتجمعة أمام قدمي السيدة العجوز.

وصرخت شان شافريا قائلة: «إنها العنزة الصغيرة ذات القوائم الذهبية!»

وانحنت الفتاة فوق ركبتها وأسندت رأس العنزة إلى وجهها وكأنها تعتذر إليها عن تركها لها في الخارج.

قالت كولومب: «إن على العنزة أن تسلينا، وتصنع عجيبة من عجائبها.»

فأجابت الغجرية: «أنا لا أفهم ما تريدين قوله!»

ـ «معجزة، سحر، عجيبة من العجائب!»

ـ «لا أعرف شيئاً من ذلك» ومررت يدها فوق رأس عنزتها وهي تكرر: «دجالي، دجالي.»

وهنا لحظت فلور ـ دو ـ لي حجاباً معلقاً في رقبة العنزة فسألت الغجرية قائلة: «ما هذا؟»

فأجابتها الغجرية: «إنه سري.»

ـ «أريد أن أعرف سرك هذا.»

ولم تلبث السيدة العجوز حتى طردت الغجرية وعنزتها. واتجهت الغجرية.. بطيئة نحو الباب. يزيد بطؤها كلما اقتربت منه. وفجأة التفتت إلى الوراء وبدت عيناها مغرورقتين بالدموع.

فصرخ الضابط فوبوس: «إنك لن تخرجي هكذا. فارقصي لنا قليلاً. وبهذه المناسبة، ما هو اسمك يا جميلتي؟»

قالت الراقصة: «الاسميرالدا.»

وانفجرت الفتيات ضاحكات حين سمعن هذا الاسم الغريب.

وفي هذه الأثناء كانت شان شافريا الصغيرة قد عقدت صداقة حميمة مع العنزة، وانتزعت الحجاب من رقبتها. ولم تلبث حتى فكت رباطه فإذا فيه أحرف مكتوب كل منها في مربع خشبي على حدة. ولم تكد تفعل ذلك حتى رأت العنزة تقبل على هذه الأحرف فترصفها الواحد وراء الآخر في نظام دقيق عجيب وتكوّنت من مجموع الأحرف كلمة من الكلمات.

فصرخت شان شافريا وقد ضمت يديها معجبة بما رأت «انظري فلور ـ دو ـ لي، ما فعلته العنزة!»

ونظرت فلور ـ دو ـ لي وسرت القشعريرة في جسدها لقد قرأت الأحرف المرصوفة فوق أرض الغرفة فإذا هي مجتمعة كلمة.

2 ـ فوبوس

ثم سألت بصوت مهيض: «أهي العنزة التي كتبت هذه الكلمة؟»

أجابت الصغيرة: «نعم.»

ليس من سبيل إلى الشك في قول الصغيرة فهي لا تعرف القراءة والكتابة.

وفكرت فلور ـ دو ـ لي قائلة: «هذا هو السر.»

وفي هذه الأثناء أقبلن جميعهن على صراخ الطفلة حتى الراقصة والضابط.

وأدركت الراقصة حماقة عنزتها. فاحمر وجهها ثم اصطبغ بصفرة شديدة وراحت ترتجف كالمجرمة أمام الضابط الذي نظر إليها بابتسامة رضى ودهشة.

وتهامست الفتيات: «فوبوس، إنه اسم الضابط!»

قالت فلور ـ دو ـ لي للغجرية: «إن لك ذاكرة رائعة!»

ثم انفجرت باكية وتمتمت بألم شديد وهي تغطي وجهها بكفيها: «إنها ساحرة.» وسمعت صوتاً داخلياً أشد مرارة يقول لها «إنها منافسة!»

ثم سقطت مغشياً عليها.

وصرخت الأم المذعورة: «ابنتي! ابنتي! اذهبي أيتها الغجرية إلى جهنم!»

ولملمت الغجرية أحرفها في طرفة عين، ثم أشارت إلى عنزتها، وخرجت من الباب، بينما حُملت فلور ـ دو ـ لي من الباب الآخر.

أما الضابط فوبوس، الذي بقي وحيداً، فقد تردد برهة بين البابين، ثم لحق بالغجرية.

3 ـ الكاهن هو غير الفيلسوف

الواقع أن الكاهن الذي رأته الفتيات مطلاً على الساحة من على البرج الشمالي، مثبتاً نظره في الغجرية الراقصة هو كلود فروللو نفسه.

كما أن قراءنا لم ينسوا الحجرة الخفية التي كان يحتفظ بها الكاهن لنفسه في هذا البرج. والتي يطل منها المرء على الجهة الشرقية من خلال كوة فيها. وهي فيما أعتقد، تلك القائمة فوق السقيفة والتي تنطلق منها أبراج الكنيسة. إنها اليوم خالية خاوية على عروشها يتنافس على سكناها الخفافيش والعناكب.

كان الكاهن قبل ساعة من كل غروب شمس يصعد سلم البرج ويحبس نفسه في هذه الحجرة الصغيرة، حيث يقضي فيها أحياناً ليالي كاملة طويلة. وفي هذا اليوم وبينما كان يضع المفتاح، الذي يحمله دائماً مربوطاً إلى جانبه، في قفل بابها بلغته أصداء دف الراقصة التي كانت آتية من ساحة بارفيس، واسترجع الكاهن مفتاحه ثم انطلق سريعاً نحو قمة البرج، ووقف وقفته القائمة، المستغرقة التي شاهدته فيها الفتيات الجميلات.

كان هناك، وقوراً، جامداً تستغرقه نظرة وفكرة. وباريس كلها تحت قدميه، مع آلاف السهام فوق أبنيتها المرتفعة وأفقها الدائري ذي الهضبات المسترخية، ونهرها الذي يزحف ملتوياً تحت جسورها، وشعبها الذي يتموج في شوارعها، مع سحب دخانها وسلسلة سطوحها المقببة، التي تضغط كنيسة نوتردام بزردها المضاعف. ولكن الكاهن لم يكن ينظر من هذه المدينة كلها إلا إلى ساحة بارفيس، ومن هذا الجمهور كله إلا إلى وجه واحد: هو وجه الغجرية.

ومن الصعوبة بمكان أن نكتشف طبيعة هذه النظرة ونتعرف إلى مصدر اللهب الذي كان ينبثق منها. كانت نظرة ثابتة، ومع ذلك فقد كانت مفعمة بالصخب والحركة. أما المراقب فيعتقد حين يرى جمود جسده العميق، الذي لا يكاد يتحرك إلا في فترات متباعدة كما تكون القشعريرة الآلية لشجرة في الهواء الطلق، وحين يرى مرفقيه الثابتين ثبات الحاجز الرخامي الذي كان يتكئ عليه، وحين يرى الابتسامة المتجمدة التي كانت تقلص وجهه، يعتقد أنه لم يعد شيء من الحياة في جسده اللهم إلا في عينيه.

أما الغجرية فقد كانت ترقص. وكانت تدير دفّها فوق رأس أنملتها ثم تقذفه في الهواء، خفيفة، نشيطة، مرحة، سعيدة، غير شاعرة بوطأة تلك النظرة المخيفة التي كانت مسلطة عليها.

الناس من حولها متحلّقون، بينما ينهض رجل برداء ذي كمين واسعين ولونين، أصفر وأحمر، بين فترة وأخرى، ليضبط الدائرة المنعقدة حول الراقصة ثم يرجع فيجلس فوق كرسي على بُعد خطوات قليلة من الراقصة واضعاً رأس العنزة فوق ركبتيه. لقد كان يبدو هذا الرجل رفيقاً لها. وكلود فروللو من أعلى برجه عاجز عن تبين قسمات وجهه.

ولم يكد الكاهن يرى هذا الرجل المجهول حتى بدت نظرته موزعة بين الراقصة وبينه، ثم أربد وجهه. وفجأة انتصب قائماً مرة أخرى، وقد سرت رعشة في جسده كله وهو يقول بين أسنانه: «من هو هذا الرجل؟ لقد كنت أراها دائماً وحيدة!»

وغاص تحت القبة المتعرجة للسلم الحلزونية، وهبط إلى أرض الكنيسة. وبينما كان يجتاز باب الجرس، وهو، أي الباب، مغلق نصف إغلاقة، رأى شيئاً عجيباً.

لقد وجد كوازيمودو مطلاً على الساحة هو أيضاً، غارقاً في تأمله العميق بحيث إنه لم يلحظ مرور أبيه بالتبني. كما كان في عينه الوحشية معنى فريد. لقد كانت نظرة رقيقة مسحورة. وتمتم كلود: «إن هذا شيء

عجيب حقاً! فهل هي الغجرية التي ينظر إليها مثل هذه النظرة؟» وتابع هبوطه. ومرت دقائق قليلة فإذا بالكاهن القلق يخرج إلى الساحة من الباب القائم في قاعدة البرج.

قال وهو يختلط بجماعة المشاهدين الذين جمعهم صوت الدف: «ما الذي أصاب البوهيمية؟ وأين هي؟»

فأجابه أحد جيرانه: «لست أدري، لقد اختفت منذ قليل. أعتقد أنها دخلت إلى هذا البيت المقابل لتؤدي بعض رقصاتها بعد أن نودي عليها من على شرفته.»

ولم يجد الكاهن مكان الغجرية فوق البساط نفسه الذي كانت تغطي زركشاته بخطوات من رقصاتها الرائعة، غير الرجل ذي الأحمر والأصفر، وهو يدور داخل الحلقة واضعاً كفيه فوق خاصرتيه، ملقياً رأسه إلى الوراء، وقد احمر وجهه وبدت أوتار عنقه، وبين أسنانه كرسي، ربط إليها قطة أعارته إياها جارة له، والقطة تموء صارخة مذعورة.

وندت صرخة من فم الكاهن حين وقع نظره على البهلواني الذي يتفصد عرقاً ويمر أمامه بهرمه من الكرسي والقطة، «نوتردام! ماذا يصنع المعلم بطرس جرنجوار هنا؟»

ونزلت صرخة الكاهن فوق رأس الرجل البائس، فبعثت الرعب والقلق في نفسه حتى أضاع توازنه فسقطت الكرسي والقطة في غير نظام فوق رؤوس المشاهدين. ولولا أنه استغل الفوضى التي عقبت وقوع الكرسي والقطة ولحق الكاهن الذي أشار إليه أن يتبعه ثم اختبأ في الكنيسة، لوجد حساباً عسيراً قد يعجز عن تصفيته مع جارته صاحبة القطة وتلك الوجوه ذات الخدوش والرضوض.

كانت الكاتدرائية مظلمة خالية. وقد أسند الكاهن ظهره إلى إحدى ركائزه بعد أن خطا خطوات قليلة في داخلها ونظر إلى جرنجوار نظرة ثابتة. ولم تكن هذه النظرة من تلك التي كان جرنجوار يخشاها، وهو

الخجِل بنفسه بعد أن ضبط بالجرم المشهود في ثوبه البهلواني المضحك من قبل رجل رصين وقور عالم.

لقد كانت نظرة الكاهن نظرة رصينة، هادئة ثاقبة، لا سخرية فيها ولا هزء. وبادر الكاهن بقطع الصمت قائلاً:

ـ «إنك يا جرنجوار تمارس مهنة جميلة!»

ـ «إنني أوافق أيها المحترم على أن التفلسف ونظم الشعر، وبعث اللهب في القلوب أو استقباله من السماء خير من حمل قطة فوق أرض الشارع. ولكن ماذا تريدني أن أصنع؟ يجب عليَّ أن أعيش في كل يوم، وأجمل أبيات الشعر عاجزة عن أن تضع في فمي قطعة من جبن «البري». لقد نظمت قصيدة تهنئة للسيدة مارغريت دو فلاندر بمناسبة زفافها كما تعلم، ورفضت المدينة أن تدفع لي شيئاً مقابل هذا الجهد، بحجة أنه جهد فاشل، كما لو أن هناك من يعطي مأساة مسرحية كمأساة سوفوكليس مقابل أربع قطع ذهبية. لقد كنت على شفا هوة من الموت جوعاً. ولكن حسن طالعي كشف لي عن قوة فكِّي، فقلت لهما: «العبا ما تشاءان من ألعاب القوى، شرط أن تطعما نفسيكما.» لقد علمني عدد من الصعاليك، هم اليوم من أصدقائي، عشرين نوعاً من أنواع الألعاب الهرقلية، وها أنا في كل مساء أمنح أسناني ما تحتاج إليه من الطعام الذي كسبته أثناء النهار بعرق جبيني. ومع ذلك كله، فأنا أشهد أن عملي هذا عمل محزن لملكاتي الفكرية، وأن الرجل لم يخلق ليقضي حياته يضرب على دفه ويعض الكرسي. ولكن الواجب أيها المعلم المحترم أن نكسب عيشنا لا أن نقضي حياتنا فقط.»

وكان دوم كلود يستمع صامتاً لا يتكلم. وفجأة لمع في عينه الغائرة برق ثاقب ألمعي حتى أن جرنجوار شعر بأن هذه العين قد سرت في جسده كله وبلغت روحه في أعمق أعماقها.

قال كلود: «حسن جداً، ولكن كيف وجدت نفسك رفيقاً لهذه الراقصة الغجرية؟»

فأردف جرنجوار: «ذلك أنها زوجتي وأنني زوجها.»

واشتعلت عين الكاهن المظلمة، وصرخ وهو يمسك غاضباً بذراع جرنجوار: «وهل فعلت هذا أيها البائس؟ وهل أصبحت من اللّٰه بعيداً بحيث تضع يدك على هذه الفتاة؟»

ـ «أقسم بنصيبي من الجنة، إنني لم ألمسها أبداً.»

ـ «إذن كيف تتحدث عن زوج وزوجة؟»

وانطلق جرنجوار يقص على الكاهن المحترم، بأوضح أسلوب ممكن، كل ما مرّ به القارئ، وأطلعه على مغامرته في بلاط العجائب وزواجه ذي الجرة المكسورة.

كانت الاسميرالدا في رأي جرنجوار، مخلوقاً ظريفاً جميلاً، فتاة ساذجة متهوسة، جاهلة لكل شيء، متحمسة لكل شيء، مغرمة بالرقص والصخب والهواء الطلق، إنها في رأيه نوع من المرأة النحلة، لها جناحان خفيان في قدميها وتعيش في جو عاصف وقد كسبت هذه الخصائص من طبيعة حياتها التائهة المتنقلة. لقد عرف جرنجوار أنها تنقلت وهي طفلة صغيرة عبر سهول أسبانيا وكاتالونيا وما امتد بعدهما وخلالهما من جبال ووديان حتى صقلية، كما كان جرنجوار يعتقد أن الغجر من أعوان ملك الجزائر بصفته زعيماً لشعوب الشمال الأفريقي البيضاء. والثابت في نظره أن الاسميرالدا قد بلغت فرنسا وهي بعد صبية صغيرة السن آتية من هنغاريا. وقد حملت الفتاة من هذه البلدان كلها جذاذات من اللهجات والعادات والأغنيات والأفكار الغريبة، ما منح لغتها شيئاً غريباً مختلطاً حقاً كما يختلط في ثوبها طراز من باريس وأفريقيا. يضاف إلى هذا كله، أن جمهور الأحياء التي تنفذ إليها وتتنقل عبر شوارعها، كان يحبها من أجل رقصاتها، ومرحها، ورشاقة خطواتها، ورقتها البالغة، ومن أجل أغنياتها أيضاً. ففي باريس كلها لا يكرهها غير اثنين: الحبيسة في برج السيدة رولاند التي تنطوي على ما لا نعرف من الحقد الدفين ضد الغجريات والتي تلعن الراقصة كلما مرت

بالقرب من كوتها، وكاهن لا يلتقيها حتى يوجه نحوها نظرات وأقوالاً تشيع الرعب في كيانها كله. وقد بعثت هذه الجملة الأخيرة في الكاهن قلقاً بالغاً ولكن جرنجوار لم ينتبه للأمر. والفتاة الراقصة بعد هذا كله لم تكن تخاف شيئاً، فهي لا تقرأ الغيب للناس، مما يجعلها بعيدة عن تهمة السحر التي كانت توجه يومئذ ضد الغجريين. وجرنجوار منها كما يكون الأخ من أخته، وهو يحتمل بصبر فائق هذا النوع من الزواج الأفلاطوني. لقد كان زواجه دائماً سكناً يبيت فيه وخبزاً يأكله. فهو يخرج غالباً في كل صباح مع الغجرية، ويساعدها في جمع الدوانيق والدراهم التي يتصدق بها عليها الناس في مفترق الطرق، وفي المساء يرجع معها إلى المنزل فيقضيان الليل تحت سقف واحد، وقد أغلقت حجيرتها الصغيرة على نفسها. كان يقول للكاهن: إنها حياة حلوة صالحة لأحلام اليقظة. يضاف إلى هذا كله أن الشاعر لم يكن واثقاً في أعماق نفسه من غرامه الشديد بالغجرية. فهو يحب العنزة تقريباً في حدود حبه لها. فالعنزة، حيوان لطيف رقيق وذكي، إنها عنزة عالمة. لم يكن في القرون الوسطى ما هو أكثر انتشاراً من هذه الحيونات العالمة التي كانت تقود مدربيها إلى المحرقة. مع العلم أن الألعاب السحرية للعنزة ذات القوائم الذهبية ألعاب ذات خبث بريء حقاً. وقد شرحها جرنجوار كلها أمام الكاهن الذي بدا شديد الاهتمام بها. كان يكفي وضع الدف في وضع خاص حتى يحصل مدربها منها على لعبة من ألعابها الخاصة. وقد دربت على هذا كله من قبل الغجرية، التي تملك في هذه الدقائق الصغيرة، من المهارة الفائقة، ما جعلها تدربها على رصف حروف كلمة فوبوس خلال شهرين فقط.

قال الكاهن: «فوبوس؟ ولِم فوبوس هذه؟»

أجاب جرنجوار: «لست أدري. فقد تكون فيما تظن الفتاة كلمة ذات سحر خاص خفي. وهي تردد هذه الكلمة في صوت خفيض كلما ظنت أنها في نجوة من الرقباء.»

وردد كلود: «هل أنت واثق من أنها كلمة فقط، وليست اسماً من الأسماء؟»

قال الشاعر: «اسم من؟»

أجاب الكاهن: «وما يدريني؟»

ـ «هاك ما أتصوره يا سيدي، إن هؤلاء الغجر مغرمون بالشمس. وفوبوس شيء من معنى الشمس ومبناها.»

قال الكاهن: «لا يبدو لي هذا واضحاً كما يبدو لك.»

ـ «هذا شيء لا يعنيني. فلتكرر كلمة فوبوس ما شاء لها هواها. والثابت أن دجالي تحبني حبها للفتاة.»

ـ «ومن هي دجالي هذه؟»

ـ «إنها العنزة.»

فأسند الكاهن ذقنه فوق يده، وبدا يحلم فترة من الزمن، وفجأة بادر يقول متجهاً نحو جرنجوار:

ـ «أقسم أنك لم تلمس هذه الفتاة بطرف إصبعك.»

ـ «أقسم على ذلك برأس أبي. ولكن اسمح لي أيها المعلم المحترم أن أوجه إليك سؤالاً بدوري.»

ـ «قل، أيها السيد.»

ـ «ماذا يعنيك من هذا القسَم؟»

واستحال وجه الكاهن فأصبح أحمر اللون بعد صفرة باهتة كأنه وجه فتاة، وبقي برهة لا يجيب. ثم قال في حرج ظاهر:

ـ «أصغِ إليّ، أيها المعلم بطرس جرنجوار. إنك لم تصبك اللعنة بعد. إنني مهتم بك، ولا أريد لك إلا خيراً. وعلى هذا فإن أقل اتصال بغجرية الشيطان هذه يجعل منك عوناً من أعوان إبليس. فإياك أن تلمس هذه المرأة. هذا هو كل شيء.»

وانطلق الكاهن، وهو يدفع جرنجوار من منكبيه، في خطوات واسعة، نحو أشد قناطر الكاتدرائية ظلمة وقتامة.

4 ـ الأجراس

لاحظ جيران كنيسة نوتردام منذ حادث وتد التعذيب أن حماسة قارع الأجراس، كوازيمودو، قد فترت فتوراً بالغاً.

لقد كانت تُقرع قبل هذا الحادث في كل مناسبة، فتنطلق أصواتها متنوعة، نشيطة، متتابعة، حتى لكأنها نمنمات صوتية مطرزة من كل لون ونوع. أما الكنيسة العتيقة فهي، بذبذباتها الكلية، ورنينها الشامل، في فرحة دائمة بأجراسها الكبيرة. يشعر الناس وكأن فيها روحاً من الضجة والبدوات المختلفة تغني في هذه الأفواه النحاسية كلها. أما الآن فقد بدا أن هذا الروح قد اختفى بصورة نهائية، وبرزت الكنيسة محزونة، واحتفظت بالصمت مختارة دون إكراه.

ثم لم تعد لمناسبات الأعياد والموت غير رنات جافة عارية، مما كانت تفرضه الطقوس الدينية فقط. ولم يبق من الضجة المضاعفة التي كانت ترسلها الكنيسة بأجراسها في الخارج وأرغُنها في الداخل غير ضجة الأرغن. حتى تراءى للناس أنه لم يعد في أبراج الأجراس موسيقيون. ومع هذا كله فقد كان فيها كوازيمودو. فما الذي حدث هناك؟ هل هما الخجل واليأس اللذان بقيا في أعماق قلبه، ولسعات سوط الجلاد التي ما تزال آثارها بادية في روحه، وأن الحزن الذي تركته هذه المعاملة الشائنة قد أطفأ كل شيء في نفسه وروحه، حتى أصاب حبه الفائق لأجراسه؟ أو أن منافسة بالغة الروعة والرقة قد بدأت تحتل قلب قارع الأجراس، وتخرج الكنيسة منه، فيهمل جرسه الكبير وإخوته الصغار؟

لقد حدث في هذه السنة اللطيفة 1482 أن عيد البشارة قد وقع في يوم الثلاثاء الموافق 25 آذار. وكان الهواء من الرقة والخفة بحيث إن كوازيمودو قد شعر برجوع جانب من حبه لأجراسه إلى قلبه. فصعد إلى البرج الشمالي بينما كانت أبواب الكنيسة الخارجية تنفتح على مصاريعها.

ولم يكد كوازيمودو يصل إلى البرج حتى راح يتأمل حزيناً هذه

الأقماع النحاسية وكأنه يزمجر متأوهاً من شيء غريب يحجز بينه وبينها، ثم لم يلبث أن استعاد فرحته وحبوره حين بدأت الأجراس تتأرجح رائحة غادية، لقد نسي كل شيء، وبعث قلبه الذي يتمدد، الازدهار في وجهه.

كان يروح ويجيء، ويصفق بيديه، وينتقل من حبل إلى آخر، فيبعث الحياة في الأجراس الستة، وكأنه قائد موجة موسيقية يشرف على توقيع أفذاذ من الموسيقيين.

كان يقول: «هيا يا جبرائيل. اسكب ضجتك كلها فوق الساحة، فاليوم عيد. ـ أما أنت يا تيبو، فإياك والكسل. إنك تبطئ في حركتك. هيا أسرع! هل أنت صدئ أيها الكسول؟ حسن جداً! أسرع! أسرع! لا تدع أحداً يراك. اجعلهم كلهم صماً مثلي. مرحى، يا تيبو، تشجع! وأنت يا غليوم! إنك أكبر الأجراس! وباسكيا أصغرها، وهو خير منك. إنني أراهن أن الذين يسمعون، يسمعونه خيراً مما يسمعونك. ـ حسن جداً يا جبرائيل، رد قوتك! زدها أيضاً! ـ ماذا تصنعان هناك أنتما الاثنين؟ إنني لا أراكما تبعثان أية ضجة مهما ضؤلت. ـ ما هي هذه المناقير النحاسية التي تبدو متثائبة حين يجب أن تغني؟ فلنعمل. إنه عيد البشارة. يجب أن تكون لأجراسنا ضجة جميلة، حين تكون الشمس في السماء بهية! هيا أنت يا غليوم المسكين، لاهث متعب!»

كان منهمكاً بكليته في بعث الحياة في أجراسه، التي تقفز كأحسن ما يمكن أن يتاح لها القفز وتهزّ مؤخرتها اللامعة، كما تهتز أربطة البغال الإسبانية بنكزات صاحبها.

وفجأة وقع نظره خلال فتحة في جدار برج الأجراس، على فتاة تتزيا بزي غريب، وقد وقفت في ساحة الكنيسة تبسط بساطاً لها ثم أتت عنزة صغيرة تجلس فوقه، وقد تحلق حولها عدد من المشاهدين. وغيَّر هذا المشهد فجأة سير أفكاره، وجمَّد حماسته الموسيقية كما تُجَمِّد نفخة من الهواء البارد ضمغاً يذوب. وتوقف عن العمل، فأدار ظهره للأجراس، وتجمع وراء الفجوة، مثبتاً في الراقصة نظرة حالمة، رقيقة حلوة، كتلك

التي بعثت الدهشة يوماً في نفس الكاهن. وفي هذه الأثناء، توقفت الأجراس المنسية وانطفأت كلها مرة واحدة، مثيرة خيبة هواة أصواتها الذين كانوا يستمعون إليها بنية حسنة من فوق جسر الشانج، وراحوا في خيبتهم كالكلب الذي عرضت عليه قطعة من العظم، فإذا جاءها وجدها قطعة من الحجر.

5 ـ غرفة كلود فروللو

في صباح يوم جميل من أيام هذا الشهر نفسه، التاسع والعشرين فيما أظن، لاحظ صديقنا الطالب الفتى جوهان فروللو دي مولان أن محفظته خالية من النقود حتى من الدراهم والدوانيق! فغمغم يقول: «لقد خلوت من كل شيء، وانتزعت أحجار النرد وأكواب البيرة من محفظتي كل محتوياتها، فهي متهدلة خالية.»

لبس الفتى ثيابه محزوناً. وجالت في رأسه خاطرة من الخاطرات بينما كان يعقد شريط حذائه، ولكنه لم يلبث أن دفعه عنه بادئ الأمر، ووضع سترته مقلوبة على ظهره، آية بديهية على معركة داخلية عنيفة في نفسه. ثم رجعت هذه الخاطرة أثبت ما تكون، فألقى بقبعته أرضاً وهو يصرخ: «ليكن ما يكون. سأقصد أخي. وسأفوز منه بعظة، ولكنني سأفوز معها بقطعة ذهبية.»

وانطلق إلى الخارج يائساً بعد أن التقط قبعته. ثم هبط في شارع لاهارب متجهاً نحو المدينة القديمة، ولم يلبث وقد اقترب من شارع لاهوشات، حتى لامست رائحة الشواء أنفه. وبما أنه لم يكن يملك ما يدفع به ثمن فطوره، رغم جوعه، فقد تابع طريقه، وبلغ باب شاتليه الصغير الذي يقوم على حراسة مدخل المدينة القديمة، وهو يرسل تنهيدة عميقة.

وكان من ذهوله عما حوله أنه لم يرمِ تمثال البائس بارينا الذي سلّم

باريس إلى البريطانيين أيام شارل السادس، كما جرت العادة من قبل، وتسليم باريس جريمة قد كفَّر عنها صاحبها في زاوية ملتقى شارعي لاهارب وبوسي خلال ثلاثة قرون، بالحجارة التي سحق بها وجهه، والوحل الذي لطخ به، كما لو أن هذا التمثال وتد خالد للتعذيب.

واجتاز جوهان دي مولاندينو الجسر الصغير، فشارع نوف ـ سانت ـ جنفياف مهرولاً، ثم وجد نفسه أمام كنيسة نوتردام وهنا رجع إليه تردده، فأخذ يروح ويغدو حول تمثال السيد لوكري، وهو يردد في نفسه بالغ القلق: «أما العظة فمضمونة، ولكن القطعة الذهبية شيء مشكوك فيه!»

واستوقف أحد خدام الكنيسة خارجاً من رواق الدير: «أين السيد كاهن جوزا؟»

فقال له الخادم: «أعتقد أنه في مخبئه من البرج، نصيحتي إليك ألا تقدم على إزعاجه اللهم إلا إذا كنت رسولاً من قِبل البابا أو الملك.»

وصفق جوهان بيديه وهو يردد: «إنها مناسبة رائعة أطّلع فيها على مخبئه السحري الشهير!»

وبعد أن حزم أمره، انطلق في تصميم ظاهر يجتاز الباب الأسود الصغير ثم يصعد السلم الحلزوني الذي ينتهي إلى طبقات البرج العليا.

كان يقول في نفسه وهو يجتاز الطريق: «سأرى! يجب أن تكون شيئاً طريفاً حقاً هذه الحجرة التي يخفيها أخي المحترم كما يخفي أعضاءه التناسلية! يُقال إنه يوقد فيها مطابخ جهنم، ويطهو فوق نارها العظيمة حجره الفلسفي، وما يعنيني من حجره الفلسفي؟ إنني أفضّل أن أجد فوق موقده عجة من البيض أو أي طعام آخر على أكبر حجر فلسفي في العالم!»

ولهث فترة من الزمن حين بلغ ردهة الأعمدة الصغيرة وأرسل رتلاً من شتائمه الشيطانية، ثم تابع صعوده عبر باب البرج الشمالي الضيق، الذي يُمنع الجمهور من اجتيازه في مثل هذا اليوم. ويجتاز جوهان قفص

الأجراس، ويمشي قليلاً بعد ذلك فيرى خلال إحدى الفجوات القفل العظيم والدرع الحديدية ظاهرين على باب الحجرة. إن الذين يجدون من الفضول ما يدفعهم في مثل هذا اليوم إلى زيارة هذا الباب لا يلبثون حتى يعرفوه بما نقش من الحروف البيضاء فوق جدار الغرفة الأسود: «إنني أعبد كورالي. 1829. توقيع أوجين.»

قال الطالب: «أوف! لا بدَّ أن تكون الغرفة هنا.»

كان المفتاح في قفله، فدفع الباب قليلاً ثم أطل برأسه عبر فرجة الباب. لا بدَّ وأن يكون قارئنا قد اطلع على رسوم رامبرانت، شكسبير فن الرسم العبقري. إنه يجد خلال هذه الرسوم الكثيرة الرائعة، ألواناً قوية، تمثل فيما يقال، الدكتور فاوست، مما يستحيل تأملها دون إعجاب وانبهار شديدين، هكذا كانت الحجرة القاتمة. ففي وسطها منضدة تعلوها أشياء قبيحة جداً، من جماجم الموتى، وكرات مختلفة، وأواني تقطير، وأوراق مكتوبة بخط هيروغليفي. والدكتور أمام منضدته هذه، وقد غرقت في رأسه قبعة ذات فراء، لا يرى منه غير نصف جسده، على هيئة من هو بين القائم والقاعد، ويداه المتغضنتان مثبتتان فوق المنضدة، ينظر في فضول ورعب إلى دائرة منيرة كبيرة، مؤلفة من حروف سحرية، تلمع فوق الجدار المقابل كما يلمع الطيف الشمسي في الغرفة السوداء. كانت هذه الشمس السحرية تبدو مضطربة في رأي العين، وتملأ الغرفة الباهتة بشعاعها السني. إنه شيء رهيب جميل.

لقد بدا أمام عين جوهان عبر فرجة الباب شيء شبيه بغرفة فاوست. كما أن ما رآه هو غرفة صغيرة قليلة الضياء. تضاف إلى كل ما سبق أشياء أخرى: مقعد كبير، ومنضدة أخرى كبيرة، وهياكل عظمية لحيوانات معلقة في سقف الغرفة، وكرة تتدحرج فوق أرضها، وقوارير تضطرب فيها أوراق من الذهب ومخطوطات كبيرة، مفتوحة كلها دون شفقة، موضوع بعضها فوق بعض دون نظام، ثم نفايات العلم، وأخيراً غبار وأنسجة عنكبوت في كل مكان، والدكتور الكاهن غارق في نشوته وهو

يتأمل الرؤيا الملتهبة كما ينظر النسر إلى قرص الشمس في السماء.

ومع ذلك فالغرفة لم تكن خالية أبداً. هناك رجل يجلس فوق المقعد منحنياً أمام المنضدة. وجوهان الذي كان خلف هذا الرجل لم يكن يرى منه غير كتفيه ومؤخرة جمجمته، إلا أنه لم يجد جهداً في التعرّف إلى صاحب هذا الرأس الأصلح الذي صنعت له الطبيعة إكليلاً كهنوتياً خالداً.

لقد عرف جوهان أخاه. إلا أن الباب قد فتح بهدوء فائق بحيث إن دوم كلود لم ينتبه إلى حضور أخيه الصغير. واشتغل الطالب الفضولي هذه الهنيهات ليتأمل الحجرة دون تحرج، فوقع نظره على موقد لم يكن قد رآه بادئ الأمر، قائم إلى يسار المقعد وتحت كوة الغرفة. أما شعاع الشمس الذي ينفذ عبر هذه الكوة فقد كان يجتاز نسيجاً عنكبوتياً مستديراً، يرسم زهرته اللطيفة عبر الكوة في ذوق عجيب، وفي وسطه الحشرة المهندسة تقف جامدة جمود محور هذه العجلة من الدانتيل. وتراكمت فوق الموقد في فوضى بارزة، أنواع من القوارير والقرون الزجاجية، والأواني المختلفة الأشكال. ولاحظ جوهان خلو الموقد من ناره. ثم قال في نفسه: «إن بطارية الموقد خاوية على عروشها!» ويبدو أن الموقد الخالي من ناره، لم يعرف هذه النار منذ مدة طويلة. ثم رأى قناعاً زجاجياً، يستعمله الكاهن لحماية وجهه فيما يبدو، حين يعد عملاً من الأعمال الكيميائية المخيفة، والقناع جاثم في زاوية من زوايا الغرفة وقد علاه الغبار، وبدا منسياً من صاحبه، واستلقى إلى جانبه منفاخ مغبر أيضاً، كتبت في جزئه العلوي هذه الأسطورة المنقوشة بحروف من نحاس: سبيرا، سبارا.

وهناك أساطير أخرى مكتوبة في أعداد كبيرة فوق الجدران، بعضها مكتوب بالحبر وبعضها الآخر منقوش بطرف قطعة معدنية دقيق. فيها حروف غوطية، وعبرانية، ويونانية، ورومانية، مختلط بعضها ببعض، مركوم بعضها فوق بعض، الحديثة منها تمحو القديمة، وهي متداخلة متعارضة كأنها كتلة من الأغصان المتشابكة. والحق أنها كانت مزيجاً

غامضاً من كل الفلسفات، والأحلام، والحكم البشرية. وقد تبرز هنا وهناك حكمة منها وكأنها الراية خلال مجموعة من الرماح. وهي في أكثر الأوقات مثل لاتيني قصير أو يوناني، من تلك التي كان سكان القرون الوسطى يتداولونها في الغالب الكثير. وقد يستعملون كلمة خالية من معنى مفيد، ولكنها تلمح إلماحاً مراً إلى نظام الدير.

والواقع أن جوهان لم يفهم شيئاً من الحكم العبرانية، مضافاً إلى ذلك ضعفه في اليونانية. وقد نفذت خلال هذه الحكم رسوم نجوم ووجوه رجال وحيوانات، أو رسوم مثلثات، تتداخل حتى لتبدو جدران الغرفة الملطخة بهذه الرسوم والكتابات صفحة من الورق نقل فيها قرد ريشته المحبرة.

والغرفة بمجموعها قد بدت متروكة، رثة، أما حالة الأدوات السيئة فتدل على أن الكاهن قد صُرف عنها منذ وقت طويل بمشاغل أخرى.

وفي هذه الأثناء بدا الكاهن، وهو منحن فوق مخطوطة مملوءة برسوم غريبة، مؤرقاً معذباً بفكرة تأتيه في إلحاح ودوامية فتمتزج بتأملاته. هذا على الأقل ما قدره جوهان وهو يسمعه يقول، في تناوب متأمل مفكر، لحلم فارغ، يحلم به صاحبه في صوت مرتفع:

«نعم، إن ماني يقول به، وكان زرادشت يعلمه لأتباعه، والشمس تلد من النار، والقمر يخرج من الشمس. إن النار هي روح الكل الكبير وجوهره! . .» وانطلق الكاهن يتحدث بما لا قبل لجوهان بفهمه. فقال جوهان في نفسه:

«يا للشيطان، لقد انتظرت طويلاً للحصول على هذه القطعة الذهبية.»

ثم تابع الكاهن الحالم يقول:

«وفكَّر آخرون، أن من الخير العمل على ضوء شعاع من سيريوس. ولكن الحصول على هذا الشعاع النقي شيء مزعج، بسبب امتزاج

الكواكب الأخرى به. ولكن فلاميل يقدر أن العمل بالنار الأرضية أكثر بساطة .ـ فلاميل! أي اسم اصطفاه القدر لصاحبه! نعم، النار، هذا هو كل شيء. ـ الماس في الفحم، والذهب في النار. ـ ولكن كيف نخرجه منها؟ يؤكد ماجيستري أن لأسماء بعض النساء من الظرف والحلاوة والخفاء ما يكفي التلفظ به النجاح خلال إعداد العملية. . . لنقرأ ما يقوله ماني عنها: «تكون الآلهة سعيدة حيث تحترم النساء وتكرم، أما حيث يحتقرن فلا جدوى من عبادة اللّه. ـ إن فم المرأة فم نقي على الدوام، إنه ماء يجري، إنه شعاع من الشمس. ـ على اسم المرأة أن يكون ظريفاً رقيقاً، خالياً، وعليه أن ينتهي بحروف صوتية طويلة، شبيهاً بكلمات التبريك.»

نعم، إن الحكيم على حق فيما يقول: «لا ماريا، لا سوفيا، لا اسميرال. . . عليها اللعنة! إن هذه الفكرة تلازمني أبداً!»

وأغلق الكتاب بعنف.

ومسح جبينه بكفّه كما لو أنه يطرد فكرة تلاحقه. ثم تناول من على المنضدة مسماراً ومطرقة صغيرة رُسمت فوق مقبضها حروف سحرية.

وقال في ابتسامة مُرّة: «إنني أفشل منذ ردح من الزمن في كل تجاربي والفكرة الثابتة تلاحقني، فتحمل الذبول إلى دماغي، كأنها ألسنة من اللهب. لقد عجزت عن أن أجد سر كاسيودور، الذي يحترق مصباحه دون زيت وفتيل ومع ذلك فهو شيء يسير جداً.»

ويدمدم جوهان قائلاً: «يا للطاعون!»

وتابع الكاهن يقول: «إن فكرة بائسة واحدة كافية لكي تجعل الرجل في حالة ضعف وجنون! أوه! لتهزأ بي كلود برنال التي عجزت عن أن تلهي نيقولا فلاميل عن الانصراف عن متابعة عمله الكبير! ماذا! وأنا أحمل بيدي هذه مطرقة زيكيالا السحرية! تلك التي كان صاحبها الرباني المخيف، يغرز بها أحد أعدائه في الأرض شبراً فتفترسه كلما ضرب بها المسمار ضربة واحدة، من أعماق غرفته، حتى ولو كان عدوه على بعد

ألفي فرسخ منه. وملك فرنسا نفسه، قد غاصت قدماه في أرض باريس حتى الركبتين، لأنه صدم باب هذا الساحر على غير قصد منه. ـ لقد حدث هذا كله منذ ثلاثة قرون. وأنا الآن أملك المطرقة والمسمار ولكنهما لا يجديان شيئاً. ومع ذلك فعليّ أن أجد الكلمة السحرية التي كان يلفظها زيكيالا وهو يدق المسمار بمطرقته.»

قال جوهان في نفسه: «عُصَيَّة.»

وأردف ثانية: «لنجرب مرة أخرى. فإذا نجحت رأيت أن الشرارة الزرقاء تنبثق من طرف المسمار. ـ أمان ـ هوتان! أمان ـ هوتان!» إنها ليست الكلمة المطلوبة. ـ سيجاياني! سيجاياني! ـ ليفتح هذا المسمار قبر كل من يحمل اسم فوبوس! . . . يا للعنة! إنها هي الفكرة نفسها أبداً تلاحقني حتى الآن!»

وقذف بالمطرقة غاضباً. ثم انهار فوق المقعد حتى أن جوهان لم يعد يراه وراء الملف الكبير. ثم لم ير خلال برهة من الزمن غير قبضته المتشنجة ممسكة بكتاب. وفجأة نهض دوم كلود، وتناول بركاراً ثم نقش به فوق الجدار كلمة «فاتوم» بحروف يونانية.

فيقول جوهان في نفسه: «إن أخي مجنون! ألم يكن من الأبسط والأسهل أن يكتب هذه الكلمة بحروف فرنسية؟ إن الناس غير مجبرين كلّهم على معرفة اللغة اليونانية.»

ويأتي الكاهن فيجلس فوق مقعده مرّة أخرى وقد وضع رأسه بين كفيه، كما يفعل مريض ذو جبهة ثقيلة ملتهبة.

كان الطالب يراقب أخاه في دهشة بالغة. إنه لم يكن يعرف، وهو الذي كان يضع قلبه في الهواء الطلق، هو الذي لم يكن يعمل إلا بوحي قانون الطبيعة ولا يعترف إلا به، هو الذي يترك شهواته وأهواءه تجري على سجيتها، والذي كانت بحيرة العواطف الكبيرة عنده دائمة الجفاف، ما دام يبتدع في كل صباح مزيداً من القصص الساخرة اللاعبة. إنه لم يكن يعرف شيئاً عما يختمر ويتأجج في بحر الشهوات البشرية من صخب

ثائر عنيف، بينما تسد عليه المنافذ، إنه لا يعرف كيف يتجمع هذا البحر، ويتمدد، ثم يرتفع، وكيف يطفر قافزاً عبر الحدود ويحفر في القلب وينفجر متهدجاً في خلجات داخلية مزلزلة، وتشنجات صماء حتى يمزق سدوده ويهدم حوضه. لقد كان جوهان مخدوعاً دائماً بثوب كلود فروللو الخارجي في رصانته وبرودته الثلجية، هذا الوجه البارد من الفضيلة ذو الوعورة الشديدة، والترفع البعيد. فلم يفكِّر يوماً فيما وراء جبهة «أتنا» الثلجية من السيول العارمة اللاهبة الثائرة العميقة.

لا ندري ما إذا كان جوهان قد أدرك كل هذه الحقائق، ولكنه، مهما يكن هوائياً، فقد فهم أنه قد رأى من أخيه ما لا يجب أن يراه، وأنه قد فاجأ روح أخيه الكبير في أشد أوضاعها سرية وخفاء، وأن من الواجب ألا ينتبه كلود إلى وجوده. أخرج رأسه بهدوء شديد بعد أن رأى الكاهن يعود إلى جموده السابق، ثم أحدث بقدميه حركة في الخارج، وكأنه قد وصل لتوه، وهو ينبه أخاه إلى وصوله.

فصرخ الكاهن من داخل الغرفة يقول: «ادخل! لقد كنت أنتظرك، فتركت المفتاح في قفل الباب. ادخل أيها المعلم جاك.»

ودخل الطالب جريئاً. أما الكاهن الذي تزعجه مثل هذه الزيارة في مثل هذا المكان، فقد اضطرب فوق مقعده. «ماذا! أهذا أنت، يا جوهان؟»

قال الطالب وفي وجهه حمرة مرح وخجل:

«إنه دائماً حرف ـ ج ـ يا أخي.»

وكان وجه دوم كلود قد استرد قسماته القاسية الرصينة.

ـ «ماذا جئت تفعل هنا؟»

أجاب الطالب وهو يحاول جاهداً أن تكون له هيئة لائقة مثيرة للشفقة متواضعة، وهو يدير قبعته بين يديه ببراءة ظاهرة: «لقد أتيتك يا أخي لأسألك...»

ـ «ماذا؟»

ـ «قليلاً من العظة، أنا في أشد الحاجة إليه.» ثم لم يجرؤ جوهان على أن يقول له بالإضافة وبصوت مرتفع: «وقليلاً من المال، أنا في حاجة إليه أشد وأعظم.»

وجمد هذا الجزء من الجملة فوق شفتيه.

قال الكاهن بلهجة باردة: «أيها السيد، إنني غير مسرور منك أبداً.»

فتنهد الطالب: «أنا آسف جداً.»

واستدار الكاهن فوق مقعده قليلاً نحو جوهان وأثبت فيه نظره: «إنني سعيد جداً لرؤيتك.»

فكانت بداية مخيفة أعد لها جوهان نفسه.

قال الكاهن: «هل تدري أنني أتلقى في كل يوم شكاوى ضدك؟ وما هذا الذي سمعته من أنك قد ضربت بالعصا مع أفراد عصابتك الفتى المدعو: الفيكونت ألبير دي رامونشان؟... وغير ذلك مما لا أستطيع حصره؟»

ـ «إنه يا سيدي أحد غلمان الفيكونت وقد كان يتسلى بتلويث الطلاب بأن يركض فرسه في الوحل.»

وتابع الكاهن وهو يهز رأسه: «وأين انتهيت في دراساتك وآدابك؟ إنك لا تكاد تعرف اللغة اللاتينية، كما تجهل اللغة السريانية، أما اليونانية فهي من البشاعة عندك بمكان بحيث إن تجاوز كلمة منها دون قراءتها ليس جهلاً حتى عند أكبر العلماء، أليس كذلك؟؟»

ورفع الطالب رأسه في تصميم ظاهر ثم قال: «سيدي الأخ، هل يسرك أن أفسر لك بلغة فرنسية صحيحة هذه الكلمة اليونانية المكتوبة هنا على الجدار؟»

ـ «أية كلمة؟»

ـ «فاتوم.»

واصطبغت وجنتا الكاهن الصفراوان بحمرة خفيفة، وكأنها نفثة من الدخان تعلن في الخارج عن اختلاجات البركان الخفية. ولكن الطالب لم يكد يلاحظ شيئاً من ذلك.

وتمتم الأخ الكبير جاهداً: «حسن جداً، فماذا تعني هذه الكلمة؟»

ـ «القضاء والقدر.»

ورجعت الصفرة إلى وجه كلود، فتابع الطالب في غير مبالاة:

ـ «وهذه الكلمة المكتوبة تحتها، منقوشة باليد نفسها، أنها تعني: الفسق. ألا ترى أنني أعرف اللغة اليونانية!»

وبقي الكاهن صامتاً. لقد جعله هذه الدرس اليوناني حالماً.

أما جوهان الصغير الذي كان يتصف بمهارة الولد المدلل، فقد أدرك أن الظرف ملائم جداً لتحقيق أمنيته. فاتخذ صوتاً فائق الحلاوة والرقة وبدأ قائلاً:

ـ «هل تحقد يا أخي الطيب عليّ، فتقابلني بمثل هذا الوجه المتجهم، من أجل صفعات خبيثة أرسلت هنا وهناك في معركة مشروعة مع مَنْ لا أعرف من صبيان الحي؟»

ولكن هذه المداراة الرقيقة كلها لم تُجدِ شيئاً كالعادة مع الأخ الكبير الرصين. إنه لم يلن ولم يؤخذ بأسلوب أخيه العسلي، وبقيت جبهته متغضنة لا تنفرج.

وقال بلهجة جافة: «أين تريد أن تصل بهذا كله؟»

فأجاب جوهان متشجعاً: «الحق يا أخي... أني... في... حاجة إلى نقود.»

وفجأة اتخذ وجه الكاهن هيئة المربي، بعد أن سمع هذا التصريح الخجول.

ـ «أنت تعرف، يا سيد جوهان، أن ما نكسبه من إقطاعتنا شيء ضئيل جداً. إنه ليس كثيراً كما تعلم.»

قال جوهان في صبر فائق: «إنني في حاجة إلى نقود.»

ـ «وتعلم أيضاً أنني مرغم على شراء قطعة من الأرض الأسقفية تتوسط إقطاعتنا، وأنني لم أوفق حتى اليوم إلى جمع ثمنها كله. وأنت تعرف ذلك.»

ـ «أعلم أنني في حاجة إلى نقود» قالها جوهان مردداً للمرة الثالثة.

ـ «وماذا تريد أن تفعل بهذه النقود؟»

فبعث هذا السؤال في عيني جوهان شعلة من الأمل.

واتخذ مرة أخرى هيئة رقيقة ناعمة:

ـ «تعلم يا أخي العزيز كلود، أنني لا أقصد وفي نفسي هدف رديء فليست القضية أن أظهر جميلاً في الحانات أو أتنزه في شوارع باريس متزيناً بزينات الذهب يتبعني خادمي. لا يا أخي. إن هذه هي من أجل عمل طيب.»

وسأل كلود مندهشاً: «أي عمل طيب هذا؟»

ـ «لي صديقان يرغبان في تقديم أربطة وثياب إلى طفل أرملة فقيرة. إنها صدقة كما ترى وهي تساوي ثلاث قطع من النقود الذهبية، وفي عزمي أن أكون ثالث الاثنين.»

ـ «ما اسم صديقيك؟»

ـ «بطرس الأسومور وبابتيست كروك ـ وازون.»

قال الكاهن: «هذان اسمان يقبلان على القيام بعمل طيب كقنبلة ساقطة فوق كاهن مذبح.»

والثابت أن جوهان قد أساء اختيار اسمي صديقيه. وقد أدرك ذلك في وقت متأخر.

ثم تابع الكاهن الذكي: «وما هي هذه الثياب والأربطة التي تساوي ثلاث قطع ذهبية؟ ولمن؟ لطفل أرملة فقيرة؟ أغرب عن وجهي فإنني أنتظر أحد الناس.»

وحاول الطالب محاولة أخيرة فقال: «أخي كلود، أعطني على الأقل دانقاً صغيراً آكل به.»

ـ «أين أنت من دروسك؟»

ـ «لقد أضعت دفاتري.»

ـ «وأين أنت من اللاتينية؟»

ـ «لقد سُرقت نسختي من كتاب هوراتيوس.»

ـ «وأين أنت من أرسطو؟»

ـ «باللّه عليك! يا أخي، من هو هذا الأب الكنسي الذي يقول بأن أخطاء الهراطقة قد أخذت في كل زمان من مجموعة فلسفة أرسطو المتشابكة؟ إنني لا أريد أن أفقد ديني بفلسفة هذا الرجل.»

وأردف الكاهن يقول: «أنصحك يا سيد جوهان بأن تتدبر الجملة المكتوبة فوق تمثال قائم عند آخر مدخل من مداخل الملك.»

ولبث الفتى قليلاً ثم التفت نحو أخيه يقول:

ـ «وإذن، يا أخي الطيب، فأنت ترفض أن تعطيني دانقاً واحداً صغيراً أشتري به شواء آكله؟»

فأطلق الكاهن بلاتينيته جملة يرفض بها طلب أخيه. فغطى الفتى وجهه بيديه كالمرأة المجهشة بالبكاء وصرخ صرخة يائس مطلقاً فيها كلمة يونانية.

وسأل الكاهن مندهشاً عما تعنيه هذه الكلمة.

فقال الطالب، وقد رفع نحو أخيه عينين محمرتين بعد أن عركهما بيديه لتكون لهما هيئة باكية: «إنها كلمة يونانية أعبِّر بها عن ألمي الشديد.»

ثم انفجر ضاحكاً ظريفاً عنيفاً حتى أنه أضحك أخاه. الحق أن الكاهن هو المسؤول! فلماذا أفسد الطفل الفتى بمثل هذا التدليل الفاسد؟

وأردف الفتى وقد شجعته ابتسامة أخيه: «أوه! يا أخي كلود الطيب،

انظر إلى حذائي. هل هناك ما هو أدعى إلى الأسى من حذاءين يمد فيهما النعل لسانه؟»

وكان الكاهن قد رجع إلى تجهمه سريعاً وقال: «سأرسل إليك حذاءين جديدين. ولكنني لن أعطيك نقوداً أبداً.»

فقال الفتى في لهجة ضارعة: «لا أبغي يا أخي غير دانق صغير مسكين. سأحفظ دروسي عن ظهر قلب، سأؤمن باللّه، وسأكون فيثاغورساً حقيقياً في العلم والفضيلة. أرجوك فقط أن تعطيني هذا الدانق! هل تريد أن يفترسني الجوع بشدقه، المفتوح هنا، أمامي، وهو أشد سواداً، ونتناً، وعمقاً من التتري؟»

وما كاد الكاهن يجيبه فيبدأ بلاتينيته المعهودة، حتى قاطعه الفتى قائلاً:

ـ «حسن جداً، فإلى الشيطان! وليحيا المرح! إنني سأنطلق إلى الحانات، وسأقاتل الناس، وأحطم الأكواب والجرار!»

ثم رمى بقبعته نحو الجدار وصفق بأصابعه وكأنها صناجات.

فنظر الكاهن إليه نظرة قاتمة ثم قال:

ـ «لم تعد لك روح يا جوهان.»

ـ «وفي هذه الحالة، تجدني، تبعاً لأبيقور، شيئاً لا اسم له.»

ـ «جوهان، يجب التفكير جدياً في إصلاحك.»

وصرخ الطالب وهو ينقل نظره بين أخيه وأواني التقطير فوق الموقد:

ـ «كل شيء هنا ذو قرون: الأفكار والقوارير!»

ـ «جوهان، إنك في منزلق خطر. فهل تعرف إلى أين أنت ذاهب؟»

قال جوهان: «إلى الحانة.»

ـ «الحانة تقود إلى وتد التعذيب.»

ـ «هذا مصباح كأي مصباح آخر، ولعل ديوجين يجد به رجله.»

ـ «ويقود وتد التعذيب إلى المشنقة.»

ـ «المشنقة هي ميزان في إحدى كفتيه رجل وفي الأخرى الأرض كلها. والرجل هنا جميل رائع.»

ـ «المشنقة تقود إلى الجحيم.»

ـ «إنه نار عظيمة.»

ـ «جوهان، جوهان، إن نهايتك رديئة.»

ـ «لكن البداية قد تكون حسنة.»

وهنا بلغهما صدى خطوات في السلم.

قال الكاهن بصوت خفيض وقد وضع إصبعه فوق شفتيه: «اسكت! واستمع إليّ يا جوهان، احذر من أن تتكلم أبداً عما ترى وتسمع في هذه الغرفة، اختبئ سريعاً تحت هذا الموقد، ولا تتنفس.»

وتجمّع الطالب تحت الموقد. وهنا جاءته خاطرة مفيدة جداً.

ـ «بهذه المناسبة، يا أخي كلود، أعطني قطعة ذهبية فلا أنبس ببنت شفة.»

ـ «اسكت! إنني أعدك بها.»

ـ «يجب أن تعطيني إياها الآن.»

قال الكاهن غاضباً وهو يلقي إليه بقطعته: «خذ إذن.»

وتجمّع جوهان مرة أخرى داخل الموقد، ثم فُتح الباب.

6 ـ رجلان في لباس أسود

كان الداخل إلى الغرفة، رجلاً ذا لباس أسود، وهيئة قاتمة. فكان لقتامة ثوبه ووجهه المحزونين أثر بالغ في نفس صديقنا جوهان، الذي اختار لنفسه زاوية من الموقد يرى فيها ويسمع كل شيء وهو في جلسة المطمئن. ومع ذلك.فقد شاعت رقة خاصة، في هذا الوجه، وهي رقة القط أو القاضي، إنها رقة متصنعة. كان الزائر الجديد شديد الشيب، كثير

الغضون، قد قارب الستين من عمره، وكان يطرف بعينيه، وقد ابيض حاجبه، وتدلت شفته مع يدين كبيرتين. وإذ لم يجد جوهان غير هذه السمات، أدرك أن مَنْ أمامه، طبيب أو قاض، يضاف إلىٍ ذلك اتساع ما بين أنفه وفمه، وهو آية على الغباء، فازداد تجمعه في ثقبه، يائساً متألماً لأن عليه أن يقضي زمناً غير محمود في وضع مزعج مع رفيقين رديئين.

وفي هذه الأثناء لم يكن الكاهن قد نهض عن مقعده لاستقبال الداخل إلى غرفته. فأشار إليه بالجلوس فوق مقعد واطئ قريب من الباب، وبعد فترة صمت، بدت امتداداً لتأمل سابق، قال الكاهن له: «مرحباً، أيها المعلم جاك.»

فأجاب الرجل الأسود: «سلاماً، أيها المعلم!»

وكان في الطريقتين اللتين نطق بهما تعبير: (المعلم جاك، والمعلم) ما يدل على وجود أستاذ وأحد تلامذته.

وأردف الكاهن بعد صمت جديد تجنب المعلم جاك أن يزعجه: «هل تنجح؟»

قال الآخر في ابتسامة حزينة: «أنا آسف يا معلمي، إنني أنفخ دائماً. فهناك من الرماد ما ابتغيت وأردت. ولكنني لم أجد ذرة واحدة من الذهب.»

وأشار دوم كلود إشارة من نفد صبره: «أنا لا أكلمك عن هذا بل أكلمك عن قضية ساحرك. فهل اعترف مارك سينان بسحره؟ هل نجحت في بلوغ ما تريد بلوغه؟»

فأجاب المعلم جاك في ابتسامته الحزينة دائماً: «لا، مع الأسف الشديد. إننا لا نملك هذه التعزية. إن الرجل صلب شديد. وسنسومه خسفاً وعذاباً في سوق الخنازير، قبل أن يقول شيئاً. وفي هذه الأثناء لن نترك وسيلة من الوسائل للوصول إلى الحقيقة. لقد تمزق تمزقاً كلياً تاماً. وقد استعنا بكل أعشاب القديس جان، كما قال بلوتوس العجوز الساخر، ولكن دون جدوى، إنه رجل رهيب. لقد أضعت فيه لاتينيتي.»

ـ «ألم تجد شيئاً جديداً في منزله؟»

ـ «بلى، لقد وجدت هذه الأوراق بينما كنا نفتش في حزامه Esearcelle، ففي هذه الصحف كلمات لا نفقه معناها. مع العلم أن المحامي الجنائي فيليب لوليا يعرف قليلاً من العبرانية تعلمه خلال قضية يهود شارع كنترستان في بروكسل.»

وكشف المعلم جاك عن أوراق ملفوفة بينما كان يتكلم. قال الكاهن: «أعطني إياها» ثم ألقى نظرة عليها وقال: «إنها سحر محض، أيها المعلم جاك! أمان ـ هوتان! إنها صرخة السحرة حين يباشرون اجتماعهم الصاخب، هاكس، باكس، ماكس، وهذه من الطبابة. إنها الصيغة التي يستعملها الطبيب ضد عضات الكلاب الكَلِبة. أيها المعلم جاك! إنك نائب الملك في محكمة الكنيسة، وهذه صحف ملعونة رديئة.»

ـ «سنُخضع الرجل لتحقيق جديد». وأضاف، وهو يفتش مرة أخرى في محفظته: «هاك ما وجدناه عند مارك سينان.»

ـ «لقد وجدنا إناء من تلك الآنية التي تغطي موقدك أيها المعلم.»

قال الكاهن: «آه! إنه من آنية الكيمياء.»

فأردف المعلم جاك في ابتسامته الخجلة المتعثرة: «أعترف لك أنني أستعمله فوق الموقد، ولكنني لم أجد شيئاً خيراً مما وجدت بإنائي.»

ثم قال: «أما ونحن على خطأ، فقد درست قبل أن أصعد إليك الباب القائم في أدنى الكنيسة، فهل أنت واثق أيها المحترم أن بداية كتاب الفيزياء مرسومة إلى جانب أوتيل ـ ديو، وأن الرسم الذي يحمل جناحين في عقبيه بين الرسوم العارية السبعة هو رسم ماركوريوس؟»

أجاب الكاهن: «نعم. إن أوغسطين نيفو هو الذي كتبها. لقد كان لهذا الطبيب الإيطالي شيطان ذو لحية، كان يعلمه كل شيء على أننا سنهبط إلى هناك، وسأشرح لك تفصيل الأمر أمام النص نفسه.»

قال جاك وهو ينحني حتى الأرض: «شكراً يا معلمي. وبهذه المناسبة، لقد كنت نسيت! متى يسرك أن ألقي القبض على الساحرة الصغيرة؟»

ـ «أية ساحرة؟»

ـ «هذه الغجرية التي تعرفها جيداً، والتي تأتي في كل يوم لترقص فوق الساحة رغم الأوامر الصادرة بنهيها عن ذلك! إن لها عنزة مسكونة بالشياطين ولها قرنا شيطان، تقرأ وتكتب، وتعرف الحساب فكأنها بيكاتريكس، وهي حجج واتهمات كافية لشنق بوهيميا كلها. القضية معدة. وستقدم وشيكاً. هيا! إنها، أقسم بحياتي، مخلوقة جميلة، هذه الراقصة! لها أجمل عينين سوداوين! ولها ياقوتتان حمراوان من مصر. فمتى نبدأ؟»

أما الكاهن فقد اصطبغ وجهه بصفرة شديدة. ثم تمتم يقول:

ـ «سأقول لك ذلك فيما بعد» ثم أردف في جهد شديد:

ـ «أشْغِل نفسك بمارك سينان.»

فقال جاك وهو يبتسم: «اطمئن، سأعيده إلى السرير الجلدي بعد ذهابي إليه. ولكنه إنسان شيطان. إنه يتعب بطرس تورتارو نفسه، وهو ذو كفين أضخم من كفّيَّ كما تعلم. إن أحسن ما نملكه هو التحقيق معه بالآلة الرافعة تلفه حول عجلتها لفاً. وسيجتاز حتماً هذا التحقيق.»

كان دوم كلود يبدو غارقاً في حالة نفسية قاتمة. ثم التفت نحو جاك:

ـ «أيها المعلم بطرس... عفواً، أقصد المعلم جاك، أشْغِل نفسك بمارك سينان فقط!»

ـ «نعم، نعم، يا سيدي دوم كلود. يا للرجل المسكين! إنه سيتألم كمومول. أما فيما يتعلق بالصغيرة، التي يسمونها اسميرالدا، فإنني منتظر أوامرك. ولكن! ما لي أراك ساهماً، فبم تفكِّر يا سيدي؟»

كان دوم كلود قد غرق في أعماق نفسه فلم يعد يسمعه. وقد رآه جاك وهو يتبع وجهة نظراته، أنه قد أثبتها بطريقة آلية في النسيج العنكبوتي الكبير الذي كان يغطي الكوة. وفي هذه الأثناء ألقت ذبابة طائشة نفسها وهي تفتش عن شمس آذار خلال الشبكة العنكبوتية فلصقت بها.

وتحرك العنكبوت الكبير حركة مفاجئة، حين أحس باهتزاز نسيجه، ثم قفز فوق الذبابة، فطواها بزبانيتيه الأماميتين، بينما كان خرطومه البشع يتفحص رأسها. «يا للذبابة المسكينة!» قالها وكيل الملك في محكمة الكنيسة، ورفع يده ليخلصها ولكن الكاهن أمسك ذراعه بعنف متشنج، كما لو أنه يستيقظ في انتفاضة مفاجئة.

وصرخ: «أيها المعلم جاك، دع القضاء والقدر يعمل عمله!»

واستدار الوكيل مذعوراً. فقد كان يبدو له أن قبضة حديدية قد أمسكت بذراعه. أما عين الكاهن فقد بقيت، ثابتة، ضائعة ملتهبة، بقيت مثبتة فوق الثنائي الرهيب: الذبابة والعنكبوت.

«وتابع الكاهن بصوت يكاد يظن السامع أنه صادر من أحشائه: «أوه! هاك رمزاً لكل شيء. إنها تطير، إنها مرحة سعيدة، لقد ولدت منذ قليل وهي تفتش عن الربيع، الهواء الطلق والحرية، أوه! نعم، ولكنها تصطدم بزهرة القدر، فيخرج منها العنكبوت، العنكبوت البشع المخيف! أيتها الراقصة المسكينة! أيتها الذبابة التي كتب عليها مصيرها منذ الأزل! أيها المعلم جاك دع الأمور تجري، إنه القضاء والقدر!»

ـ «وأسفاه يا كلود، إنك أنت العنكبوت. وأنت الذبابة أيضاً! لقد كنت تطير إلى العلم، إلى الضياء، إلى الشمس، لم يكن همك إلا الوصول إلى الهواء الطلق، إلى اليوم الكبير للحقيقة الخالدة، ولكنك، بينما كنت تقفز نحو الكوة الباهرة التي تصلك بالعالم الآخر، عالم الضياء والعقل والعلم، ألقيت بجسدك أيها المجنون البائس في شبكة العنكبوت الدقيقة التي وضعها القدر أمامك امتحاناً لك، ليحجز بينك وبين النور،

فكنت هذه الذبابة العمياء، والطبيب الأحمق، فلم تر أمامك شيئاً، وأنت الآن في عراك عنيف. . قد تحطم رأسك وانتزع جانحاك، بين قرني القدر الحديديين! أيها المعلم جاك، أيها المعلم جاك! دع العنكبوت يعمل عمله!»

قال جاك الذي كان ينظر إليه ولا يفهم شيئاً: «إنني أؤكد لك أنني لن أمسّها. ولكن دع ذراعي أيها المعلم، أرجوك! إن لك يداً من حديد.»

أما الكاهن الذي لم يكن يسمعه فقد أردف وهو ينظر إلى الكوة: «أوه، أيها المعتوه. هل تظن وقد وفقت إلى تحطيم هذا النسيج الرهيب، بجناحيك الذبابيين، أنك قادر على الوصول إلى الضياء! واأسفاه! إن هذا اللوح الزجاجي البعيد، هذه العقبة الشفافة، هذا السور البلّوري الذي هو أصلب مكسراً من النحاس، والذي يفصل الفلاسفة كلهم عن الحقيقة، كيف تستطيع أن تجتازه؟ يا لغرور العلم! كم من حكيم يأتي طائراً من بعيد ليحطم جبهته هناك! وكم من مذهب اختلفت أعداده وتصادمت وهي تطن أمام هذا الزجاج الخالد!»

وسكت. وكأن هذه الأفكار الأخيرة، التي نقلته من نفسه إلى العلم، قد حملت إليه هدوءاً وسكينة فيما يبدو. ثم عجل جاك في إرجاعه إلى الواقع بتوجيه هذا السؤال إليه:

ـ «متى يا معلمي، ستساعدني على صنع الذهب؟ لقد تأخّر نجاحي.»

فهز الكاهن رأسه في ابتسامة مُرّة ثم قال: «ليس ما نصنعه بريئاً كل البراءة.»

فأردف جاك بصوت أكثر انخفاضاً: «ولكن يجب أن نمارس شيئاً من أعمال السحر، حين لا نكون غير وكلاء للملك في محكمة الكنيسة، مقابل ثلاثين قطعة ذهبية في السنة كلها. على أن نتكلم بصوت خفيض جداً ونعمل في الخفاء.»

وهنا سمع جاك صدى مضغ طعام بين الفكين، آتياً من أسفل الموقد. فسأل:

ـ «ما هذا؟»

إنه الطالب، الذي ضاق ذرعاً بمخبئه، فقد توصل إلى اكتشاف كسرة خبزٍ قديمة مع قطعة من الجبن العفن، فراح يأكلها في غير حذر، بمثابة فطور وتعزية لنفسه. وقد بعث ضجة كبيرة، بسبب جوعه الكبير، كما كانِ يمضغ كل لقمة مضغاً قوياً وبطيئاً، مما كان بمثابة إنذار وإيقاظ للسيد الوكيل.

قال الكاهن بحيوية ظاهرة: «إنها قطة صغيرة تستمتع هنا بافتراس فأرة.»

ورضي جاك بهذا التفسير.

فأجابه بابتسامة مفعمة بالاحترام والتقدير: «الواقع أيها المعلم، أن لكل الفلاسفة الكبار حيوانهم المألوف.»

وفي هذه الأثناء، ذكَّر كلود تلميذه المحترم، خوفاً من أن يصدر عن أخيه ما ينبه إلى وجوده، أن عليهما أن يدرسا معاً رسوم الباب الكبير، وخرج الاثنان من الغرفة، تتبعهما تنهيدة أوف! خارجة من فم الطالب، الذي بدأ يخاف جدياً من أن تتخذ ركبته شكل ذقنه التي أثبتت فوقها طوال هذه المدة.

7 ـ ما يمكن أن تحدثه من الأثر سبع شتائم في الهواء الطلق

انطلق المعلم جوهان خارجاً من جحره، وهو يقول: «ها أن القطين العاويين قد ذهبا. هاكس! باكس! ماكس! براغيث، وكلاب هائجة! وشيطان! لقد ضقت ذرعاً بأحاديثهما! ورأسي يطن كأنه برج الأجراس.

وهناك الجبن العفن زاد الطين بلّة! لننزل ولنحمل قطعة أخينا الذهبية، ولنحول هذه النقود كلها إلى أكواب من البيرة والنبيذ.

ونظر نظرة رقيقة عاطفة نحو القطعة، ثم أصلح من زينته، ومسح حذاءيه، وأزال غبار الرماد عن كميه، وصفر يغني، واستدار قافزاً، ونظر ما إذا كان في الغرفة شيء يؤخذ، ثم دفع الباب الذي كان أخوه قد تركه مفتوحاً عن إهمال بادئ الأمر ثم عن خبث في المرة الثانية، وهبط السلم الدائرية في قفزات العصفور.

وبينما كان يجتاز الظلمة الدامسة في وسط طريقه، لامسه شيء لم يلبث حتى تجمع مغمغماً، فقدَّر أن هذا الشيء هو كوازيمودو، وبدت له هذه الملامسة شيئاً مضحكاً حتى إنه تابع هبوطه وهو يمسك جانبي صدره أن ينفجر من الضحك. وخرج إلى الساحة، وهو يضحك أيضاً.

وهنا ضرب الأرض برجله حين شعر بها ثابتة تحته وقال: «أوه! كم أنت طيبة كريمة يا أرض باريس! أما السلمِ الملعونة التي تلهث فيها ملائكة سلم يعقوب، فلا! ما الذي كنت أفكر فيه حين رحت نحو هذه الشاهقات من الحجارة التي تخترق السماء؟ هل ذهبت لآكل جبنة عفنة، ولرؤية أجراس من خلال كوة؟»

ثم خطا خطوات قليلة، فرأى أمامه القطين العاويين، دوم كلود والمعلم جاك، وهما يتأملان نقوش الباب الكبير. فاقترب منهما على أطراف أصابعه وسمع الكاهن يتحدث إلى المعلم جاك في صوت هامس فقال: «وما يعنيني من هذا كله فالمحفظة في حوزتي.»

وفي هذه البرهة سمع صوتاً قوياً رناناً يطلق وراءه سلسلة من التجاديف الضخمة.

فصرخ جوهان: «أقسم بحياتي إن هذا المتكلم هو القائد فوبوس!»

وبلغ اسم فوبوس أذني الكاهن في الوقت الذي كان يشرح فيه لوكيل الملك قضية التنين الذي يخفي ذيله في مغطس يخرج منه دخان، ورأس

ملك. وانتفض دوم كلود، ثم امتنع عن الكلام، أمام حيرة المعلم جاك ودهشته، واستدار ينظر إلى ورائه فوجد أخاه جوهان يقترب من ضابط كبير واقف أمام باب منزل جوندولوريا.

والواقع أنه القائد فوبوس دي شاتوبار. لقد كان مستنداً إلى زاوية منزل خطيبته، يقذف بتجاديفه وشتائمه كأنه وثني.

قال جوهان وهو يتناول يد القائد: «أقسم إنك تجدف بحماسة تبعث على الإعجاب.»

فأجاب القائد: «قرن ورعد!»

وأردف الطالب: «أنت نفسك القرن والرعد! ولكن من أين يأتيك هذا الدفق من الألفاظ الحلوة أيها القائد اللطيف؟»

فصرخ فوبوس وهو يهز له يده: «عفواً أيها الرفيق الطيب جوهان، إن الحصان لا يقف فجأة أبداً. ولهذا، كنت أشتم في سبحات طويلة. لقد خرجت من بيت أولئك النسوة الغليظات، وفي كل مرة أخرج فيها أشعر بامتلاء حلقي بالشتائم، فإذا لم أبصقها، اختنقت وكانت النهاية.»

وسأله الطالب: «هل تحب أن تأتي فنشرب؟»

فابتسم القائد أمام هذا الاقتراح.

ـ «أريد ذلك، ولكنني لا أملك نقوداً.»

ـ «عندي منها ما نحتاج إليه.»

ـ «ماذا تقول؟ أرني ما عندك!»

ونشر جوهان المحفظة أمام القائد، بجلال وبساطة.

وفي هذه الأثناء كان الكاهن الذي ترك جاك، قد وصل قريباً منهما، ووقف على بعد خطوات قليلة، يراقبهما دون أن ينتبها إليه، فقد كان تأمل المحفظة يستغرق تفكيرهما كله.

صرخ فوبوس: «وفي جيبك أنت محفظة نقود يا جوهان؟ إنه القمر في سطل من الماء. يرى ولكنه غير موجود فيه. ليس فيه منه غير

الظل. يا إلٰهي! أنا أراهن أن في محفظتك حصى فقط.»

فأجابه جوهان ببرود ظاهر: «هاك هي الحصى التي أملأ بها جيبي.» وأفرغ ما في المحفظة دون أن يضيف شيئاً.

فدمدم فوبوس «يا للّه! فيه دراهم حقيقية. هذه قطع فضية، وتلك نحاسية، وأخرى ذهبية! إنه شيء باهر حقاً!»

فبقي جوهان محتفظاً بكبريائه وهدوئه. وتدحرجت قطع فضية وامتزجت بوحل الأرض، ثم انحنى القائد في حماسته يلتقطها، ولكن جوهان حال دون ذلك:

ـ «اخس، أيها القائد فوبوس دي شاتوبار!»

وعدّ فوبوس النقود المتدحرجة ثم التفت نحو جوهان يقول بصوت رنان:

ـ «هل تعرف يا جوهان أن ما تدحرج يساوي ثلاثة وعشرين درهماً! قل لي: من سلبت هذه الليلة في شارع قاطع الأشداق؟»

فألقى جوهان رأسه إلى الوراء بشعره الأشقر المفتول ثم قال وقد أغمض عينيه المزدريتين نصف إغماضة: «إن لي أخاً كاهناً أبله.»

ـ «الرجل الكريم النبيل!»

قال جوهان: «تعال نشرب.»

فأردف فوبوس: «إلى أين نذهب؟ إلى حانة تفاحة حواء؟»

ـ «لا، أيها القائد. لنذهب إلى حانة العَلم القديم.»

عجوز ينشر يد سلة. إنها كناية جميلة وأنا أحبها.

ـ «ولكن النبيذ في حانة تفاحة حواء، يا جوهان، أحسن وأطيب طعماً. وإلى جانب الباب هناك كرمة يشيع فيها نور الشمس ويدخل السرور إلى قلبي حين أشرب.»

قال الطالب:

ـ «حسن جداً! لنذهب إلى حواء وتفاحتها» ثم أردف وقد أمسك

بذراع فوبوس «يا عزيزي القائد، لقد قلت في حديثك آنفاً: «شارع قاطع الأشداق» إن هذا شيء رديء تقوله. فقد تخلصنا من العهود البربرية ولم نعد نستعمل هذا التعبير اليوم. قل: «شارع قاطعي الرقاب.»

وانطلق الصديقان نحو حانة تفاحة حواء. ولا حاجة بنا إلى القول بأنهما قد جمعا أولاً ما تدحرج من النقود وأن الكاهن قد لحق بهما.

كان الكاهن يلحق بهما، قاتم الوجه، تائه النظرات.

هل هذا هو فوبوس الذي كان اسمه يختلط، منذ مقابلته لجرنجوار، بكل أفكاره؟ إنه لم يكن يعرف ذلك، ولكنه في كل حال فوبوس، وفي هذا الاسم السحري ما دفع الكاهن إلى ملاحقة الرفيقين اللاهيين بخطوات الذئب، منصتاً إلى ما يقولان، مراقباً حركاتهما، في قلق فائق الانتباه. ولم يكن أسهل من أن يسمع كل ما يقولانه، لأنهما كانا يتحدثان بصوت مرتفع، لا يزعجهما أن يشركا المارين في مناجاتهما. لقد كانا يتحدثان في شؤون المبارزة، وجرار الخمرة، وفنون من الجنون.

وبلغا مفترق أحد الشوارع، فبلغهما صوت دف آتياً من المفترق الآخر. فسمع دوم كلود الضابط يقول للطالب:

ـ «يا للعاصفة! لنعجل خطانا.»

ـ «ولِمَ العجلة يا فوبوس؟»

ـ «أخاف أن تراني الغجرية.»

ـ «أية غجرية؟»

ـ «الصغيرة ذات العنزة.»

ـ «الاسميرالدا؟»

ـ «تماماً، يا جوهان. إنني أنسى دائماً اسمها الشيطاني. لنسرع، إنها ستعرفني حتماً. وإنني لا أريد أن تقاربني هذه الفتاة في الشارع.»

ـ «وهل تعرفها يا فوبوس؟»

وهنا رأى الكاهن فوبوس يضحك ساخراً، وينحني فوق أذن

جوهان، ويهمس فيها بكلمات. ثم ينفجر ضاحكاً ويهز رأسه في هيئة المنتصر.

قال جوهان: «أحق هذا؟»

قال فوبوس: «قسماً بحياتي!»

ـ «هذا المساء!»

ـ «هذا المساء.»

ـ «هل أنت واثق من أنها ستأتي؟»

ـ «ماذا تقول يا جوهان؟ وهل يُشك في مثل هذه الأشياء؟»

ـ «إنك دركي سعيد أيها القائد فوبوس!»

وسمع الكاهن هذا الحوار كله، فاصطكت أسنانه، وسرت قشعريرة، ظاهرة للعيان، في جسده كله. فتوقف قليلاً، واستند إلى حاجز كالرجل الثمل، ثم تابع طريق الشابين المرحين.

ولم يكد يقترب منهما حتى كانا قد غيّرا موضوع حوارهما. لقد سمعهما ينشدان اللازمة القديمة بأعلى صوتيهما:

ـ «يشنق أطفال البيتي ـ كارو أنفسهم كما تفعل العجول.»

8 ـ الكاهن الشرس

كانت حانة تفاحة حواء الفخمة قائمة في مدينة الجامعة، عند الزاوية التي يلتقي فيها كل من شارع روندال وباتونيا. إنها بهو أرضي منخفض واسع، ذو قبة مركوزة فوق عمود خشبي غليظ مدهون باللون الأصفر، وقد انتشرت فيه مناضد، تفرّق حولها الشاربون. وهو يتصل بالشارع بحاجز زجاجي، ارتفعت قريباً من بابه شجرة من الكرمة وبرزت فوق هذا الباب لوحة معدنية منورة برسم تفاحة وامرأة، وقد غشاها المطر بالصدأ، وهي تتحرك في اتجاه دائري حول عمود من الحديد.

وهبط الليل. فأظلم مفترق الطريق. وبدت الحانة التي ملأتها المشاعل ملتهبة من بعيد كأنها أتون الحداد في الظل. كانت أصداء الزجاجات والخصومات والأيمان المغلظة والتجديفات تسمع من بعيد عبر بعض الألواح الزجاجية المحطمة، وكانت ترى عبر الضباب الذي تشيعه حرارة البهو الداخلية فوق الحاجز الزجاجي عشرات من الوجوه المبهمة، تصدر عنها بين الفترة والفترة قهقهة منفجرة رنانة. أما المارة الذين كانوا يتوجهون إلى أعمالهم فلم يكونوا ينظرون إلى ما وراء هذا الزجاج الصاخب، إلا صبي صغير في ثيابه الرثة يأتي بين فترة وأخرى فيظل وقد رفع جسده فوق رؤوس أصابعه حتى يبلغ ركيزة الواجهة الزجاجية فيقذف في الحانة بهتافه الساخر الضاحك الذي كان السكارى يلاحقونه به.

وفي هذه الأثناء كان يروح ويجيء أمام الحانة الصاخبة رجل، ينظر إلى داخلها دون توقف. وقد تلفع بمعطفه فغطى به جسده كله حتى بلغ أنفه.

لقد اشترى هذا المعطف منذ قليل من تاجر الثياب الذي كان يجاور الحانة، ليحمي جسده من شدة البرد دون ريب، وقد يكون ذلك لإخفاء زيه، وكان بين فترة وأخرى يقف أمام زجاج الحانة، يسمع وينظر ويضرب الأرض بقدمه.

وأخيراً فتح باب الحانة. هذا ما كان ينتظره على ما يبدو. وخرج منها شاربان. فأشاع الضياء الخارج من الباب لوناً آخر فوق وجهيهما المرحين لبرهة من الزمن. أما الرجل ذو المعطف فقد وقف يراقبهما مستظلاً بأحد الأبواب في الجانب الآخر من الشارع.

قال أحد الشاربين: «قرن رعد. ستدق الساعة السابعة. إنها الساعة التي ضربت موعدي فيها.»

من البديهي أن يعرف القارئ حقيقة هذين الشاربين. إنهما صديقانا الجريئان، القائد والطالب. ويبدو أن الرجل الذي يقف رقيباً في الظل قد عرفهما أيضاً، إذ إنه تبع بخطوات بطيئة، التعرجات التي كان الطالب يجر

القائد إليها، هذا القائد الذي احتفظ بهدوء أعصابه ووعيه، بسبب سابق تجربته في شرب الخمرة. واستطاع الرجل ذو المعطف أن يقتنص منهما الحوار المفيد التالي:

«كورباك؟ حاول أن تمشي مستقيماً أيها السيد ذو البكالوريا. إنك تعلم أنني يجب أن أتركك. هذه هي الساعة السابعة، وقد واعدت فيها إحدى النساء.»

- «اتركني إذن؟ إنني أرى كواكب وشهباً من نار. إنك كقصر دامرتان الذي يبعث على القهقهة.»

- «أقسم بتآليل جدتي يا جوهان، إنك فقدت المنطق مع كثير من الإصرار. وبهذه المناسبة قل لي: هل بقي معك شيء من النقود؟»

- «أيها السيد العميد، لا خطأ في كل ما كتبت.»

- «جوهان، صديقي جوهان؟ إنك تعلم أنني واعدت هذه الصغيرة عند جسر سان ميشال وأنني لا أستطيع مرافقتها إلى فالوردال إلا إذا دفعت أجرة الغرفة. إن هذه العجوز التافهة ذات الشاربين الأبيضين ترفض الدفع لاحقاً. أرجوك يا جوهان، ألم يبق معك شيء؟ قل لي، وإلا فتشتك حتى ولو كنت مصاباً بالبرص كأيوب وبالجذام كقيصر.»

- «سيدي، إن شارع غالياش، شارع يتصل طرف منه بشارع الفيراري، ويتصل الطرف الآخر بشارع لاتيكسارانداري.»

- «نعم يا صديقي الطيب جوهان. حسن جداً. إنه شارع غالياش. ولكن أسألك باسم السماء أن ترجع إلى نفسك. إنني لا أريد غير دانق واحد، ولسبع ساعات فقط.»

وبقي الطالب سادراً، لا يعي ما يُقال له. فأردف فوبوس صارخاً: «قتلك الله بأحشاء أمك!» ثم دفع الطالب الثمل بخشونة، فانزلق هذا الآخر حتى الجدار ثم سقط رخواً فوق رصيف فيليب أوغست.

وبفضل بقية من الشفقة التي يحتفظ بها قلب الشارب في العادة

دحرج فوبوس الطالب جوهان بقدمه فوق وسادة من تلك الوسائد التي منحتها العناية الإلهية لكل فقير عند كل زاوية من وزايا الشارع، والتي يسميها الأغنياء في ازدراء بالغ كومة من الأوساخ. وأراح القائد رأس الفتى فوق كومة منحنية من رؤوس الملفوف، وراح الفتى في الوقت نفسه ينفخ بصوت مسموع. وفي هذه الأثناء لم ينطفئ كل ما في قلب القائد من الحقد والضغينة.

ـ «لا أبالي إن مرت بك عربة الشيطان فالتقطتك وهي مارة بك!» قال هذا للطالب الصغير وابتعد عنه.

أما الرجل ذو المعطف، الذي لم يتوقف أبداً عن متابعته، فقد تردد قليلاً أمام جسد الطالب المتمدد أمامه، ثم ابتعد هو أيضاً يتبع القائد، وقد أرسل تنهيدة عميقة.

أما نحن فسنترك جوهان كما تركاه نائماً، تحت رعاية السماء ثم نتبعهما.

لم يكد القائد يبلغ شارع القديس أندريه ـ ديزار حتى أدرك أن إنساناً يتبعه. فرأى، وهو يلتفت إلى الوراء في حركة غير مقصودة، ظلاً يزحف وارءه عبر الجدران، فتوقف، وتوقف الظل معه. ثم تحرك، فتحرك معه الظل أيضاً. ولكن هذا المشهد لم يزعجه إلا قليلاً. ثم قال في نفسه:

ـ «ياه! إنني لا أملك فلساً واحداً.»

ورأى الشبح يقترب منه بخطوات بطيئة، وكان من بطء هذه الخطوات أنه قد لاحظ بأن الشبح متلفع بمعطف وقبعة. وتوقف الشبح حين أصبح قريباً منه. وكان ينظر إليه بعينين ثابتتين مفعمتين بهذا الضياء الغامض الذي ينبثق ليلاً من حدقة القط.

كان القائد شجاعاً، ولم يكن يزعجه أن يعتدي أحد اللصوص عليه لأن مقبض السيف بيده. ولكن التمثال الذي كان يسير، وهذا الرجل المتجمد قد أشاعا صقيعاً في جسده. لا سيما وأن قصصاً كانت تتناقلها

الأفواه من أن كاهناً شرساً، يدور ليلاً عبر شوارع باريس، قد ظهرت في وعيه بصورة غامضة. فبقي مندهشاً بضع دقائق، ثم قطع الصمت، محاولاً أن يضحك.

ـ «سيدي إذا كنت لصاً، كما أرجو، فإنني مفلسٌ يا عزيزي، فاقصد صيداً آخر.»

وجرت يد الشبح من وراء المعطف ثم انقضت فوق ذراع فوبوس بقوة براثن النسر. ثم تكلم في الوقت نفسه قائلاً: «القائد فوبوس دي شاتوبار.»

قال فوبوس: «يا للشيطان! كيف تعرف اسمي؟»

فأجاب الرجل ذو المعطف بصوته القبري: «أنا لا أعرف اسمك فقط، بل أعرف أيضاً أنك واعدت فتاة على اللقاء في هذه الساعة.»

أجاب فوبوس، مندهشاً: «نعم.»

ـ «في الساعة السابعة.»

ـ «بعد ربع ساعة.»

ـ «عند فالوردال.»

ـ «تماماً!»

ـ «مع امرأة عند جسر سان ميشال واسمها...»

قال فوبوس مقاطعاً ودون مبالاة: «الاسميرالدا» وراجعته لامبالاته السابقة في تدرج متتابع.

وهنا، وبعد أن انطلق هذا الاسم من فمه، هزّت براثن الشبح ذراع فوبوس بعنف شديد.

ـ «إنك تكذب أيها القائد فوبوس دي شاتوبار!»

وهنا انتفض فوبوس انتفاضة شديدة بلغ من عنفها أنها خلصته من قبضة الشبح الحديدية ثم وضع يده فوق مقبض سيفه، فكان من الواجب أن يخاف أي إنسان أمام مثل هذا المشهد، ولكن الرجل ذا المعطف بقي

محتفظاً بجموده المحزن. كان شيئاً كما تكون المعركة بين دون جوان والتمثال.

«هاك كلمة يندر أن تسمعها أذن شاتوبار! إنك لن تجرؤ على ترديدها أبداً.»

قال الشبح ببرود: «أنت تكذب!»

وصر القائد بأسنانه. لقد نسي كل شيء. نسي الكاهن الشرس والشبح والأساطير. ولم يعد يرى أمامه غير رجل وإهانة.

قال متمتماً بصوت يخنقه الغضب: «حسن جداً؟» واستلّ سيفه.

أما الآخر فلم يتحرك أبداً. ولكنه قال بلهجة تتذبذب بمرارة حين رأى خصمه على هيئته تلك: «أيها القائد فوبوس، لقد نسيت موعدك.»

والواقع أن ثورات أمثال فوبوس هي كفوران الحليب تطفئ غليانه قطرة واحدة من الماء البارد. فأنزلت هذه العبارة البسيطة، السيف الذي كان يلمع في الفضاء.

وتابع الرجل يقول: «أيها القائد، غداً أو بعد غد، بعد شهر أو بعد عشر سنوات، ستجدني مستعداً لقطع رقبتك، ولكن اذهب أولاً إلى حيث موعدك.»

قال فوبوس: «حقاً» وكأنه يراجع نفسه.

وأرجع السيف إلى قرابه.

ثم أردف المجهول: «اذهب إلى موعدك.»

فأجاب فوبوس، في نوع من الحرج: «أيها السيد، شكراً عظيماً على فائق تلطفك. والواقع أن أمامنا متسعاً من الوقت لنتقاتل ويقطع أحدنا أحشاء الآخر. فأنا مدين لك بأن سمحت لي بتمضية ربع ساعة لطيفة. وقد كنت أتمنى أن أرقِدك فوق الساقية ثم أصل في الوقت المعين إلى الجميلة، مع العلم أن من الخير أن نتأخر في مثل هذه المناسبة. ولكنك تبدو لي فتى ظريفاً، فالأوفق أن نرجئ اللعبة إلى الغد. وإذن فأنا ذاهب إلى موعدي، وهو في السابعة كما تعلم.» ـ وهنا حك فوبوس طرف أذنه

ثم قال: «آه! لقد نسيت! إنني لا أحمل فلساً واحداً أدفع به أجرة المبيت، والعجوز تطالب بالأجرة سلفاً. فهي لا تثق بي.»

ـ «هاك ما تدفع به أجرة مبيتك.»

وشعر فوبوس بيد المجهول الباردة تضع في يده قطعة نقدية كبيرة. فلم يسعه إلا أن يأخذ المال ويهزّ هذه اليد.

وصرخ يقول: «يا إلهي! إنك طفل طيب حقاً!»

قال الرجل: «على شرط واحد، برهن لي على خطئي وأنك لم تكن تقول إلا حقاً. خبئني في زاوية من الزوايا بحيث أرى ما إذا كانت هي المرأة التي ذكرت اسمها.»

قال فوبوس: «لا ضير في ذلك أبداً. إننا سنشغل غرفة في سانت ـ مارت وفي وسعك أن تنظر إلينا عبر كوخ الكلب القائم إلى جانبها.»

فردد الشبح: «تعال إذن.»

ـ «في خدمتك يا سيدي. إنني لا أعرف ما إذا كنت رسول الشيطان أو الشيطان نفسه. ولكن لنكن صديقين. وسأوفيك غداً حسابك من محفظتي ومن السيف.»

وتابعا مسيرهما مسرعين. وبعد دقائق قليلة بلغتهما وشوشات ماء النهر التي أنبأتهما بوصولهما إلى جسر سان ميشال، الذي تغطيه البيوت. قال فوبوس لرفيقه: «سأوصلك أولاً إلى مخبئك ثم أنطلق لآتي بالفتاة التي يجب أن تنتظرني قرب الشاتليه الصغير.»

فلم يجب رفيقه. إنه لم ينبس بكلمة واحدة منذ سارا معاً جنباً إلى جنب. ووقف فوبوس أمام باب خفيض ونقره بخشونة. ففتح الباب وظهرت أمام الرجلين امرأة عجوز تحمل مصباحاً عتيقاً وكلاهما يرتجفان. أما المرأة فقد كانت مطوية طياً، تلبس ثياباً رثة، وفي وجهها عينان صغيرتان كأنهما ثقبان، والغضون منتشرة في جسدها كله، ووجهها وجيدها، أما شفتاها فقد كانتا داخلتين في لثتيها، ولها حول فمها كتل من

الشعر الأبيض تمنحها هيئة القط. أما داخل الغرفة فلم يكن أقل رثاثة. كانت فيها جدران طبشورية وفي سقفها لاطات خشبية سوداء. وظهرت في جانب من جوانبها مدخنة متناثرة الأجزاء مفككة العرى، وأنسجة عنكبوتية ملأت فراغ الزوايا، ويبدو وسط قطيع من المناضد والمقاعد العرجاء، طفل وسخ غارق في الرماد وفي أقصاها سلم خشبية تنتهي بالصاعد إلى باب في سقفها. ورفع رفيق فوبوس الخفي معطفه حتى بلغ عينيه حين دخل إلى هذا المرقب. وفي هذه الأثناء قال القائد مجدفاً على طريقته: «أريد غرفة سانت مارت.» ثم مد إليها قطعة ذهبية لامعة.

ولقبته العجوز بلقب صاحب السعادة، ثم ضمت القطعة الذهبية إلى الدرج. لقد كانت تلك هي القطعة التي أخذها فوبوس من الرجل ذي المعطف الأسود، وبينما كانت تدير ظهرها، اقترب الطفل ذو الثياب الرثة والذي كان يلعب في الرماد، اقترب بمهارة ظاهرة، فرفع القطعة الذهبية من الجارور ووضع مكانها ورقة جافة كان قد انتزعها من كومة من الحطب. وأشارت العجوز إلى الرجلين أن يتبعاها، ثم ارتقت درجات السلم الخشبية الذي أمامها.

ووضعت مصباحها فوق صندوق خشبي بعد أن بلغت الطابق العلوي، أما فوبوس فقد فتح باباً ينتهي بمن يجتازه إلى حجيرة صغيرة قذرة، ثم قال لرفيقه وفي هيئته ما ينبئ عن سابق معرفته لهذا البيت وخبرته بأقسامه: «ادخل إلى هنا يا عزيزي.» فأطاع الرجل ذو المعطف دون أن يجيب بكلمة واحدة. وأغلق الباب وراءه. وسمع فوبوس يقفله بمغاليقه كلها، ثم يهبط بعد قليل مع العجوز واختفى الضياء.

9 ـ فائدة النوافذ التي تطل على النهر

وتلمّس كلود فروللو بيده جوانب الحجيرة المظلمة القذرة التي أغلق عليه فوبوس بابها، فترة من الوقت. وطبيعي أن القارئ، وهو أحدّ ذكاء

من فوبوس، لم يجد في هذه المغامرة كلها غير الأب الشرس، كاهن جوزا. لقد كانت هذه الحجيرة واحدة من الزوايا التي يحتفظ بها المهندسون البناؤون في بعض الأوقات، في الزاوية حيث يلتقي السقف بالركيزة الجدارية. إن القطاع الشاقولي لبيت الكلب، كما سمّاه فوبوس جعل له شكلاً مثلثاً. على أنها، أي الحجيرة، كانت خالية من النوافذ والكوى، وكان شكل سقفها في انحنائه يحول دون أن يقف المرء فيها. وإذن فقد تجمع كلود في الغبار والقطع الكلسية التي كانت تتحطم تحت قدميه. كان رأسه ساخناً حتى يكاد يحترق. وبينما كان يبحث بيديه من حوله، وجد قطعة من الزجاج المكسور ثبتها فوق جبهته، فحمل إليه ما فيها من البرودة شيئاً من العزاء. ما الذي كان يحدث في روح الكاهن القاتمة المظلمة؟ إنه هو واللّه فقط يستطيعان أن يعرفا ذلك.

كيف كان ينظم في أفكاره صور الاسميرالدا، وفوبوس، والمعلم جاك، وأخيه الصغير الذي كان يحبه ثم تركه مع ذلك غارقاً في وحوله، وزيه الكهونتي، بل وسمعته أيضاً، مجرورة كلها نحو فالوردال العجوز. إنني لا أستطيع أن أقول هنا شيئاً. ولكن الثابت أن هذه الأفكار كانت تشكل في ذهنه مجموعة رهيبة مخيفة.

ومرّ به ربع ساعة، وبدا له أنه قد عمر قرناً من السنين. وفجأة سمع وقع الخطى فوق درجات السلم الخشبية. كان أحدهم يصعد. وفتح باب السقف، وظهر الضياء مرة أخرى. لقد كان في باب غرفته العفن، شق عريض ألصق به وجهه. وبهذه الطريقة كان يستطيع أن يرى كل ما يحدث في الغرفة المجاورة. وبدت العجوز ذات الوجه الشبيه بوجه القط أول الأمر، وبيدها المصباح، ثم تبعها فوبوس وهو يفتل شاربيه ومن ورائهما الوجه الرقيق الجميل، الاسميرالدا. رآها الكاهن تخرج من الأرض وكأنها رؤيا باهرة. وارتجف كلود، وانتشرت سحابة فوق عينيه، وانتفضت شرايين جسده بقوة، كل شيء كان يضج من حوله ويدور. ثم لم يسمع ولم يرَ شيئاً بعد ذلك.

كان فوبوس والاسميرالدا جالسين فوق الصندوق الخشبي إلى جانب المصباح الذي كان يبرز أمام عيني الكاهن هذين الشكلين الفتيين، عندما رجعت نفس كلود إليه.

كانت الفتاة مصطبغة بالحمرة، نابضة لاهثة، ممتنعة خائفة. وكان هدباها الطويلان المنخفضان يظللان وجنتيها الأرجوانيتين. أما الضابط الذي لم تكن تجرؤ على رفع بصرها إليه، فقد كان مرحاً ينبض بالحياة. كانت تخط بأنملتها فوق المقعد خطوطاً متشابكة غير منتظمة ثم تنظر إلى أنملتها بصورة آلية، تنبئ عن تعثرها الطريف. أما قدمها فلم تكن ظاهرة، وأما عنزتها الصغيرة فقد كانت جاثمة فوق هذه القدم، والقائد فوق هذا وذاك على جانبٍ كبير من الأناقة.

كان كلود عاجزاً عن التقاط كل ما كانا يتناولانه من أحاديث، يمنعه عن ذلك، الطنين العنيف الذي ينبعث من دمه حين يجري في فوديه.

وحديث المحبين حديث شديد الابتذال كما نعلم. فهو عبارة واحدة على وجه التقريب: «أحبك». وهي عبارة تافهة عارية عند من لا علاقة له بهذا الحب. ولكن كلود لم يكن في موقف من لا يبالي بهذه العبارة.

كانت الفتاة تقول دون أن ترفع بصرها: «أوه! لا تحتقرني يا سيدي فوبوس. فإنني أشعر بسوء ما أصنع.»

وأجاب الضابط في هيئة الأنيق الممتاز المترفع: «أحتقرك يا طفلتي الجميلة! أحتقرك أنا! ولماذا؟»

ـ «لأنني تبعتك.»

ـ «يظهر أننا غير متفاهمين حول هذا الجانب من الموضوع يا جميلتي. إن عليَّ ألا أحتقرك، بل عليّ أن أكرهك.»

ونظرت إليه الفتاة مذعورة خائفة: «تكرهني؟ وما الذي صنعته؟»

ـ «لأنك أطلت ضراعتي ورجائي.»

قالت: «واأسفاه... ذلك أنني حرمت أمنية من الأماني... فلن

أجد أهلي. . . وستفقد النميمة تأثيرها. ولكن ما الذي يعنيني من هذا كله؟ وما حاجتي الآن إلى أم وأب؟»

وكانت تثبت في القائد عينيها السوداوين المغرورقتين بدموع الفرح والحنان، وهي تتكلم.

فصرخ فوبوس: «أقسم إنني لا أفهمك أبداً!»

فبقيت الاسميرالدا دقائق صامتة لا تتحرك، ثم سالت من عينيها دمعة كبيرة، وجرت من بين شفتيها تنهيدة محرقة، وقالت: «سيدي، إنني أحبك.»

وكان يحيط بالفتاة جو من الخفر والفضيلة الرائعة بحيث إن فوبوس قد شعر بالحرج وهو إلى جانبها. ثم استرجع شجاعته حين نطقت بعبارتها الأخيرة. قال في حماسة عارمة: «هل تحبينني؟» ثم أحاط خصر الغجرية بذراعيه، إذ لم يكن ينتظر غير هذه المناسبة. ورآه الكاهن فوضع طرف أنملته فوق رأس خنجر كان يخبئه في صدره.

وتابعت الغجرية تقول وهي تنزع يدي القائد رفيقة عن خصرها: «إنك طيب، وكريم، وجميل. لقد أنقذتني أنا، الطفلة الغجرية الضائعة. كنت أحلم منذ زمن طويل بضابط ينقذ حياتي. لقد كنت أحلم بك أنت قبل أن أعرفك يا حبيبي فوبوس. وكان لحلمي خصائصك المميزة، وجه كبير، وسيف رائع. إنك تدعى فوبوس، وهو اسم جميل، وأنا أحبه، كما أحب سيفك أيضاً. فسل سيفك إذن كي أراه.»

قال القائد: «إنك طفلة حقاً!» وفك رباط سيفه وهو يبتسم. ونظرت الغجرية إلى قبضته، وحَدِّه، وتفحصت بفضول رقيق رقم السيف ثم قبَّلته وهي تقول: «إنك سيف رجل شجاع. وأنا أحب القائد. . . فوبوس، دعني أكلمك قليلاً. وامشِ عبر الغرفة كي أراك كلك وأسمع رنين مهمازيك، كم أنت جميل!»

ونهض القائد ليُفرحها، وهو يوبخها بابتسامة رضا:

ـ «ولكن هل أنت طفلة! ـ وبهذه المناسبة هل نظرت إليّ يا جميلتي وأنا في الزي الرسمي؟»

أجابت: «لا، وأنا آسفة!»

ـ «إن هذا الزي هو الجميل حقاً!»

ورجع فوبوس يجلس أقرب إليها مما كان من قبل: «اسمعي يا عزيزتي. . .»

وربتت المصرية بيدها اللطيفة على فمه في طفولة مفعمة بالجنون، والروعة والمرح: «لا، لا، لن أستمع إليك. فهل تحبني؟ أريد أن تقول لي ما إذا كنت تحبني فقط.»

وصرخ القائد وهو ينحني في هيئة الراكع: «ماذا إذا كنت أحبك؟ إن جسدي، ودمي، وروحي، كلها بين يديك، ودفاعاً عنك. أحبك ولم أحب أحداً سواك من قبل قط.»

وهنا رفعت الغجرية عينيها نحو السقف الوسخ الذي ينوب عن السماء وقد امتلأتا بسعادة ملائكية، وتمتمت تقول: «أوه! هذه هي الساعة التي يحلو فيها الموت!»

وصرخ القائد المحب: «الموت! ماذا تقولين يا ملاكي الجميل؟ إنها هنا ساعة الحياة، ما هذا المزاح! ـ الحق هو غير هذا. ـ واستمعي إليّ يا عزيزتي سيميلار. . . اسميناردا. . عفواً، إن لك اسماً غريباً حقاً أعجز عن التلفظ به.»

قالت الفتاة: «يا إلهي! لقد كنت أظن أن في هذا الاسم جمالاً فريداً حقاً! أما وهو لا يسرك فسأدعو نفسي غوتون.»

ـ «دعينا من البكاء على مثل هذا الشيء التافه، يا جميلتي! إنه اسم ككل اسم آخر أحتاج معه إلى شيء من التعود، هذا كل ما في الأمر. وستسير الأمور على سجيتها حين أحفظه عن ظهر قلب.»

ـ «استمعي إليّ إذن يا عزيزتي سيميلار، إنني أعبدك حتى الجنون.

أحبك حقاً حتى ليكاد يكون هذا الحب معجزة من المعجزات. وإنني أعرف أن واحدة من الفتيات ستموت حقداً وثورة حين يأتيها نبأ هذا الحب. . . »

وقاطعته الفتاة التي لسعتها الغيرة: «ومن هي؟»

ـ «وما يعنينا من هذا؟ هل تحبينني؟»

قالت: «أوه!»

ـ «حسن جداً! هذا كل ما أريد. وسترين كم أحبك أيضاً. فليمزقني الشيطان الكبير نبتونوس إن لم أجعلك أسعد مخلوقة في الدنيا. سيكون لنا بيت صغير جميل في مكان ما. وأستعرض جنودي الرماة تحت نافذتك. وسأزور معك أجمل مواطن باريس وأروعها وهو ما تشتهيه كل امرأة.»

هذا كله والفتاة سادرة في أفكارها الظريفة، تحلم على صدى صوته دون أن تفقه شيئاً مما يقول.

وفجأة تلفتت الفتاة نحو فوبوس لتقول في حب لا نهائي: «علمني دينك.»

وانفجر القائد ضاحكاً وهو يقول: «ديني! أعلمك ديني أنا! وماذا تنوين صنعه بهذا الدين؟»

أجابت: «لكي نتزوج.»

فاتخذ وجه القائد هيئة امتزجت فيها الدهشة، والازدراء واللامبالاة. ثم قال: «رباه! وهل سنتزوج؟» واصفر وجه الفتاة وتركت رأسها يهبط حزيناً فوق صدرها.

ثم أردف فوبوس بحنان بالغ: «ما هذا الجنون أيتها المحبة الجميلة؟ إن الزواج شيء كبير!»

هذا كله يحدث ودوم كلود يرى ويسمع. لقد كانت في الباب المغلق عليه، شقوق متهرئة عفنة تسمح لنظراته التي كأنها نظرات الصقر أن تمر

عبرها. إن من يرى وجه هذا البائس الملتصق بسلسلة الأخشاب العفنة، يتوهم أن أمامه وجه نمر ينظر من داخل قفصه إلى ثعلب يفترس غزالاً. لقد كانت حدقته تنفجر داخل حجيرته كما ينفجر نور المصباح عبر شقوق الباب.

وفي هذه الأثناء شاهد القائد التميمة الخفية التي كانت تحملها الفتاة فوق نحرها، فقال لها: «وما الذي تحملينه فوق نحرك؟»

قالت بحماسة شديدة: «لا تلمسها، إنها حارستي. إنها هي التي ستتيح لي أن أجد عائلتي إن بقيت جديرة بذلك. أوه! أتركني أيها القائد! أمي! المسكينة! أمي! أين أنت؟ تعالى أنجديني!»

ورجع فوبوس قائلاً بلهجة باردة: «أوه! يا آنستي! يبدو لي أنك لا تحبينني!»

وصرخت الطفلة البائسة المسكينة تقول: «أنا لا أحبه!» وتعلقت في الوقت نفسه برقبة القائد وأجلسته قريباً منها. «أنا لا أحبك، يا عزيزي فوبوس! ماذا تقول هنا، أيها الخبيث، لتمزق قلبي؟ أوه! هيا تعال. وما يهمني من التميمة! وما يعنيني من أمي! إنك أنت أمي، لأنني أحبك! فوبوس، يا فوبوس العزيز، هل تراني؟ إنني أنا من تحبك، انظر إليّ. سأكون أسعد النساء وأشدهن بك فخراً. وعندما أصبح عجوزاً يا سيد فوبوس أو قبيحة، حين لا أعود صالحة لحبك، ستحتملني لكي أقوم على خدمتك. هناك أخريات يطرزن لك مشالحك، أما أنا الخادمة، فسأقوم على العناية بها وصيانتها. ستدعني ألمع مهمازيك، وأنظف ثيابك وأرفع الغبار عن حذائك العالي. أليس كذلك يا عزيزي فوبوس، هل ستكون لك هذه العاطفة الرقيقة؟»

كانت الفتاة قد ألقت ذراعيها حول عنق الضابط، تنظر إليه من أدنى إلى أعلى، ضارعة، مستجدية، وهي منطلقة في حديثها.

وفجأة، رأت فوق رأس فوبوس، رأساً آخر، وجهاً أصفر أخضر متشنج العضلات، ذا نظرات ملعونة شيطانية. وإلى جانب هذا الوجه

تمتد يد تحمل خنجراً مسنوناً. لقد كان الكاهن بيده ووجهه. كسر الباب ودخل إلى الغرفة، أما فوبوس فلم يكن قادراً على رؤيته. وجمدت الفتاة، في جسدها صقيع، خرساء أمام الرؤيا المخيفة الرهيبة.

لقد عجزت عن كل شيء حتى عن الصراخ، ورأت الخنجر يهبط فوق رأس فوبوس ثم يرتفع وهو ينزف من جراح ضحيته. قال القائد: «يا للعنة!» وسقط إلى الأرض.

أما هي فقد أغمي عليها.

ووجدت نفسها محاطة بجنود الحراسة، حين رجع إليها وعيها، ثم حُمل القائد غريقاً في دمائه، واختفى الكاهن، وكانت النافذة المطلة على النهر مفتوحة على مصراعيها، والتقطت معطف ظنت أنه ملك للضابط، وسمعت قائلاً من حولها يقول:

«إنها ساحرة طعنت قائداً من رجال الحرس.»

الكتاب السابع

1 ـ القطعة الذهبية المتحولة إلى ورقة جافة

كان جرنجوار وبلاط العجائب كله في قلق قياماً وقعوداً. كانوا كلهم يجهلون ما أصاب الاسميرالدا، مما كان يُحزن دوق مصر وأصدقاءه من اللصوص، كما كانوا يجهلون مصير العنزة، مما كان يقض مضجع جرنجوار. لقد اختفت الغجرية في ليلة من الليالي، ومنذئذ ـ منذ شهر كامل ـ لم يُسمع عنها خبر من الأخبار. وباءت الأبحاث كلها بالفشل الذريع. لقد بلَّغ بعضهم جرنجوار أنها كانت تصطحب أحد الضباط عند جسر سان ميشال ليلة اختفائها.

ولكن هذا الزوج على الطريقة الغجرية، فيلسوف ملحد. ومع ذلك فهو عاجز عن تفسير هذا الاختفاء.

كان حزنه عميقاً. فهزل بسببه، إن كان هناك سبيل إلى الهزال. ونسي كل شيء حتى أذواقه الأدبية بل حتى أعظم إنتاجه الذي كان عازماً على طبعه بعد أن يتوفر له من المال ما يحتاج إليه.

وبينما هو يسير حزيناً في يوم من الأيام أمام تورنال المجرمة، شاهد جماعة من الناس متجمهرة أمام أبواب قصر العدالة.

سأل شاباً كان خارجاً من هناك: «ماذا هنا؟»

فأجابه الفتى: «لست أدري يا سيدي: يُقال إنهم يحاكمون فتاة قتلت جندياً من الدرك. ويبدو أن وراء هذه الجريمة سحراً، وقد تدخّل كل من

الأسقف ومحكمة التفتيش، وكذلك أخي، الذي هو كاهن جوزا. وقد رغبت في الاتصال به، فلم أستطع بسبب كثرة الناس، مما أزعجني جداً، لا سيما وأنني في حاجة إلى نقود.»

قال جرنجوار: «آسف يا سيدي! لقد كنت أحب أن أعيرك ما تحتاج إليه من النقود، ولكن ثقوب جيوبي لم تحدثها القطع الذهبية كما ترى.»

ثم لم يجرؤ على إخبار الفتى عن علاقته بأخيه الكاهن، الذي لم يزره أبداً بعد مشهد الكنيسة الأخير، وهو إهمال يزعجه.

وتابع الطالب طريقه، وتوجه جرنجوار يتبع الجمهور الذي يصعد أفراده سلم البهو الكبير. وقدّر جرنجوار أن لا شيء أروح للنفس المحزونة من مشاهدة محاكمة جنائية، ما دام القضاء على حظ كبير من الغباء الممتع. أما الناس فقد كانوا يسيرون صامتين يزحم بعضهم بعضاً. وبعد سير بطيء ممل طويل عبر ردهة قاتمة ظهر أمامه باب مطل على بهو، وقد سمح له طول جسده أن يرى ما فوق رؤوس الجمع المتموجة. كان البهو واسعاً قاتماً، منحته قتامته اتساعاً أكبر، ظهر فيه كتّاب المحكمة غارقين في أوراقهم، وانتشر الناس في كل ناحية منه ما عدا اليمين والشمال اللذين شغلهما رجال ذوو أزياء خاصة، وبدا أمام الناس جمع من القضاة المتجهمين ذوي وجوه جامدة شرسة. أما الجدران فقد نثرت فوقها أعداد لا تحصى من زهور الزنبق. وبرز فوق القضاة بصورة مبهمة غامضة تمثال المسيح، ثم تناثرت هنا وهناك رماح انعكست عليها أشعة المصابيح فجعلت لها رؤوساً لاهبة.

وسأل جرنجوار أحد جيرانه قائلاً: «من هم أولئك الرجال الذين انتظموا هناك صفوفاً وكأنهم كهان في مؤتمر كنسي؟»

فأجابه جاره: «إنهم يا سيدي المستشارون والمحققون والقضاة.»

فأردف جرنجوار: «ومن هو ذاك الرجل الضخم الأحمر الذي يتفصد عرقاً ويجلس فوق مقعد مرتفع عن مقاعدهم؟»

ـ «إنه الرئيس.»

ـ «وهذه الخراف التي تقف وراءه؟»

ـ «إنهم يا سيدي رجال التحقيق من قصر الملك.»

ـ «وهذا الخنزير البري الذي يقف أمامه؟»

ـ «إنه كاتب محكمة البرلمان.»

ـ «وذاك التمساح الذي إلى يمينه؟»

ـ «المعلم فيليب لوليا، محامي الملك الاستثنائي.»

ـ «ومن هو القط الأسود الغليظ إلى يساره؟»

ـ «إنه المعلّم جاك شارمولو وكيل الملك في محكمة الكنيسة مع السادة أعضاء محكمة التفتيش.»

ـ «وماذا يصنع كل هؤلاء جميعاً هنا؟»

ـ «إنهم يحاكِمون.»

ـ «ومن يحاكِمون؟ إنني لا أرى متهماً أبداً.»

ـ «إنها امرأة يا سيدي. لا تستطيع أن تراها. فهي تدير ظهرها إلى الناس، يخفيها عنا الجمهور. انظر، إنها هناك حيث ترى مجموعة الحراب.»

وسأل جرنجوار: «من هي هذه المرأة؟ هل تعرف اسمها؟»

ـ «لا يا سيدي. لقد وصلت منذ هنيهة. ولكنني أقدر أن في قضيتها تهمة بالسحر، لأن أعضاء محكمة التفتيش مشتركون في النظر في القضية.»

قال فيلسوفنا: «هيا بنا! سنرى رجال الثوب الكهنوتي يأكلون اللحم البشري. فهو مشهد ككل مشهد آخر.»

ولاحظ جاره قائلاً: «ألا ترى يا سيدي أن للمعلم جاك شارمولو وجهاً رقيقاً؟»

أجاب جرنجوار: «إنني لا أثق برقة ذات شفتين دقيقتين.»

وفرض الجمهور على الرجلين أن يصمتا، فقد كان الناس يستمعون إلى لائحة اتهامات خطيرة.»

وقفت امرأة عجوز في وسط البهو، وقد اختفت تحت ثيابها التي تبدو كومة من الرثاثة تمشي.

كانت تقول: «سادتي! القضية صحيحة، صحة كوني فالوردال، المقيمة منذ أربعين سنة فوق جسر سان ميشال. إنني أنا المرأة العجوز اليوم، والفتاة الجميلة سابقاً! كانوا يقولون منذ أيام: إياك والعمل إلى ساعة متأخرة في مغزلك. والثابت أن الكاهن الشرير الذي كان قريباً من الهيكل في السنة الماضية، قد انتقل اليوم إلى المدينة القديمة. فاحذري يا فالوردال من أن يطرق عليك بابك، وفي مساء يوم، طُرق بابي بينما كنت أغزل بمغزلي فسألت عن الطارق. فأجبت بتجديف وشتم. ودخل رجلان. أحدهما أسود وثانيهما ضابط جميل. ولم أكن أرى من الأسود غير عينيه اللتين كأنهما جمرتان. أما الباقي فقد كان معطفاً وقبعة. ثم قال لي: «غرفة سانت مارت». إنها غرفتي العليا أيها السادة، وهي أنظف غرفي. ثم أعطياني قطعة ذهبية. فوضعت القطعة في الجارور وصعدنا جميعاً. ولم أكد أبلغ الغرفة العليا وأنظر إلى الوراء حتى اختفى الرجل الأسود. فأدهشني ذلك قليلاً. أما الضابط الذي كان جميلاً وأنيقاً كالسيد الكبير فقد هبط السلم معي. وخرج. ثم لم يلبث بعد قليل أن رجع ترافقه فتاة جميلة، لعبة جديرة أن تلمع كالشمس لو أصابها شيء من العناية. وكانت تصطحب معها تيساً، تيساً كبيراً، أسود أو أبيض، لم أعد أذكر لونه. وهذا ما دفعني إلى التفكير. فالفتاة لا تعنيني بل التيس!...

إنني لا أحب هذه الحيوانات، فلها لحية وقرون. مما يجعلها شبيهة بالرجل. على أن فيها ما يشعر باجتماعات السبت الفاجرة، ومع ذلك، فلم أقل شيئاً. لقد كنت أملك القطعة الذهبية. هذا صحيح، أليس كذلك يا سيدي القاضي؟

صعدت بالقائد والفتاة إلى الغرفة العليا ثم تركتهما وحيدين أي مع

التيس ونزلت راجعة إلى ما كنت فيه من الغزل. ـ عليَّ أن أقول لكم إن منزلي مؤلف من طابق أرضي وآخر فوقه، يطل الطابق الأول على النهر في جهته الخلفية، ككل بيوت جسر سان ميشال، كما تنفتح نافذة الطابقين الأرضي والأول على مياه النهر. ـ قلت إنني كنت منهمكة بالغزل. ولا أدري لماذا رجعت أفكّر في الكاهن الشرير الذي ذكرني التيس به. ـ وفجأة سمعت صراخاً، وصدى سقوط جسم فوق أرض الغرفة ونافذة تفتح. فانطلقت نحو نافذتي أنظر، فإذا بي أرى بعيني هاتين كتلة سوداء تسقط في الماء. لقد كانت شبحاً يتزيا بزي كاهن. لقد رأيته بوضوح لأن الليلة كانت مقمرة. وانطلق يسبح متجهاً نحو المدينة القديمة. ناديت الحراس. فدخلوا ثم ضربوني قبل أن يعرفوا حقيقة ما حدث بسبب ما كانوا فيه من المرح والمتعة. شرحت الموقف لهم. ثم صعدنا.

أتعرفون أيها السادة ماذا وجدنا؟ لقد وجدت غرفتي المسكينة غارقة في الدم، ووجدت القائد مستلقياً وقد غرس خنجر بين كتفيه، والفتاة مغمى عليها، والتيس في حالة ذعر وخوف. ـ قلت: حسن جداً سيكون عليَّ أن أعمل خمسة عشرة يوماً في تنظيف ألواح الغرفة الخشبية. إن عليَّ أن أحك وأفرك، وفي هذا ما يخيف وينهك. وحمل الضابط، الشاب البائس المسكين! والفتاة. ـ انتظروا قليلاً. إن أسوأ ما في الأمر أنني عندما غدوت صباح اليوم التالي لأخذ القطعة الذهبية وشراء بعض من أحشاء الخروف، وجدت ورقة جافة.» وسكتت العجوز. وانتشرت بين الناس دمدمة مذعورة خائفة.

وقال جار لجرنجوار: «إن في هذا الشبح، وفي ذاك التيس، ما ينبئ عن السحر.»

ثم أضاف الآخر: «وهذه الورقة الجافة!»

فأردف ثالث: «لا شك في ذلك أبداً، إنها ساحرة ذات علاقة خاصة مع الكاهن الشرير لسرقة الضباط.» وكاد جرنجوار يجد نفسه غير بعيد عن

هذه المجموعة من الأحداث المخيفة الواقعية.

قال السيد الرئيس بجلال: «أيتها المرأة فالوردال، هل عندك شيء آخر تقولينه للعدالة؟»

فأجابت العجوز: «كلا يا صاحب السيادة، لولا أن تقرير الجنود قد وسم بيتي بسمة الكوخ الحقير النتن، وفي مثل هذه الدعوى إهانة مؤلمة. نعم، أنا أعترف أنه ليست لبيوت الجسر فخامة ظاهرة بسبب كثافة السكان، ومع ذلك فإن القصابين سكنوا في كثير منها، واتخذوا لأنفسهم زوجات جميلات فائقات النظافة.»

ونهض القاضي الذي بعث في خيال جرنجوار صورة التمساح يقول: «هدوءاً أيها السادة! أرجو أن لا يذهب عن بالكم أنه قد وُجد خنجر مع المتهمة. ـ وهل أتيت أيتها المرأة فالوردال بالورقة الجافة المتحولة عن القطعة الذهبية التي أعطاك الشيطان إياها؟»

أجابت: «نعم يا صاحب السيادة، لقد وجدتها. هاك هي.»

ونقل أحد الحجاب الورقة الميتة فناولها إلى التمساح الذي أشار برأسه إشارة متجهمة، ثم سلمها إلى الرئيس الذي وجهها بدوره إلى وكيل الملك في محكمة الكنيسة، بحيث أكملت الورقة دورتها حول البهو الكبير. وقال جاك شارمولو: «إنها برهان جديد على ثبوت تهمة السحر.»

ثم ابتدرها أحد المفتشين يقول: «أيتها الشاهدة، لقد جاء إلى منزلك رجلان في الوقت نفسه: الرجل الأسود الذي اختفى منذ البداية، ثم سبح في ماء النهر بثياب كاهن، والضابط. فأيهما أعطاك القطعة الذهبية؟»

وفكّرت المرأة قليلاً ثم قالت: «إنه الضابط!» وانتشرت دمدمة خافتة بين الجماهير.

قال جرنجوار في نفسه: «آه، هاك شيئاً يبعث الشك في يقيني.»

وفي هذه الأثناء تدخَّل المعلم فيليب لوليا، محامي الملك الاستثنائي، فقال: «أُذكِّر أصحاب السيادة، أن الضابط المغدور قد أعلن

بتوقيعه، وهو يحتضر، أنه قد تذكَّر بغموض شديد ما يُقال عن الكاهن الشرير، حين اقترب منه الرجل الأسود. وأنه لا يستبعد أن يكون هذا الرجل هو الكاهن الشرير نفسه» ثم أضاف: «إن الشبح قد أعطاه القطعة الذهبية التي دفعها إلى فلوردال. وإذن فالقطعة الذهبية، نقد من الجحيم.»

وقد بدا هذا الاستنتاج وكأنه قد أزال كل لبس في ذهن جرنجوار والآخرين الذين كانوا يشكون في كل ما يُقال.

وأضاف محامي الملك: «إن الوثائق الثبوتية أيها السادة بين أيديكم. وفي وسعكم الرجوع إلى أقوال فوبوس دي شاتوبار.»

وهنا نهضت المتهمة، وجاوز رأسها أفراد الجمهور. فعرف فيها جرنجوار المذعور، الاسميرالدا الفتاة.

كانت باهتة صفراء، تشوش شعرها، وازرقت شفتاها، وعمقت عيناها فأصبحتا مخيفتين في محجريهما.

ثم قالت: «واأسفاه! فوبوس! أين هو؟ ارحموني يا أصحاب السيادة! وأخبروني ما إذا كان حياً، قبل أن تقتلوني.»

فأجابها الرئيس: «اسكتي أيتها المرأة. ليس هذا من شأننا هنا.»

فأردفت: «أوه رحماكم قولوا لي، ما إذا كان حياً يعيش!» قالت ذلك وهي تضم كفيها الضامرتين، وقد سمع صليل قيودها الحديدية على امتداد ثوبها.

قال محامي الملك: «حسن جداً! لقد مات. فهل أنت سعيدة؟»

وتهالكت المسكينة فوق مقعدها مرّة أخرى، فلا صوت، ولا دموع، بل بياض شمعي ميت في وجهها الباهت.

ثم انحنى الرئيس فوق الحاجب يقول له: «أيها الحاجب أَدخل المتهمة الثانية.»

اتجهت كل العيون نحو باب صغير يفتح، فدخلت منه، أمام دهشة جرنجوار الخافتة، عنزة جميلة ذات قرنين وقوائم ذهبية. ووقف الحيوان

الأنيق فوق عتبة الباب، ماداً عنقه، كما لو أنه انتصب فوق صخرة، وبدا أمام عينيه أفق واسع عريض. وفجأة رأت العنزة سيدتها الغجرية، فقفزت فوق رأس أحد الكتّاب ومنضدته، ثم أصبحت أمام قدمي سيدتها بقفزتين اثنتين فتدحرجت رقيقة أمامها، وهي تنتظر منها كلمة حلوة أو لمسة رفيقة، ولكن المتهمة بقيت جامدة لا حراك بها، ولم تفز دجالي المسكينة منها بنظرة واحدة.

ثم قالت العجوز فالوردال: «هذا هو حيواني الكريه، لقد عرفتهما كليهما معرفة تامّة.»

ثم ابتدر شارمولو أعضاء المحكمة قائلاً: «هل يسر أصحاب السيادة أن نبدأ تحقيقنا مع العنزة؟»

والواقع أن العنزة قد كانت المتهمة الثانية. ولم يكن عهدذاك أبسط من توجيه دعوى تهمة بالسحر ضد حيوان.

وأردف شارمولو يقول: «إننا ننذر الشيطان الذي يحل في هذه العنزة أنه إن أصر على ارتكاب شروره اللعينة، وإثارة الرعب بين أعضاء المحكمة، استعنا ضده بالمشنقة أو المحرقة.»

وتفصد جرنجوار بالعرق البارد. ثم رفع شارمولو دفاً موضوعاً على منضدة، وقدمه إلى العنزة على شكل خاص ثم سألها: «كم الساعة؟»

فنظرت إليه العنزة نظرة ذكية، ثم رفعت قائمتها الذهبية. ونقرت سبع نقرات. وكانت الساعة السابعة حقاً. فشاع بين الناس رعب شامل رهيب.

ولم يستطع جرنجوار صبراً، فصرخ عالياً: «لقد ضاعت المسكينة. إنكم ترونها أنها لا تدري ما تصنع.»

قال الحاجب بصوت حاد: «سكوتاً أيها الفلاحون هناك في أقصى القاعة.»

وراح جاك شارمولو يحرك دف الغجرية على أشكال خاصة فتستجيب له العنزة كما علمتها سيدتها الغجرية وكما يعرف الناس منها

ذلك وسط ساحات المدينة وشوارعها. وبالوهم البصري الذي تتميّز به المناقشات القضائية، سرى في نفوس المشاهدين رعب بالغ مما كانوا يرونه، مع أنهم كانوا من قبل يصفقون له ويعجبون. لقد أصبحت العنزة هنا في نظرهم هي الشيطان نفسه.

وزاد في الطين بلة أن وكيل الملك قد ألقى فوق أرض البهو الحروف الجلدية المتحركة التي طوق بها عنق دجالي. فلم تتردد العنزة في انتقاء الأحرف التي يتألف منها اسم فوبوس. فأيقن الناس أنها هي السحر الذي كان القائد ضحيته، وتحولت الغجرية في نظرهم، وهي الراقصة الحلوة المرحة التي كان الناس ينبهرون بها وبرقتها، واحدة من أبالسة السحرة والجحيم.

ومع هذا كله، فقد غاضت آيات الحياة في جسد الفتاة الغجرية. وعجزت محاولات دجالي اللطيفة، وتهديدات المحكمة وشتائم المشاهدين الصماء، عن أن تبلغ من نفسها شيئاً.

وقد وجب لإيقاظها أن يحركها أحد رقباء الجند بهزة عنيفة خالية من كل شفقة، وأن يرفع الرئيس صوته عالياً ويقول:

«أيتها الفتاة، إنك من العنصر الغجري، وهبت نفسك إلى الشيطان. لقد سحرت بالاشتراك مع العنزة، وبالاتفاق مع قوى الظلام، مستعينة بجمالك ومحاولاتك المغرية، في ليلة التاسع والعشرين من آذار، قائد رماة الملك فوبوس دي شاتوبار. فهل تصرين على إنكار التهمة؟»

وصرخت الفتاة وقد غطت وجهها بيديها قائلة: «يا للفظاعة. يا عزيزي فوبوس! إنه الجحيم حقاً.»

فكرر الرئيس سؤاله: «هل تصرين على إنكار التهمة؟»

قالت بصوت رهيب ونهضت وفي عينيها شرر ملتهب: «نعم، أنكرها.»

وتابع الرئيس يقول: «كيف تفسّرين الوقائع التي تتهمك؟»

فأجابت بصوت متقطع:

«لقد سبق أن قلت لكم الحقيقة. إنني لا أدري. هو كاهن. كاهن لا أعرفه، كاهن جهنمي يلاحقني في كل مكان.»

فأردف الرئيس: «وإذن فهو الكاهن الشرير.»

ـ «أوه! يا صاحب السيادة! أشفقوا عليَّ! لست غير فتاة مسكينة.»

قال القاضي: «من بلاد الغجر.»

وابتدر جاك شارمولو الجمع يقول: «نظراً لعناد المتهمة المؤلم، أقترح أن تطبق عليها أساليب التحقيق.»

قال الرئيس: «موافق.»

واقشعر جسد الفتاة كله. ونهضت بأمر حاملي الحراب، فسارت بخطى ثابتة، يسبقها شارمولو وكهنة محكمة التفتيش، بين صفين من حاملي الحراب نحو باب فتح فجأة ثم أغلق عليها، مما ترك في نفس جرنجوار صورة حيوان قد فتح شدقيه ليفترسها.

ثم سمع ثغاء العنزة المؤلم الباكي بعد أن اختفت الفتاة.

ورفعت الجلسة حتى نهاية التحقيق، بعد أن لاحظ أحد المستشارين أن السادة أعضاء المحكمة قد أصابهم تعب شديد، وأن انتظار نهاية التعذيب قد يكون طويلاً، فأجابه الرئيس قائلاً: «إن على رجل القضاء أن يعرف كيف يضحي بنفسه في سبيل واجبه.»

ثم قال قاض هرم: «ومما يؤسف حقاً أنها قد دفعت نفسها إلى التعذيب ولمّا نتناول عشاءنا بعد.»

2 ـ تابع القطعة الذهبية
التي تحولت إلى ورقة جافة

وبعد أن اجتازت الاسميرالدا المسكينة بضع درجات عبر ردهة مظلمة تضاء بالمصابيح خلال النهار، وحولها موكبها المتجهم، دفع بها

بعض رقباء الجند نحو غرفة مخيفة. إنها غرفة مستديرة، قائمة في قاعدة أحد هذه الأبراج الضخمة، التي ما تزال حتى عصرنا الحاضر، مخترقة طبقة الأبنية الحديثة التي علت بها باريس طبقة أبنيتها القديمة. فلا نافذة في هذا الكهف بل ولا مخرج له غير باب منخفض وحيد مصنوع من الحديد الكثيف. أما الضياء فلم يكن ينقصها. لقد كانت تلمع فيها نار موقد حفر في أحد جدرانها. وكانت ناراً عظيمة كسفت بألسنة لهبها ضياء المصباح الذي وضع في إحدى الزوايا. وبعد أن فتح باب الموقد، بانت أطراف الحواجز الحديدية السفلى فيه كأنها صف من أسنان فم التنين الذي يقذف باللهب، وتحدثنا الأساطير عنه. ورأت السجينة من ضوء النار التي تنطلق ألسنتها خارج الموقد، آلات مخيفة لم تدرك الغاية منها وكيفية استعمالها. وفي وسط الغرفة فراش من الجلد، قد عُلِّق فوقه حبل جلدي ذو حلقات، موصول بحلقة من النحاس، أدخلت في شكل حجري منحوت في وسط قبة الغرفة. تضاف إلى هذه كلها مقابض حديدية وأعواد وأسياخ وأشكال أخرى مختلفة وضعت كلها في وسط الجمر الملتهب. والواقع أن لهب الموقد الدامي لم يكن يضيء من الغرفة كلها غير كومات من الأشياء الرهيبة المخيفة.

كانوا يسمون هذه الغرفة ببساطة كلية، غرفة التحقيق.

أما الذين كانوا يشغلونها فهم بطرس تورتارو الجلاد المحلف، ومساعدان له ذوا وجهين مربعين، ومريلتين جلديتين، يحركان آلات التعذيب في فحم الموقد. والحق أن الفتاة التي احتفظت بشجاعتها إلى تلك الساعة لم تلبث هناك في الغرفة حتى أصابتها قشعريرة الذعر الفظيع. ووقف رقباء قاضي القصر في جانب، وأعضاء محكمة التفتيش في جانب آخر. ثم انتصب أحد الكتّاب وأمامه مثلث خشبي يستعمله للكتابة في جانب ثالث. ويقترب جاك شارمولو من الغجرية وفي فمه ابتسامة رقيقة ويقول: «يا طفلتي العزيزة، هل ما تزالين تصرين على إنكار التهمة؟»

أجابت بصوت منطفئ: «نعم.»

فأردف شارمولو يقول: «في هذه الحالة نجد أنفسنا مرغمين على التحقيق معك بشيء أكثر من العنف ومما نتمناه نحن. ـ تفضلي وخذي مكانك فوق هذا الفراش. ـ وأما أنت أيها المعلم بطرس، فالرجاء أن تخلي للفتاة مكانها، ثم أغلق الباب.»

ونهض بطرس مدمدماً: «إذا أغلقت الباب، انطفأت ناري.»

فأجاب شارمولو: «حسن جداً. أبقه مفتوحاً.»

وفي هذه الأثناء بقيت الاسميرالدا واقفة. لقد كان هذا الفراش، الذي تلوى فيه كثير من البائسين، يخيفها. لقد أشاع الرعب صقيعاً في نخاعها الشوكي. كانت هناك مذعورة بلهاء. وبإشارة من شارمولو، أجلسها الخادمان المساعدان فوق مكانها من السرير. ثم لم يصيباها بسوء. ولكنها حين أحست بهما يضعان أيديهما فوق كتفيها، وبالجلد يمسها، انبعث دمعها كله فجرى نحو قلبها. فألقت نظرة تائهة حول الغرفة. وخُيِّل إليها أن كل ما حولها من آلات التعذيب الشائهة يتحرك ويسير نحوها من كل جهة، ليتسلق جسدها ويعضها ويخزها، كما تكون الخفافيش والحشرات ذات المئات من القوائم والعناكب بين الهوام والعصافير.

قال شارمولو: «أين الطبيب؟»

فأجاب ثوب أسود لم تكن قد رأته الفتاة: «هنا يا سيدي.»

فاقشعرت.

وتردد صوت الوكيل في محكمة الكنيسة، رفيقاً، للمرة الثالثة: «هل تصرين على إنكار الوقائع التي اتهمت بها؟»

وفي هذه المرة لم تستطع أن تتكلم فأشارت برأسها أن نعم.

قال شارمولو: «إنك تصرين إذن! فأنا منك يائس، وعليَّ أن أقوم بواجب وظيفتي.»

قال بطرس الجلاد فجأة: «بأي شيء نبدأ يا سيدي؟»

فتردد شارمولو قليلاً، وكأنه شاعر يفتش عن قافية ثم قال: «بالحذاء الحديدي.»

وهنا شعرت البائسة أن الجميع قد تخلوا عنها، اللّه والناس، بحيث إن رأسها هبط فوق صدرها جامداً لا حراك فيه.

واقترب الطبيب والجلاد معاً. وراح الخادمان يبحثان في كومة آلاتهما البشعة عن الحذاء الحديدي.

فاقشعرت الطفلة عند سماعها صليل آلات الحديد وكأنها ضفدعة وصلت بتيار كهربائي ودمدمت بصوت غير مسموع: «أوه يا حبيبي فوبوس!» ثم غرقت مرّة أخرى في جمودها وصمتها الرخامي. لقد كان هذا المشهد جديراً بتمزيق أي قلب غير قلوب القضاة.

ففي هذا المشهد ما ينبئ بأن روحاً خاطئة مسكينة يحقق معها شيطان رجيم تحت حنية من حنايا الجحيم. إن هذا الجسد الذي ستعضه المنملة القبيحة البشعة من المناشير والعجلات والحلقات الرهيبة وتتعلق به، إن هذا الكائن الذي ستعالجه أيدي الجلادين القاسية الخشنة، قد كان مخلوقاً ناعماً رقيقاً أبيض يبعث الفرحة من القلوب والعزاء في النفوس.

لقد أسلمت هذه الحبة اللطيفة، أسلمتها عدالة الإنسان، إلى مطحنة التعذيب الهائلة لتحيلها هباء منثوراً.

وفي هذه الأثناء عريت ساق الطفلة، عرتها أيد قاسية خشنة لخادمي الجلاد في قسوة ووحشية بالغتين. إنها الساق التي طالما أثارت إعجاب المارة بلطفها وجمالها السماوي في ساحات باريس ومفارق طرقها.

ثم دمدم الجلاد يقول وهو يتأمل روعة هذه الأشكال اللطيفة: «إنها خسارة حقاً. ولو شهد الكاهن هذا المنظر لتذكر رمز العنكبوت والذبابة.» ورأت الفتاة، خلال سحب منتشرة أمام عينيها شكل الحذاء الحديدي يقترب منها، ثم لم تلبث أن وجدت قدمها حبيسة فيه مختفية وراء أنيابه الحديدية فمنحها الرعب شيئاً من القوة وقالت: «ارفعوا هذا عني!»

ورفعت جسدها ضارعة قائلة: «رحماكم!» ثم تابعت نهوضها تريد

أن تزحف راكعة تحت قدمي وكيل الملك، ولكن ساقها قد جمدت في كومة ثقيلة من الحديد والخشب، فانهارت فوق فراشها كما تنهار النملة التي هبطت فوق جناحها قطع من الرصاص.

ووضعت فوق السرير بإشارة أخرى من شارمولو، وأثبتت يدان غليظتان حول خصرها الحبل الجلدي ذا الحلقات، والمعلق في وسط قبة الغرفة.

سألها شارمولو بصوته ذي الوداعة الهادئة: «هل تعترفين بوقائع القضية؟»

ـ «إنني بريئة.»

ـ «وإذن، كيف تفسرين ظروف الاتهام؟»

ـ «واأسفاه! يا صاحب السيادة! إنني لا أعرف شيئاً منها.»

ـ «فأنت إذن تنكرين.»

ـ «كل شيء!»

قال شارمولو لبطرس الجلاد: «هيا يا بطرس.» وأدار بطرس مقبض الرافعة. فضغط الحذاء الحديدي فوق قدمها، وأرسلت البائسة صرخة من تلك الصرخات التي اجتمع فيها من الذعر والألم ما تعجز أية لغة من لغات البشر عن وصفه.

قال شارمولو للجلاد: «قف» ثم توجه إلى الغجرية يقول: «هل تعترفين؟»

وصرخت الفتاة: «بكل شيء! أعترف! نعم أعترف! رحماكم.»

إنها لم تحسب حساب قواها حين تحدّت التحقيق وجابهته. لقد قهر الألم هذه الطفلة المسكينة بعد أن كانت حياتها كلها مرحة، رقيقة، لطيفة.

وعلَّق وكِيل الملك على جوابها قائلاً: «ترغمني عاطفتي الإنسانية على أن أخبرك بأن اعترافك يعني الموت الذي تنتظرين.»

قالت: «أرجو ذلك» ثم هوت فوق الفرش، شبه ميتة، مطوية على نفسها، تاركة جسدها معلقاً بالحذاء الجلدي الذي ربط به صدرها.

قال الجلاد وهو ينهضها: «ما هذا يا جميلتي! امسكي نفسك قليلاً! إنك تظهرين لي كالخروف الذهبي المعلق في عنق السيد دي بورغوني.»

ورفع جاك شارمولو صوته:

ـ «اكتب أيها الكاتب: هل تعترفين أيتها الفتاة باشتراكك في حفلات سحر الجحيم ولعناته مع الديدان والسحرة وشياطينهم؟ أجيبي!»

قالت بصوت خفيض حتى كاد يضيع في نفسها: «نعم.»

ـ «هل تعترفين أنك قد شاهدت الحمل الذي يظهره بلزابوت في الضباب، إيذاناً باجتماع السحرة، والذي لا يراه غير السحرة فقط؟»

ـ «نعم.»

ـ «هل تعترفين أنك لم تعبدي غير رؤوس البوفاما، الأوثان اللعينة لكهنة الهياكل؟»

ـ «نعم.»

ـ «وإنك على علاقة مع الشيطان الذي تجسّم في شكل عنزة لطيفة، أدرجت قضيتها في هذه الدعوى؟»

ـ «نعم.»

ـ «وأخيراً، هل تعترفين أنك قد قتلت في ليلة التاسع والعشرين من آذار بمساعدة الشيطان والشبح المدعو بالكاهن الشرير، القائد الدركي فوبوس دي شاتوبار؟»

فرفعت إلى القاضي عينيها الثابتتين، وأجابت بصوت آلي، دون تشنج أو اهتزاز: «نعم». والثابت أن كل شيء كان قد انهار فيها حينذاك.

قال شارمولو: «اكتب أيها الكاتب.»

ثم توجه إلى الجلادين وقال: «لتفك السجينة ولتحمل إلى قاعة المحكمة.»

وبعد أن نزع عن قدم الفتاة حذاؤها المعدني، تفحص وكيل الملك القدم المتورمة بفعل الألم وقال: «هيا بنا! فليس هناك شر كبير. لقد صرخت في الوقت المناسب. إنك ما تزالين قادرة على الرقص يا جميلتي.»

ثم التفت نحو زملائه من أعضاء محكمة التفتيش.

«لقد وجدت العدالة أخيراً طريقها! ووضح لها السبيل! مما يسركم يا أصحاب السيادة. وستشهد الفتاة على أننا تصرفنا معها بأقصى رقة ممكنة.»

3 ـ نهاية القطعة الذهبية المتحولة إلى ورقة جافة

دخلت الفتاة إلى قاعة المحكمة، باهتة تعرج، فاستقبلتها دمدمة من السرور واللذة. أما الجمهور المشاهد فقد كانت لذته، بسبب شعوره بالرضى بعد نفاد صبره، هذا الشعور يحس به أمام المسرح عند نهاية الاستراحة الأخيرة للقطعة المسرحية، حين ترتفع الستارة وتبدأ النهاية.

وأما القضاة، فقد كانت لذتهم، لذة مَنْ شعر بقرب تناوله لطعام العشاء. وكذلك العنزة التي عبّرت عن فرحتها بثغائها الرقيق، وهمّت تلحق بسيدتها لولا أنها ربطت بمقعد خشبي.

وهبط الليل كاملاً. وأرسلت المصابيح قليلاً من الضياء، إذ لم يزد عددها، بحيث لم تكن جدران القاعة واضحة مرئية. وأحيطت الأشياء، بسبب من موجات الظلام، بشيء يشبه الضباب. ثم لم يظهر غير قلة من وجوه القضاة المثلوجة الميتة. وبدت أمامهم في الطرف الأقصى من القاعة كتلة مبهمة صغيرة من البياض، ناتئة في القاع المظلم. لقد كانت تلك الكتلة هي المتهمة.

كانت قد جرَّت نفسها إلى مقعدها، حين جلس شارمولو فوق مقعده

في أبهة ظاهرة، ولم يلبث أن وقف وقال دون أن يظهر المزيد من الغرور بنجاحه: «لقد اعترفت المتهمة بكل شيء.»

فأردف الرئيس يقول: «هل اعترفتِ أيتها الفتاة الغجرية بوقائع سحرك وغدرك بفوبوس دي شاتوبار؟»

فانقبض صدر الفتاة. وسُمع تهدّجها الباكي في الظلال.

ثم أجابت هزيلة ضعيفة: «اعترفت بكل ما تريدون، ولكن اقتلوني سريعاً!»

قال الرئيس: «إن المحكمة مستعدة للاستماع إلى محضر تحقيقك، أيها السيد، وكيل الملك في محكمة الكنيسة.»

وكشف السيد شارمولو أمام الأنظار ملفه المخيف، ثم انطلق يقرأ عظة لاتينية حُشيت بعبارات شيشرون الضخمة، وتخللها نصوص مأخوذة عن بلوت، أديبه المفضل. ويؤسفنا أننا عاجزون عن إيراد هذه القطعة لسادتنا القراء، والتي قرأها الخطيب بحركات معجبة حقاً. ولم يكد ينهي مقدمته حتى تفصد جبينه عرقاً، وجحظت عيناه. وفجأة، توقف قليلاً فأصبحت نظراته شديدة قارعة، وهو في العادة، الغبي اللطيف إلى حد ما، وقد أصابه هذا التحول حين بلغ في قراءته مقطعاً جميلاً من مقاطع عظته ثم قال: (وقد نطق هنا باللغة الفرنسية): «سادتي، لقد اشترك الشيطان في هذه القضية بحيث إنكم ترونه هنا يشرف على مناقشاتنا ويسخر من جلالها سخرية ظاهرة واضحة!»

وكان يشير بيده وهو يتكلم إلى العنزة الصغيرة، التي خُيِّل إليها وهي تنظر إليه أنه يمثل دوراً مضحكاً، فقعدت فوق مؤخرتها وراحت تقلده بقوائمها ورأسها ذي اللحية الطويلة، في كل ما تجده من حركات وجهه المثلوج وإشاراته. والتقليد، كما يذكر السادة القُراء، من خصائص مهارتها اللطيفة المحببة. فكان لهذا الحادث، أو قل هذا البرهان الجديد، وقع كبير في النفوس.

فقيّدت قوائم العنزة، ثم تابع وكيل الملك خطابه البليغ.

لقد كان خطاباً ضافياً، والحق أنه كان معجباً رائعاً.

وجلس بعد طول عناء معيداً قبعته إلى رأسه. ثم نهض رجل آخر ذو ثوب أسود. إنه وكيل الدفاع بينما بدأ القضاة الجائعون، يدمدمون.

قال الرئيس: «لا تطل أيها السيد، وكيل الدفاع.»

فأجاب وكيل الدفاع: «سيدي الرئيس، أما وقد اعترفت موكلتي بجريمتها، فليس لي إلا أن أقول لأصحاب السيادة غير الكلمات القليلة التالية: جاء في القانون الإفرنجي ما يلي: إذا أكلت إحدى الساحرات واحداً من الناس، واعترفت بجريمتها، فإنها تدفع جزاء نقدياً ثمانية آلاف درهم، وهي تساوي مئتي درهم ذهبي. فهل يسر المحكمة الموقرة أن تقضي على موكلتي بهذا الجزاء؟»

فقال محامي الملك الاستثنائي: «لقد ألغي هذا النص.»

أجاب وكيل الدفاع: «كلا أيها السيد الوكيل.»

فأردف أحد المستشارين: «لنقترع على القضية، إن الجريمة واضحة، والوقت متأخر.»

وبدأ الاقتراع برفع القبعات. لقد كان القضاة على عجل من أمرهم. وبدأ الناس يرون في الظلال رؤوساً ترفع عنها قبعاتها جواباً على السؤال الرهيب الذي كان يوجهه الرئيس إلى أصحابها بصوت منخفض. أما المتهمة فقد بدت المسكينة تنظر إليهم، ولكن الواقع أنها لم تكن ترى شيئاً أبداً.

وراح كاتب المحكمة يكتب، ثم حمل الورقة الطويلة التي كتبها إلى الرئيس. فسمعت البائسة دمدمات الجمهور، وصليل الحراب والرماح، وصوتاً مثلوجاً يقول:

«يا فتاة الغجر، ستُحملين ظهر اليوم الذي يختاره مولانا الملك، عارية القديم، وفي عنقك حبل من مسد، فوق عربة، أمام الباب الكبير لكنيسة نوتردام، وتقدمين هناك مشعلاً من الشمع زنته رطلان، ثم تُحملين

من هناك إلى ساحة جريف، حيث تشنقين بمشنقة المدينة، وكذلك عنزتك، وستدفعين إلى مكتب محكمة التفتيش ثلاث قطع ذهبية، تعويضاً عن الجرائم، التي ارتكبت من قبلك، جرائم السحر، والقتل والإغراء، ضد شخص السيد فوبوس دي شاتوبار. ليرحمك اللّه وليغفر لك.»

فدمدمت المسكينة تقول: «أوه! إنه حلم جميل!» ثم أحست بأيد قاسية تقودها.

2 ـ فقدان الأمل

لا يكون البناء كاملاً في القرون الوسطى، ما لم يكن تحت الأرض مثيل له. لهذا كان للقصر والحصن والكنيسة آنذاك جذر مضاعف، ما لم تكن هذه الأبنية مبنية فوق مجموعة من الركائز ككنيسة نوتردام. لقد كان تحت الكاتدرائيات، كاتدرائيات أخرى، منخفضة، مظلمة، عمياء خرساء، وقد تكون في الكاتدرائية السفلى مقبرة، بينما تكون الكاتدرائية العليا مفعمة بالضياء، تتموج فيها أصداء الأجراس في الليل والنهار. أما في القصور والحصون، فتكون الطبقة السفلى محابس وسجوناً، وقد تكون مقابر، أو تكون الاثنتين معاً. وهكذا يتبين لنا أن الأبنية التي تحدثنا عنها في غير هذا الفصل، ليست ذات أسس، بل ذات جذور، تنطلق متفرعة في الأعماق، غرفاً وردهات، وسلالم، كما هو الجزء الأعلى تماماً، بحيث يصبح جسد القصور والحصون والكنائس مغروساً في الأرض حتى وسطه. وتصبح كهوف البناء، بناء آخر ينزل فيه المرء، بدلاً من أن يصعد. فتتشابه مع الأكوام الخارجية للبناء العظيم، كأنها الغابات والجبال التي تنعكس خيالاتها في مياه بحيرة قائمة تحت هذه الجبال والغابات.

كانت هذه الأبنية التحتية، في حصن القديس انطوان، وفي قصر العدالة وقصر اللوفر سجوناً. أما طبقات هذه السجون فإنها تزداد ضيقاً

وظلمة كلما زادت غوصاً في باطن الأرض، وهي في تدرجها شبيهة بتدرج ألوان الرعب القاتل ومعانيه. والواقع أن دانتي لم يجد لجحيمه صورة أصدق من صور هذه السجون.

وتنتهي هذه المخابئ، التي تشبه الأقماع، في العادة إلى كهف يتصل بأعمق الجذور وضع فيه دانتي شيطانه، وكان المجتمع يومذاك يضع فيه، مَنْ أدانته المحكمة وقضت عليه بالموت. فإذا بلغ إنسان من الناس هذا المكان فقد ودع الضياء والهواء والحياة. ثم لا يخرج منه إلا إلى المشنقة أو المحرقة. وقد يتعفن فيه. وقد كانت هذه العدالة الإنسانية تسمي مَنْ يُترك فيه إلى الأبد، بالمنسي. أما المحكوم فيحس بأن بينه وبين الناس شيئاً يثقل فوق رأسه، هو هذه الأكوام من الحجارة، والسجانون، ثم السجن كله، فلا يكون الحصن بكليته غير قفل هائل شديد التعقيد يحجز ما بينه وبين عالم الأحياء.

وُضعت الاسميرالدا في كهف من هذا الطراز، في واحد من هذه المخابئ المنسية التي حفرها القديس لويس، في ممر لاتورنال المغلق. وقد وضعت هناك دون ريب، خوفاً من أن تجد سبيلاً إلى الهرب، لقد كان قصر العدالة كله جاثماً فوق رأس هذه المسكينة.

كانت هناك، ضائعة في الظلمات، مطمورة، مسجونة، مقيدة. إن كل من يراها هناك جدير أن يجد القشعريرة في جسده وهو الذي يعرفها فتاة ضاحكة راقصة تحت ضياء الشمس الكبير. كانت باردة كالليل، باردة كالموت، محرومة من نسمة الهواء في شعرها، ومن الصوت البشري في أذنها، ومن ضياء النهار في عينيها، محطمة مطوية، أنهكتها السلاسل، تجمعت بجسدها أمام جرة وقطعة من الخبز فوق قليل من القش، في مستنقع مائي تحلبت بمياهه جدران الكهف الذي كانت فيه، جامدة لا حراك بها، هادئة حتى يكاد نَفَسها أن ينقطع، غائبة حتى تكاد لا تتألم أبداً.

أما فوبوس، والشمس، والهواء الطلق، وشوارع باريس، والرقصات

التي كان يصفق لها الناس، وثرثرتها الحلوة مع الضابط، ثم الكاهن، والعجوز، والخنجر، والدماء، والتعذيب، والمشنقة، كل هذه كانت تمر وتمر أيضاً في خيالها، تبدو تارة رؤيا من تلك الرؤى الذهبية المنشودة، وتارة أخرى كابوساً مريعاً، ثم لم يعد هذا كله بعد ذلك، غير معركة مخيفة مبهمة تضيع في الظلمات أو موسيقى بعيدة تتجاوب أصداؤها هناك فوق الأرض فلا تسمع في الأعماق التي سقطت إليها هذه البائسة.

وهي منذ كانت هناك لم تعد تعرف السهر والنوم. ولم تكن قادرة على التمييز بين اليقظة والنعاس، بين الحلم والحقيقة، بين النهار والليل، في ذلك المخبأ البائس.

كل هذا كان مختلطاً، محطماً، طافياً، منتشراً بإبهام فائق في تفكيرها وخيالها، إنها لم تعد تشعر، كما لم تعد تفكر أو تعرف. ولم يتصل مخلوق بالعدم وهو كائن حي اتصال هذه الفتاة.

ثم لم تكد وهي المثلوجة، المتجمدة تعي حركة من الحركات غير مرتين أو ثلاثة، فمن كوة في مكان ما فوقها دون أن تدع طريقاً للقليل من النور، تلقي إليها، عبر هذه الكوة، يد بقطعة من الخبز الأسود. ومع ذلك فقد كانت زيارة السجان الدورية لها، هي الصلة الوحيدة التي تربطها بالناس الأحياء.

شيء واحد فقط كان يشغل أذنها بصورة آلية: إنه الرطوبة التي كانت ترشح عبر الحجارة العفنة فوق رأسها. لقد كانت قطرة من الماء تنفصل عن هذه الحجارة العفنة وتسقط بانتظام. فكانت الفتاة تصغي بصورة بلهاء للصدى الذي كانت تحدثه هذه القطرة كلما سقطت، في ماء المستنقع المتجدد إلى جانبها.

إن هذه القطرة الساقطة في المستنقع هي مصدر الحركة الوحيدة التي كانت تتحرك من حولها، وهي الساعة الوحيدة التي تعين الزمن، والصدى الوحيد الذي يبلغها من كل ما يحدثه الناس من الأصوات والصخب على وجه الأرض.

لكي نحيط بكل شيء علماً، نقول: إنها كانت تشعر خلال هذه الكتلة الكثيفة من الظلام، بين وقت وآخر، بشيء بارد يزحف هنا وهناك فوق القدم أو الذراع، فتقشعر منه.

لم تكن تعرف كم قضت من الأيام هناك. بل تذكر حكماً بالموت صدر في مكان ما ضد إنسان من الناس وأنها نقلت بعد ذلك، وأنها استيقظت بعد نقلها، وسط الليل والصمت الثلجي الرهيب. كانت تزحف على يديها بينما كانت حلقات من الحديد تحز أسفل ساقيها وسلاسل أخرى ترسل صدى صليلها. واكتشفت أن كل شيء حولها حاجز جداري، وأن ما تحتها أرض تغطيها المياه وكومة من القش. ولكن لا مصباح ولا فرجة. وهي فوق كومة القش، وقد تجلس ابتغاء تغيير وضعها في بعض الأوقات فوق أدنى درجة من درجات سلم حجرية موجودة في مخبئها. وقد حاولت في فترة من الفترات أن تعد الدقائق السوداء التي تعينها قطرة الماء، ولكن هذا العمل الحزين لم يلبث أن انقطع من نفسه في دماغ مريض يحويه رأسها المتهالك ثم تركها في خوف دائم.

وأخيراً، وفي يوم من الأيام في نهار أو ليل إذ لا فرق بينهما في هذه المقبرة، سمعت ضجة أكبر من تلك التي يحدثها الحارس الذي يحمل إليها الخبز وجرة الماء في العادة. فرفعت رأسها ورأت شعاعاً أحمر يمر عبر الشقوق التي يحدثها باب أو كوة في قبة الكهف. وفي الوقت نفسه صر الحديد الثقيل، واصطكت «مفصَّلات» الفتحة الصدئة ودارت فشاهدت مصباحاً ويداً والجزء الأسفل لجسدي رجلين، وقد كان الباب من الانخفاض بحيث إنها لم تستطع رؤية رأسيهما. وبهرها النور بشدة حتى أنها أغمضت عينيها.

وبعد أن فتحتهما كان الباب قد أغلق مرة أخرى، ووضع المصباح فوق الدرجة الحجرية وبقي أمامها رجل واحد فقط. كان هذا الرجل مغطى من مفرق رأسه حتى أخمص قدميه فلا ترى منه شيئاً، لا ترى وجهه كما لا ترى يديه. كان شبحاً طويلاً يحس الناظر إليه أن شيئاً يتحرك

داخل هذا الغطاء. وأثبتت نظرها في هذا الطيف دقائق قليلة. لم تتكلم هي كما لم يتكلم هو أبداً خلالها. كأنهما تمثالان يتقابلان، شيئان فقط كانا يبدوان حيين في الكهف: فتيل المصباح الذي يتذبذب بسبب رطوبة الجو، وقطرة الماء الساقطة من القبة والتي كانت تقطع هذه الذبذبة بصدى اصطدامها الرتيب بماء المستنقع الزيتي، وتحدث الرجفة في ضوء المصباح الذي ينعكس في هذا الماء.

وأخيراً قطعت السجينة الصمت فقالت: «من أنت؟»

ـ «كاهن.»

فاقشعرت حين سمعت الكلمة والنبرة والصوت.

وتابع الكاهن بصوته الأصم:

ـ «هل أنتِ مستعدة؟»

ـ «لماذا؟»

ـ «للموت.»

قالت: «أوه! هل أصبح قريباً؟»

ـ «غداً.»

ورجع رأسها هابطاً فوق صدرها بعد أن ارتفع في شيء من الفرح ودمدمت: «الأجل بعيد! فما الذي يحول دون أن يكون اليوم؟»

قال الكاهن بعد صمت: «إذن أنتِ بائسة جداً؟»

فأجابت: «أحس ببرد شديد.»

وأحاطت قدميها بكفيها، وهي حركة عادية تصدر عن البائسين الذين يصيبهم البرد الشديد كتلك الحبيسة التي رأيناها في حجيرة برج رولان، ثم اصطكت أسنانها.

وبدأ الكاهن ينقل بصره من وراء غطاء رأسه عبر الكهف.

ـ «هذا شيء مخيف! فلا ضوء! ولا نار! والسكن في الماء!»

فأجابت باندهاش منحها إياه البؤس: «نعم، إن النور هو لكل الناس. فلماذا لا يعطونني إلا الظلام؟»

فأردف الكاهن بعد صمت جديد: «هل تعرفين سبب وجودك هنا؟»

ـ «أرجو الخروج من هنا أيها السيد، فالبرد شديد.»

وفجأة انفجرت تبكي كالطفل الصغير.

ـ «أريد الخروج من هنا يا سيدي. إنني خائفة. يلذعني البرد، وفي الكهف حيوانات تزحف عبر جسدي كله.»

ـ «حسن جداً، اتبعيني.»

وأخذ الكاهن بذراعها فسرى في جسدها إحساس بالبرد مع العلم أنها كانت مثلوجة حتى الأحشاء.

ودمدمت تقول: «أوه! هذه يد الموت الباردة. فمن أنت إذن؟»

ورفع الكاهن غطاء رأسه ونظرت. فإذا به الوجه المتجهم المخيف الذي يتبعها منذ زمن طويل. إنه رأس الشيطان الذي ظهر لها عند فالوردال، فوق رأس فوبوس المعبود، إنها العين التي رأتها تلمع آخر مرة قريباً من الخنجر.

لقد أخرجتها هذه الرؤيا من جمودها، وهي التي دفعتها من بؤس إلى آخر حتى أشد أنواع التعذيب وأشقاها. وبدا لها أن القناع الذي كان قد تكاثف فوق ذاكرتها قد تمزق. ورجعت إليها تفصيلات مغامرتها الرهيبة، منذ المشهد الليلي عند فالوردال حتى صدور الحكم عليها بالموت في تورنتال، رجعت، لا كما كانت من قبل، مختلطة مبهمة بل واضحة، حرَّى، حاسمة، نابضة، مخيفة. إن هذه الذكريات التي كادت تمحى وتزول، وكأنها اختفت بفعل الألم الكبير، قد انبعثت حية مرّة أخرى أمام هذا الوجه القاتم. كما تكشف النار المقربة من صفحة من الورق عن حروفها الخفية التي كتبت بحبر سحري، وبدا لها أن جراح قلبها كلها قد نكأت ودميت مرة واحدة.

ثم صرخت قائلة وهي تغطي عينيها بكفيها وترجف رجفة متشنجة: «آه! هذا هو الكاهن!»

وتركت ذراعيها تهبطان يائستين، ثم بقيت جالسة، برأس منخفض، وعين مثبتة في الأرض، خرساء دائمة الارتجاف.

أما الكاهن فبقي ينظر إليها بعين الحدأة التي حوَّمت طويلاً في الفضاء حول قبّرة مسكينة جاثمة بين سنابل القمح، وقد ضيقت دوائر تحويمها المخيفة في صمت بالغ منذ زمن طويل، ثم انقضّت فجأة فوق فريستها كما ينقضّ سهم البرق اللامع، وتركتها معلقة في براثنها.

وراحت تدمدم بصوت خفيض: «أجهز عليَّ! أجهز عليَّ! وارسل ضربتك الأخيرة!» ثم غاصت برأسها مذعورة بين كتفيها، كالنعجة التي تنتظر ضربة الجزار.

قال الكاهن: «يبدو لي أنني أخيفك؟»

فلم تجب.

فكرر يقول: «هل أخيفك حقاً؟»

فتقلصت شفتاها وكأنها كانت تبتسم.

قالت: «نعم، إن الجلاد يسخر بضحيته. هذه هي شهور تمر يلاحقني فيها، ويهددني، ويخيفني! كم كنت سعيدة دونه! إنه هو الذي ألقى بي في هذه الهوة! أيتها السماء، هذا هو القاتل... إنه هو الذي قتل فوبوس الحبيب!»

وانفجرت باكية ثم رفعت عينيها إلى الكاهن: «أوه، أيها البائس! من أنت؟ وما الذي صنعته لك؟ إنك تكرهني جداً؟ واأسفاه! ما الذي دفعك إلى الحقد عليّ؟»

فصرخ الكاهن: «أحبك!»

وفجأة جمدت عيناها وقالت وهي ترتجف: «أي حب؟!» فأردف: «حب إبليس اللعين.»

ثم بقي كلاهما صامتاً دقائق عديدة رازحين تحت وطأة أهوائهما، أما هو ففاقد لشعوره وأما هي فبلهاء.

قال الكاهن أخيراً وقد رجع إليه هدوء فريد: «أصغي إليّ، إنك ستعرفين كل شيء. سأقول لك ما لم أكن أجرؤ على أن أقوله لنفسي، حين كنت أناقشها الحساب خلال ساعات الليل العميقة حيث تتكاثف الظلمات التي يخيَّل إلينا معها أن اللّه لا يرانا. أصغي إليّ. لقد كنت سعيداً قبل أن ألتقي بك أيتها الفتاة...»

فتنهدت ضعيفة تقول: «وأنا أيضاً!»

ـ «لا تقاطعيني. نعم، لقد كنت سعيداً، أو هكذا كنت أظن على الأقل. كنت طاهراً، وكانت روحي مفعمة بالضياء الصافي. لا يرتفع رأس أشد تيهاً وفخراً وإشعاعاً من رأسي. لقد كان كبار العلماء يأتون إليّ فيسألونني ويستشيرونني. نعم، كان العلم هو كل شيء عندي. كان أخاً لي وأخاً يرضيني. ثم لم تخامرني أفكار أخرى إلا بمرور السنين. ولكن الصوم والصلاة والدراسة ورياضات الدير الروحية قد جعلت من روحي سيدة لجسدي. فإذا أصابني مس من الشيطان فتحت كتاباً فتتطاير أبخرة دماغي لتذوب أمام بهاء العلم وروعته. وفي دقائق قليلة، كنت أحس أشياء الأرض الكثيفة تهرب مني بعيداً عني، فأجد هدوئي، سعيداً طاهراً صافي الأعماق أمام الشعاع المطمئن للحقيقة الخالدة. أصغي إليّ. وفي يوم...»

وهنا، توقف الكاهن، وسمعت السجينة صدى تنهيداته تخرج من صدره كأنها حشرجة محتضر.

ثم أردف: «وفي يوم من الأيام، كنت مستنداً إلى نافذة حجرتي...

ـ ماذا كنت أقرأ يومئذ؟ أوه! لقد أصبح كل ذلك عاصفاً يدور في رأسي. ـ كنت أقرأ. وكانت الغرفة تطل على ساحة. فسمعت صدى دف وموسيقى. نظرت إلى الساحة مغضباً منزعجاً في أحلامي اليقظة. أما ما رأيت، وما كان يراه غيري، فلم يكن مشهداً مصنوعاً لعيون بشرية. هناك

وسط الميدان ـ الوقت ظهراً، والشمس كبيرة في السماء ـ كانت فتاة ترقص. عيناها سوداوان وفي ظلمة شعرها شعرات تخللتها أشعة الشمس فبدت ذهبية اللون فاتنة. وقدماها تختفيان في حركاتهما كما تختفي عوارض العجلة التي تدور بسرعة فائقة. وفي ضفائر شعرها، ومن حول رأسها، صفائح معدنية رقيقة تلمع تحت أشعة الشمس فتبدو تاجاً من النجوم. أما ثوبها الذي انتثرت فيه أشكال مطرزة لامعة أيضاً، فقد كان يبدو كلَيلة من ليالي الصيف الساجية الصافية، وذراعاها المرنتان السمراوان تتلاقيان وتتباعدان حول قوامها كمنديلين مجنحين في سماء علوية. أوه! يا للجسد الرائع الذي يبرز شيئاً مضيئاً حتى في رابعة النهار!... واأسفاه! أيتها الفتاة، لقد كنتِ أنتِ هناك. ـ وتركت نفسي أنظر إليك في إمعان حتى أنني شعرت بالقشعريرة تسري فجأة في جسدي كله، لقد أدركت أن القدر الغاشم قد ألقى القبض عليّ.»

وتوقف الكاهن المتعب قليلاً ثم تابع يقول:

«حاولت أن أتعلق بأي شيء أجده، وأن أمنع نفسي من السقوط، بعد أن سرى السحر أو كاد في أحشائي وروحي. وتذكرت الأفخاخ التي طالما وضعها الشيطان أمامي. ولكن المخلوقة الراقصة قريباً مني كانت تملك من الجمال الفائق العجيب ما لا يمكن أن يأتي إلا من السماء أو الجحيم. لم تكن فتاة عادية من اللواتي صنعن من تراب أرضنا وأضيئت أعماقهن بشعاع متذبذب لروح امرأة من النساء. لقد كانت ملاكاً! ولكنه ملاك من الظلمات، ملاك من النار لا من النور. وفي الوقت الذي كانت أفكّر فيه بهذا كله، رأيت بالقرب منك عنزة صغيرة، بهيمة من بهائم السحرة، تنظر إليّ وهي ضاحكة. وشمس الظهيرة تمنحها قروناً ذهبية. وهنا تبيَّن لي فخ الشيطان، ثم لم أشك بعد ذلك أنك مصدر ضياعي، وقد آمنت بهذه الحقيقة.»

وهنا نظر الكاهن إلى وجه السجينة وأضاف ببرود شديد:

«وما زلت أؤمن بها. ـ وفي هذه الأثناء أخذت فعالية جمالك تعمل

في نفسي شيئاً فشيئاً، فرقصك يدور عنيفاً في دماغي، وأحسست بالإثم الخفي يتراكم في روحي، ثم أصبحت كمن يموتون في الثلوج، أجد لذة في اقتراب النوم الأخير.»

«وفجأة أخذتِ تغنين. ماذا كنت أستطيع أن أفعل أيتها البائسة؟ لقد كان غناؤك أروع من رقصك أيضاً. حاولت الهرب، فتعذر ذلك عليّ. لقد كنت مسمراً، كنت منغرساً في باطن الأرض. وبدا لي أن البلاط الرخامي قد ارتفع حتى بلغ ركبتيّ. فوجب أن أبقى حتى النهاية. في قدمي ثلوج، وفي رأسي غليان. وأخيراً يظهر أنك قد أشفقت عليّ، فكففت عن الغناء، واختفيت. وامّحت بالتدريج في عيني وأذني، انعكاسات الرؤيا الباهرة، وأصداء الموسيقى الساحرة. ثم هبطت فوق زاوية النافذة، أكثر جموداً وضعفاً وهربت، ولكن واأسفاه! لقد كان في أعماقي شيء سقط ثم عجز عن النهوض. شيء عرض لي فلا أستطيع هرباً منه.»

واستراح قليلاً أيضاً ثم تابع:

«نعم منذ ذاك اليوم صرت رجلاً غيري أنا، لم أكن أعرفه من قبل. حاولت التوسل بكل دواء، العمل والكتب. لقد جننت! أوه! كم يبدو العلم فارغاً حين نأتيه يائسين وبرأس مفعم بالأهواء!»

«هل تعرفين أيتها الفتاة ماذا كنت أرى بعد ذلك دائماً بيني وبين الكتاب؟ أنت، ظلك، صورة الرؤيا المضيئة التي اخترقت الفضاء أمامي في يوم من الأيام. ولكن هذه الصورة لم تعد محتفظة بلونها نفسه، كانت قاتمة، مظلمة كما تكون الدائرة السوداء التي تلاحق عين الطائش ممن يثبت نظره طويلاً في نور الشمس.»

«أما ولم أستطع التحرر من خيالك، أما وأنا أسمع غناءك يطن في رأسي، أما وأنا أرى قدميك ترقصان فوق كتاب الصلاة، فقد رغبت في رؤيتك مرة أخرى، في أن أعرفك، أن أتبيَّن ما إذا كانت شبيهة حقاً بخيالك المثالي الذي رسب في أعماقي، أن حطم حلمي أمام الحقيقة.

وفي كل حال، كنت آمل أن يأتيني شيء جديد، فيمحو الشيء القديم الأول الذي لم أعد أحتمله. بحثت عنك، ورأيتك مرّة أخرى. فيا لبؤسي! إذ لم أكد أراك للمرة الثانية، حتى رغبت في رؤيتك ألف مرة، في رؤيتك دائماً أبداً. فكيف كلح مزلاقي فوق هذه الهوة من الجحيم؟ ـ لم أعد أنا، فلا سلطان لي على نفسي. إن الطرف الآخر للخيط الذي قيّد به الحب الشيطاني جانحي، قد ربط بقدميك. فأصبحت ضائعاً تائهاً مثلك. أنتظرك تحت حنايا الأبواب، وأراقبك عند زوايا الشوارع، وأبحث عنك من فوق برجي. وفي كل مساء، أرجع إلى نفسي، أكثر يأساً، وضياعاً وانسحاراً!»

«عرفت أنك غجرية، فكيف أشك في سحرك؟ أصغي إليّ. لقد أملت أن تنقذني قضية قضائية من سحر جمالك. لقد أحرق برونوداست إحدى الساحرات وشفي من مرضه، بعد أن شغف بها حباً. كنت أعرف هذا. فرغبت في تجربة هذا الدواء. حاولت بادئ الأمر أن أبعدك عن ساحة الكنيسة، راجياً أن أنساك، فيما لو امتنعت عن الرجوع إليّ. ولكنك لم تفعلي ذلك. فرجعت. ثم خطر لي أن أخطفك. وحاولت ذلك في إحدى الليالي. كنا اثنين، قد أمسكنا بك حين تدخّل هذا الضابط البائس. فحرَّرك. وأخيراً وشيت بك إلى محكمة التفتيش، بعد أن لم أعد أعرف ما أصنع وما سأنتهي إليه.»

«وهنا بدأت أخيفك حيث ألتقيك. كانت المؤامرة التي أنظمها ضدك، والعاصفة التي أجمعها فوق رأسك تنفجر خارجة من نفسي رعوداً وبروقاً وتهديدات. وفي هذه الأثناء كنت متردداً أيضاً. لقد كانت لمشروعي جوانب مخيفة أتراجع أمامها.»

«كان من الممكن أن أقلع عما عزمت عليه، وكان من الممكن أن تجف فكرتي البشعة في دماغي فلا تحمل شراً. وكنت أظن أن إيقاف هذه الدعوى أو متابعتها متعلقان بي. ولكن الفكرة السيئة خطيرة ملحاحة وهي تحاول أن تكون حقيقة واقعة، فحيث ظننت أنني الطرف القوي، كان

القدر أقوى مني وأعز جانباً من جانبي. واأسفاه! واأسفاه! إنه هو الذي أخذك أخذة شديدة، وأسلمك إلى أنياب الآلة المخيفة التي كنت قد بنيتها في الظلام! ـ أصغي إليّ، لقد بلغت النهاية.»

«وفي يوم من الأيام، في نهار شمسه كبيرة مضيئة، رأيت رجلاً يمر أمامي وهو يلفق اسمك ضاحكاً. يا للعنة! وأنت تعرفين الباقي.»

وسكت. أما الفتاة فلم تجد غير عبارة واحدة:

«آه! يا فوبوسي العزيز!»

قال الكاهن وهو يمسك عنيفاً بذراعها: «لا تنطقي هذا الاسم أبداً. كم نحن بائسون، هذا هو الاسم الذي ضيعنا! أو أن كلاً منا قد ضيَّع الآخر في لعبة القدر الغامضة! أجل، إنك تتألمين! إنك تحسّين الصقيع، والليل يعميك! ـ والكهف يحيط بك! ولكنك قد تحتفظين في أعماق قلبك بقليل من الضياء هو حبك الطفلي لرجل كان يعلب بقلبك، أما أنا فإنني أحمل الكهف في قلبي. في أعماقي شتاء بارد، ثلج ويأس، وفي روحي ليل دامس أسود. هل تعرفين كل ما تحملته من الآلام، لقد تابعت سير قضيتك. وكنت مع أعضاء محكمة التفتيش. نعم لقد كان وراء غطاء من أغطية الكهنة، آلام رجل ملعون، وحين حملت إلى غرفة التعذيب، كنت هناك أيضاً. إنها جريمتي أنا، كنت أرى مشنقتي ترتفع وئيداً فوق جبينك. كنت هناك أمام كل شاهد، وكل حجة، وكل دفاع، وقد استطعت أن أعد كلاً من خطواتك في الطريق المؤلمة، وكنت هناك أيضاً حين حاول هذا الحيوان المتوحش... ـ أوه! إنني لم أكن أنتظر التعذيب!

أصغي إليّ. لقد تبعتك إلى غرفة الآلام. وبينما كنت أنظر إليك، كنت أحمل خنجراً أحز به صدري. وحين أرسلت صرختك الأولى غرسته في لحمي، أما بعد الصرخة الثانية فقد دخل إلى قلبي! انظري. إنني أظن أنه ما يزال يدمى حتى الآن.»

والواقع أن صدره كان مخزقاً كما لو أن مخلب نمر قد أطبق عليه. وفي خاصرته جرح كبير لم يندمل بصورة نهائية.

وتراجعت السجينة خوفاً ورعباً.

فزحف الكاهن نحوها على ركبتيه.

وصرخ: «أتضرع إليك، لا تدفعيني إذا كان لك قلب!... أوه! كم نستطيع أن نكون سعداء! إننا سنهرب ـ سأهرِّبك ـ ننطلق إلى مكان ما، نبحث عن الأرض التي تحظى بالنصيب الأكبر من نور الشمس، والأشجار الخضراء، والسماء الزرقاء. سنمزج روحينا معاً.»

فقاطعته الفتاة بقهقهة مخيفة منفجرة وهي تقول: «انظر، إن تحت أظافرك دماً!»

ولبث الكاهن قليلاً جامداً ينظر إلى يديه.

ثم أردف يقول أخيراً برقة غريبة: «أهينيني، اسخري بي، ألقي عليّ ما تشائين! ولكن تعالي، تعالي، لنسرع. سينزل القضاء بك. إنها مشنقة جريف، هل تعرفين؟ وهي قائمة موجودة أبداً. وإنه شيء رهيب أن أراك محمولة فوق هذه العربة! أوه! رحماك! اتبعيني. سيكون لك من الوقت ما تشائين لتحبيني بعد أن أنقذك. وستكرهينني طويلاً كما ترغبين أيضاً ولكن تعالي. غداً! غداً! المشنقة! عذابك الرهيب! أوه! أنقذيني! لا تتركيني أقع في الهاوية!»

ـ «ماذا أصاب فوبوس الحبيب؟»

قال الكاهن وهو يلحس ذراعها: «آه! إنك قاسية خالية من الشفقة!»

ورددت ببرودة تقول: «ماذا أصاب فوبوس؟»

صرخ الكاهن قائلاً: «لقد مات!»

فقالت بصوت دائم الجمود والبرود: «مات! فلِمَ تحدثني إذن عن الحياة؟»

أما الكاهن فلم يكن يسمعها بل قال يحدث نفسه: «نعم، يجب أن

يكون ميتاً. لقد نفذ الخنجر بعيداً في أعماقه. وفي ظني أنني قد أصبت قلبه! لقد كنت أعيش حتى طرف الخنجر!»

وألقت الفتاة نفسها فوقه وكأنها نمرة غاضبة، ثم دفعته نحو درجات السلم بقوة غير طبيعية ثم قالت: «اغرب عني، أيها الوحش! اغرب عني، أيها القاتل! دعني أموت! وليترك دَمَانا نحن الاثنين في جبهتك لطخة خالدة. لن يجمعنا شيء أبداً، حتى الجحيم! اغرب عني، أيها الملعون! أبداً لن أكون لك.»

وتعثر الكاهن فوق درجات السلم. ثم أخرج قدميه صامتاً من ثنايا ردائه، وحمل مصباحه وراح يصعد وئيداً الدرجات التي تقود إلى الباب، ثم فتحه وخرج.

وفجأة رأت الفتاة رأسه يبرز مرّة أخرى، وفي قسماته تعبير مخيف، وصرخ في حشرجة الغيظ واليأس:

ـ «قلت لك إنه قد مات!»

وسقطت يصدم وجهها الأرض، فلم يُسمع بعد ذلك في الكهف غير صدى قطرة الماء التي تنداح لها مياه المستنقع في أعماق الظلمات.

5 ـ الأم

لا شيء أدعى إلى الضحك من الأفكار التي تستيقظ في قلب أم حين يقع نظرها على حذاء طفلها الصغير. ولا سيما إذا كان حذاء عيد، أو حذاء أيام آحاد، أو التعميد، الحذاء المطرز إلى ما وراء النعل، الحذاء الذي لم يخطُ به الطفل بعدُ خطوة واحدة. في هذا الحذاء كثير من الجمال والصغر وهو عاجز عن السير إلا في نظر الأم التي تجد فيه طفلها. إنها تضحك له، وتقبله، وتتحدث معه. إنها تتساءل عما إذا كان في الإمكان حقاً أن تكون قدم بمثل هذا الصغر اللطيف، والحذاء الجميل وحده، كان لكي يضع هذا كله تحت عينيها، رغم اختفاء الطفل، وذهاب

صورته الحلوة الرقيقة. هي تعتقد أنها تراه، وهي تراه حقاً، كاملاً، حياً، مرحاً، بيديه اللطيفتين، ورأسه المستدير، وشفتيه الطاهرتين، وعينيه الصافيتين اللتين يكون بياضهما أزرق اللون. فإذا كان الشتاء، فهو هنا، يزحف فوق البساط، ويتسلق مقعداً منخفضاً في جهد بالغ، والأم ترتجف خوفاً من أن يصل إلى النار. وإذا كان الصيف، يحمل نفسه إلى الباحة في الحديقة، ينتزع العشب من بين بلاطات الأرض، وينظر بريئاً إلى الكلاب، والخيول الكبيرة، دون خوف أو وجل، يتسلى بالأصداف، والأزهار، ويدفع الجنائني إلى انتهاره حين يجد تراباً فوق المماشي والردهات. كل شيء يضحك ويلمع، وكل شيء يلعب مثله من حوله حتى أن أنفاس الهواء وأشعة الشمس تتزاحم في حلقات شعره الطائشة. وتجد الأم هذا كله في الحذاء فيذوب قلبها كما يذوب الشمع أمام النار.

أما حين يضيع الطفل نهائياً، فإن هذه الآلاف من صور المرح، والجمال، والحنان، التي تتجمع حول الحذاء الصغير تصبح أشياء رهيبة مخيفة. ويصبح الحذاء المطرز الجميل آلة تعذيب تسحق قلب الأم أبداً. إنه العصب نفسه يهتز ويتحرك، عصب بالغ العمق، بالغ الحساسية، وبدلاً من أن يمسه ملاك من الملائكة رفيقاً به، يأتيه شيطان رجيم فيلكزه ويخزه.

وفي صباح، بينما كانت شمس أيار ترتفع في سماء عميقة الزرقة، سمعت حبيسة برج رولان صدى عجلات تمر، وصهيل خيول، وصليل حديد، في ساحة جريف. فلم تستيقظ إلا قليلاً، ثم عقدت شعرها حول أذنيها لكي لا تسمع، وراحت جاثية على ركبتيها تتأمل الشيء الجامد، الذي كانت تتعبد له كذلك منذ خمس عشرة سنة. لقد سبق أن قلنا إن هذا الحذاء هو بالنسبة إليها، الوجود كله. قد أغلق فكرها على نفسه فيه، فلا تخرج به منه إلا بالموت. أما ما أرسلته من الشتائم المرة، وقذفت به من الشكاوى، من الصلوات والبكاء، من أجل هذا الشيء الذي صنع من الساتان الوردي، فإن كهف برج رولان وحده يعرفه ويحيط به علماً. فلم

يعرف خيال الإنسان يأساً أشد من ذاك الذي انتشر حول مثل هذا الحذاء اللطيف الجميل.

وكان ألمها يبدو في هذا الصباح أشد عنفاً مما هو في العادة، وقد سُمعت من الخارج تقول نادبة نفسها بصوت مرتفع رتيب يبعث الأسى في القلوب.

كانت تقول: «آه! يا بنيتي! يا بنيتي! يا طفلتي المسكينة العزيزة! هل لن أراك أبداً؟ لقد انتهى إذن كل شيء! يخيل إليّ أن كل ما أصابك قد حدث أمس فقط! يا إلهي، يا إلهي، أما وأنت تريدها بمثل هذه السرعة، فقد كان حقاً عليك ألا تعطيني إياها أبداً. أفلا تعرف أن أطفالنا هم حشاشة قلوبنا، وأن الأم التي تفقد طفلها لا تعود مؤمنة باللَّه؟

«آه! كم أنا بائسة إذ خرجت في ذاك النهار! - إلهي - إلهي! وإذن فأنت لم تنظر إليّ، إذ أخذتها مني، وأنا أدفئها فرحة قرب النار، تبتسم لي وهي ترضع، لم تنظر إليّ وأنا أرفع قدميها إلى صدري ثم أبلغ بهما شفتي! أوه! لو أنك نظرت إلى هذا كله يا إلهي لأشفقت على سعادتي أن تنهار، ولما انتزعت حبي الوحيد الذي بقي لي في قلبي! فهل كنت يا إلهي من البؤس والمسكنة بحيث لا تنظر إليّ قبل أن تُنزل بي قضاءك! واأسفاه! واأسفاه! هاك هو الحذاء! ولكن أين هي القدم؟ أين الباقي؟ بل أين الطفل كله؟ يا بنيتي! ما الذي صنعوه؟ أعدها إليّ، يا إلهي. لقد قضيت خمسة عشر عاماً أصلي لك راكعة على ركبتي الداميتين أفلا يكفيك هذا كله؟ أعدها لي، يوماً واحداً، أو ساعة واحدة، بل دقيقة واحدة، دقيقة واحدة فقط، يا سيدي وإلهي! ثم ألقِ بي بعد ذلك إلى الشيطان حتى أبد الآبدين! أوه! لو كنت أعرف أين أجد طرف ردائك، لتعلقت به بيدي هاتين، يجب أن تعيد إليّ طفلتي! هذا هو حذاؤها الجميل، أفلا تشفق عليَّ يا إلهي، هل يسعك أن تعذب امرأة مسكينة خمس عشرة سنة؟ أيتها العذراء الطيبة! يا عذراء السماء! إن طفلي المسيحي، قد أُخذ مني، لقد سرق، وأكل، وشرب دمه، ومضغت

عظامه! أيتها العذراء الطيبة! أشفقي عليّ! إنها ابنتي! أريد ابنتي! ماذا يفيدني أن تكون هي في الجنة؟ فأنا لا أريد ملاكاً من عندك، بل أريد طفلي أنا! إنني لبوءة. وأريد شبلي.

«أوه! سأتلوى فوق الأرض، وسأحطم الحجر بجبيني، وسألعن نفسي، وسألعنك، يا إلهي، إن أنت احتفظت بطفلي! إنك ترى أن ذراعي مكدودتان ضامرتان، سيدي! أليس في قلب اللّه شفقة؟ ـ أوه لا تعطني غير ملح وخبز أسود، شرط أن ترجع ابنتي إليّ، وأن تدفئني كالشمس! وأسفاه! يا سيدي الإله، لست أكثر من خاطئة كريهة، ولكن فتاتي جعلتني تقية ورعة. كنت مفعمة بالدين، حباً بها، وكنت أراك خلال ابتسامتها وكأنها كوة تطل على السماء. ـ أوه! لو أستطيع فقط مرة واحدة، مرة واحدة أيضاً، مرة واحدة أن أضع قدمها الوردية الصغيرة الجميلة، في هذا الحذاء، ثم أموت أيتها العذراء الطيبة، وأنا أباركك! ـ آه! خمس عشرة سنة! إنها الآن شابة كبيرة! ـ أيتها الطفلة البائسة! ماذا! هل صحيح أنني لن أراك أبداً حتى في السماء! لأنني لن أذهب إليها؟ كم يؤلمني أن أقول: هاك حذاءها ثم لا يكون شيء وراء ذلك!»

وألقت البائسة نفسها فوق هذا الحذاء فهو عزاؤها الوحيد، ويأسها منذ سنين طويلة، وأحشاؤها تتمزق ببكائها تماماً كما حدث لها في السنة الأولى ذلك لأن الأم التي تفقد طفلها تجد في كل يوم من الأيام، يوماً أول لثكلها. إن هذا الألم لا يهرم أبداً. فقد تبيض ثياب الحداد وتهترئ، ولكن سواد القلب يبقى. وهناك بلغتها أصوات أطفال مرحة صافية. فكانت كلما سمعت هذه الأصوات تقفز نحو أشد زوايا قبرها ظلمة وقتامة، حتى ليقال إنها تحاول الغوص في الحجر لكي لا ترى ولا تسمع. أما في هذه المرة فقد حدث العكس، لقد نهضت وكأنها تقفز قفزاً، وأصغت متعطشة إلى الأصوات. كان أحد الأطفال يقول: «ستشنق اليوم فتاة غجرية.»

وركضت المسكينة نحو كوتها التي تطل على ساحة جريف في سرعة

العنكبوت التي تنقض على الذبابة عند اهتزاز نسيجها العنكبوتي. والواقع أن سلماً قد نصبت قريباً من المشنقة الدائمة، وقد انهمك العامل المختص في ضبط وتهيئة السلاسل الصدئة بفعل مياه الأمطار. وكان هناك من حولها بعض من الناس.

وابتعد الأطفال. وحاولت الحبيسة بعينيها البحث عمن تستطيع أن تسأله الخبر. فشاهدت قريباً من كهفها، كاهناً يتظاهر بقراءة كتاب الصلاة العمومي، ولكن انشغاله بالمشنقة بدا أعظم كثيراً من انشغاله بصلوات الكتاب، كان يوجّه نحوها بين فترة وأخرى، نظرة قاسية مظلمة. فعرفت فيه كاهن جوزا، الرجل القديس.

وسألته: «من سيشنقون يا أبي؟» فنظر الكاهن ثم لم يجب، وقال بعد أن كررت سؤالها: «لا أدري.»

لقد سمعت أطفالاً يقولون: «إنها عجرية.»

قال الكاهن: «أظن ذلك.»

وهنا انفجرت «باغيت لا شانت فلوري» بقهقهة كقهقهة الفهد.

قال الكاهن: «وإذن فأنت تكرهين الغجريات؟»

فصرخت الحبيسة: «نعم إنني أكرههن، إنهن ساحرات، سارقات للأطفال! قد افترسن فتاتي الصغيرة، طفلتي! طفلتي الوحيدة! لم يعد لي قلب. لقد أكلنه!»

لقد كانت مخيفة. أما الكاهن فكان ينظر إليها ببرود.

«هناك واحدة أكرهها بصورة خاصة، وقد لعنتها، إنها فتاة شابة، لها عمر ابنتي الآن لو لم تأكلها أمها. وكلما مرت هذه الأفعى بالقرب من حجيرتي، بعثت في دمائي القلق والاضطراب!»

قال الكاهن، بارداً كتمثال قبري: «حسن جداً. يا أختاه! استمتعي، إنها هي التي سترينها تموت اليوم.»

وهبط رأسها فوق صدرها وابتعد هو بطيئاً وئيداً.

وضمت الحبيسة ذراعيها فرحة مرحة: «لقد تبنأت لها بذلك، يا سيدي الكاهن! فشكراً لك!»

وأخذت تروح وتجيء بخطوات واسعة أمام عوارض الكوة، بشعر متناثر، وعين لاهبة، تصدم الجدار بكتفها، وهي في هيئة ذئبة وحشية جائعة في قفصها منذ زمن طويل وقد شعرت باقتراب موعد تناول الطعام.

6 ـ ثلاثة قلوب لثلاثة رجال مصنوعة بطرق مختلفة

لم يكن فوبوس في تلك الأثناء ميتاً. إن لمثل هذا الرجل حياة قاسية صلبة. وعندما قال المعلم فيليب لوليا، محامي الملك الاستثنائي للاسميرالدا المسكينة: إنه مات، فقد أخطأ أو قصد المزاح. أما حين ردد الكاهن على المحكومة قوله: إنه ميت، فالواقع أنه لم يكن يعرف الحقيقة. إلا أنه كان يريد هذا الموت ويؤمن به وينتظره ويرجوه.

كان شديداً عليه، أن يحمل إلى المرأة التي يحب أخباراً طيبة لمنافسه. فأي رجل آخر مكانه جدير أن يفعل فعله.

ولا يعني هذا أن جرح فوبوس لم يكن خطيراً، لكن خطورته أقل مما كان يتصور الكاهن. لقد قلق رجال فوبوس عليه في الأيام الثمانية الأولى، حتى أنهم قد عبّروا عن قلقهم هذا. ومع ذلك فقد تغلب الشباب وأنقذت الطبيعة هذا المريض تحت سمع الطبيب وبصره. وقد خضع لتحقيقات فيليب لوليا الأولى ثم تحقيقات أعضاء محكمة التفتيش ولم ينهض من فراشه بعد، مما أزعجه إزعاجاً شديداً. وفي صباح يوم جميل ترك مهمازيه الذهبيين لدى الصيدلي مقابل معالجته، وابتعد هارباً. فلم يسبب هذا الهرب أي بطء في سير التحقيق. إذ لم تكن العدالة يومئذ شديدة الاهتمام بوضوح الدعوى الجنائية ونظافتها، شرط أن يشنق المتهم، هذا هو كل ما يجب لها وتلتزم به. وعلى ذلك، فقد كان بين

يدي القضاة ما يكفي من الإثباتات لإدانة الاسميرالدا. وظنوا فوبوس ميتاً، وقِيل كل ما كان يجب أن يُقال.

أما فوبوس من جانبه، فلم يهرب بعيداً جداً. لقد التحق بفرقته التي كانت تعسكر على بُعد فراسخ قليلة من باريس.

وبعد هذا كله، لم يحلُ له أبداً أن يظهر في هذه الدعوى بشخصه. كان يشعر شعوراً غامضاً أنه سيكون موضع سخرية من الجميع. والواقع أنه فكَّر طويلاً في هذه القضية. كان قليل الورع شديد التمسك بالخرافات، شأن كل جندي لا يكون إلا جندياً، وكان حين يسأل نفسه عن هذه المغامرة، لا يحس بالاطمئنان إلى العنزة، إلى الطريقة الغريبة التي لقي بها الاسميرالدا، إلى الأسلوب الذي لا يقل غرابة عن طريقة اللقاء والذي أعلنت به الفتاة الغجرية إليه عن حبها، عن صفتها الغجرية. وأخيراً لم يطمئن أبداً إلى الكاهن الشرير. كان يرى في هذه القصة من السحر أكثر مما يجد من الحب، فقد تكون هذه الفتاة ساحرة في نظره، وقد تكون هي الشيطان، إنها مهزلة، وبلغة هاتيك الأيام، سر بشع قبيح، دوره فيه هو دور البله والعته، دورٍ فيه سخريات وضربات. فكان القائد من ذلك في خجل دائم. لقد كان يحس بهذا النوع من الخجل الذي عبّر عنه لافونتان بطريقة معجبة إذ قال:

«خجل كخجل الثعلب الذي وقع في حبائل الدجاجة.»

وكان يرجو ألا تترك هذه القضية ضجة في الخارج، وألا يتردد اسمه كثيراً، وهو الغائب دائماً عن مسرح القضية. والخلاصة أنه كان يريد ألا تتجاوز الضجة حدود منطقة التورنال. وهنا لم يخطئ ظنه. إذ لم تكن توجد يومئذ صحف لنشر أخبار المحاكم. وبما أنه لم يكن يمر أسبوع من الأسابيع دون أن يسلق مزيف نقود بالماء الغالية، أو تشنق ساحرة أو يحرق زنديق، في واحدة من محاكم باريس العدلية المتعددة، فقد تعوّد الناس أن يروا عند زوايا الطرق كلها، آلة الإقطاعية الهرمة، بذراعيها العاريتين، وكميها المشمرتين عاملة في أوتاد التعذيب أو المشانق أو

الخوازيق، بحيث لا يكادون يلتفتون إليها. حتى أن العلية من القوم يجهلون، أو يكادون، اسم المتهم الذي يمر عند زاوية الشارع، أما الجمهور فقد كان يستمتع بهذا الطعام الوحشي الغليظ.

إن تنفيذ حكم بالإعدام في الطريق العمومي شيء عادي جداً، فلا يختلف الجلاد عن الجزار هناك إلا في أنه جزار أشد ظلمة وقتامة.

وإذن فقد أراح فوبوس ضميره بشأن الاسميرالدا الجميلة أو سميلار كما كان يقول حين أصابته طعنة الغجرية أو الكاهن الشرير «لا فرق عنده» وبشأن نهاية الدعوى ونتيجتها. ومنذ خلا قلبه من ذكرى الغجرية، رجعت صورة فلور دو لي إليه. لقد كان قلب فوبوس، كطبيعة هاتيك الأيام، يخاف من الفراغ.

أما سكناه في معسكره فقد كانت تافهة. إنها في قرية رثة من قُرى الرعاة وفقراء الناس. إنها ذيل من الأكواخ والبيوت الفقيرة المعدمة.

وبما أن فلور دو لي قد كانت موضوع هواه قبل الهوى الأخير، وهي فتاة جميلة ذات مهر دسم، فقد وصل الفارس المحب، وحصانه يكدف مرحاً إلى باب منزل جوندولوريا، بعد أن شفي تماماً، وظن أن قضية الفتاة الغجرية قد نسيت حتماً بعد مرور شهرين متتابعين.

وهنا ربط حصانه بحلقة في الباب ثم صعد فرحاً نحو خطيبته التي كانت معها أمها فقط، بينما لم يلق بالاً إلى مجموعة كبيرة من الناس تجمّع أفرادها في ساحة بارفيس أمام باب نوتردام الكبير، متذكراً أن الشهر هو شهر أيار ومفترضاً بداية موكب من المواكب الدينية.

كانت ذكريات مشهد الساحرة، وعنزتها، وألف بائها الملعونة، وغياب فوبوس الطويل، ثقيلة على قلب فلور دو لي، ولكنها لم تكد تراه، بوجهه الجميل، وثوبه الجديد، وأسلحته اللامعة، وغرامه الظاهر، حتى اصطبغ وجهها بحمرة السرور واللذة. وكانت الآنسة النبيلة أجمل ما تكون. كان شعرها الأشقر مضفوراً ضفائر مغرية رائعة. وكانت تلبس ثوباً

ذا زرقة سماوية يناسب البيضاوات من الفتيات، وعيناها غائصتان في الاسترخاء الغرامي الذي يناسبها أيضاً.

أما فوبوس الذي مضى عليه عهد طويل لم تقع فيه عينه على شيء جميل، فقد أخذه جمال فلور دو لي، وانطلق يظهر من فنون الحماسة والأناقة والرقة ما لم يلبث معه حتى أصلح ما بينه وبينها. أما السيدة جوندولوريا نفسها فلم تجد من القوة ما تنتهره به وتوبخه على فِعاله.

كانت الفتاة جالسة بالقرب من النافذة تطرز، والقائد يقف مستنداً إلى مسند كرسيها، وهي توجه إليه لومها بصوت منخفض.

ـ «ما الذي أصابك أيها الخبيث خلال هذين الشهرين الكبيرين؟»

فأجابها فوبوس وقد أحرجه قليلاً هذا السؤال: «أقسم لك إنك جميلة، حتى إنك لتديرين رأس الأسقف.»

فلم تستطع الامتناع عن الابتسام.

ـ «هذا حسن جداً أيها السيد. دع جمالي جانباً وأجبني.»

ـ «الحقيقة! يا ابنة عمي العزيزة، إنني قد استدعيت إلى المعسكر.»

ـ «وأين هو هذا المعسكر؟ ولِمَ لم تأتِ لتودعني؟»

ـ «إنه في منطقة أكو ـ ان ـ بري.»

وسر فوبوس حين ساعده السؤال الأول على التخلص من السؤال الثاني.

ـ «هذه منطقة قريبة جداً. فلم لَم تأتِ لتراني مرة واحدة على الأقل؟»

وهنا أحرج فوبوس إحراجاً شديداً.

ـ «إنها... الخدمة... ثم أعلمك يا ابنة عمي العزيزة أنني كنت مريضاً.»

فأردفت مذعورة تقول: «مريض!»

ـ «نعم... لقد جرحت.»

ـ «جرحت!»

وأصيبت الطفلة المسكينة بانزعاج شديد.

ـ «أوه! لا يذعرنك هذا كله، إنه خلاف، عقبه تبادل ضربات بالسيف، فما الذي يعنيك من هذا الأمر؟»

وصرخت فلور دو لي تقول وقد امتلأت عيناها بالدموع: «ماذا يعنيني من هذا الأمر؟ أوه! إنك لا تعني ما تقول! ما هي قصة هذا السيف؟ أريد أن أعرف كل شيء.»

قال فوبوس: «حسن جداً يا جميلتي! لقد وقع نزاع بيني وبين الملازم ماهي ـ فادي واستعنا بالسيف لحسمه فترك كل منا في الآخر فتوقاً في جلده. هذا هو كل ما في الأمر.»

لقد كان القائد الكاذب يعرف أن الدفاع عن الكرامة هو الأسلوب الوحيد الذي يبرر به الرجل عمله أمام امرأة. والواقع أن فلور دو لي كانت تنظر إلى وجهه منفعلة بالخوف واللذة والإعجاب، مع أنها لم تكن قد وجدت طمأنينتها بعد.

أجابت: «أرجو أن تكون قد شفيت تماماً يا عزيزي فوبوس. إنني لا أعرف المدعو ماهي ـ فادي ولكنه يجب أن يكون رجلاً كريهاً. فما هو سبب هذه الخصومة؟ وهنا لم يسعف فوبوس خياله الهزيل الفقير، فبدأ يشعر بعجزه عن الخروج من مأزق شجاعته.»

ـ «أوه! وما يدريني؟ شيء تافه، حصان، ثم موضوع من الموضوعات!»

وصرخ يقول ليغير وجهة الحديث: «ما هي هذه الضجة في ساحة بارفيس؟» واقترب من النافذة. «أوه! يا إلهي هناك أناس كثيرون في الساحة!»

قالت فلور دو لي: «لست أدري، الظاهر أن هناك ساحرة ستقبل نحو الكنيسة لتقدم قربانها إليها هذا الصباح، ثم تشنق بعد ذلك.»

كان القائد يظن أن قضية الاسميرالدا قد انتهت منذ زمن بعيد،

ولذلك لم ينفعل إلا قليلاً بما سمع من أقوال فلور دو لي. وفي هذه الأثناء ألقى عليها سؤالاً واحداً أو سؤالين.

ـ «ما اسم هذه الساحرة؟»

أجابت: «لست أدري.»

ـ «وماذا يُقال عما فعلته؟»

فهزت أيضاً كتفيها البيضاوين وقالت:

ـ «لست أدري.»

قالت الأم: «أوه! يا إلهي المسيح! لقد كثر السحرة اليوم، حتى أنهم يحرقون دون أن تُعرف أسماؤهم، إن البحث عن اسم كل منهم كالبحث، عن اسم كل سحابة في السماء. على أننا بعد هذا كله نستطيع أن نطمئن، إن اللَّه محيط بأسمائهم جميعاً في سجله الخالد.»

ثم قالت وقد نهضت متوجهة نحو النافذة: «يا للسيد المسيح! إنك على حق يا فوبوس. الناس اليوم كثيرون جداً. وهم منتشرون حتى فوق سطوح المنازل.»

ـ «هل تعلم يا فوبوس؟ يذكرني هذا المشهد بعهود شبابي الجميلة. لقد كان مثل هؤلاء الناس يوم دخول شارل السابع إلى باريس. ـ في سنة لم أعد أذكرها على التحديد. ـ أوليس أني حين أحدثك عن مثل هذه الحوادث أذكرك بشيء قديم عتيق بينما أذكر بها شبابي؟ والحق أن الناس في تلك المناسبة كانوا أكثر عدداً من هؤلاء وأجمل منظراً. لقد كانت الملكة وارء الملك، وكانت السيدات يتبعنها وراء السادة النبلاء. كان موكباً رائعاً حقاً اشتركت فيه علية القوم في فرنسا. وكم يحزنني اليوم أن أجد أنه لم يعد شيء من ذلك!»

لم يكن المحبان يسمعان شيئاً مما تقوله السيدة. وقد رجع فوبوس يتكئ على مسند كرسي خطيبته. واحتفظ كلاهما بصمته. والفتاة ترفع إليه عينيها بين وقت وآخر، ثم يختلط شعرهما بشعاع من شمس الربيع.

وقالت فلور دو لي فجأة: «يجب أن نتزوج يا فوبوس خلال ثلاثة أشهر، فأقسم لي إنك لم تحب امرأة غيري أبداً.»

فأجابها فوبوس وقد انضمت نظرته إلى لهجة الإخلاص في صوته لطمأنة فلور دو لي: «أقسم لك يا ملاكي الجميل.»

ومن الممكن أنه كان صادقاً مع نفسه فيما يقول.

ورددت فلور دو لي فجأة: «يا اللّه! إنني أشعر بحر شديد!»

فأجاب فوبوس: «أعتقد أن الظهر قريب. وأن الشمس قد أصبحت مزعجة فلننزل الستائر.»

ـ «لا، لا، إنني في حاجة إلى الهواء الطلق.»

ونهضت ثم جرت نحو النافذة ففتحتها وقفزت إلى الشرفة. فتبعها فوبوس.

كانت ساحة بارفيس التي تطل عليها شرفة البيت كما نعلم موطناً لمشهد محزن متجهم فريد. كانت الجماهير تنصب على الساحة من كل الشوارع المتفرعة عنها. ولولا الجند الذين وقفوا حاجزين بحرابهم ورماحهم بين الجماهير وساحة الكنيسة لما خلت زاوية من زوايا الساحة. كانت أبواب الكنيسة مغلقة بينما كانت نوافذ البيوت وأبوابها مفتوحة كلها، وقد برزت خلالها ومن فوق سطوح المنازل ألوف من الرؤوس المتراكمة التي تشبه قنابل متراكمة في ميدان من ميادين جنود المدفعية.

كان سطح هذه الجماهير المكتظة داكن اللون وسخاً بل ترابياً أيضاً. والمشهد الذي كان الناس ينتظرونه هو بالطبع من أبشع المشاهد وأقبحها على الإطلاق، فلا أقبح ولا أبشع من الضجة التي تنطلق عبر آلاف من القبعات الصفراء والشعور المشوشة المتناثرة. لقد كان في هذه الجماهير من القهقهات أكثر مما كان فيها من الصراخ، وكان فيها من النساء أكثر مما كان فيها من الرجال.

وكانت ترتفع، فوق الهدير الخافت العام، بين الفترة والفترة أصوات

حادة يتساءل أصحابها عما إذا كان يتوقع أن تشنق الساحرة هنا.

فيجيب صوت آخر: «أيها الأبله! هنا تأتي الساحرة بقميصها لتقدم قربان كفارتها! أما الشنق فهو في ساحة جريف.» فيردد آخر: «إذن سأذهب إلى هناك بعد ذلك.»

* * *

ـ «أخبرني يا بوكانبري، هل صحيح أنها رفضت مقابلة الكاهن وأبت أن تعترف له؟»

ـ «يبدو أن الأمر كذلك.»

ـ «أرأيت! إنها وثنية كافرة!»

* * *

ـ «سيدي، هذه هي العادة، إن قاضي القصر مسؤول عن تقديم المجرم المحكوم، لتنفيذ الإعدام به، فإذا كان علمانياً سلم إلى رئيس الشرطة، أما إذا كان دينياً فإنه يسلم إلى المحكمة الأسقفية.»

ـ «شكراً لك أيها السيد.»

* * *

كانت فلور دو لي تقول: «يا إلهي! كم هي مخلوقة بائسة!»

وملأت هذه الفكرة نظراتها التي تنقلها بين الناس بالألم الشديد. وفي هذا الوقت بدأت ساعة نوتردام تدق هادئة بطيئة معلنة حلول وقت الظهر. وانفجرت دمدمة رضى بين الناس. ولم تكد ذبذبات الدقة الثانية عشرة تنطفئ حتى تموجت الرؤوس ملتفتة كأنها أمواج تتحرك تحت وطأة الريح، وارتفع صوت هادر جماعي كبير منطلق من أرض الساحة والنوافذ والسطوح يقول:

«هاك هي!»

ووضعت فلور دو لي يديها فوق عينيها كي لا ترى شيئاً.

قال لها فوبوس: «هل تريدين الدخول إلى البيت أيتها الجميلة؟»

فأجابت: «لا»، ثم فتحت عينيها فضولاً بعد أن أغمضتهما خوفاً ورهباً.

لقد أقبلت عربة يجرها جواد نورماندي ضخم وتواكبها كوكبة من الفرسان بثياب بنفسجية وصلبان بيضاء. وأخلى جنود الحراسة ممراً في أرض الساحة لهم بقوة أسواطهم وعصيهم. كما كان يرافق العربة فريق من ضباط العدالة والشرطة يتبينهم الناظر بسهولة بسبب طريقتهم الرديئة في اعتلاء سروج الخيول وعلى رأسهم المعلم جاك شارمولو.

وقد جلست في العربة الملعونة فتاة قيدت ذراعاها إلى ما وراء ظهرها، دون أن يكون كاهن إلى جانبها.

لقد كانت في قميصها، وكان شعرها منسدلاً فوق عنقها وكتفيها العاريتين وقد جرت العادة يومذاك أن «لا يقص شعر المجرم إلا في ظل المشنقة.»

كان يُرى خلال هذا الشعر المتموج، الذي يبدو أكثر لمعاناً من ريش الغراب، حبل غليظ ملتو منعقد شديد الخشونة قاتم اللون، يترك آثاراً دامية في نحر الفتاة ويتعلق بعنقها الظريف كدودة الأرض التي تتعلق بوردة لطيفة رقيقة. وكانت تلمع فيما دون الحبل تميمة من الزجاج الأخضر سمح للمحكومة بحملها لأن السائر إلى الموت لا تُرفض له أية رغبة من رغباته. أما المشاهدون الواقفون إلى وراء النوافذ وفوق السطوح فقد كان في إمكانهم أن يروا ساقيها عاريتين تحاول المسكينة بدافع من غريزتها أن تخفيهما عن الأنظار فعل كل امرأة في مثل هذا الموقف. وعند قدميها تبدو عنزة مقيدة صغيرة. والفتاة تمسك بأسنانها القميص التي حزمت حول جسدها حزماً رديئاً. والمظنون أنها كانت تتألم في بؤسها من أن تكون معروضة على أنظار الناس عارية أو كالعارية.

قالت فلور دو لي للقائد: «يا للمسيح! انظر يا ابن عمي الجميل! إنها تلك الغجرية الكريهة ذات العنزة!»

والتفتت إلى فوبوس وهي تتكلم. لقد كان مثبتاً نظره في العربة. وكان باهتاً شديد الصفرة.

قال في تمتمة متعثرة: «أية غجرية ذات العنزة؟»

فأردفت فلور دو لي: «كيف! أفلا تذكرها؟»

فقاطعها فوبوس قائلاً: «لست أدري ما تقصدين.»

ثم خطا خطوة واحدة يعزم على الدخول إلى البيت. فاستيقظت في نفس فلور دو لي غيرتها التي كانت هذه الغجرية قد حركتها من قبل، فنظرت إلى فوبوس بعين ثاقبة متحدية. وتذكرت في هذا الوقت ما كانت قد سمعته من أن أحد القادة ذو علاقة خاصة بقضية هذه الساحرة.

قالت لفوبوس: «ماذا بك؟ يكاد الرائي يظن أن هذه المرأة قد أقلقتك وأهاجتك.»

فحاول فوبوس أن يبتسم ويسخر.

ـ «أنا! أبداً! لا شيء من ذلك!»

فأردفت: «ابق إذن، ولننتظر حتى النهاية.»

وأُرغم فوبوس البائس على البقاء. ومما كان يطمئنه قليلاً أن المحكومة لم تكن ترفع نظرها عن أرض العربة. إنها الاسميرالدا بالذات. كانت دائماً، حتى في أشد درجات البلاء والمهانة، جميلة بالغة الروعة، قد بدت عيناها السوداوان الكبيرتان أكبر وأوسع بسبب هزال وجنتيها، وبدت صفحة وجهها الجانبية الباهتة أكثر صفاء ونبلاً. إنها تشبه صورتها بالأمس كما كانت عذراء ماساكيو تشبه عذراء رافايل. . لكنها أكثر ضعفاً، ونحولاً، وهزالاً.

على أنه لم يكن فيها شيء لم يتأرجح بعد أو لم تتقاذفه الظروف، والمناسبات، وكان شيئاً غير خفرها، فقد كانت المسكينة منهارة محطمة تحت وطأة اليأس والخوف، جسدها يتقلقل فوق العربة الخشبية كشيء ميت أو محطم، ونظراتها محزونة أو مجنونة معتوهة. وفي حدقتها دمعة جامدة بل قل مثلوجة باردة.

وفي هذه الأثناء كان الموكب المكتئب قد اخترق صفوف الناس وسط عواصف من الهتافات الصارخة ومواقف الفضول الغريبة. على أننا يجب أن نقول لنكون صادقين فيما نؤرخه من هذه الحوادث، إن كثيرين من الناس قد سرى الإشفاق إلى قلوبهم، بل إلى قلوب أشدهم قسوة وعنتاً، حين رأوها بمثل هذا الجمال الفائق والانهيار المطبق. ودخلت العربة إلى ساحة الكنيسة.

ثم توقفت أمام الباب المركزي الكبير واصطفّ الفرسان من الجانبين على شكل من يهم بالدخول في معركة. وصمت الناس. وفي وسط هذا الصمت المفعم بالعظمة والقلق، انفتح الباب على مصراعيه وئيداً هادئاً وصرَّت ركائزه الحديدية كأنه كان ينفتح من نفسه. وهنا بدت الكنيسة العتيقة القاتمة الحزينة على امتدادها كله، لا تكاد تضيء إلا بقليل من الشموع ذات الشعاع المتذبذب، والموضوعة بعيداً فوق المذبح الكبير. لقد فتح الباب كشدق كهف وسط ساحة تعج مفعمة بضياء باهر. وبدا من بعيد صليب عملاق من الفضة قائم أمام قماش أسود شديد السواد ينسدل من القبة العالية حتى يبلغ أرض الكنيسة، ورأى الناس رؤوس كهنة تتحرك في الأعماق، وقد انطلق من الكنيسة بعد أن فتح الباب، نشيد وقور منفجر رتيب، كأنه نفثات مرسلة فوق رأس المحكومة من فقرات الأناشيد الدينية المكتئبة.

إن هذا النشيد، الذي كان ينشده من بعيد، بعض من الشيوخ التائهين في الظلمات، فوق رأس هذه المخلوقة، المفعمة بالشباب والحياة، والتي يمر بها نسيم الربيع الفاتر شفيقاً رقيقاً وئيداً، ويغمرها ضياء الشمس، إن هذا النشيد هو صلاة الموت. والشعب كله يصغي في روع وتبتل.

أما البائسة الخائفة، فقد كانت تبدو وكأنها أضاعت بصرها وفكرها في أحشاء الكنيسة المظلمة، وكانت شفتاها تتحركان كأنهما تصلّيان. وعندما اقترب معاون الجلاد ليساعدها على الهبوط من العربة، سمعها تردد بصوت منخفض هذه الكلمة: «فوبوس.»

وفُكت يداها، وأُنزلت من العربة ترافقها عنزتها التي فُكّت قوائمها أيضاً، فراحت تثغو فرحة حين شعرت برجوع حريتها إليها. ثم تُركت الفتاة تمشي حافية فوق البلاط الخشبي حتى أدنى درجات الباب الكبير. أما الحبل المعقود حول عنقها فقد كان يتسحّب وراءها، تسحُّب أفعى تلاحقها.

وانقطع النشيد. وبدأ صليب ذهبي يرافقه موكب طويل من الشموع يتحرك في الظل. ثم لم يلبث الجمهور أن وجد أمامه صفوفاً من الكهنة بثيابهم المرقشة المختلفة تتقدم وتمتد وتنمو وأفرادها ينشدون نشيداً قاتماً وقوراً. أما الفتاة فقد توقف نظرها عند أول كاهن كان يترأس الموكب وراء الصليب وقالت وهي ترتجف: «أوه! إنه الكاهن أيضاً!»

والواقع أنه هو الكاهن نفسه. كان إلى يساره المرتل المعاون وإلى يمينه المرتل نفسه يحمل عصاه رمز وظيفته. كان يتقدم ورأسه منقلب إلى الخلف، وعيناه مفتوحتان ثابتتان ينشد بصوت قوي.

ولم يكد يبلغ الضياء، ويبدو في أنظار الناس باهتاً شديد الصفرة، حتى تساءل بعض المشاهدين عمّا إذا لم يكن هذا الكاهن واحداً من أساقفة الرخام، الراكعين فوق الأحجار القبرية، وقد نهض يستقبل عند عتبة القبر تلك التي كانت تسير إلى الموت.

أما الفتاة، ولم تكن أقل اصفراراً وجموداً منه، فإنها لم تكد تلاحظ أن بعضهم قد وضع في يدها شمعة مضيئة صفراء، كما أنها لم تكن تصغي إلى الصوت الناعم، صوت كاتب المحكمة الذي يقرأ مرسوم التكفير، حين طلب إليها أن تقول: آمين، فأجابت: آمين. وقد وجب لكي يرد إليها بعض حياتها وقوتها، أن ترى الكاهن يبعد مساعديه عنه ويتقدم وحيداً نحوها. وهنا أحست بدمها يغلي في رأسها. فاشتعلت في هذه الروح الباردة المجمدة، بقية من الكبرياء المزدرية المتعالية.

واقترب الكاهن منها بطيئاً. ثم قال لها بصوت مرتفع: «أيتها الفتاة، هل سألت اللّٰه أن يعفو عن خطاياك وتصرفاتك المنحرفة؟»

ثم انحنى فوق أذنها وأضاف (والناس يظنون أنه يستقبل اعترافها الأخير): «ما زلت قادراً على تخليصك!»

فنظرت إليه بعين ثابتة: «ماذا صنعت بفوبوسي الحبيب؟»

قال الكاهن: «لقد مات.»

وفي هذه البرهة بالذات رفع الكاهن البائس رأسه بطريقة آلية فرأى في الطرف الآخر من الساحة، فوق شرفة آل جوندولوريا، القائد نفسه واقفاً بالقرب من فلور دو لي. فتأرجح، ومرر يده فوق عينيه، ثم نظر أيضاً، ودمدم يلعن بصوت خافت، وتقلصت قسمات وجهه بعنف شديد.

وهنا رفع يده فوق الغجرية وصرخ بصوت جنائزي يرتل العبارة التقليدية التي ينهي بها هذه الحفلة القائمة.

وركع الناس.

وردد الكهنة يرتلون باللاتينية.

وكرر الجمهور وراءهم ما رتلوه بهذه الدمدمة الهادرة التي تجري فوق الرؤوس كأنها صدى اصطفاق بحر هائج.

قال الكاهن: آمين.

ثم أدار للمحكومة ظهره، وهبط رأسه فوق صدره، وتصالبت ذراعاه فالتحق بموكب الكهنة، واختفى بعد قليل مع الصليب والشموع تحت حنايا الكنيسة الضبابية.

وانطفأ صوته متدرجاً في الجوقة التي ينشد أفرادها آية اليأس وفقرة الموت.

وكانت أصداء أسلحة الجنود السويسريين التي تنطلق متباعدة ثم تختفي شيئاً فشيئاً تحت قبب أعمدة الكنيسة، تبدو وكأنها الساعة التي تدق دقات المحكومة الأخيرة.

وفي هذه الأثناء بقيت أبواب نوتردام مفتوحة، وبدت الكنيسة خالية، حزينة، في حداد مقيم فلا شموع ولا أصوات.

ثم بقيت المحكومة جامدة تنتظر أن يحملوها. وقد وجب أن ينتبه أحد رقباء جند السيد شارمولو إليها، حيث كان هذا الأخير منهمكاً في دراسة رسوم الباب الكبير التي تمثل في رأي بعضهم تضحية إبراهيم النبي، وتمثل في رأي البعض الآخر العملية الفلسفية، رامزة إلى الشمس بالملاك، وإلى النار، بكومة الحطب، وإلى الصانع الفنان بإبراهيم النبي.

وجهد القوم في انتزاعه من بحر تأمله. واستدار أخيراً، وبإشارة منه، أقبل رجلان في زي أصفر، هما معاونا الجلاد، فقيدا يدي الفتاة.

والظاهر أن الفتاة البائسة قد استشعرت، وهي تصعد مرّة أخرى إلى العربة، أسفاً شديداً قاهراً على الحياة، استشعرت هذا كله، وهي تسير إلى محطتها الأخيرة.

لقد رفعت عينيها الحمراوين الجافتين نحو السماء، نحو الشمس، نحو السحب الفضية التي تشكلت هنا وهناك أشكالاً متباينة متنوعة، وتفرقت متناثرة عبر الفضاء ثم خفضتهما تنظر إلى ما حولها، إلى الأرض، إلى الناس، إلى المنازل... وفجأة وبينما كان الرجل ذو الزي الأصفر يقيد لها مرفقها، أرسلت صرخة رهيبة، صرخة فرح وحبور.

لقد رأت فوق الشرفة هناك، عند زاوية الساحة، رأته هو، صديقها، سيدها، فوبوس نفسه، رؤيا حياتها الثانية! لقد كذب القاضي! وكذب الكاهن. إنه هو نفسه، لا يسعها أن تشك في ذلك أبداً.

لقد كان هناك، جميلاً، حياً، يعلوه زيه الرائع، في رأسه ريشته، وفي وسطه سيفه!

وصرخت: «فوبوس! فوبوسي الحبيب!»

ورغبت أن تمد ذراعيها الراجفتين نحوه معبرة عن عظيم فرحها، ولكنهما كانتا مقيدتين.

وهنا رأت الضابط يقطب حاجبيه، ورأت بالقرب منه فتاة متكئة عليه، تنظر إليها بشفة مزدرية وعينين ثائرتين، فأطلق فوبوس كلمات لم

تسمعها المسكينة، واختفى كلاهما فجأة وراء حاجز الشرفة الزجاجي الذي انغلق بعدها.

وأردفت صارخة: «فوبوس! هل تصدقه؟»

وبدت لها فكرة بشعة. لقد تذكرت أنها حكمت بالموت جزاء اقترافها جريمة القتل في شخص فوبوس دي شاتوبار.

كانت قد احتملت كل شيء حتى الآن. ولكن هذه الصدمة الأخيرة كانت شديدة القسوة. فسقطت فوق بلاط الساحة جامدة لا حراك بها.

قال شارمولو: «هيا، احملوها إلى العربة ودعونا ننتهي منها!»

الواقع أن أحداً من الناس لم ير في ردهة تماثيل الملوك المنحوتة مباشرة فوق حنايا الباب الكبير، شاهداً غريباً، قد تفحص الأمر كله، ببرود فائق، وعنق ممدود، ووجه بشع شائه، والذي يكاد يظنه الراؤون، لولا ثوبه بلونيه الأحمر والبنفسجي، واحداً من هذه الوحوش الحجرية التي تخرج من أشداقها مياه ميازيب الكنيسة منذ ستمائة سنة. إنه لم يكن يغفل شيئاً مما حدث منذ الظهيرة أمام الباب الكبير. وقد ربط منذ الفترات الأولى، دون أن يُنتبه إليه، حبلاً بواحدة من القوائم الحجرية ثم دلاه حتى بلغ أرض الفناء. وبعد الانتهاء راح يصفر من وقت إلى آخر حين كان يمر به طير من الشحرور. وفجأة قفز فوق حاجز الردهة، بينما كان معاونا الجلاد يحاولان حمل الفتاة إلى العربة عملاً بأوامر شارمولو، فأمسك الحبل بقدمه، وركبتيه ويديه، ثم انزلق فوق شرفة الكنيسة، كما تنزلق قطرة من ماء المطر فوق لوح زجاجي، وركض نحو الجلادين بسرعة قِطّ هابط من أحد السطوح، ثم ألقى بهما ممددين فوق الأرض بلكمتين سريعتين من قبضتيه المخيفتين، واختطف الغجرية بيده، كما يختطف الطفل لعبته، ثم أصبح في داخل الكنيسة بقفزة واحدة، يحمل الفتاة فوق رأسه وهو يصرخ بصوته الرهيب: «حمى!»

حدث هذا بسرعة بالغة، ولو أنه جرى في الليل لاستطاع المشاهدون أن يروه كله على ضوء لسان واحد من البرق اللامع.

وكررت الجماهير: «حمى! حمى!» وصفّقت الآلاف من الأكف تبعث الشرر والضياء والفخر في عين كوازيمودو المفردة.

لقد أيقظت هذه الهزة الشديدة، المحكومة المسكينة من إغمائها فرفعت هدبها ونظرت إلى كوازيمودو ثم أنزلته فجأة، وكأنها مذعورة من محررها ومنقذها.

وبقي شارمولو فاغراً فاه، وكذلك الجلادون وأفراد الموكب كلهم. والواقع أن المحكومة في حمى من كل عدوان حين تكون داخل سياج الكنيسة. فالكاتدرائية ملجأ لكل هارب، تحتضر كل عدالة إنسانية عند عتبتها.

أما كوازيمودو فقد وقف تحت الباب الكبير. وبدت قدماه ثابتتين صلبتين فوق أرض الكنيسة، ثبات العمد الرومانية الثقيلة وصلابتها. كان رأسه الكبير يغوص بلمة شعره الكثيف بين كتفيه كالأسود التي تملك لبدة ولا تملك عنقاً، ويحمل الفتاة الراجفة معلقة فوق يديه القاسيتين وكأنها قماش ناصع البياض، يحملها بعناية بالغة حتى ليبدو خائفاً من أن يكسرها أو يحمل الذبول إليها.

كان يحس أنه يحمل شيئاً لطيفاً رقيقاً رائعاً ثميناً، صنع ليدين غير يديه، وقد يبدو في بعض الفترات أضعف من أن يمسها، حتى بأنفاسها. وفجأة ضمها بين ذراعيه فوق صدره المقرن ذي الزوايا البارزة، وكأنها كنزه، وملك يمينه. كما كان يمكن أن تصنع أم هذه الفتاة لو وقفت موقفه، وكانت عينه المفردة الهابطة فوقها، تغمرها بفيض من الحنان والألم والشفقة، ثم ترتفع مفعمة بالبروق.

هنا كانت النساء تبكي وتضحك، والجماهير تضج بالحماسة، إذ كان لكوازيمودو في هذه البرهة، جماله الرائع حقاً. لقد كان هذا اليتيم، هذا الطفل، هذا الكائن المرذول، جميلاً جداً، إنه يشعر بأبهته وقوته، ينظر إلى هذا المجتمع الذي نفاه وأبعده، وقد تحداه بمثل هذه القوة الفائقة، ينظر إلى هذه العدالة البشرية التي انتزع منها فريستها، إلى هذه النمور

المتوحشة التي تجد نفسها مرغمة على مضغ الفراغ، ينظر إلى هؤلاء الزبانية، إلى هؤلاء القضاة، إلى هؤلاء الجلادين، إلى كل هذه القوة، إلى قوة الملك التي حطمها، هو الإنسان المشوه، بقوة اللّٰه العلي العظيم.

كان مثيراً حقاً أن تهبط هذه الحماية من إنسان في مثل هذه البشاعة، فوق إنسانة في مثل هذا البؤس، محكومة بالموت. لقد بدا فيهما بؤسان، بؤس الطبيعة وبؤس المجتمع، يتلاقيان ويتعاونان.

وفي هذه الأثناء، وبعد دقائق قليلة من هذا الانتصار، غاص كوازيمودو فجأة في الكنيسة مع حمله. أما الشعب، الذي يعجب بكل جرأة، فقد كان يبحث عنه بعيونه تحت القبة المظلمة، آسفاً على أنه قد تجنب الاستماع إلى هتافاته بمثل هذه السرعة. وفجأة رآه الناس يظهر مرّة أخرى عند طرف من أطراف ردهة ملوك فرنسا، يجتازها راكضاً كالمجنون الفاقد وعيه، وهو يحمل غنيمته بين ذراعيه، صارخاً: «حمى!» وانفجر الناس مرة أخرى يصفقون، وغاص كوازيمودو مرة ثانية في داخل الكنيسة بعد أن اجتاز الردهة. ثم ظهر مرة أخرى فوق السقيفة العليا، والغجرية بين ذراعيه، وهو يركض دائماً بجنونه الشديد. وأخيراً ظهر للمرة الثالثة فوق قمة برج الجرس الكبير، وبدا هناك كأنه يعرض على المدينة كلها باعتداد وكبرياء الفتاة التي أنقذها، وردد صوته المدوّي، الذي ندر أن يسمعه الناس، والذي لم يكن يسمعه الناس، والذي لم يسمعه هو شخصياً أبداً، لازمته، يرسلها ثلاث مرات إلى الغيوم السابحة في الفضاء، في ثورة عصبية مجنونة: «حمى! حمى! حمى!»

والشعب يصرخ هاتفاً هتاف إعجاب وتشجيع «نوويل! نوويل!» وانطلق هذا الهتاف الهادر يبعث الدهشة في الضفة الأخرى حيث كانت جماهير أخرى تنتظر في ساحة جريف، وحيث كانت الحبيسة متربصة ترقب وصول الموكب، وعينها مثبتة على المشنقة.

الكتاب الثامن

1 ـ حمى

لم يكن كلود فروللو في نوتردام حينما حطم ابنه بالتبني بمثل هذه المفاجأة، العقدة الغادرة التي قاد إليها الكاهن البائس، فتاته الغجرية، وأخذ هو نفسه فيها. فهو لم يكد يدخل الكنيسة حتى خلع بعضاً من زينته الدينية، وألقاه بين يدي الخادم الذي فغر فاه مندهشاً، ثم انطلق خارجاً عبر دير الكنيسة وطلب من أحد «المراكبيين» أن يحمله بزورقه إلى الضفة اليسرى من نهر السين، وتابع طريقه بعد ذلك عبر شوارع مدينة الجامعة، لا يعرف من يقصد، وماذا يستهدف، ملتقياً عند كل خطوة من خطواته جماعات من الرجال والنساء يعجلون الخطى فرحين متجهين نحو جسر سان ميشال، راجين الوصول في الوقت المعين لمشاهدة عملية شنق الساحرة. كان تائهاً، باهت اللون، بل كان أعمى، مضطرب النفس حتى الأعماق كأنه عصفور يطارده الأطفال في وضح النهار. إنه لم يعد يعرف أين كان من مدينة الجامعة، كما لم يكن يعي ما يفكِّر فيه، أو يدري ما إذا كان في حلم. كان ينطلق، يمشي، ويجري، نافذاً إلى كل شارع يراه، سائراً في كل اتجاه، لا يختار ولا يفاضل، بل يجد نفسه مدفوعاً إلى الأمام من قِبَل ساحة جريف الرهيبة الهائلة التي يحس أنها تتعقبه من ورائه.

واجتاز الكاهن جبل سانت جنفياف، ثم خرج أخيراً من المدينة عبر باب القديس فكتور، متابعاً هروبه حتى أنه لم يعد يرى غير سور أبراج

مدينة الجامعة وبيوت الضاحية المتناثرة هنا وهناك، وحين شعر أن ثنية من ثنايا الهضاب قد حجزت بينه وبين المدينة وظن أنه قد أصبح على بعد مائة فرسخ من مسرح هذه الأحداث، في الحقول، في الصحراء، توقف وبدا له أنه قد بدأ يتنفس.

وهنا تزاحمت في ذهنه أفكار بشعة مختلفة. ونظر مرّة أخرى في روحه بوضوح، فسرت القشعريرة في جسده. نظر في هذه الفتاة البائسة التي ضيّعها وضيّعته. ونقل نظره التائه عبر الطريق الأزلية الملتوية التي قضى عليه القدر وعليها أن يسيرا فيها حتى نقطة التقائهما، حيث حطم أحدهما الآخر دون شفقة أو رحمة.

وضحك ضحكة مخيفة، ورجعت صفرته إلى وجهه وهو يتأمل الجانب الرهيب من هواه، هذا الهوى، الحاقد، الهدام، القاهر، الذي يسري به سم زعاف، والذي لم ينته إلا إلى المشنقة بأحدهما وإلى جهنم بالآخر: هي محكومة بالإعدام وهو مرذول ملعون.

ثم رجعت الضحكة إليه، يفكِّر أن فوبوس ما يزال حياً يرزق. إن القائد يعيش بعد كل الذي جرى، إنه سعيد مطمئن، ويتزيا بأجمل ما تزيّا به من الثياب في حياته كلها. وتضاعفت تكشيرته الضاحكة، حين فكَّر أن الغجرية هي المخلوقة الوحيدة التي لا يكرهها، وأنها هي التي أصابها الموت مع ذلك كله من بين أولئك الأحياء الذين تمنى الموت لهم وأعد العدة لإبلاغهم إليه.

وكان قلبه يذوب يأساً وحناناً، حين يحاول أن يكوِّن فكرة عن السعادة التي كان يمكن أن يجدها على الأرض، لو لم تكن هذه الفتاة امرأة غجرية، ولو لم يكن هو كاهناً، لو أحبته، ولم يكن فوبوس موجوداً بينهما، وحين يتخيَّل أن حياة من الطهر والغرام النبيل، موفورة له قد مكَّنه القدر منها، وأن على هذه الأرض في تلك الساعة أزواجاً سعداء، مستغرقين في همسات طويلة متبادلة تحت ظلال أشجار البرتقال، أو عند صفاف الجداول والأنهار، على ضوء شمس تغيب أو ليلة ذات نجوم،

وأن لو أراد اللّه له خيراً، لكان بوسعه أن يكوِّن معها زوجاً من هذه الأزواج المباركة الراضية.

وحين يخطر له بين فترة وأخرى أن البرهة التي شاهد فيها السلسلة البشعة تشد عقدتها الحديدية حول هذا العنق الرقيق المتهافت، في هذه اللحظة الحاسمة، كان العرق ينبثق غزيراً من جميع مسام جسده المنهوك. ثم انطلقت منه صرخة رهيبة في الوقت الذي تخيل فيه وسط قهقهته الشيطانية على نفسه، الاسميرالدا كما شاهدها في اليوم الأول، حية، لاهية، عابثة، مرحة، راقصة، متزينة، مجنحة، متناغمة الأشكال والألوان، وكما شاهدها في يومها الأخير، في قميصها الرثة، والسلسلة في عنقها تتنقل وئيدة، بقدميها العاريتين، نحو سلم المشنقة المقرنة.

وبينما كانت هذه العاصفة من اليأس، تحطم، وتمزق، وتحني، وتنتزع جذور كل شيء في روحه، نظر إلى الطبيعة من حوله. فرأى عند قدميه دجاجات تلتقط غذاءها هنا وهناك، وغيوماً سمراء هاربة في السماء الزرقاء، كما رأى سهم دير سان فكتور في الأفق يخترق الفضاء، وأحد الطحانين ينظر مصفراً إلى مطحنته تدور في نشاط وجد ظاهرين! سرى في جسده ألم شديد أمام هذه الحياة الحية المنظمة المطمئنة، والتي تتشكل من حوله بألف من الأشكال المختلفة وانطلق يهرب مرة أخرى.

وركض عبر الحقول حتى المساء. وامتد هربه من الطبيعة، والحياة، ومن نفسه، ومن الناس، واللّه، ومن كل شيء، طوال النهار. كان يلقي بنفسه فوق الأرض في بعض المرات، وينتزع بأظافره سنابل القمح الخضراء، وقد يقف في شارع من قرية خالية مهجورة، وحين تصبح أفكاره بالغة الوطأة شديدة الثقل فيمسك رأسه بكفيه يحاول أن ينتزعه من كتفيه ليرمي به ويحطمه.

ويعيد النظر فيما حوله، حين تقترب الشمس من مغيبها، فيجد نفسه مجنوناً أو شيئاً قريباً من ذلك. والحق أن العاصفة التي عصفت في نفسه منذ الدقيقة التي فقد فيها إرادته في إنقاذ الغجرية وأمله، هذه العاصفة لم

تترك في وعيه فكرة سليمة صحيحة واحدة، بل لم تترك فيه فكرة واحدة واضحة كاملة.

كان عقله يتمدد في وعيه، محطماً أو كالمحطم. ثم لم يبق له في ذهنه غير صورتين واضحتين: الاسميرالدا والمشنقة. والباقي ظلمة حالكة دامسة. كانت هاتان الصورتان المتقاربتان تبرزان كلاً مخيفاً ورهيباً، وكلما أمعن في إثبات فكره وانتباهه فيهما، أمعنتا في خياله نمواً وامتداداً، بنسبة تطورية خيالية. كانت أولاهما، جمالاً وأناقة وروعة وضياء، وأخراهما رهبة وهولاً، بحيث إن الاسميرالدا قد بدت له في النهاية كوكباً يضيء، والمشنقة قد ظهرت له ذراعاً ضخمة متمزقة.

والملاحظ، أنه خلال هذا العذاب، لم يفكِّر في الموت أبداً. هكذا صنع اللّه هذا البائس. لقد كان شديد التمسك بالحياة. ومن الممكن أنه كان يرى الجحيم وراءه.

وفي هذه الأثناء كان النهار يسير نحو نهايته. ففكَّر ما بقي منه على قيد الحياة بالرجوع إلى باريس. وهو يظنه أنه قد أصبح بعيداً عن المدينة. ولكنه بعد قليل من التأمل أدرك أن كل ما فعله هو الدوران حول سور مدينة الجامعة. فسهم سان سولبيس ومسلات سان جرمان ـ دي ـ بري، تخترق الأفق إلى يمينه. فاتجه إلى هذه الجهة وفجأة وجد نفسه في منطقة تكثر فيها التجمعات، ولا سيما فقراء الرهبان والكهنة. فتخوف أن يلتقي واحداً ممن يعرفهم، بل إنه كان خائفاً من كل وجه بشري، ولهذا فضَّل الرجوع في وقت متأخر من الليل. وبلغ بعد لأي ضفة النهر حيث وجد مراكبياً حمله في زورقه إلى الضفة الأخرى متجهاً صعداً إلى الأمام حيث وضعه عند أول المدينة القديمة، وتركه هناك أمام اللسان الأرضي المهجور الذي شاهد فيه القارئ السيد جرنجوار تائهاً ضائعاً من قبل، والذي يمتد إلى ما وراء حدائق الملك، على موازاة جزيرة رعاة البقر.

والواقع أن هدهدات الزورق ووسوسات الماء قد منحت كلود البائس

شيئاً من الجمود الذاهل. وحين ابتعد المراكبي، بقي واقفاً كالأبله فوق الحصى، ناظراً إلى الأمام غير مدرك للأشياء من حوله إلا من خلال ذبذبات متعاظمة تحيل كل شيء إلى أشباح رهيبة. والمعروف أن الألم العظيم قد يُحدث، في الغالب، مثل هذا الأثر في الذهن البشري.

كانت الشمس قد غابت وراء برج نَيل العالي. لقد كانت ساعة الشفق، فالسماء بيضاء، وماء النهر أبيض أيضاً. وبين هذين البياضين، كانت ضفة السين اليسرى، التي يثبت فيها نظره وتعكس كتلة جسده المظلمة، التي ترق وتهزل عبر المدى. كانت هذه الضفة تغوص في ضباب الأفق كسهم أسود. فهي مثقلة بالبيوت، التي لا يميز منها غير خيالاتها القاتمة، مخترقة أغشية الظلمات بين بياض السماء والماء. وبدأت هنا وهناك أنوار بعض النوافذ تظهر كأنها جمرات من النار، فترك فيه هذا المشهد أثراً فريداً خاصاً، شبيهاً بما يحس به الإنسان المتمدد على ظهره عند قدم ستراسبورغ، برج الأجراس، وهو ينظر إلى مسلة البرج الضخمة تغوص فوق رأسه عبر ظلال الشفق. أما هنا فقد كان كلود واقفاً، بينما كان المشهد متمدداً، وبما أن النهر قد مدد الهاوية عبر المدى البعيد، وهو يعكس صفحة السماء، فقد بدا اللسان الأرضي الهائل منطلقاً في الفراغ انطلاقة سهم الكاتدرائية أو مسلّتها، وكان الأثر هو نفسه لم يتغيّر. كل شيء كان يبعث على خلق هذا الشعور الغريب، مداخن البيوت وكوى الأسوار، والسطوح الهابطة، وسهم الأوغسطينيين، وبرج نَيل. إن هذه النتوءات كلها التي تخترق الصفحة الجانبية لهذا المشهد الهائل، كانت تضيف إلى وهمه، وهي تتلاعب بنظره، بأسلوب شديد الغرابة، قطاعات أشكال منحوتة خيالية. أما كلود فقد خُيِّل إليه، وهو الغارق في هذيانه، أنه يرى، يرى بعينيه الحيتين، برج أجراس الجحيم، وبدت له آلاف الأنوار المنتشرة عبر البرج الرهيب، كوى وأبواباً لهذا الجحيم الهائل، كما خُيِّل إليه أن في هذه الأصوات، صيحات، وأصداء حشرجات. فسرى الرعب في جسده، ووضع أصابعه في أذنيه فلا يسمع

شيئاً، وأدار ظهره فلا يرى شيئاً، وابتعد هارباً بخطوات واسعة خوفاً من رؤياه الرهيبة.

ولكن الرؤيا كانت في نفسه.

وحين دخل في الشوارع، خُيِّل إليه أنه يرى المارة المتزاحمين غدواً ورواحاً، أطيافاً تروح وتجيء من حوله. كان في أذنيه صخب غريب. وفي ذهنه خيالات مدهشة تزعجه. لم يكن يرى البيوت، وبلاط الشوارع، والعربات، والرجال والنساء. بل فوضى من الأشياء المبهمة التي تتداخل عند أطرافها، الواحدة في الأخرى. وفي زاوية أحد الشوارع بلغ أذنيه صدى لوحة معدنية كانت معلقة فوق باب أحد الدكاكين والرياح تهزها، فترسل قطعها المعدنية صوتاً كأصوات الصناجات، وخُيِّل إليه أنه يسمع صدى تصادم أجزاء هياكل مونفوكون العظيمة.

ثم دمدم قائلاً: «أوه، إن رياح الليل تدفع بهم وتصدم بعضهم بالبعض الآخر، فتختلط أصداء السلاسل الحديدية بأصداء عظامهم! وقد تكون هي هناك، بينهم!»

وهنا، لم يعرف أيضاً إلى أين يتجه، ولكنه لم يلبث أن وجد نفسه أمام جسر سان ميشال. فجرى في نفس واحد، نحو نوتردام، التي كان يرى أبراجها الضخمة ترتفع في الظلام فوق البيوت.

وعندما بلغ ساحة بارفيس لاهثاً، تراجع خائفاً، لا يجرؤ على رفع عينيه نحو البناء المتجهم وهو يقول بصوت خافت: «أوه! هل صحيح أن يكون قد حدث شيء مثل هذا؟ اليوم؟ وفي هذا الصباح نفسه؟»

وفي هذه الأثناء، نظر إلى الكنيسة، فوجد صفحتها الأمامية قاتمة مظلمة. والسماء من خلفها تضيء بكواكبها. أما الهلال الذي لم يمضِ وقت طويل على ارتفاعه عن الأفق، فقد توقف في هذه البرهة فوق قمّة البرج الأيمن، وبدا كأنه متعلق به كالعصفور المضيء الواقف فوق الحاجز العلوي.

كان باب الدير مغلقاً. ولكن الكاهن الذي يحمل مفتاح البرج دائماً، والذي يقع فيه مختبره، قد استعان بهذا المفتاح للدخول إلى الكنيسة.

وهناك في داخلها، وجد ـ صمت الكهوف وظلمتها. وتبيَّن له أن الستائر التي كانت تنسدل من السقوف العالية إلى أرضها لم ترفع بعد، وأن الصليب الفضي ما يزال قائماً يعكس قطرات من النور في أعماق الظلمات كأنه طريق لبنية بيضاء لليل هذا المدفن. وبدا له أيضاً أنه يرى في أعلى النوافذ الطويلة تيجان أساقفة ملعونين. فأغلق عينيه. وعندما فتحهما مرّة أخرى، ظن أن هذه التيجان الأسقفية إنما هي وجوه باهتة تنظر إليه.

وانطلق هارباً عبر الكنيسة، حيث خُيِّل إليه أن الكنيسة نفسها تنتفض، وتتحرك، وتنبعث فيها الحياة، فتحيا. وأن كل عمود ضخم قد أصبح قائمة ضخمة تضرب الأرض بسوطها الحجري، وأن الكاتدرائية في حقيقتها قد تحولت إلى فيل عملاق يتنفس ويسير بركائزه التي هي قوائمه، وبرجيه اللذين هما خرطوماه، وبثوبه الأسود الهائل الذي هو هودجه الكبير.

وهكذا بلغت حمى الجنون عنده درجة فائقة من العنف بحيث إن العالم الخارجي لم يعد بالنسبة لهذا البائس غير نوع من رؤيا ملموسة، منظورة، مفزعة. ووجد بعضاً من العزاء خلال برهة من الزمن. وبينما كان يغوص في جانب من جوانب الكنيسة، شاهد، وراء كتلة كثيفة من العمد، ضياء أحمر اللون فجرى نحوه كما يجري المرء نحو نجم من النجوم. وإذا به المصباح الهزيل الذي يضيء كتاب الصلاة العمومي للكنيسة، ليلاً ونهاراً، وراء شبكته الحديدية. فألقى بنفسه فوق الكتاب المقدس، راجياً أن يجد فيه بعضاً من العزاء والنسيان، فوجده مفتوحاً على صفحة فيها فقرة «أيوب» هذه، التي تنقلت بين سطورها عينه الجامدة الثابتة: «ومرّ روح أمام وجهي، وسمعت نفساً خفيفاً، قفَّ له شعر جسدي كله.»

وهنا أحس الكاهن بما يحس به الأعمى حين يجد العصا التي التقطها قد لسعته. فهربت ركبتاه من تحته، وارتمى فوق أرض الكنيسة منهاراً تعباً، مفكراً في تلك التي ماتت خلال النهار. وكان يحس أن دخاناً هائلاً يمرّ أو يصب في دماغه حتى ليبدو له أن رأسه قد أصبح مدخنة من مداخن الجحيم.

والظاهر أنه بقي على وضعه هذا، عاجزاً عن التفكير، هاوياً، سلبياً، تحت يد الشيطان. وأخيراً رجع إليه بعض قواه، ففكَّر باللجوء إلى البرج قريباً من كوازيمودو الأمين ونهض، بعد أن حمل مصباح كتاب الصلاة بسبب خوفه الشديد. والحق أن في حمل المصباح إساءة دينية، إلا أنه لم يكن يفكِّر آنئذ في مثل هذه الأشياء الصغيرة.

وتسلق سلم الأبراج وئيداً، مفعماً بخوف خفي، كان يجب أن يشيعه المصباح حتى يبلغ نفوس المارة القليلين في ساحة بارفيس، بسبب ضوئه الخفي الذي يرتفع في مثل هذا الوقت المتأخر إلى أعلى برج الأجراس.

وفجأة أحس ببرودة فوق وجهه، ووجد نفسه عند باب أعلى الردهات في الكنيسة. لقد كان الهواء بارداً، وكانت السحب تخترق السماء، وقد تداخلت أجنحتها البيضاء، تتصادم وتتزاحم وتتحطم عند زوايا التقائها، وتشكل نهراً تذوب ثلوجه البيضاء، في وسط الشتاء. أما الهلال، الذي غرق وسط هذه الغيوم، فقد بدا سفينة سماوية محاصرة بقطع الهواء الثلجية.

ثم خفض بصره، وتأمل عبر الأعمدة الصغيرة التي تصل بين البرجين، وخلال الضباب والدخان، مجموعة سقوف باريس الصامتة، عديدة لا تحصى، دقيقة الأعالي، متزاحمة صغيرة، كأنها موجات بحر هادئ في ليلة من ليالي الصيف.

وفي هذه البرهة دقت الساعة معلنة حلول منتصف الليل. وفكَّر الكاهن في الظهيرة. لقد كانت الساعة الثانية عشرة تعود. ثم قال همساً:
«أوه! يجب أن تكون الآن باردة جداً!»

وفجأة، أطفأت الريح مصباحه، فرأى في الوقت نفسه تقريباً، ظلاً، بياضاً، بل شكلاً، بل امرأة، تبدو عند الزاوية المقابلة. فاقشعر. وإلى جانب هذه المرأة وجد عنزة صغيرة، كانت تخلط ثغاءها بآخر ثغاء الساعة الكبيرة.

ووجد القوة على النظر. فكانت هي.

كانت باهتة مظلمة. تهدلت ضفائر شعرها فوق كتفيها شأنها عند الصباح. واختفى الحبل الذي كان في عنقها، والقيود التي كانت في يديها. لقد كانت حرة. لقد كانت ميتة.

كانت تلبس ثوباً أبيض، وعلى رأسها برقع أبيض أيضاً.

كانت تتجه نحوه، بطيئة، وهي تنظر إلى السماء. والعنزة العجيبة تتبعها، فشعر أنه ثقيل جداً وأنه قد أصبح كتلة من الحجر، فلم يستطع أن يهرب. كان يخطو خطوة واحدة إلى الوراء، كلما خطت المرأة نحوه مثلها، هذا هو كل شيء. ودخل غائصاً في ظلمة قبة السلم. تثلجه بالخوف فكرة أنها قد تدخل إلى ظلمة القبة أيضاً، وأنها لو دخلت، لوقع ميتاً من الرعب، ما في ذلك ريب أبداً.

والواقع أنها قد بلغت باب السلم ووقفت أمامه قليلاً، وأثبتت نظرها في الظلال، دون أن يبدو أنها قد رأت الكاهن وتابعت طريقها. لقد بدت له أكبر مما كانت أثناء حياتها.

ونزل، بعد أن مرت المرأة، ببطء الطيف نفسه، معتقداً أنه هو نفسه طيف أيضاً، وقد زاغت عيناه، وقفَّ شعر رأسه، ومصباحه منطفئ في يده. وسمع خلال نزوله في السلم الحلزونية صوتاً يضحك ويردد: «ومرّ روح أمام وجهي، وسمعت نفَساً خفيفاً، قفَّ له شعر جسدي كله.»

2 ــ أحدب، أعور، أعرج

كان في كل مدينة من مدن القرون الوسطى حتى عهد لويس الثاني

عشر، بل كانت لكل مدينة في فرنسا، مناطق يحتمي بها الناس. وكانت هذه المناطق، وسط طوفان القوانين الجزائية، والتشريعات البربرية التي تغمر بها المدينة، شيئاً يشبه الجزر التي ترتفع عن مستويات العدالة البشرية. فأي مجرم يدخل إلى إحدى هذه المناطق ينقذ حياته. لقد كان في ضاحية من الضواحي عدد من هذه المناطق يساوي عدد المناطق المختصة بالإعدام والشنق. إنه سوء استعمال العفو إلى جانب سوء استعمال التعذيب، شيئان رديئان يحاولان أن يصلحا نفسيهما الواحد بالآخر. كانت في قصر الملك، وقصور الأمراء، والكنائس بصورة خاصة، منطقة حماية. وقد يجعلون من المدينة كلها منطقة حماية لفترة من الزمن بقصد ملئها بالسكان. والمعروف أن لويس الحادي عشر قد جعل من باريس مدينة حماية سنة 1467.

لا يكاد المجرم يضع قدمه داخل هذه المنطقة حتى يصبح شيئاً مقدساً، وكان من الواجب ـ ألا يخرج منها أبداً. فإذا وضع قدماً واحدة خارج هذه المنطقة، جرفه موج العدالة. إن عجلة التعذيب، والمشنقة، تراقبان فريستهما دون انقطاع كما يفعل سمك القرش حول السفينة العائمة. لقد رأى الناس محكومين بالإعدام قد ابيض سجلهم في دير، أو على سلم قصر، أو تحت باب كنيسة، فأصبحت بذلك منطقة الحماية سجناً كأي سجن آخر. وقد يحدث في بعض الأوقات أن يصدر تشريع برلماني، يخرج المحكوم من منطقة الحماية ويعيده إلى الجلاد، ولكن مثل هذا التشريع نادر جداً. إن احترام السلطان لهذه الملاجئ يبلغ حداً فائقاً، حتى إن الحيوانات نفسها تصبح موضوعاً لهذا الاحترام حالة لجوئها إليها.

وجرت العادة أن تكون في كل كنيسة غرفة خاصة لاستقبال هؤلاء الضارعين اللاجئين. وفي غرفة كنيسة نوتردام وضع كوازيمودو فتاته الاسميرالدا. والفتاة خلال جري كوازيمودو لم تسترجع وعيها فبقيت بين اليقظة والنوم، لا تحس بشيء، اللهم غير أنها ترتفع في الفضاء، تطفو

فيه، وتطير عبره، أن شيئاً يرفعها فوق الأرض. وكانت بين الفترة والفترة تسمع القهقهة المنفجرة، أو صوت كوازيمودو الصاخب عند أذنها، فتفتح عينيها قليلاً لترى باريس رؤيا غامضة، لوحة بدت فيها آلاف من السطوح الاردوازية والقرميدية حمراء وزرقاء، ومن فوقها وجه كوازيمودو الفرح الرهيب. ثم يهبط مرة أخرى، وهي تعتقد أن كل شيء قد انتهى، وأنها قد أُعدمت خلال إغمائها، وأن الروح البشعة المشوهة التي أشرقت على مصيرها قد أخذتها مرة أخرى وحملتها. فكانت لا تجرؤ على النظر إليها واستسلمت للأقدار.

وعندما وضعها قارع الأجراس لاهثاً، منثور الشعر، في الغرفة المخصصة لأمثالها من الناس، وعندما أحست بيديه الغليظتين تفكان الحبل الذي يدمي ذارعها، شعرت بهذا النوع من الهزة الذي يظهر فجأة في نفوس المسافرين فوق سفينة وسط ليل مظلم. واستيقظت أفكارها أيضاً، فرجعت إليها واحدة وراء الأخرى، فرأت أنها في نوتردام، وتذكرت أنها قد انتزعت من يدي الجلاد، وأن فوبوس كائن حي يرزق، وأنه لم يعد يحبها أبداً، وبدت لها هاتان الفكرتان معاً، وقد سكبت إحداهما فوق الأخرى كثيراً من المرارة والأسى. ثم التفتت نحو كوازيمودو الواقف أمامها، يبعث الذعر في نفسها، وقالت له: «لِم أنقذتني؟»

فنظر المسكين قلقاً إليها وكأنه يحاول أن يحزر ما تقوله. فرددت سؤالها. فألقى نحوها نظرة عميقة الحزن ثم ابتعد هارباً ولبثت مندهشة حائرة.

وبعد قليل رجع إليها يحمل صرة من الثياب ألقاها بين قدميها. لقد كانت من تلك التي وضعتها نساء محسنات لها عند عتبة الكنيسة. وهنا خفضت بصرها فوجدت نفسها عارية على التقريب فاحمر وجهها. لقد رجعت إليها الحياة. وبدا كوازيمودو، كأنه يخس بشيء من هذا الخفر، فغطى عينه بيده العريضة وابتعد مرة ثانية، في خطوات بطيئة.

فأسرعت الفتاة في ارتداء الثياب التي كانت تتألف من ثوب أبيض وبرقع أبيض. إنها ثياب مريدة حديثة العهد في أوتيل ـ ديو.

ولم تكد تنتهي حتى رأت كوازيمودو راجعاً إليها، يحمل سلة فوق ذراعه وفراشاً فوق الذراع الأخرى. وفي السلة قنينة، وقطع من الخبز وشيء من المؤونة. فوضع السلة أرضاً وقال: «كلي.» ثم بسط الفراش فوق بلاط الغرفة وقال: «نامي.» لقد كان ما في السلة طعامه الخاص. وكان الفراش فراشه أيضاً.

ورفعت الغجرية عينيها نحوه لتشكره، ولكنها لم تستطع أن تنبس ببنت شفة. لقد كان الشيطان المسكين مخيفاً حقاً. فخفضت بصرها في قشعريرة من الرهبة.

وهنا قال لها: «إنني أخيفك. وأنا جد قبيح، أليس كذلك، فلا تنظري إليّ بل أصغي إليّ فقط. ـ إنك ستبقين هنا أثناء النهار، أما في الليل ففي وسعك أن تتنزهي عبر الكنيسة كلها. ولكن لا تخرجي من الكنيسة أبداً في ليل أو في نهار. فإذا فعلت فقد ضعت. إنهم يقتلونك وأموت معك أيضاً.»

ورفعت رأسها لتجيب وهي بالغة التأثر. ولكنه كان قد اختفى. ها هي وحيدة، تحلم بالأقوال الفريدة لهذا المخلوق العظيم مأخوذة بصوته الذي كان شديد البحة ولكنه شديد الرقة والحلاوة.

تفحصت غرفتها فوجدتها لا تتجاوز ستة من الأقدام المربعة، وبدت لها المداخن فوق منازل باريس تنفث دخان النيران عبر نافذة غرفتها الصغيرة فكان منظراً محزناً لهذه الغجرية المسكينة، الطفلة اللقيط، المحكومة بالموت، والمخلوقة البائسة، التي حرمت الوطن والعائلة والمنزل.

وفي الوقت الذي كانت فيه فكرة عزلتها تبدو لها أشد إيلاماً منها في أي وقت مضى، شعرت برأس ذي لحية ينزلق بين يديها وعلى ركبتيها. فاهتزت راجفة مذعورة ونظرت، فإذا بها معزتها، دجالي، الخفيفة

السريعة، التي لحقت بها، في الوقت الذي فرّق فيه كوازيمودو حرس شارمولو. وقبّلتها الفتاة قبلات كثيرة قائلة: «أوه! كم نسيتك! إنك تفكرين بي دائماً! فلستِ عاقلة يا عزيزتي!» وبدا في الوقت نفسه أن يداً قد رفعت الثقل الذي كانت دموعها ترزح تحته منذ وقت طويل، فانفجرت تبكي، وكلما سالت دموعها شعرت بزوال ما كان في نفسها من المرارة والألم..

وفي المساء وجدت جمالاً في الليل، ورقّة في القمر، حتى أنها سارت حول الردهة المرتفعة التي تحيط بالكنيسة. وشعرت بشيء من العزاء والتسرية، بينما بدت لها الأرض ساجية هادئة، منظوراً إليها من تلك الأعالي.

3 ـ أصم

وفي الصباح التالي، لاحظت وهي تستيقظ أنها قد نامت. فأدهشتها هذه الظاهرة الغريبة. لقد مرّ بها عهد طويل نسيت خلاله النوم! وكان شعاع من الشمس الصاعدة قد دخل إليها عبر كوة الغرفة، منتشراً على صفحة وجهها. ورأت في الوقت نفسه شيئاً أخافها، إنه وجه كوازيمودو نفسه. فأغمضت عينيها على غير قصد منها. وسمعت خلال غمغمة عينيها صوتاً خشناً يقول لها برقة شديدة: «لا تخافي. إنني صديقك. لقد أتيت لأراك نائمة. هل يؤذيك أن آتي لآراك نائمة؟ وما الذي يسوؤك في أن أجيء وأنت مغمضة العينين؟ أما الآن فأنا ذاهب. لقد وقفت خلف الجدار، وفي وسعك أن تفتحي عينيك كما تشائين.»

وكانت اللهجة التي قِيلت بها هذه الكلمات أشد إثارة للشفقة من الكلمات نفسها. ففتحت الغجرية عينيها وهي متأثرة مشفقة. فلم تجده عند الكوة. فاتجهت نحوها، ونظرت، فرأت الأحدب المسكين متجمعاً عند زاوية جدار، في وضع مؤلم مستسلم. وجهدت تحاول أن تتغلب

على الاشمئزاز الذي كان يبعثه في نفسها، ثم قالت له رقيقة: «تعال». وظن كوازيمودو المسكين عند حركة شفتيها أنها تطرده فنهض وانسحب وئيداً يعرج. وقد خفض رأسه لا يجرؤ أن يرفع بصره المفعم باليأس نحو الفتاة. وصرخت تقول له: «تعال.. اقتربْ». ولكنه تابع طريقه مبتعداً عنها. فخرجت من الغرفة تجري نحوه وأمسكت بذراعه. فارتجف كوازيمودو حين أحس بكفها تلمس هذه الذراع. فرفع عينه الضارة، وحين رأى أنها تجره نحوها شع وجهه بالفرح والحنان. وأرادت الفتاة أن تدخله إلى الغرفة ولكنه أصرّ على البقاء عند العتبة.

قال: «لا، لا، إن البومة لا تدخل إلى عش القبَّرة.»

وهنا تجمعت بجمالها المعهود فوق فراشها، وعنزتها جاثمة عند قدميها. وبقي كلاهما جامدين فترة من الزمن، يتأملان صامتين، أما هو فيتأمل هذا الجمال الرائع، وأما هي فتنظر إلى هذا القبح الفظيع، وكانت تكتشف في كل برهة جزءاً جديداً من قبحه. ينتقل بصرها بين ركبتيه الجاسيتين المعوجتين وظهره المحدوب، ثم يرتفع من ظهره إلى عينه المفردة. لم تكن قادرة على أن تفهم كيف يمكن أن يعيش إنسان مشوّه التكوين ناقص التأليف مثله. ومع ذلك فقد كان في هذه الكتلة من القبح قدر كبير من الحزن والألم بحيث إنها بدأت تعتاد النظر إليها وتألف مجاورتها.

وقطع الصمت أولاً وهو يقول: «إذن فقد كنتِ تقولين لي أن أرجع؟»

فهزت رأسها وهي تردد: «نعم.»

ففهم حركة رأسها ثم قال كالمتردد في إكمال جملته:

ـ «ذلك أني وأسفاه أصم لا أسمع.»

فصرخت الغجرية تقول بصوت مفعم بالشفقة الحادبة: «يا للرجل المسكين!»

وانطلق يبتسم في ألم ويقول: «إنك تجدين أنه لم يكن ينقصني غير هذا؟ نعم، إنني أصم، هكذا صنعت. هذا شيء رهيب أليس حقاً ما أقول؟ أما أنت فجميلة رائعة!»

وكان في لهجة المسكين من العمق في البؤس بحيث إنها لم تجد قوة على الإجابة، على أنها لو فعلت لما سمعها.

ثم تابع يقول:

ـ «لم أرَ قبحي أبداً كما الآن، حين أقارن بك نفسي، فأنا مشفق على هذه النفس، كم أنا وحش بائس مسكين! وقد وجب أن أبعث فيك الشعور بحيوانيتي، أما أنت، فأنت من الشمس، قطرة من الندى، بل تغريدة عصفور! ـ وأما أنا فشيء مخيف، لا رجل ولا حيوان، بل شيء أقسى، وأكثر تمرغاً تحت الأقدام، وأشد قبحاً من الحصاة!»

وراح يضحك، وفي ضحكه أشد ما يمزق قلباً في العالم ثم تابع قائلاً:

ـ «نعم، وأنا أصم أيضاً. ولكنك ستتحدثين إليّ بالإشارات والحركات. فلي سيد يتحدث معي بهذه الطريقة. وسأتبين ما تريدين بحركة شفتيك، ونظراتك.»

وأردفت الفتاة تقول وهي تبتسم: «حسن جداً! قل لي، لِمَ أنقذتني؟»

ونظر إليها شديد الانتباه وهي تتكلم ثم أجابها: «لقد فهمت. تسألينني لِمَ أنقذتك؟ لقد نسيتِ بائساً حاول اختطافك في إحدى الليالي، بائساً لم تترددي في اليوم التالي من أن تنجديه فوق وتد تعذيبهم الكريه، قطرة من الماء وقليل من الشفقة، هاك هو الدَّين الذي لم أوفه بحياتي كلها. لقد نسيت هذا البائس، أما هو فإنه ما يزال يذكرك أبداً.»

وكانت تصغي إليه بحنان بالغ. وقد تحيّرت في عين قارع الأجراس دمعة، إلا أنها لم تسقط. فقد بدا يجد نوعاً من الشرف في التهامها.

وأردف حين لم يعد يخاف من سقوط الدمعة يقول: «أصغي إليّ،

إن لنا هنا أبراجاً عالية جداً، والرجل الذي يسقط منها سيموت قبل أن يبلغ تراب الأرض، وحين يحلو لك أن أسقط، فليس لك أن تقولي شيئاً. إن إشارة واحدة من عينيك كافية لتحقيق رغبتك.»

ونهض، ولكن الغجرية أشارت إليه بالبقاء بعد أن بعث فيها، هي نفسها التي بلغ بؤسها الحد الأقصى، شيئاً من الإشفاق والرحمة.

قال: «لا، لا. يجب ألا أبقى طويلاً هنا. فلا أجد طمأنينة نفسي حين تنظرين إليّ. وإذا لم تلفتي وجهك عني فبدافع من شفقتك ورحمتك. سأذهب إلى مكان آخر أراك فيه ولا ترينني. هذا أحسن وأشفق بي.»

ثم أخرج من جيبه صافرة معدنية وقال لها: «خذي هذه فإذا احتجت إليّ، وعندما ترغبين في أن آتيك، وحين لا تجدين هولاً ورهبة في النظر إليّ، انفخي فيها فإنني أسمع صداها.»

ووضع الصافرة أرضاً ثم ابتعد هارباً.

4 ـ فخار وبلور

وتتابعت الأيام.

ورجع الهدوء إلى روح الاسميرالدا شيئاً فشيئاً. فالألم الشديد والفرح الشديد شيء عنيف لا يلبث إلا قليلاً. إن قلب الإنسان لا يستطيع أن يبقى طويلاً في طرف من الأطراف. لقد تحملت الغجرية آلامها طويلاً حتى لم يبقَ لها منها غير الدهشة. ورجع الأمل إليها مع الأمن. كانت خارج المجتمع، خارج الحياة، ولكنها كانت تحس إحساساً مبهماً بأن رجوعها إليهما غير متعذر. كانت كالميتة التي تملك مفتاح قبرها.

وكانت تحس أيضاً أن الصورة المرعبة التي لاحقتها فترة طويلة من الزمن تبتعد عنها شيئاً فشيئاً. وامّحت في ذهنها كل الأشباح القبيحة، بطرس تورتورو الجلاد، وجاك شارمولو، حتى الكاهن نفسه.

أما فوبوس فقد كان يعيش، وكانت واثقة من ذلك، لقد رأته بأم عينها، كانت حياة فوبوس، كل شيء في نظرها. إنها لم تجد في نفسها من سلسلة الهزات الغاشمة التي حطمت كل شيء فيها، غير شيء واحد، عاطفة واحدة، حبها للقائد. ذلك أن الحب كالشجرة ينمو بنفسه، ويرسل جذوره إلى الأعماق في كياننا كله، ويتابع اخضراره وازدهاره فوق قلب خرب مهدَّم.

ومما يعسر تفسيره، أنه كلّما زاد عمى هذه العاطفة زادت صلابتها. فهي لا تبلغ قوتها الفائقة إلا حين تخلو من المنطق.

ولا شك أن الاسميرالدا لم تكن تفكِّر بالقائد دون مرارة. ولا شك أيضاً أنه كان قبيحاً به أن يُخدع، أن يصدق هذا الشيء المتعذر المستحيل، أن يقتنع بأن طعنة من خنجر قد تأتيه من قِبَل مَنْ هي جديرة بأن تمنحه ألف حياة. وأخيراً وجدت أن من الحق ألا تعود عليه باللوم الشديد، أفلم تعترف بجريمتها؟ ألم تضعف وهي المرأة الضعيفة، أمام التعذيب؟ لقد كان الخطأ خطأها هي شخصياً. وكان من واجبها أن تمتنع عن أن تقول شيئاً ولو قلعت أظافرها، وأنها جديرة بإرجاعه إلى الصواب حين تراه مرة واحدة، بل دقيقة واحدة. بنظرة منها، بل بكلمة واحدة فقط. لم تكن تشك في صحة هذه الظنون. وكانت تفكِّر في أشياء أخرى كثيرة، في تلك المصادفة التي جعلت فوبوس يحضر يوم تقديمها للكفارة، وفي تلك الفتاة التي كانت ترافقه، والتي يجب أن تكون إحدى أخواته. هذه تفسيرات غير منطقية طبعاً، ولكنها كانت مقتنعة بها مكتفية. ذلك لأنها كانت في حاجة إلى الشعور بحب فوبوس لها، وأنه لم يكن يحب إلاّها. أوَلم يقسم لها على حبه؟ وماذا تريد أكثر من ذلك؟ كم كانت ساذجة سريعة الإيمان، أولم تكن الحوادث في ظاهرها ضدها هي، لا ضده هو؟ وإذن فقد كانت تنتظر. لقد كانت تأمل.

يضاف إلى هذا كله، أن الكنيسة التي كانت تحيط بها من كل جانب، فحرستها، وأنقذتها، كانت هي نفسها عنصر تهدئة عظيمة لها.

كل شيء في هذه الكنيسة كان يؤثر في الفتاة: خطوط هندستها الرائعة، الروح الدينية التي تنبعث من كل أشيائها، الأفكار الورعة الطاهرة التي كانت تنبثق من مسام هذا البناء الحجري العظيم. وكان لهذا البناء نفسه من الأصداء والجلال ما يحمل الهدوء إلى روحها المريضة.

إن أناشيد الكهنة الرتيبة، وإجابات الشعب لهم، مبهمة حيناً، مدوية حيناً آخر، وارتجاف الألواح الزجاجية المتناغم، والأرغن المنفجر بألحانه، وأبراج الأجراس التي تدوي في السماء، هذه الجوقة كلها، التي تتحرك فوقها سلم موسيقية عملاقة تصعد وتهبط بين برج الأجراس والجماهير دون توقف.. إن هذه كلها كانت تُصِم ذاكرتها، وخيالها وألمها. وكانت الأجراس تهدهدها بصورة خاصة. كما يكون المغناطيس العظيم الذي تبعث به الآلات إليها في موجات كبيرة ضخمة.

أما الشمس فكانت عند كل إشراقة لها تجدها أكثر هدوءاً، وأحسن تنفساً، وأقل بهاتة. فيزيد رواء وجهها كلما زاد اندمال جراحها الداخلية. ولكنه رواء أشد رصانة وروعاً. بل رجع إليها شيء من نفسيتها الأولى، شيء من مرحها السابق، تكشيرتها الحلوة، حبها لعنزتها، تذوقها للغناء، وخفرها أيضاً. كانت تغني بارتداء ثيابها عند الصباح في زاوية من غرفتها، خوفاً من أن يراها عبر الكوة واحد من سكان الأهراء المجاورة.

وكانت الغجرية تفكِّر في كوازيمودو حين يترك لها تفكيرها في فوبوس بعضاً من الوقت. لقد كان كوازيمودو، الرابطة الوحيدة والصلة المفردة التي بقيت لها مع الناس، مع الأحياء. لقد كانت هذه البائسة أكثر بعداً عن العالم من كوازيمودو نفسه. فلم تكن تفقه شيئاً من نفسية صديقها الغريب الذي منحتها المصادفة إياه.

وكثيراً ما كانت تلوم نفسها بسبب عدم عرفانها للجميل الذي يجب أن يغمض عينيها على قبحه، ولكن الثابت أنها لم تكن قادرة على تعوّد النظر إليه بصورة نهائية. لقد كان شديد القبح حقاً.

كانت قد تركت الصافرة التي أعطاها إياها على الأرض. ولكن هذا التدبير لم يمنع كوازيمودو من الإلمام بها بين وقت وآخر في الأيام الأولى. فكانت تحاول جاهدة ألا تنظر إليه بكثير من الاشمئزاز حين يأتي حاملاً سلة مؤونتها أو جرة مائها، وكان المسكين يستشعر أقل أنواع هذه الحركات المشمئزة، فيرجع كاسفاً أسفاً.

وفي يوم، أتاها وهي تلاعب عنزتها دجالي. فبقي قليلاً يفكِّر أمام هذا الثنائي الظريف: العنزة والغجرية. ثم قال وهو يهز رأسه الثقيل المشوه: «إن بؤسي الشديد ناتج عن أنني شديد الشبه بالإنسان. لكَم أتمنى أن أكون حيواناً كهذه العنزة.»

ورفعت الفتاة نحوه بصراً مندهشاً. فأجاب نظرتها قائلاً: «أوه! إنني أعرف سبب ذلك.» ثم ذهب مبتعداً عنها.

وأتى مرة أخرى يقف أمام عتبة الغرفة (إذ لم يكن يدخلها أبداً) في الوقت الذي كانت فيه الاسميرالدا تنشد أغنية اسبانية، لم تكن تفقه هي نفسها من معناها شيئاً، ولكنها بقيت في ذاكرتها لأن الغجريات كن ينشدنها أمام سريرها وهي طفلة صغيرة، ولم تكد ترى هذا الوجه المفزع حتى انقطعت عن الغناء بحركة لاإرادية، فجثا قارع الأجراس على ركبتيه وضم كفيه الغليظتين على هيئة الضارع وقال في ألم عظيم: «أتضرع إليك أن تتابعي غناءك وألا تطرديني.» وهي بالطبع لم ترغب أبداً في الإساءة إليه فتابعت غناءها وهي ترتجف. واختفى ذعرها شيئاً فشيئاً وتركت نفسها تسبح في اللحن الساهم الذي كانت تغنيه. أما هو فبقي على ركبتيه، ويداه مضمومتان، كأنه في صلاة، شديد الانتباه، لا يكاد يتنفس، ونظره مثبت على حدقتي الغجرية. فكأنه يسمع أغنيتها في عينيها.

وفي مرة ثالثة أتاها على هيئة الخجِل المتعثر وقال لها بجهد شديد:

ـ «أصغي إليَّ، فعندي ما أقوله لك.» وأشارت الفتاة إليه أنها مصغية. فأخذ يتنهد، ثم نظر إليها، وحرَّك رأسه حركة سلبية، وانسحب ببطء، جبهته في كفه، تاركاً وراءه الغجرية مندهشة.

وسمعته الفتاة يوماً يقول لوجه بشع من الوجوه الحجرية المنحوتة: «أوه! لِمَ لا أكون حجراً مثلك؟»

وأخيراً، خرجت الاسميرالدا في صباح يوم وتقدمت حتى بلغت طرف السطح ونظرت إلى الساحة. وكوازيمودو خلفها متحاشياً أن يقع نظرها عليه فيجنبها أكبر قَدْرٍ من الانزعاج والخوف. وفجأة اقشعرت الفتاة الشابة، وأضاء في وجهها معاً بريق فرح ودمعة في العينين جذلى، وركعت عند طرف السطح ومدت ذراعيها قلقة نحو الساحة وهي تصرخ: «فوبوس! تعال! تعال! كلمة! كلمة واحدة! بحق السماء! فوبوس! فوبوس!» فكان في صوتها، ووجها، وحركاتها، بل كل ما في شخصيتها نداء يمزق الأكباد، صادراً عن غريق يرسل إشارة حزنه نحو سفينة مرحة تمر بعيداً في الأفق عبر حزمة من أشعة الشمس.

وانحنى كوازيمودو فوق الساحة، ورأى أن موضوع رجائها الهاذي الحنون، هو شاب، قائد من الجند، فارس جميل يلمع بأسلحته وزينته، يمر بحركة استعراضية في أقصى الساحة، ويحيي سيدة جميلة تبتسم فوق شرفتها. على أن الضابط لم يسمع نداء هذه البائسة. لقد أصبح بعيداً.

أما الأصم المسكين فقد سمع هذا النداء. فتحرك صدره بتنهيدة عميقة. ورجع. كان قلبه مفعماً بكل الدموع التي كان يلتهمها، وكفاه المتشنجتان تتصادمان فوق رأسه، وقد علقت بكل منهما نتف من شعره الأشقر حين رفعهما عنه.

أما الغجرية فلم تعره انتباهاً. كان يقول بصوت خافت: «يا للعنة! هكذا يجب أن يكون المرء في شكله الخارجي!»

وفي هذه الأثناء بقيت الفتاة جاثية على ركبتيها تصرخ بهياج شديد عجيب: «أوه! ها هو ينزل عن حصانه .ـ وسيلج باب هذا المنزل! ـ فوبوس! ـ إنه لا يسمعني! ـ فوبوس! كم هي خبيثة تلك المرأة التي تتحدث إليه في الوقت نفسه! ـ فوبوس! فوبوس!»

كان الأصم ينظر إليها. وكان يدرك مغزى ما تقول. وعينه ممتلئة

بالدموع ولكنه لا يترك منها قطرة واحدة تسقط. وفجأة جذبها رقيقاً بردن كمها. فالتفتت نحوه. وقد اتخذ هيئة هادئة مطمئنة. وقال لها: «هل ترغبين في أن آتيك به؟»

فأرسلت صرخة فرح وقالت: «أوه! اذهب! أسرع! أركض! هذا القائد! هذا القائد! أئت به إليّ! إنني سأحبك!» وضمت إلى صدرها ركبتيه. فلم يسعه إلا أن يهز رأسه من الألم وأن يقول بصوت ضعيف: «سآتيك به!» ثم التفت برأسه وقفز بخطوات كبيرة إلى ما تحت السلم، تخنقه العبرات.

وحينما بلغ الساحة لم يجد غير الحصان مربوطاً بحلقة عند باب منزل آل جوندولوريا. فقد دخل القائد إليه منذ قليل.

ورفع بصره نحو سطح الكنيسة. فكانت الاسميرالدا في مكانها منه، وفي الوضع المحزن نفسه، فأشار إليها برأسه إشارة حزن وأسى. ثم استند إلى ركيزة من ركائز المنزل ينتظر خروج القائد.

كان هذا اليوم، في منزل آل جوندولوريا، يوماً من أيام ما قبل ليلة الزفاف. رأى كوازيمودو كثيراً من الناس يدخلون ولا يخرجون. فكان ينظر إلى السطح بين وقت وآخر. ثم أقبل أحد خدم الإسطبل وأدخل الحصان إلى اسطبل المنزل.

ومرّ النهار كله كذلك. كوازيمودو مستند إلى الباب والاسميرالدا فوق السطح، وفوبوس دون ريب عند قدمي فلور دو لي.

وأخيراً جاء الليل. ليل لا قمر فيه، ليل قاتم مظلم. وكوازيمودو يحدق في الاسميرالدا. ولم تلبث السماء حتى لبست بياض الغسق، ثم اختفى كل شيء. لقد امّحت كل الأشياء، فأصبحت سوداء قاتمة.

ورأى كوازيمودو الضياء يشع عبر صفحة البيت الأمامية كلها. ثم رأى نوافذ البيوت ترسل ضياءها واحدة وراء الأخرى، ثم رآها بعد ذلك تنطفئ بصورة متدرجة. فقد بقي السهرة كلها في مركزه لا يتحرّك.

والضابط باق لا يخرج. وبقي كوازيمودو وحيداً في الظلام الدامس بعد مرور آخر روّاد الليل.

وفي هذه الأثناء بقي النور في منزل آل جوندولوريا إلى ما بعد منتصف الليل. وكوازيمودو يرى وراء أشتات من ألوان الزجاجِ المختلف جمهرة من الظلال الحية الراقصة. ولو لم يكن مصاباً بالصمم، لسمع، كلما زاد هدوء ضجة باريس، بطريقة مطردة الوضوح، ضجة عيد وقهقهات وموسيقى تخرج من داخل هذا المنزل.

وبدأ المدعوون يخرجون عند الساعة الواحدة. وكوازيمودو المغلف بالظلمات ينظر إليهم جميعاً يمرون تحت الباب المضيء بالمشاعل. ولكن القائد لم يكن بينهم أبداً.

كان كوازيمودو مفعماً بالأفكار الحزينة. ينظر إلى السماء بين فترة وأخرى كأولئك الذين يضجرون. وقد تدلت من السماء غيوم سوداء، ثقيلة، ممزقة مبقورة. حتى ليقال إنها أنسجة عنكبوتية لقبة السماء.

وفي إحدى هذه الفترات، شاهد الباب الزجاجي الذي يطل على الشرفة، ينفتح بهدوء ثم ينغلق، بعد أن خرج منه شبحان: رجل وامرأة. فلم يجد كوازيمودو صعوبة في أن يتبين في الرجل، القائد الجميل، وفي المرأة، تلك السيدة الجميلة التي كان قد رآها في الصباح تستقبل الضابط من على الشرفة. كانت الساحة تامّة الظلمة، وقد انسدل ستاران قرمزيان وراء الباب الزجاجي فحالا دون خروج الضياء.

وقد بدا الشابان في حدود اجتهاد صديقنا الأصم الذي لم يكن يسمع شيئاً مما يقولان، غارِقين في عزلة حلوة رقيقة. وكوازيمودو يشاهد ما يحدث بينهما. كان يتأمل هذه السعادة، وذاك الجمال بمرارة بالغة. أما ما كان يمزق قلبه في هذا المشهد، وما كان يمزج الازدراء مع حقده وغضبه، فهو التفكير فيما عسى قد تحس به الغجرية من الألم لو رأت ما يراه. صحيح أن الليل كان دامساً شديد الظلمة، وأن الاسميرالدا جديرة ألا ترى شيئاً لو بقيت حيث كانت في الصباح، فقد كانت بعيدة جداً.

حتى إنه هو لا يكاد يراها بوضوح فوق الشرفة، مما كان يدخل العزاء إلى قلبه. وفتح باب الشرفة بصورة مفاجئة، وظهرت سيدة عجوز ثم دخل الثلاثة معاً. وبعد قليل كان جواد يركل الأرض بقائمتيه الأماميتين تحت باب المنزل، والضابط اللامع بأسلحته وزينته، والذي تلفع بمعطفه الليلي، يمر سريعاً أمام كوازيمودو.

تركه قارع الأجراس يتجاوز زاوية الشارع ثم جرى خلفه بخفة القرد وهو يصرخ: «ها! أيها القائد!»

ووقف القائد.

ثم قال وهو يحاول النظر في الظلمة: «ماذا يريد مني هذا التافه؟»

وفي هذه الأثناء وصل كوازيمودو إليه، وأمسك جريئاً بعنان جواده: «اتبعني أيها القائد، فهناك إنسان يريد التحدث إليك.»

فدمدم القائد قائلاً:

«هولو! هل تريد أن تترك عنان فرسي؟»

فأجاب الأصم: «أيها القائد ألا تسألني عن اسم هذا الإنسان؟»

فأجاب الضابط نافد الصبر: «قلت لك أن تترك جوادي.»

وحاول كوازيمودو أن يقنعه بالرجوع دون أن يبدي استعداده طبعاً لترك العنان. وبما أنه لم يكن قادراً على تفسير مقاومة القائد فقد أسرع يقول له: «تعال أيها القائد، إنها امرأة تنتظرك.» ثم أضاف بجهد شديد: «إنها امرأة تحبك.»

قال القائد: «ومن يظن، أيها النذل، أنني مرغم على زيارة كل النساء اللاتي يغرمن بي! أو من يقول بذلك! ـ ولا سيما إذا كانت هذه المرأة تشبهك أيها القط العاوي؟ ـ قل لتلك التي أرسلتك إليّ أنني مقدم على الزواج، ولتذهب صاحبتك إلى الشيطان!»

وصرخ كوازيمودو وقد ظن أنه سيضع حداً لتردده بكلمة واحدة: «أصغ إليّ! إنها الغجرية التي تعرفها!»

والواقع أنه قد كان لهذه الكلمة أثر عميق في نفس فوبوس، ولكن، ولكن، ليس ذاك الذي كان ينتظره. فقد نذكر جميعاً أن الضابط قد انسحب مع فلور دو لي إلى داخل المنزل قبيل إنقاذ كوازيمودو لها من بين يدي شارمولو.

ومنذئذ أخذ يتجنب خلال زياراته لمنزل آل جوندولوريا التحدث عن هذه الفتاة، التي كانت تؤلمه ذكراها، وقد وجدت فلور دو لي من الكياسة ألا تخبره بأن الغجرية ما تزال حية ترزق. وإذن فقد كان فوبوس معتقداً أن الفتاة قد ماتت لا سيما وقد مرّ على الحادث شهر أو شهران. يضاف إلى هذا كله أن القائد قد بدأ يفكِّر في ظلمة الليل العميقة، وبشاعة الرسول الفائقة، وصوته القَبْري، وأن نصف الليل قد ولَّى، وأن الطريق خالية من المارة تماماً كذلك المساء الذي قابل فيه الكاهن الشرير، وأن جواده ينفخ بقوة وهو ينظر إلى كوازيمودو.

فصرخ على هيئة المذعور تقريباً: «الغجرية! وإذن فأنت آت من العالم الآخر!»

ووضع يده على مقبض سيفه.

قال الأصم وهو يحاول جر الجواد: «أسرع! أسرع. الطريق من هنا!»

فركله فوبوس بقدم حذائه العالي في صدره ركلة شديدة. ولمعت عين كوازيمودو وأرسلت شرراً. وتحرك يبغي الانقضاض على القائد. ولكنه لم يلبث أن امتنع عن ذلك مجهداً نفسه وقال: «أوه! كم أنت سعيد أن يكون لك من يحبك!» ثم ترك عنان الجواد وقال له: «اذهب!»

وانطلق فوبوس يسب ويجدف، وكوازيمودو ينظر إليه وهو يغيب في ضباب الشارع. ثم قال الأصم المسكين: «أوه! غريب أن يرفض المرء مثل هذه الدعوة!»

ورجع إلى الكنيسة وأضاء مصباحه ثم صعد البرج. فوجد الغجرية كما توقع من قبل حيث كانت في الصباح.

ولم تكد تراه حتى جرت نحوه وصرخت وهي تضم يديها في ألم بالغ: «هل أتيت وحدك؟»

فقال كوازيمودو ببرود: «لم أستطع أن أجده.»

فأردفت ثائرة: «كان يجب أن تنتظره طوال الليل!» ورأى كوازيمودو حركتها المغضبة فأدرك معنى ما تقول.

فأجابها وهو يخفض رأسه: «سأراقبه خيراً مما فعلت في المرة المقبلة.»

قالت له: «اغرب عن وجهي!»

وتركها، وهي غاضبة منه. وقد فضَّل أن تساء معاملته على أن يدخل الحزن إلى قلبها. لقد احتفظ لنفسه بالألم كله.

ومنذ ذلك اليوم، لم تعد الغجرية تراه. لقد امتنع عن المجيء إلى الغرفة، على أنها كانت تراه في بعض الأوقات فوق قمة أحد الأبراج وهو ينظر إليها حزيناً ساهماً. ولكنها لا تكاد تلحظه حتى يبتعد مختفياً.

ومن الواجب أن نقول إنها كانت قليلة الحزن على غياب الأحدب المسكين الطوعي. بل كانت في أعماق قلبها شاكرة له ذلك، أما كوازيمودو فلم يتوهم شيئاً بالنسبة إلى هذا الموضوع.

هي لم تكن تراه، ولكنها كانت تحس بوجود روح طيبة من حولها. إن مؤونتها تتجدد بيد خفية أثناء النوم. وفي صباح يوم، وجدت على نافذة غرفتها قفص طيور. وفي بعض الأمسيات كانت تسمع صوتاً مختبئاً وراء برج الأجراس ينشد وكأنه يدعوها إلى النوم أغنية حزينة غريبة. لقد كانت هذه الأغنية أبياتاً من شعر لا قافية موحدة فيه:

لا تنظري إلى الشكل،
وانظري إلى القلب أيتها الفتاة،
إن قلب شاب جميل هو في الغالب قلب مشوه،
فهناك قلوب لا تحتفظ بالحب.

* * *

أيتها الفتاة ليس شجر الصنوبر جميلاً،
إنه لا يملك جمال شجر الحور،
ولكنه يحتفظ بأوراقه الخضراء خلال الشتاء.

* * *

واأسفاه! لِمَ نقول هذا كله،
لقد أخطأ القبيح في الاحتفاظ بحياته،
فالجمال لا يحب غير الجمال،
ونيسان يستدبر شهر كانون الثاني.

* * *

الجمال شيء كامل،
والجمال قادر على كل شيء،
والجمال هو الشيء الوحيد الذي يوجد كاملاً.

* * *

لا يطير الغراب إلا في النهار،
ولا تطير البومة إلا في الليل،
أما البجعة فتطير ليلاً ونهاراً.

* * *

وفي صباح يوم وهي تستيقظ، وجدت على نافذتها إناءين ممتلئين بالورود، أحدهما إناء بلوري فائق الجمال واللمعان ولكن فيه كسراً. وقد ترك الماء، الذي ملئ به، يتسرب منه وذبلت فيه وروده. وثانيهما كوب من الفخار، غليظ رخيص الثمن، ولكنه كان يحتفظ بمائه كله، وقد بقيت فيه وروده حمراء مزدهية.

أما الاسميرالدا فقد حملت الورود الذابلة، وأبقتها طوال نهارها فوق صدرها لا تدري ما إذا كانت قصدت ذلك أم لا.

في ذلك اليوم لم تسمع صوت البرج يغني.

فلم تعبأ به إلا قليلاً جداً.. وقضت نهارها تلاعب عنزتها دجالي، وتراقب باب منزل جوندولوريا، وتحدث نفسها بصوت خافت عن فوبوس، وتفتت خبزها للطيور.

وفي كل حال، لم تعد ترى كوازيمودو كما لم تعد تسمع صوته. وكان القارع المسكين يبدو مختفياً من الكنيسة. ومع ذلك فقد سمعت تنهيدة بالقرب من غرفتها في ليلة من الليالي، وهي غارقة في تفكيرها في قائدها الجميل بعد أن امتنع عليها النوم. فنهضت خائفة مذعورة، ورأت على ضوء القمر كتلة مشوهة تنام أمام بابها. لقد كانت هذه الكتلة كوازيمودو نفسه، نائماً على الحجر.

5 ـ مفتاح الباب الأحمر

في هذه الأثناء عرف الكاهن بالطريقة العجائبية التي أنقذت بها الغجرية. فلم يعرف حين بلغه هذا الخبر حقيقة شعوره. ولا سيما أنه كان قد أعد نفسه لتقبل موت الاسميرالدا. وبهذه الطريقة كان مطمئناً، لقد لمس أعماق الألم الممكنة. إن القلب البشري (كما تبيَّن لكلود بعد أن تأمل طويلاً في هذا الموضوع) لا يستطيع أن يحتوي إلا على كمية محدودة من اليأس ومن ثم ففي وسع البحر أن يمر فوق الإسفنجة دون أن يضيف إلى مائها دمعة واحدة بعد أن تبتل وتمتلئ به.

وعلى ذلك فقد ماتت الاسميرالدا في ظنه، وامتلأت الإسفنجة بالماء، وقبل كل شيء على هذه الأرض بالنسبة إليه. أما أن يشعر بأنها حية، وأن يحيا فوبوس أيضاً فقد كان في ذلك مصدر عذاب جديد له، وهزات متكررة. وكان كلود قد تعب من هذا كله.

فماذا يفعل وهو حبيس هذه المشاعر؟ وما هي الأفكار التي كان يتلوَّى تحتها؟ هل يخوض معركة أخيرة مع هواه المخيف؟ هل يضع خطة

أخيرة للقضاء عليه وتضييع نفسه؟

وجاءه أخوه المحبوب، ولده المدلل، جوهان، يوماً، وأخذ يطرق بابه، يقسم، ويجدف ويتضرع، ويعلن عن اسمه عشر مرات. ولكن كلود لم يفتح له بابه.

كان يقضي أياماً كاملة ملصقاً وجهه بزجاج نافذته. ويرى من خلال نافذته في الدير غرفة الاسميرالدا، كان يراها غالباً مع عنزتها، أو مع كوازيمودو في بعض الأوقات. ويلاحظ عناية الأصم الكريه بها، يلاحظ طاعته وأساليبه اللطيفة وخضوعه المطلق للغجرية. فكان يتساءل عن سبب إنقاذ كوازيمودو لها. لقد كان شاهداً على ألف مشهد صغير بين الغجرية والأصم. وكان يحذر من غرابة النساء. وهنا بدأ يحس بغيرة توقظ في نفسه، إحساساً غامضاً، غيرة لم يكن ينتظر أن يحس بها من قبل أبداً، غيرة كانت تصبغ وجهه بالحمرة خجلاً من نفسه وازدراء لها.

لقد كان يعرف أين يجد مفتاح الباب الأحمر الذي يصل بين الدير والكنيسة وكان يحتفظ دائماً كما يعرف الجميع، بمفتاح سلم الأبراج.

6 ـ تابع مفتاح الباب الأحمر

كانت الاسميرالدا في هذه الليلة قد نامت في غرفتها، مفعمة بالنسيان، والأمل والأفكار الرقيقة. تنام حالمة، شأنها دائماً، بفوبوس، حين يخيل إليها أنها تسمع ضجة من حولها. وكان لها نوم خفيف وقلق، نوم كنوم العصافير. كانت نأمة تافهة توقظها. فتفتح عينيها. والليل مظلم أسود. وفي هذه الأثناء رأت في الكوة وجهاً ينظر إليها. وبالقرب من هذه الرؤيا مصباح يرسل ضوءه، ثم أطفأ هذا الوجه مصباحه حين شعر أن الاسميرالدا قد رأته. ومع ذلك فقد وجدت الاسميرالدا ما يكفي من الزمن لرؤيته. فانغلقت أهدابها من الخوف وقالت بصوت هامس: «أوه! إنه الكاهن!»

ثم رجع إليها بؤسها السابق كله كالبرق اللامع. فهبطت فوق فراشها، مثلوجة باردة. لقد أرادت أن تصرخ، فما وسعها ذلك.

وقالت بصوت راجف خافت وبتأثير من غضبها ورعبها:

ـ «اغرب عن وجهي أيها الوحش! اغرب عن وجهي، أيها القاتل!»

ـ «النجدة! مصاص الدماء! مصاص الدماء!»

فلم يأتِ أحد. وبقيت دجالي يقظة تثغو قلقة من الخوف.

والكاهن اللاهث يقول: «اسكتي.»

وفجأة، وقعت يدها على شيء معدني، وهي تنتفض وتزحف، لقد كانت صافرة كوازيمودو. فأمسكت بها في تشنج الأمل، ووضعتها بين شفتيها ونفخت فيها بكل ما بقي لها من القوة، فأرسلت الصافرة صوتاً واضحاً حاداً وثاقباً.

قال الكاهن: «ما هذا؟»

وفي الوقت نفسه تقريباً، شعر بذراع قوية ترفعه، لقد كانت الغرفة مظلمة، فلم يسعه أن يرى من يمسكه. ولكنه سمع أسناناً تصر وتصطك غضباً، وكان في الظلمة ما يكفي من النور المتناثر مما سمح له برؤية شفرة سكين لامعة فوق رأسه.

وخُيِّل إلى الكاهن أنه يرى شكل كوازيمودو. وافترض أنه يجب أن يكون هو شخصياً. ثم تذكر أنه قد تعثر وهو يدخل، بكتلة كانت متمددة عند عتبة الباب الخارجي. وفي هذه الأثناء لم يكن يدري ما يعتقده، والطارق الجديد لا يفوه بكلمة واحدة. فألقى بنفسه فوق الذراع التي تحمل السكين وهو يصرخ: «كوازيمودو!» ونسي في هذه البرهة من الأسى، أن كوازيمودو أصم لا يسمع.

وفي طرفة عين تمدد الكاهن على الأرض وأحس بركبة من الرصاص تجثم فوق صدره. ولم يكد يحس بهذه الركبة المقرنة حتى عرف كوازيمودو. ولكن ما العمل؟ كيف يمكن أن يعرفه كوازيمودو؟ لقد جعل الليل من الرجل الأصم أعمى أيضاً.

لقد ضاع. ولم تتدخل الفتاة لإنقاذه، وهي التي خلت من كل شفقة كالنمرة الثائرة. واقتربت السكين من رأسه. لقد كانت الفترة شديدة الحرج وفجأة بدأ خصمه يتردد.

وقال بصوت أصم: «لن أحمّلها مسؤولية الدماء!»

لقد كان في الواقع صوت كوازيمودو نفسه. وهنا أحس الكاهن باليد الغليظة تجره من قدمه إلى خارج الغرفة. فهناك يجب أن يموت. وكان من حسن حظه، أن القمر قد أطل منذ قليل.

ولم يكادا يتجاوزان باب الغرفة حتى سقط شعاع القمر الباهت فوق وجه الكاهن. فنظر كوازيمودو إليه، وسرت الرجفة في جسده، ثم تراجع.

أما الغجرية التي تقدمت نحو العتبة فقد رأت الأدوار فجأة تتغيّر. لقد أصبح الكاهن يهدد وكوازيمودو يرجو ويتضرع.

وأشار الكاهن إليه إشارة خشنة أن يتراجع، بعد أن غمره بحركاته المغضبة ولومه.

فخفض الأصم رأسه، ثم أتى يجلس على ركبتيه أمام باب الغجرية وقال بصوت وقور مستسلم: «سيدي، اقتلني أولاً.»

وقدَّم إلى الكاهن سكينه وهو يتكلم. أما الكاهن الذي فقد وعيه فقد انقض عليه ولكن الفتاة كانت أسرع منه. فانتزعت السكين من يد كوازيمودو وانفجرت تقهقه غاضبة ثائرة.

قالت للكاهن: «اقترب!»

وكانت تشرع شفرتها عالية. وتردد الكاهن. لقد كانت مستعدّة لأن تطعنه ثم صرخت: «إنك لن تجرؤ على الاقتراب أيها الجبان!» وأضافت بقسوة بالغة: «آه لقد عرفت أن فوبوس حي يرزق!»

ورمى الكاهن كوازيمودو أرضاً بركلة من قدمه ثم غاص تحت قبة السلم وهو يرتجف غضباً.

ولم يكد يبتعد، حتى التقط كوازيمودو الصافرة التي أنقذت حياة الغجرية وقال وهو يعيدها إليها: «لقد صدئت. ثم تركها وحيدة.»

أما الفتاة، فقد تمددت منهارة فوق سريرها وقد أزعجها هذا المشهد العنيف وراحت تبكي، وشاع التجهم في أفق حياتها مرة أخرى.

وأما الكاهن فقد رجع إلى غرفته يتحسس طريقه بيديه وقدميه.

وحدث ما كنا ننتظره. لقد أصبح كلود يغار من كوازيمودو.

ثم ردد عبارته الهائلة وهو يفكِّر: «لن يفوز بها أحد أبداً.»

الكتاب التاسع

1 ـ أفكار جرنجوار التي تتابعت في شارع البرنارديين

يبدو أن جرنجوار قد عزم على التخلي عن هذه المهزلة حين رأى أنها ستنتهي بأبطالها إلى الحبل، إلى المشنقة وإزعاجات أخرى مختلفة. أما اللصوص الذين كان قد اختارهم جرنجوار رفاقاً له في باريس دون غيرهم من الناس، أما هؤلاء اللصوص فقد تابعوا اهتمامهم بالغجرية. وكان يجد في اهتمامهم ظاهرة طبيعية، لا سيما وأنهم لم يكونوا يجدون في آفاق حياتهم غير أمثال شارمولو وتورتورو الجلاد، وأنهم لا يجنحون مثله في مناطق خيالية بين جناحي بيجازوس، وقد علم من خلال أحاديثهم أن زوجته ذات الجرة المكسورة قد لجأت إلى نوتردام، فكان بذلك سعيداً بالغ الطمأنينة. ولكن شيئاً لم يستطع أن يغريه على الذهاب إلى هناك مستطلعاً مستكشفاً. وكل ما في الأمر أنه كان يفكِّر في العنزة بين وقت وآخر. أما فيما عدا ذلك فقد كان يقوم أثناء النهار بألعاب بهلوانية كسباً لقوت يومه. فإذا جن الليل أقبل على مذكراته يسجل فيها هجاءه لأسقف باريس، لأنه كان يذكر دائماً أن مياه عجلات مطاحنه قد غمرته في يوم من الأيام، وما يزال محتفظاً بعميق حقده عليه. كما كان منهمكاً بتحليل كتاب بودري لاروج أسقف نوايوان وتورنا، مما منحه هبة خاصة وذوقاً مرهفاً في فن هندسة البناء، وهو ميل جديد قد ملأ قلبه وأغناه عن فن الفلسفة، مع العلم أن فن البناء هو في حقيقته شيء ملحق

بهذه الفلسفة لما بين هذين الفنين من صلة صميمية وثيقة: لقد انتقل جرنجوار من حبه للفكرة إلى حبه لشكل هذه الفكرة.

وفي يوم من الأيام، بينما كان جرنجوار يتأمل منتشياً، الأشكال الخارجية المنحوتة لأحد الأبنية الرائعة، في هذه المرحلة من المتعة الأنانية، الفريدة، العليا، حيث لا يجد رجل الفن في العالم غير الفن نفسه، أحس بيد توضع بوقار على كتفه. فيلتفت إلى الوراء ويجد أمامه صديقه القديم، بل أستاذه القديم، الكاهن كلود فروللو نفسه.

فلبث جامداً في دهشة عارمة. لقد مرّ به عهد طويل لم يرَ الكاهن خلاله، وكان دوم كلود من أولئك الرجال المثيرين الذين يسبب الالتقاء بهم انزعاجاً ظاهراً في نفس فيلسوف شكّاك.

واحتفظ الكاهن بصمته فترة من الزمن أتيح لجرنجوار أن يتأمل أستاذه القديم. فوجده شديد التغيُّر، باهتاً كصباح يوم من أيام الشتاء، قد غارت عيناه وشاب شعره. وأخيراً قطع الكاهن هذا الصمت وهو يقول بلهجة هادئة، ولكنها مثلوجة: «كيف حالك، أيها المعلم بطرس؟»

فأجاب جرنجوار: «صحتي؟ ها! ها! من الممكن أن يُقال هذا أو ذاك، إنها على كل حال جيدة بصورة عامة. إنني لا أكثر من تناول أي نوع من أنواع الطعام. وإنك تعرف أيها السيد سر الاحتفاظ بصحة جيدة.»

فأردف الكاهن وهو يثبت نظره في شخص جرنجوار قائلاً:

ـ «وإذن فلا يشغلك شيء أيها المعلم بطرس؟»

ـ «لا، أبداً.»

ـ «وماذا تصنع الآن؟»

ـ «أنت ترى يا معلمي. إنني أدرس أشكال هذه الأحجار، والأسلوب الذي نقشت به هذه الرسوم.»

فأخذ الكاهن يبتسم، تلك الابتسامة التي تخرج من أحد طرفي الفم وقال: «وهل يسليك هذا؟»

فصرخ جرنجوار وقال: «إنها الجنة!» ثم انحنى فوق النقوش والمنحوتات بوجه مضيء كما يكون وجه الكاشف عن الكائنات الحية وقال: «ألا ترى إلى هذه السذاجة وتلك الحلاوة في الوجوه المنحوتة، وذاك المرح في أوضاع هذه التماثيل المختلفة. ـ ألا تجد هذا كله شيئاً مسلياً وممتعاً حقاً؟»

قال الكاهن: «نعم دون ريب.»

فأردف الشاعر: «ولو أنك شاهدت داخل هذا البناء لزدت به إعجاباً، وأمعنت في النظر إليه استمتاعاً» فقاطعه دوم كلود يقول: «وإذن فأنت سعيد؟»

فأجاب جرنجوار في حماسة لاهبة: «نعم يا سيدي! لقد أحببت النساء أولاً، ثم انتقلت إلى الحيوانات. وها أنا الآن أحب الأحجار. وحب الأحجار لا يقل إمتاعاً للمرء عن الحيوانات والنساء، وهو أقل خيانة للرجل منهما وكذباً عليه.»

فوضع الكاهن كفه فوق جبينه. لقد كانت هذه هي حركته العادية وقال:

ـ «الحقيقة ما تقول يا صديقي!»

قال جرنجوار: «أرأيت؟ إن لنا ما نستمتع به!»

ـ «أفلا ترغب في شيء آخر؟»

ـ «أبداً.»

ـ «أولست آسفاً لشيء أضعته؟»

ـ «لقد نظمت حياتي. فلا أسف ولا رغبة.»

قال كلود: «إن ما ينظمه الرجال، تشوشه الأشياء في الحياة والطبيعة وتبعث فيه الفوضى.»

فأجاب جرنجوار: «إنني فيلسوف توازني، وأحتفظ بالأشياء كلها متوازنة.»

ـ «وكيف تكسب عيشك؟»

ـ «إنني ما زلت هنا وهناك أنظم الملاحم والمآسي، ولكن ما يريحني حقاً أكثر من غيره، إنما هو الفن الذي عرفته عندي أيها المعلم. إنه حمل أهرام من الكراسي بأسناني.»

ـ «هذه مهنة قاسية غليظة بالنسبة لفيلسوف مثلك.»

قال جرنجوار: «هذا شيء من التوازن أيضاً. فالمرء حين يملك فكرة من الأفكار، يجدها في كل شيء من أشياء حياته.»

فأجاب الكاهن: «أعرف ذلك.» ثم أردف بعد صمت قصير: «ولكنك في كل حال رجل مسكين.»

ـ «قد أكون مسكيناً، ولكنني لست بائساً.»

وفي هذه البرهة، ارتفع صدى خيول جارية، ورأى المتحاوران أمامهما عند طرف الشارع فرقة من رماة حرس الملك، وبأيديهم رماح مشرعة في الفضاء، والضابط في مقدمتهم.

قال جرنجوار للكاهن: «ما أشد ما تنظر إلى هذا الضابط!»

ـ «ذلك أنني ظننت أني أعرفه.»

ـ «وما اسمه؟»

قال كلود: «أعتقد أن اسمه فوبوس دي شاتوبار.»

ـ «فوبوس! إنه اسم يبعث على الفضول! وهناك أيضاً فوبوس، كونت دي فوا. كما أذكر فتاة كنت أعرفها لم تحلف إلا باسم فوبوس.»

قال الكاهن: «هل تأتي؟ إن عندي شيئاً أقوله لك.»

لقد كان وراء الغلاف الثلجي لوجه الكاهن ثورة لا تكاد تنفذ منه، منذ مرور هذه الجماعة من الجند. وسار يتبعه جرنجوار، الذي اعتاد أن يطيعه، ككل أولئك الذين اقتربوا من هذا الرجل ذي السلطان والشكيمة القوية. وبلغا صامتين شارع البرناردين الذي كاد يكون خالياً من الناس.

وهنا وقف دوم كلود.

فسأله جرنجوار: «ما الذي ترغب في أن تقوله لي يا سيدي؟»

فأجاب الكاهن، على هيئة من يفكِّر بعمق بالغ: «ألا ترى أن ثياب هؤلاء الفرسان الذين رأيناهم منذ هنيهة أجمل من ثيابي وثيابك؟»

فهز جرنجوار رأسه وقال: «لعمري! إن ثوبي الأصفر والأحمر لأحب إليّ من هذه القشور الحديدية والفولاذية.»

ـ «وإذن فأنت لا ترغب أبداً في لبس مثل هذه الثياب؟»

ـ «في أي شيء أرغب يا سيدي الكاهن؟ هل أرغب في قوتهم، وسلاحهم، ونظامهم؟ إن الفلسفة والاستقلال مع الثياب الرثة أجمل عندي مما يلبسون. إنه لأحب إليّ أن أكون رأس ذبابة من أن أكون ذيل أسد من الأسود.»

قال الكاهن الحالم: «هذا شيء فريد. ومع ذلك فإن الثوب الجميل شيء رائع مرغوب فيه.»

وتركه جرنجوار حين رآه على هيئته مستغرقاً في تفكيره، ليتأمل معجباً في باب منزل مجاور. ثم رجع وهو يصفق بيديه قائلاً: «لو كنتَ أقل انشغالاً بثياب رجال الحرب يا سيدي الكاهن، لرجوتك الذهاب لرؤية هذا الباب. لقد قلت دائماً إن لمنزل السيد أوبري أروع مدخل في العالم.»

قال الكاهن: «ماذا فعلت يا جرنجوار بهذه الراقصة الغجرية الصغيرة؟»

ـ «الاسميرالدا؟ إنك تغيِّر مجرى الحديث بسرعة مفاجئة.»

ـ «ألم تكن زوجتك؟»

ـ «نعم، عن طريق جرة مكسورة. وكان المفروض أن يدوم هذا الزواج أربع سنوات» ـ وأضاف جرنجوار وهو ينظر إلى الكاهن: «بهذه المناسبة، ألست تفكِّر فيها دائماً؟»

ـ «وأنت، ألا تفكِّر فيها أيضاً؟»

ـ «قليلاً. ـ فعندي أشياء غيرها!... يا إلهي كم كانت العنزة الصغيرة جميلة!»

ـ «ألم تنقذ هذه الغجرية حياتك من قبل؟»

ـ «هذا واللّه صحيح.»

ـ «حسن جداً! فما الذي أصابها؟ وماذا صنعت من أجلها؟»

ـ «أعتقد أنهم شنقوها.»

ـ «أوتظن ذلك؟»

ـ «لست واثقاً مما أقول. فقد انسحبت حين رأيت أنهم عازمون على شنقها.»

ـ «أهذا كل ما تعرفه عنها؟»

ـ «انتظر قليلاً. لقد قِيل لي إنها لجأت إلى نوتردام، وإنها هناك في مأمن من الموت، فسررت بذلك، ولم أكتشف ما إذا كانت العنزة قد نجت بنفسها أيضاً، هذا كل ما أعرفه.»

وهنا صرخ دوم كلود وهو يقول بصوت داو بعد أن كان خافتاً بطيئاً جداً:

ـ «سأخبرك بمزيد من أخبارها. إنها في الواقع مختبئة في نوتردام. ولكن العدالة ستخرجها منها بعد ثلاثة أيام، وستشنق في ساحة جريف. بعد أن صدر تشريع برلماني خاص بشأنها.»

قال جرنجوار: «هذا خبر محزن حقاً.»

ورجع الكاهن بارداً هادئاً في طرفة عين.

وأردف الشاعر يقول: «ومن هو هذا الشيطان الذي طلب من البرلمان إصدار مثل هذا التشريع؟ ألا يمكن أن يترك البرلمان بعيداً عن مثل هذه القضية؟ وماذا يحدث إذا لجأت فتاة إلى نوتردام بجانب أعشاب الطيور؟»

فأجاب الكاهن: «إن في العالم شياطين رجيمة.»

وعقَّب جرنجوار قائلاً: «هذه مؤامرة وسخة حقاً.»

ثم أردف الكاهن بعد صمت يقول: «إذن فقد أنقذت هذه الفتاة حياتك؟»

ـ «لقد كدت أشنق عند أصدقائي اللصوص الطيبين. وسيسوؤهم اليوم أن يعلموا بهذا الخبر.»

ـ «ألا تريد أن تفعل شيئاً من أجلها؟»

ـ «لست أبغي خيراً من هذا أيها المعلم، ولكن، ألا يجوز أن يصيبني من وراء هذه القضية ما يربكني؟»

ـ «وهل يهمك أن تتجنب ما يربكك؟»

ـ «كيف لا! أيها المعلم. لقد بدأت بتأليف كتابين كبيرين.»

وضرب الكاهن جبينه بجمع يده. ولم يسعه رغم احتفاظه بهدوئه الظاهري إلا أن يبدي حركة من الحركات المتشنجة بين وقت وآخر ثم قال: «كيف السبيل إلى إنقاذها؟»

فأجابه جرنجوار: «سأجيبك عن ذلك، أيها المعلم، والأمل كبير في اللَّه عزَّ وجلَّ.»

وكرر كلود الحالم: «كيف السبيل إلى إنقاذها؟»

فضرب جرنجوار جبينه بجمع كفه أيضاً.

ـ «أصغِ إليّ أيها المعلم. إن لي خيالاً خصيباً. فما رأيك لو سألنا الملك أن يعفو عنها؟»

ـ «تسأل عفواً؟ من لويس الحادي عشر؟»

ـ «ولِمَ لا؟»

ـ «إنه لأهون عليك أن تنتزع العظمة من شدق النمر.»

وراح جرنجوار يبحث عن حلول أخرى.

فدمدم الكاهن يقول: «ومع هذا كله، فمن الواجب أن تخرج من هناك. إن التشريع قابل للتنفيذ بعد ثلاثة أيام!»

ثم رفع صوته: «أيها المعلم بطرس، لقد فكّرت جيداً في هذا الموضوع، ووجدت أن حلاً وحيداً كفيل بإخراجها سالمة.»

ـ «ما هو هذا الحل؟ إنني لم أعد أرى شيئاً.»

ـ «أصغِ إليّ أيها المعلم بطرس، سأقول لك رأيي بصراحة، واذكر دائماً أنها قد أنقذت حياتك. فالكنيسة مراقبة ليلاً ونهاراً. لا يخرج منها إلا من رؤي أنه قد دخل إليها من قبل. وإذن فإنك تستطيع الدخول. وأحملك إليها. وتبادلها ثيابك. فتأخذ أنت تنورتها وتأخذ هي سترتك.»

قال الفيلسوف: «هذا شيء حسن حتى الآن. وماذا نفعل بعد ذلك؟»

ـ «هكذا تستطيع الفتاة أن تخرج بثيابك، وتبقى أنت بثيابها. وقد تشنق أنت، ولكنها تنجو من الموت.»

وحك جرنجوار أذنه على هيئة جادة ثم قال: «ما كانت هذه الفكرة لتأتيني دون أن ينجدني أحد غيري.»

ولم يكد جرنجوار يسمع اقتراح دوم كلود المفاجئ حتى اغبر وجهه بعد بياض، وابتأس بعد مرحه، كما تكون برية من بريات إيطالية الضاحكة ثم لا تلبث أن تكتئب إذ تمر بها رياح سافية فتحطّم السحاب تحت ضوء الشمس الساطع.

ـ «وما هو رأيك يا جرنجوار بهذه الوسيلة؟»

ـ «أقول أيها المعلم: إن شنقي نتيجة حتمية لا ممكنة فقط لمثل هذه المحاولة.»

ـ «هذا شيء لا يعنيك.»

قال جرنجوار: «يا للطاعون!»

ـ «لقد أنقذَتْ حياتك. وهو دين تفيه.»

ـ «هناك ديون أخرى لا أفيها.»

ـ «أيها المعلم بطرس: هذا شيء يجب أن تفعله.»

وكان الكاهن يتكلم بسلطان ظاهر.

فأجاب الشاعر الفيلسوف: «أصغ إليّ يا دوم كلود. إنك متمسك بهذه الفكرة. وأنت على خطأ. فأنا لا أرى أيها المعلم مبرراً لشنق نفسي مكان إنسان آخر.»

ـ «وما الذي يجعلك شديد التعلق بالحياة؟»

ـ «آه! أسباب كثيرة!»

ـ «وما هي؟»

ـ «إنها الهواء، والسماء، والصباح، والمساء، إنها ضوء القمر، وأصدقائي اللصوص، والأشكال المنحوتة التي أعزم على دراستها في باريس، وثلاثة كتب تنتظرني لأكتبها، واحد منها ضد الأسقف ومطاحنه، وأشياء أخرى مما لا أدريه حتى الآن. كان انكسا غورس يقول: إنه إنما أتى إليّ هذا الصباح ليتأمل الشمس، وهناك أخيراً سعادتي الكبرى في قضاء الأيام كلها من الصباح إلى المساء مع رجل عبقري هو أنا، وهذا شيء جميل جداً.»

فردد الكاهن: «إن لك رأساً جديراً بحمل الأجراس، وهذه الحياة التي تجد فيها كل هذا الجمال، من الذي حفظها لك؟ لمن تدين بالهواء الذي تتنفسه، والسماء التي تراها، والذهن القُبَّري الذي تمتعه بأشياء جنونك وأفكارك السخيفة؟ أين كان يمكن أن تكون الآن لولا هذه الفتاة؟ وإذن فأنت تريد أن تموت هذه الفتاة وهي التي كانت سبب حياتك؟ لتمت هذه المخلوقة، الجميلة، الرقيقة المعبودة، والضرورية لضياء العالم، أما أنت، نصف الحكيم ونصف المجنون، الكائن الذي يتغذى فيظن أنه يمشي ويفكِّر، فستتابع حياتك بتلك التي انتزعتها منها، خالياً من كل فائدة كما يكون نور المصباح في وقت الظهيرة. قليلاً من الشفقة يا جرنجوار! كُن كريماً بدورك. إنها هي التي بدأت.»

كان الكاهن فائق الحماسة. يصغي إليه جرنجوار متردداً بادئ الأمر، ثم متأثراً منفعلاً، حتى انتهى إلى إبداء تكشيرة مفعمة بروح المأساة جعلت وجهه شبيهاً بوجه طفل حديث الولادة مصاب بوجع في بطنه.

ثم قال وهو يمسح دمعة تسيل من عينه: «إنك شديد التأثير أيها المعلم. سأفكر في هذا الأمر. إنها فكرة غريبة تلك التي تقترحها.» ثم قال بعد صمت: «من يدري فقد لا يشنقونني أبداً. إن طالب يد الفتاة لا يتزوجها دائماً. إنهم حين يرونني في تلك الغرفة متلفعاً بتنورتها وطاقيتها، قد ينفجرون ضاحكين. فإذا أصروا على شنقي، فالشنق موت كأي موت آخر. أو بتعبير آخر: إنه ليس موتاً كأي موت آخر. إنه موت جدير بالحكيم الذي تأرجح حياته كلها، موت ليس باللحم والسمك، كما يكون ذهن الشكّاك الحقيقي، موت مصطبغ بالتوازنية والتردد، يقف في نقطة وسطية بين الأرض والسماء، فيتركنا معلقين لا إلى هنا ولا إلى هناك. إنه موت فيلسوف، قد يكون مكتوباً عليَّ في لوح القدر. وقد يكون رائعاً حقاً أن يموت الإنسان كما عاش قبل الموت.»

فقاطعه الكاهن قائلاً: «هل تم اتفاقنا؟»

فتابع جرنجوار قائلاً: «وما هو الموت؟ فترة سيئة، إنه رسم ندفعه، ومرور من شيء قليل ضئيل إلى العدم. وقد سأل أحدهم السيد سرسيداس ماغالو بوليتان، عما إذا كان راغباً في الموت مختاراً فقال: ولِمَ لا؟ إنني سأرى بعد موتي كبار الرجال، فيثاغورس بين الفلاسفة، هيكاتورس بين المؤرخين، وهوميروس بين الشعراء، وأولمب بين الموسيقيين.»

فمد الكاهن يده إليه وقال: «إذن إلى الغد.»

وأرجعت هذه الحركة السيد جرنجوار إلى موضوعيته. فقال بلهجة الرجل الذي يستيقظ: «لا، لعمري! أن أُشنق! هذا شيء غير معقول. إنني لا أريد أبداً.»

ـ «الوداع إذن.» ثم أضاف الكاهن يصر بأسنانه: «سأجدك مرة أخرى.»

قال جرنجوار في نفسه: «إنني لا أحب أن يجدني هذا الرجل الشيطاني مرة أخرى». ثم جرى وراء دوم كلود وتابع: «أرجو أيها السيد

الكاهن ألا تكون بين صديقين قديمين قطيعة أو مغاضبة. إنه حسن منك أن تهتم بهذه الفتاة، أقصد زوجتي. وقد تخيَّلت خطة لإنقاذها، إلا أنها خطة فاسدة جداً بالنسبة إليّ. وما رأيك إذا خطرت لي فكرة أنقذها بها دون أن أعرض نفسي لحبل المشنقة؟ أفلا يكفيك هذا؟ وهل من الضروري أن أشنق لتكون أنت سعيداً؟»

كان الكاهن ينتزع أزرار جبته وهو يقول له: «أي جدول من الألفاظ السخيفة! ما هي وسيلتك؟»

فأردف جرنجوار يكلم نفسه واضعاً سبابته فوق أنفه إشارة إلى عميق تأمله، ـ هاك هي! ـ اعلم أن اللصوص رجال طيبون، ـ واعلم أيضاً أن قبيلة مصر تحبها جداً. وهم جديرون بالثورة عند أول كلمة. لا شيء أسهل من ذلك، وبمساعدة ضئيلة تخطف الفتاة بفضل الفوضى التي سيحدثونها، وسيكون ذلك مساء الغد. . . ، ولن يطلبوا شيئاً أفضل من ذلك.

قال الكاهن وهو يهزه: «الوسيلة! . . تتكلم.»

والتفت إليه جرنجوار بجلال يقول: «اتركني إذن! فأنت تعلم أنني أنظم وأؤلف.» ثم فكَّر قليلاً وانطلق يصفق بيديه إعجاباً بفكرته ويصرخ: «شيء معجب حقاً! والنجاح مضمون دون ريب!»

فأردف كلود غاضباً: «الوسيلة!»

وأصبح جرنجوار مرحاً ثم قال:

ـ «تعال أخبرك بصوت خافت. إنها محاولة رائعة ستنقذنا جميعاً من هذا المأزق. يا إلٰهي! يجب أن توافق على أنني لست أبله.»

ثم انقطع عن الاسترسال وأردف: «والعنزة الصغيرة هل هي مع الفتاة؟»

ـ «نعم، وليخملك الشيطان.»

ـ «ألم يعزموا على شنقها أيضاً؟»

ـ «وما الذي يعنيني من هذا الأمر!»

ـ «نعم، لقد كانوا جديرين بشنقها. وقد شنقوا خنزيرة في الشهر الماضي، فالجلاد راغب في مثل هذا الشنق. فهو يأكل الحيوان بعد شنقه. يا لعنزتي المسكينة الجميلة! إنهم يريدون شنقها أيضاً!» وصرخ دوم كلود: «يا للعنة! الجلاد هو أنت. فأية وسيلة غريبة وجدت؟»

ـ «إنها حسنة جداً! أيها المعلم!»

ثم انحنى جرنجوار على أذن الكاهن يهمس فيها وهو يلقي نظرة قلقة بين أول الشارع وآخره حيث لم يكن يمر أحد من الناس. وأخيراً أمسك دوم كلود بيده وقال له ببرود: «هذا شيء حسن. فإلى الغد.»

وكرر جرنجوار: «إلى الغد.» وبينما كان الكاهن يبتعد، توجه في الطريق المقابلة وهو يقول بصوت مرتفع: «هناك قضية تدعو إلى الاعتزاز والفخر أيها السيد بطرس جرنجوار. وما يهمني من هذا الأمر كله أن ضآلة الشأن لا تحول دون أن نقول الأشياء الكبيرة. فلنروِّع أنفسنا بمحاولة عظمية. لقد حمل بيتون ثوراً كبيراً فوق كتفيه، أما عصافير القُلَيْعِي والدُّخلة وأم سكعكع فإنها تجتاز على صغرها المحيط الواسع العظيم.

2 ـ كن لصاً

وجد الكاهن، وهو يدخل الدير، عند باب غرفته، أخاه جوهان دي مولان الذي كان ينتظره ويروِّح عن نفسه برسم صفحة وجه أخيه الجانبية على الجدار بقلم فحمي، مضيفاً إلى الوجه أنفاً كبيراً لا يتناسب مع قسمات الوجه الأخرى.

وكان دوم كلود منصرفاً عن أخيه بمشاغله الخاصة فلم يكد يثبت نظره فيه. إن وجه هذا التافه المرح الذي استطاع شعاعه في مرات سابقة أن يعيد الطمأنينة إلى وجه الكاهن المظلم، قد كان يومئذ عاجزاً عن

إزاحة الضباب الذي يتكاثف في كل يوم فوق هذه الروح الفاسدة العفنة، ذات الطابع المستنقعي.

قال جوهان بخفر ظاهر: «لقد أتيت لأراك يا أخي.»

فقال الكاهن دون أن يرفع بصره إليه: «وبعد؟»

فأردف المنافق: «إنك يا أخي فائق الطيبة معي، وإنك لتعطيني من النصائح ما يدفعني إلى الرجوع إليك.»

ـ «ثم؟»

ـ «واأسفاه! يا أخي! كم كنت محقاً عندما كنت تقول لي دائماً: «جوهان، جوهان، كن عاقلاً، كن عالماً، لا تترك الكلية دون مبرر مشروع ودون إذن من أستاذك. لا تضرب زملاءك، ولا تتعفن كحمار أُمّيّ. جوهان، دع أستاذك يعاقبك. جوهان اذهب إلى الكنيسة في كل مساء، وأنشد فيها نشيداً نقدمه لمجد مريم البتول. واأسفاه! كم كانت طيبة آراؤك ونصائحك!»

ـ «ثم؟»

ـ «إنك ترى أمامك يا أخي، مخطئاً، بل مجرماً، ومسكيناً أيضاً! يا أخي العزيز، لقد جعل جوهان من نصائحك اللطيفة الجميلة قشاً ونفايات يطأها بقدميه. وقد عوقبت على هذا عقاباً شديداً، واللّه في سمائه عادل فائق العدالة. كنت كلما حصلت على المال، أنفقه في فنون من الجنون والحياة العابثة المرحة. أما الآن فلم أعد أملك شيئاً. لقد بعت كل شيء حتى قميصي وغطاء فراشي، وفقدت الحياة المرحة! لقد انطفأ المصباح الجميل، ولم يعد في حوزتي غير فتيل كريه من الشحم يرسل دخانه إلى أنفي. إنني أشرب ماء فقط، يسحقني الندم وأصحاب الديون.»

قال الكاهن: «وماذا بقي عندك؟»

ـ «واأسفاه يا أخي العزيز، لقد عزمت على أن أحيا خيراً من حياتي السابقة فأتيتك مفعماً بالندم والألم. إنني تائب، معترف لك. أضرب صدري بجمع يدي عنيفاً شديداً عليه. لقد كنت على حق حين رغبت في

أن أكون مجازاً بدراستي وأستاذاً معاوناً في كلية تورسي. وها أنا الآن أحس بالنداء العميق يدفعني إلى استهداف هذه الغاية. ولكنني لم أعد أملك حبراً، وعليّ أن أشتري حاجتي منه، كما لم أعد أملك ورقاً، أو كتباً، وأنا في حاجة إليها شديدة. إن حاجتي إلى قليل من المال حاجة ملحة. وقد أتيتك يا أخي والقلب مفعم بالندم والحزن.»

ـ «أهذا كل ما عندك؟»

قال الطالب: «نعم، قليلاً من المال.»

ـ «ليس عندي منه شيء.»

وهنا قال الطالب على هيئة وقور ومصرَّة في الوقت نفسه:

ـ «حسن جداً، يا أخي، يؤسفني أن أقول لك إن بعضهم قد تقدم إليّ بعروض مغرية. إنك لا تريد أن تعطيني مالاً؟ ـ وإذن فسأصبح لصاً في مثل هذه الحالة.»

وقد اتخذ الطالب هيئة أجاكس، وهو يلفظ أقواله الأخيرة، ظناً منه أن العاصفة ستسقط على رأسه.

ولكن الكاهن لم يلبث أن قال له: «كن لصاً» فحياه جوهان باحترام عميق ثم هبط سلم الدير وهو يصفر..

وبينما كان يجتاز ميدان الدير تحت نافذة حجرة أخيه، سمع النافذة تنفتح، فرفع رأسه ورأى الكاهن المتجهم وهو يقول له: «اذهب إلى الشيطان، وهاك آخر ما أنقدك إياه.»

وفي الوقت نفسه ألقى الكاهن إليه محفظة أصابته في جبينه وتركت فيه ورماً. انطلق بعدها جوهان سعيداً ومغضباً، كالكلب الذي يضرب العظام بما فيها من نخاعها وبقية من لحمها.

3 ـ يحيا الفرح!

لم ينسَ القارئ فيما نعتقد أن جزءاً من بلاط العجائب كان محاطاً

بالجدار القديم لسور المدينة، وقد بدأ عدد غير قليل من أبراج هذا الجزء تتساقط أجزاؤه وتنهار في هاتيك العهود. وقد حوّل أحد هذه الأبراج من قبل اللصوص إلى بيت للمتعة واللذات. كانت فيه حانة. وكان هذا البرج أشد أمكنة اللصوصية حيوية وبالتالي أكثرها بشاعة وقبحاً. لقد كان منحلة شديدة الضخامة يطن فيها روّادها في الليل والنهار. فإذا نام العدد الأكبر من شعب المتسولين، وحينما تنطفئ شرفات البيوت الترابية ونوافذها، وحين تنقطع الصرخات التي كانت تصدر خلال الساعات الأولى من الليل، من هذه المنازل الحقيرة، ومن منامل اللصوص، والأطفال المختطفين، والبنادق، يكون هذا البرج موطناً لمرح شديد وصخب متعاظم، وأنوار حمراء تتسرب إلى الخارج عبر الكوى، والنوافذ والشقوق الجدرانية، وبتعبير آخر تتسرب من مسامه كلها دون استثناء.

وإذن فقد كان هذا الكهف حانة للصوص، يهبط الداخل إليها سلماً خشنة جامدة بعد أن يجتاز باباً شديد الانخفاض. وقد وضع في مقدمة الباب شيء يشبه اليافطة رسمت فيها رسوم دراهم جديدة ودجاجات مقتولة كتبت تحتها هذه العبارة:

«إلى قارعي الأجراس الموتى.»

وفي هذه الأثناء كان للخمرة وللَّعب من القوة في الانحراف بالأفكار التي كانت تشغل حي اللصوص، بحيث يصعب على المراقب أن يكتشف الموضوعات التي كانت تُعالج هناك. أما الشيء الوحيد الذي يدركه فهو أن جو المرح أظهر في هذه الليلة منه في الليالي الأخرى، وكانت ترى بين سوق الجميع وأقدامهم أسلحة مختلفة لامعة.

أما غرفة الحانة المستديرة فقد كانت واسعة جداً، ولكن المناضد فيها والشاربين قد كثروا وتزاحموا بحيث إن كل ما كانت تحتويه الحانة من رجال ونساء ومقاعد، وجرار للبيرة، بينهم من كان يشرب، أو ينام، أو يلعب، أو يملك جوارحه كاملة، أو يعرج، أو مقطوعة أجزاء من جسمه، كان هؤلاء يبدون متراكمين بعضهم فوق البعض الآخر كأنهم كومة من

أصداف المحار، وقد وضعت مصابيح شمعية فوق بعض المناضد، ولكن المصباح الجدير حقاً بهذا الاسم، والذي كان يرسل في فضاء الحانة نوره، كما ترسل النجفة الكبرى نورها عبر فضاء الأوبرا، هو الناس المشتعلة. لقد كان هذا الكهف بالغ الرطوبة بحيث إن النار فيه تبقى ليل نهار وفي الصيف والشتاء. وقد ظهرت فيه مدخنة ذات ركيزة منحوتة، أُثقل أعلاها بعدد كبير من أنواع الآنية الحديدية وأدوات المطبخ، وبدت فيها النار تؤج بالخشب المحترق، كأنها تلك التي تبدو، ليلاً، في شوارع قرية من القرى، شديدة الحمرة على الجدران المقابلة لها وكأنها نار الحداد. وفي وسط الرماد البارد كان يقعي كلب كبير وقور يدير فوق النار سفوداً محملاً بمختلف اللحوم. ومهما تكن الفوضى ظاهرة عند الوهلة الأولى، فقد كان من الممكن أن يتبيَّن المرء ثلاث مجموعات رئيسية، يتزاحم أفرادها حول ثلاثة أشخاص قد عرفهم القارئ من قبل. أما أحدهم فهو دوق مصر وبوهيميا. وكان يجلس فوق منضدة صالبَ فيها ساقيه، ورفع إصبعه في الفضاء، يوزع بصوت مرتفع شذرات من علمه في السحر الأبيض والأسود على عدد من الوجوه المندهشة البلهاء التي كانت تحيط به. وأما ثانيهما فهو صديقنا القديم ملك التونيين الذي حمل سلاحه كاملاً حتى أضراسه كما يقولون. إنه كلوبان ترويفو، ينظم توزيع أسلحة كانت موجودة في برميل كبير، قد بقر أعلاه، لإخراجها منه. وأصاب الأطفال أنفسهم من هذا السلاح. وأما المجموعة الثالثة فهي أكثر المجموعات ضجيجاً وصخباً. إنها كانت تشغل المقاعد والمناضد يتوسطها إنسان مدجج بالسلاح بدرعه الكاملة وخوذته الفولاذية، ويحيط جسده بعدد من الخناجر والحراب، فلا يبدو منه غير أنف أحمر أفطس مرتفع، وحلقة من شعر أشقر، وفم وردي، وعينين جريئتين. والأفواه كلها من حوله تضحك وتشرب.

يُضاف إلى هؤلاء عشرون مجموعة ثانوية، فتيات وصبيان الخدمة، ولاعبون متجمعون أمام أشتات وفنون من أدوات اللعب المختلفة، وعلى

كل هؤلاء تنعكس لهب النار الكبيرة التي ترسل إلى جدران الحانة آلافاً من الظلال العظيمة الغليظة.

أما فيما يتعلق بالصخب، فقد كان في الحقيقة صخب جرس في أعنف انطلاقاته.

في هذه الضجة، بعيداً في أقصى الحانة، على المقعد الداخلي للمدينة، فيلسوف يفكِّر، قدماه في الرماد، وعيناه في الجمرات، إنه بطرس جرنجوار.

وكان كلوبان ترويفو يقول لرجاله: «لنسرع ونتسلح جميعاً، فإننا سنسير بعد ساعة واحدة». وفتاة تنشد:

مساء الخير، يا أبي ويا أمي!
الأخيرون هم الذين يطفئون النار.
واختلف اثنان يلعبان بالورق.

كان دوق مصر يقول: «أيها الأبناء، إن ساحرات فرنسا يذهبن إلى اجتماع السحرة دون مكانس أو شحوم أو مطية يركبنها. أما ساحرات إيطاليا فلهن دائماً تيس ينتظرهن عند الباب. والمفروض فيهن جميعاً أن يخرجن من المدخنة.»

أما صوت الشاب المدجج بسلاحه فقد كان يرتفع فوق الضجة صارخاً: «نوويل! نوويل هذه هي أسلحتي في اليوم الأول! أنا اللص! صبوا لي جعة أشربها! أيها الأصدقاء، إنني أدعى جوهان فرولُلو دي مولان. وأنا واثق بأن اللَّه جدير أن يكون مخرباً هدّاماً إن لم يكن دركياً. أيها الإخوة إننا سنقوم بحملة جميلة رائعة. ونحن لا تنقصنا الشجاعة، سنحاصر الكنيسة، ونحطم أبوابها، ونُخرج الفتاة الجميلة منها، وننقذها من القضاة، ثم نخرِّب الدير، ونحرق الأسقف في أسقفيته، وسنفعل هذا كله في وقت أقصر من ذلك الذي يقضيه أحدهم في أكل قدر ملعقة واحدة من الحساء. إن قضيتنا قضية عادلة، وسنخرب نوتردام، وبذلك نقول كلمتنا كلها، سنشنق كوازيمودو، هل تعرفن

كوازيمودو أيتها النساء؟ هل رأيتنه يلهث فوق الجرس الكبير في يوم عيد العنصرة؟ إنه يبدو جميلاً حقاً! حتى ليقال إنه شيطان فوق جواد على شدق كبير. ـ أصغوا إليّ أيها الأصدقاء، إنني لص حتى الأعماق، نذل في روحي، ولقد ولدت فاسقاً. كنت غنياً فأكلت أموالي كلها. كانت أمي تريد أن تجعل مني ضابطاً، ورغب أبي أن أكون معاوناً لكاهن، أما عمتي فقد أرادتني مستشاراً في قلم التحقيق والتفتيش، وأحبت جدتي أن تجعل مني موثقاً لعقود الملك، أما جدتي من عمتي فقد رغبت في أن أكون وكيلاً على خزينة المال. وقد جعلت من نفسي لصاً، قلت ذلك لأبي الذي لعنني في وجهي، ولأمي السيدة العجوز، التي انفجرت تبكي. ليحيَ الفرح! إليّ يا صاحبة الحانة الصديقة بمزيد من الخمر! فعندي حتى الآن ما أدفع ثمنه.»

وفي هذه الأثناء، كانت الجماعة المحدقة به تصفق له في قهقهات عظيمة، فصرخ الطالب وقد رأى الناس يتضاعفون من حوله: «أوه! يا للثمرة الجميلة؟» ثم انطلق ينشد، وقد بدت في عينيه نشوة الكاهن الذي يرتل نشيد صلاته. وبعد قليل توقف وقال: «أعطيني ما أتعشى به، يا ساقية الشيطان.»

ومضت فترة صمتت فيها الضجة أو كادت، ارتفع خلالها صوت دوق مصر الحاد يعلّم أتباعه من الغجر. هذا كله واللصوص يتابعون تسلحهم وهم يتهامسون في الطرف الآخر من الحانة.

كان أحد الغجريين يقول: «هذه الاسميرالدا المسكينة! إنها أختنا. ـ فيجب أن نخرجها من هناك.»

فأردف رجل ذو وجه يهودي: «هل هي هناك في نوتردام حتى الآن؟»

ـ «نعم، وحق الإله!»

ـ «حسن جداً أيها الرفاق، فإلى نوتردام! إن فيها تمثالين من الذهب الخالص والفضة. أعرف ذلك لأنني صائغ.» هذا ما قاله ذو الوجه

اليهودي. ثم صرخ يقول: «لنقدّم عشاء لجوهان.»

وفي هذه الأثناء كان ترويفو قد أكمل توزيع الأسلحة. ثم اقترب من جرنجوار الذي كان يبدو غارقاً في حلم عميق وقال له: «بِمَ تُفكِّر أيها الصديق بطرس؟»

والتفت جرنجوار إليه وهو يبتسم ابتسامة ساهمة ثم قال: «أحب النار، يا سيدي العزيز. لا بمعناها المبتذل من حيث إنها تدفئ أقدامنا أو تنضج طعامنا، بل لأن لها شرراً. فقد أقضي في بعض الأوقات ساعات أنظر خلالها إلى هذا الشرر. فأكتشف في هذه النجوم مئات من الأشياء، إن هذه النجوم عوالم قائمة بذاتها.»

قال اللص: «لتسقط عليّ الصاعقة إن فهمت ما تريد قوله. كم هي الساعة الآن؟»

أجاب جرنجوار: «لست أدري.»

واقترب كلوبان من دوق مصر وقال: «أيها الرفيق ماتياس، ليس ربع الساعة شيئاً حسناً. وفي باريس يقولون: الملك لويس الحادي عشر.»

ـ «هذا أجدر أن يدفعنا إلى إنقاذ أختنا من بين براثنه.»

ـ «إنك تتكلم بلهجة الشجاع. على أنه لا خوف من أية مقاومة في الكنيسة. الكهان فيها ثعالب، ونحن أقوياء. أما رجال البرلمان فسنلحق بهم غداً حين يأتون لأخذ الفتاة! لعمري، إنني لا أريد أن تشنق هذه الفتاة الجميلة!»

وخرج كلوبان من الحانة. وفي هذه الأثناء كان جوهان يقول صارخاً بصوت فيه بحة: «إنني آكل وأشرب، لقد ثملت، إنني جوبيتر! ثم رجع كلوبان يقول بصوت كأنه الرعد: «لقد انتصف!»

وهنا هب الجميع وتحركوا إلى الخارج، رجالاً ونساءً وأطفالاً، بصخب شديد يصدر عن أسلحتهم وحديدهم. كان القمر مبرقعاً بالغيوم، وبلاط العجائب مظلم، خال من النور. بدا فيه جمهور من الرجال

والنساء يتبادلون الحديث بصوت خافت. يُسمع طنينهم، ويُرى لمعان أسلحتهم. وصعد كلوبان فوق حجر كبير ثم قال: «إلى صفوفكم يا أبناء مصر والجليل والأرجو!» وبدت حركة جديدة في الظلام وقد انكشف الجمع عن خط طويل من الرجال. وبعد دقائق رفع ملك التونيين صوته مرة أخرى قائلاً: «أما الآن فاصمتوا لنجتاز باريس! إن كلمة السر هي: اللهب الكاذب الصغير! ولن نشعل المشاعل إلا أمام نوتردام! فإلى الأمام!»

وبعد دقائق قليلة، كان فرسان الحراسة يهربون خائفين أمام موكب من رجال سود صامتين، يهبط نحو جسر الشانج عبر الشواع الملتوية التي تخرق حي الهال الكثيف في كل جانب من جوانبه.

4 ـ صديق أخرق!

لم ينم كوازيمودو في هذه الليلة بالذات. كان قد أنهى دورته التفتيشية الأخيرة في الكنيسة. ولم يلاحظ، حين كان يغلق الأبواب، أن الكاهن كان يمر بالقرب منه، وأنه قد أبدى بعضاً من الغضب وهو يراه منهمكاً في إقفال الأغلاق إقفالاً محكماً بحيث تصبح لرتاج الباب قوة الجدار نفسه وصلابته. وكان دوم كلود يبدو أكثر انشغالاً في تلك الليلة منه في لياليه السابقة. والواقع، أنه منذ مغامراته الليلية في الغرفة، أصبح يسيء إلى كوازيمودو إساءة مستمرة، يخاشنه، ثم يضربه في بعض الأوقات، ولكن شيئاً من هذا لم يزلزل من خضوع كوازيمودو وصبره، واستسلامه، وإخلاصه له. لقد كان يتقبل من الكاهن كل شيء دون جمجمة أو تمتمة: الإهانة والتهديد، والضرب أيضاً. يُضاف إلى هذا أنه كان يتبعه ببصره حين يتسلق سلم البرج، ولكن الكاهن قد امتنع مختاراً عن الظهور أمام الغجرية.

ففي هذه الليلة إذن، وبعد أن ألقى كوازيمودو على أجراسه المسكينة

المتروكة آخر نظرة له، على جاكلين، ومريم، وتيبو، صعد حتى قمة البرج الشمالي، حيث وضع مصباحه المغلق الأصم، ولبث ينظر إلى باريس. قلنا إن الليل كان شديد الظلمة. وإن باريس، التي لم تكن مضاءة في ذاك العصر، كانت تكشف للعين عن ركام غامض من كتل سوداء، معترضة هنا وهناك من قبل منحنيات نهر السين البيضاء. لم يكن كوازيمودو يرى ضوءاً أبداً إلا في نافذة بناء بعيد يرتسم شبحه عالياً فوق السطوح، في الجهة التي يوجد فيها باب سانت انطوان ـ فهناك إنسان يبقى ساهراً مستيقظاً أيضاً.

وبينما كان قارع الأجراس يرسل بصره صافياً عبر هذا الأفق من الضباب والليل، كان يحس في أعماق نفسه بقلق مبهم مستعص على التفسير. لقد أصبح كوازيمودو منذ أيام قليلة على حذر من أمره. لأنه كان يرى رجالاً ذوي وجوه قاسية متجهمة يدورون حول بناء الكنيسة ولا ينفكون ينظرون إلى غرفة الفتاة اللاجئة. فكان يظن أن هناك من يحوك مؤامرة ضد هذه البائسة. وتخيَّل أن حقداً شعبياً عاماً موجه ضدها كما هو موجه ضده أيضاً، وأن من الممكن أن يحدث شيء ما. وهكذا احتفظ بمرقبه فوق برج الأجراس ينقل بصره بين باريس والغرفة، حارساً أميناً كالكلب الوفي مع مئات من بواعث الحذر في ذهنه.

وبينما كان يستطلع ما يحصل في المدينة الكبيرة بعينه المفردة، التي جعلت منها الطبيعة، على طريقتها في التعويض، عيناً شديدة النفاذ بحيث إنها عوضت عن كل ما كان ينقصه من الجوارح والأطراف، بدا له فجأة، أن شبح أحد الأرصفة يتميّز بظاهرة فريدة، أن في هذا الرصيف حركة، وأن خط حاجز الجسر الذي ينفصل بسواده عن بياض الماء، غير مستقيم ولا مطمئن شأن حواجز الأرصفة الأخرى، وأنه يتموج أمام البصر، كأمواج نهر أو كرؤوس جمهرة من الناس يسيرون.

بدا له هذا المنظر غريباً. فضاعف من انتباهه. وكانت الحركة تبدو متجهة نحو المدينة القديمة. والظلمة شديدة دامسة. ولبث هذا المنظر

قليلاً فوق الرصيف ثم أخذ يسيل شيئاً فشيئاً كما لو أن ما يحدث هناك كان يدخل إلى الجزيرة، ثم انقطع كلية وتوقف بصورة نهائية، ورجع خط الرصيف مستقيماً جامداً على عادته..

وبينما كان كوازيمودو يجهد نفسه في تخيُّل الاحتمالات المختلفة، بدا له أن الحركة قد ظهرت مرة أخرى في شارع بارفيس، الذي يمتد في المدينة القديمة في اتجاه عمودي مقابل واجهة نوتردام الأمامية. وأخيراً رأى، رغم كثافة الظلام، رأس طابور يصب في هذا الشارع، وفي برهة قصيرة انتشر في الساحة جمهور، ثم لم يمكن أن يرى شيئاً بوضوح في الظلمات اللَّهم إلا أنه جمهور فقط.

كان لهذا المشهد تأثيره الراعب. ومن المحتمل ألا يحتفظ هذا الموكب الفريد بصمت أقل عمقاً، وهو الذي يرغب أصحابه في الهروب بعيداً تحت ظلمة عميقة. وفي هذه الأثناء لم يكن بد من أن تنطلق ضجة ما، ضجة وقع الأقدام على الأقل. لكن هذه الضجة لم تكن تبلغ صديقنا الأصم، والجمهور الغفير الذي لا يكاد يرى كوازيمودو منه شيئاً يتحرك ويمشي قريباً منه.

لقد كان لهذا المشهد أثر جمهرة من الأموات، خرساء، شفافة، ضائعة في الضباب. كان يبدو له أن ضباباً مفعماً بالرجال يتقدم نحوه، فيرى ظلالاً تتحرك في ظل كبير.

هنا، رجعت إليه مخاوفه، وتمثلت في ذهنه فكرة محاولة اختطاف الفتاة الغجرية. وأحس إحساساً غامضاً أنه يقترب من مرحلة عنيفة جداً. وفي هذه البرهة الحرجة حاول كوازيمودو أن يستشير نفسه بمنطق أحسن وأشد حساً مما كنا ننتظره من مثل دماغه الناقص في تكوينه.

كان يتساءل عما إذا كان من واجبه أن يوقظ الغجرية ويتيح لها منفذاً إلى الهرب؟ وكيف يهرِّبها؟ فالشوارع مليئة كلها بالناس، والكنيسة مغلقة منافذها أمام النهر. فلا قارب! ولا منفذ! ـ لم يكن أمامه غير حل واحد، هو أن يموت عند عتبة نوتردام، مقاوماً على الأقل حتى تأتي النجدة، إن

كانت هناك نجدة ما، يفعل هذا كله دون أن يوقظ الاسميرالدا. فستجد البائسة فسحة من الوقت لتموت. ولم يكد يتخذ قراره هذا، حتى أقبل على خصمه يدوسه بمزيد من الطمأنينة والهدوء.

أما الجمهور فكان يزيد امتداداً وتضخماً في الساحة فيما يبدو. وقد قدّر كوازيمودو أن هذا الجمهور ممتنع عن إحداث أية حركة بدليل أن النوافذ المطلة على الشوارع بقيت مغلقة.

ولمع النور فجأة، وتحركت أمام الصفوف سبعة أو ثمانية من المشاعل المضاءة، وهي تهز لهبها في الظلام، فرأى كوازيمودو بوضوح شديد قطيعاً مخيفاً من رجال ونساء في ثياب رثة يتحرك أفراده في ساحة بارفيس، وكلهم يحملون أسلحة مختلفة تلمع شفراتها ورؤوسها في الظلمة الدامسة. فرجعت إليه ذكرى هذه الرؤوس غامضة مبهمة، إنها تلك التي كانت تحيّيه وتهتف له كبابا للمجانين. وبدا أحد الرجال حاملاً بيده مشعلاً يقف فوق حجر ويخطب. وفي هذا الوقت نفسه حدثت تغييرات في هذا الجيش الغريب وكأنه يتخذ مراكز له حول الكنيسة. وحمل كوازيمودو مصباحه ثم هبط إلى السقيفة القائمة بين الأبراج ليرى ما يحدث عن قرب ويفكّر في وسائل دفاعه.

والواقع أن كلوبان ترويفو قد صف جماعته كمن يهم في الاشتراك في معركة. وهو وإن لم يكن ينتظر أية مقاومة فقد رغب أن يكون على أهبة لاستقبال كل هجوم قد يقوم به فريق الحرس الملكي. فجعل أتباعه في صفوف على شكل مثلث امتدت قاعدته بحيث تغلق شارع بارفيس. ووقف كلوبان في القمة يرافقه دوق مصر وجوهان وأشد الأتباع جرأة وشجاعة.

لم يكن مثل هذا الحادث شيئاً نادراً في القرون الوسطى. فما ندعوه اليوم، شرطة، ورجال أمن، لم يكونوا موجودين يومذاك. ولم تكن في المدن الكثيرة السكان، في العواصم بصورة خاصة، سلطة مركزية ضابطة. لقد بنى العهد الإقطاعي هذه المدن الكبيرة بطريقة غريبة.

فالمدينة آنذاك مجموعة من إقطاعات متراكمة تباينت أشكالها وأحجامها. ومن هنا كان تعدد هيئات الأمن المتناقضة، هو انعدام هيئات الأمن. ففي باريس، مثلاً، وبالاستقلال عن 141 سيداً وأميراً يزعمون لأنفسهم السلطات والنفوذ، كان أيضاً خمسة وعشرون ممن يزعمون لأنفسهم الحق في الإشراف على جهاز العدالة، ابتداء من أسقف باريس الذي كان يملك 105 شوارع حتى رئيس دير نوتردام ـ دي ـ شان، الذي كان يملك أربعة شوارع. هؤلاء القضاة العدليون الإقطاعيون لم يكونوا يعترفون للملك إلا بسلطة اسمية فقط. كلهم يحكم في الحقيقة باسمه ويشعر أن إقطاعته هي منزله. أما لويس الحادي عشر، العامل الدؤوب الذي كان قد بدأ بتحطيم هذا البناء الإقطاعي على نطاق واسع، والذي أكمله من بعد كل من ريشيليو ولويس الرابع عشر لمصلحة النظام الملكي، ثم تبعهما فيه ميرابو لمصلحة الشعب، إن لويس الحادي عشر هذا قد حاول اختراق النظام الإقطاعي الذي كان يغطي باريس بخلق مؤسستين أو ثلاث من مؤسسات الشرطة العامة عبر السيادات المتعددة المختلفة. فصدر عام 1465 قانون يفرض بموجبه على السكان، في الليلة التالية، أن يضيئوا نوافذهم بالمصابيح، وأن يقيّدوا كلابهم تحت طائلة العقاب، وصدر في السنة نفسها قانون بإغلاق الشوارع بسلاسل حديدية، ومنع الناس من حمل الخناجر والأسلحة الهجومية الجارحة في الشوارع خلال الليل. ولكن هذه الإجراءات لم تلبث أن نسيت بعد قليل من الزمن إذ لم يعمل بها أحد من الناس. فقد ترك البورجوازيون مهمة إطفاء مصابيحهم، وتركوا كلابهم تتيه في الليل كما تشاء، أما السلاسل الحديدية فلم تمد إلا عند حدوث حالات الطوارئ والحصار. ومع هذا كله فقد ظهر شيء من التقدم. وبقيت المسؤوليات ضائعة تتعارض وتتناقض وقد تتداخل في كل شيء. وخلال هذه الفوضى كان السلب والنهب والسرقة والقتل كلها تحدث تحت سمع القانون وبصره. وإذن فلم يكن غريباً حقاً أن يحدث مثل هذا الهجوم من قِبل جماعات من الرعاع على قصر أو دار أو بيت من بيوت

اللَّه، في الأحياء المأهولة. والمعروف أن الجيران كانوا لا يتدخلون في أكثر الحالات إلا إذا أصابهم التخريب والتدمير في منازلهم وأنفسهم. كانوا يغلقون آذانهم، ويحكمون إغلاق نوافذهم وأبواب بيوتهم، يتركون المعركة تجري بحضور الحراس أو بعدم حضورهم، وفي اليوم التالي يُقال في باريس: «في هذه الليلة هوجم اتيان باربات أو أخذ فلان إلخ..». والواقع أن أبراج الدفاع ووسائل المقاومة لم تكن موجودة فقط في القصور الملكية والباستيل وتورنال بل في منازل السادة العاديين، أما الكنائس فكانت تحتمي بقداستها. على أن بعضاً منها قد أحكمت فيها أسباب الدفاع ما عدا نوتردام دي باري. فكان في دير سان جرمان دي بري مثلاً من النحاس المستعمل للمدافع أكثر مما كان منه للأجراس.

ولنرجع إلى نوتردام.

فبعد أن اتخذت الإجراءات التنظيمية، وقف كلوبان زعيم الجماعة فوق حاجز بارفيس، وبيده مشعله الذي كانت تتلاعب الريح بلهبه، ويغطيه الدخان، ورفع صوته الأبح متجهاً نحو نوتردام، قال: «لك يا لويس دي بومون، أسقف باريس، والمستشار في محكمة البرلمان، أنا كلوبان ترويفو، ملك التونيين، وأسقف المجانين يقول: «إن أختنا، قد أُدينت ظلماً وباطلاً، بتهمة السحر ثم لجأت إلى كنيستك، فواجبك أن تحميها وتلجئها، وبما أن محكمة البرلمان قد قررت انتزاعها، ووافقت أنت على ذلك، وكانت ستُرسل إلى المشنقة في الغد لولا عناية اللَّه وتدخلنا نحن، لهذا أتيناك أنت أيها الأسقف. فإذا كانت كنيستك مقدسة، فقد وجب أن تكون أختنا كذلك، أما إذا لم تعد أختنا مقدسة، فكنيستك ليست مقدسة أيضاً. لهذا كله نطلب إليك أن ترجع إلينا الفتاة إن رغبت حقاً في إنقاذ كنيستك. فإما أن تخرج بالفتاة، وإما أن نهدم الكنيسة. وعملاً بذلك أغرس هنا رايتي، وليكن اللَّه في عونك أيها الأسقف.»

ومن المؤسف أن كوازيمودو لم يسمع هذه الأقوال التي قِيلت في

جلال قاتم متوحش. وقدَّم أحد اللصوص الراية إلى كلوبان الذي غرسها بين حجرين.

وراح ملك التونيين يتنقّل بين رجاله ذوي العيون اللامعة، وبعد استراحة قليلة صرخ قائلاً: «إلى الأمام أيها الأبناء! إلى العمل!»

فخرج من بين الصفوف ثلاثون من الرجال الأقوياء، يحملون مطارقهم وعصيهم الحديدية. ثم اتجهوا نحو باب الكنيسة الرئيسي، وصعدوا درجاته، حتى بلغوه، وبدأوا يُعملون فيه أدواتهم التي كانوا يحملونها. وقد تبعهم جمهور من اللصوص ليساعدهم أو ينظر إليهم وهم يعملون.

كان الباب صلباً، يقاوم بشدة أولئك الذين يحاولون تحطيمه. قال كلوبان لهم: «تشجعوا أيها الرفاق! إنني أراهن برأسي على زوج من الأحذية بأنكم ستفتحون هذا الباب وتُخرجون الفتاة قبل أن يستيقظ واحد من خدام الكنيسة، انظروا لقد بدأ القفل يتحطم.»

وقوطع كلوبان بدويّ مخيف تجاوب صداه خلفه فنظر فإذا بعمود خشبي كبير قد سقط من السماء وحطم عدداً من اللصوص الواقفين فوق الدرجات المؤدية إلى الباب الكبير. ثم قفز مرة أخرى يرافقه دويّ المدفع فحطم أقداماً وأفخاذاً لعدد آخر منهم فهرب اللصوص مذعورين خائفين.

وفي طرفة عين، خلا حاجز بارفيس من الجميع حتى إن كلوبان نفسه قد تراجع إلى الوراء.

كان جوهان يقول: «لقد نجوت بأعجوبة وأحسست بريح العمود قريباً مني!» أما المدعو بطرس القاتل فقد قتل.

من المتعذر أن نصف حالة الروع التي بدت في نفوس هؤلاء اللصوص مع سقوط العمود من السماء. لقد بقوا دقائق يثبتون أنظارهم في الفضاء مذعورين من هذا العمود أكثر من ذعرهم من عشرين ألفاً من رماة الملك.

فدمدم دوق مصر: «يا للشيطان، هاك شيئاً يوحي بوجود السحر!» ـ وقال أندري لاروج: «إن القمر هو الذي رمانا بهذا العمود.» ثم أردف فرنسوا شانت ـ برون: «وإذن فالقمر صديق العذراء!» أما كلوبان فصرخ قائلاً: «إنكم كلكم، بله معتوهون!» ومع ذلك فقد كان عاجزاً عن تفسير سقوط العمود.

لم يكونوا في هذه الأثناء يرون شيئاً في أعلى الكنيسة، فأنوار المشاعل لا تبلغه. كل هذا والعمود متمدد على الأرض، وأنّات المصابين به تصدر عنهم وقد انتشروا فوق الدرجات مبقورة بطونهم أو محطمة أقدامهم.

وبعد أن مرّت فترة الدهشة قال ملك التونيين مفسراً هذا الحادث: «يا لَغم اللَّه! هل يقاوم الكهنة والشمامسة؟ فإلى السلاح! إلى السلاح.»

وتردد هذا النداء في هتاف غاضب حانق بين الجماهير. وانطلقت طلقات الأقواس الفولاذية ذات النوابض نحو واجهة الكنيسة الأمامية. واستيقظ الجيران في البيوت المتاخمة، ورؤيت نوافذ تنفتح وأيد تحمل المصابيح. فصرخ كلوبان: «أطلقوا سهامكم على النوافذ!» فأغلقت النوافذ سريعاً، ورجع البورجوازيون المساكين، الذين لم يكادوا يرون هذا المشهد من اللهب والناس، لاهثين من الرعب، إلى نسائهم يتساءلون عما إذا كان اجتماع السحرة معقوداً في ساحة بارفيس، أو ما إذا كان البورغونيون يقومون بهجوم صاعق كما حدث سنة 64.

ومع ذلك فلم يجرؤ أحد من اللصوص على التقدم. لقد كانوا ينظرون إلى الكنيسة، ثم ينظرون إلى العمود. والعمود ثابت لا يتحرك. والبناء محتفظ بهدوئه، ولكن شيئاً كان يجمد اللصوص ويدخل الرعب المثلوج إلى قلوبهم.

وصرخ ترويفو: «إلى العمل أيها الرفاق. لنقتحم الباب ونحطمه. ولكن واحداً منهم لم يتقدم خطوة واحدة.

قال كلوبان: «هاك رجالاً يخافون عموداً من الخشب.»

فقال له أحدهم: «ليس العمود هو ما يقلقنا، ولكنه الباب الذي لا تعمل فيه أدواتنا أبداً!»

فسأل كلوبان: «إلامَ تحتاجون لاقتحام الباب وتحطيمه؟»

ـ «آه! نحن في حاجة إلى منجنيق.»

فجرى ملك التونيين نحو العمود ووضع قدمه فوقه وصرخ قائلاً: «هاك منجنيقاً، لقد أرسله الشمامسة إليكم». ثم أردف وهو يرسل تحية ساخرة نحو الكنيسة: «شكراً أيها الشمامسة.»

فكان لهذه الحركة المتحدية وقعها الحسن، فاختفى سحر العمود الخشبي. واسترجع اللصوص شجاعتهم. ولم يلبثوا أن حمل العمود منهم مائة رجل، ثم انطلقوا نحو الباب الكبير في هياج وثورة غاضبة. وقد بعث مشهد مشاعل اللصوص القليلة وما ترسله من ضوء باهت، والعمود المحمول من هذا العدد الكبير من الرجال، على الظن بأن هناك حيواناً هائلاً ذا ألف قدم يهاجم البناء الحجري العملاق برأس منخفض.

وتردد صدى الباب المعدني بعد الصدمة الأولى كأنه صدى طبل كبير... إنه لم يتحطم ولكن الكنيسة كلها قد ارتعدت أمام هذه الصدمة الهائلة. وبدأت في الوقت نفسه أحجار كبيرة تسقط من الأعالي فوق المهاجمين. فصرخ جوهان:

ـ «يا للشيطان! لكأن الأبراج تهز حواجزها الحجرية فوق رؤوسنا.»

ولكن الهجوم قد بدأ وضرب ملك التونيين المثل الطيب، وقد وثق الجميع أن أسقف الكنيسة يقاوم، وتضاعفت حدة الهجوم، رغم الحجارة التي كانت تفجر رؤوساً هنا وهناك.

والملاحظ أن هذه الحجارة كانت تسقط واحداً وراء الآخر لكنها متقاربة، وكان القليل من المهاجمين ممن لم يصبه حجر في رأسه أو قدمه، وبدت طبقة من الرجال الموتى والجرحى، تنبض تحت أقدام المهاجمين، الذين كانوا يجددون هجومهم بعد ان انفجر غضبهم وحقدهم. واستمرّ الباب في فترات منتظمة.

لا يشك القارئ في أن هذه المقاومة المفاجئة كانت صادرة عن كوازيمودو نفسه. ومن المؤسف أن المصادفة قد أسعفت هذا الأصم.

لقد كانت أفكاره مضطربة مختلطة حين هبط إلى السقيفة. وراح يجري دقائق على امتداد الردهة العليا، يغدو ويروح، كالمجنون، ينظر فيرى هذه الكتلة الهائلة المتراصة من اللصوص والمستعدة للانطلاق نحو الكنيسة، تسأل اللّه أو الشيطان أن ينقذ الغجرية. وخطر له أن يقرع جرس الخطر، ولكنه لم يلبث أن أهمل هذه الخاطرة، اعتقاداً منه أن الباب سيتحطم تحت ضربات المهاجمين قبل أن يبلغ الجرس آذان الناس. لقد رأى هذا الرأي في الوقت الذي كان فيه الرجال الثلاثون يتقدمون نحو الباب. فما العمل؟

وتذكر فجأة أن بنائين كانوا يعملون طوال النهار في ترميم جدار البرج الجنوبي وسقفه الخشبي. فكان ذلك لمحة من الضياء. لقد كان الجدار من الحجر، والسطح من الرصاص، ولكن الجسر من الخشب.

وجرى كوازيمودو نحو الغرفة الداخلية التي كانت ممتلئة بصحاف من الرصاص وقطع كبيرة من الخشب ومواد مختلفة. لقد كان فيها مستودع كامل من الأسلحة.

كان الوقت ضيقاً جداً. والخطر يقترب منه، والرجال يعملون على اقتحام الباب فحمل أكبر هذه القطع وأضخمها ثم أخرجها من كوة الغرفة، في الفضاء. أما القطعة الهائلة فقد حطمت، وهي تهبط مسافة مائة وستين قدماً، الرسوم المنحوتة التي مرت بها، ودارت حول نفسها دورات متعددة، كأنها جناح مطحنة يسير وحيداً عبر الفضاء. وأخيراً بلغت الأرض، وارتفع الصراخ الرهيب، وقد بدت القطعة السوداء وهي تقفز أفعى هائلة مخيفة.

شاهد كوازيمودو اللصوص مذعورين هاربين، وبينما كان هؤلاء غارقين في دهشتهم، كان هو يجمع بصمت بالغ أحجاراً مختلفة وأدوات للبنائين متنوعة، عند حافة الحاجز التي انطلقت منها القطعة الخشبية.

ثم راح يسقطها واحدة وراء الأخرى حين بدأوا هجومهم الثاني، وقد خُيل إليهم أن الكنيسة تنهار فوق رؤوسهم.

كان كوازيمودو في تلك البرهة مخيفاً حقاً، كان يعمل بقوة غريبة فائقة، يرتفع وينفخض ثم يرتفع وينخفض، ويطل برأسه الكبير عبر الحاجز، وفي كل مرة تسقط حجرة من أحجاره.. وكان بين وقت وآخر يتبع الحجرة الهاوية بعينه فإذا أصاب مقتلاً أردف يقول: «هان!»

في هذه الأثناء لم يخامر اليأس قلوب اللصوص والشحاذين. لقد ارتجف الباب أمام ضرباتهم الهائلة عشرين مرة، وفي كل مرة كانت أجزاء منه تتساقط، وكان من حسن حظ كوازيمودو أن الحديد في هذا الباب أكثر من الخشب.

ومع ذلك فقد كان يحس أن الباب ينهار ويتأرجح. وهو وإن لم يسمع شيئاً، إلا أن الصدى كان يتجاوب في أجزاء الكنيسة كلها حتى كهوفها السفلى وأحشائها القصوى. كان يرى اللصوص من مرقبه مفعمين بروح النصر والغضب، يهزون قبضات أيديهم أمام شرفة الكنيسة المظلمة، فكم تمنى ساعتئذ أن تكون له وللغجرية أجنحة البوم التي كانت تنطلق هاربة فوق رأسه.

والواقع أن حجارته لم تكف لإبعاد المهاجمين. وفي هذه البرهة من الحرج المقلق الشديد، لاحظ أن ميزابين من الحجر ينتهيان عند الباب الكبير ويبتدئان عند قاعدة الحاجز العلوي الذي كان يلقي حجارته من فوقه. كما أن فتحتي هذين الميزابين تتصلان بأرض السقيفة. وخطرت له خاطرة رائعة. فجرى يجمع حطباً من غرفته ثم وضع ما جمعه تحت إناء كبير ملأه بصحاف الرصاص وأشعل ناراً تحته بواسطة فتيل مصباحه.

في هذه الأثناء توقفت الحجارة عن السقوط، وكف اللصوص عن النظر إلى الفضاء، وتزاحموا قرب الباب الكبير لاهثين، والباب المحطم ما يزال يقاوم. وكلهم ينتظرون راجفين الضربة الكبرى التي ستبقر بطن الباب، على أهبة الانطلاق نحو داخل الكنيسة الواسعة التي تراكمت فيها

ثروات ثلاثة قرون، كان كل منهم يذكر الآخر بما فيها من هذه الثروات في زمجرة فرحة من صلبان فضية وذهبية وتماثيل وزركشات وآنية إلخ. والثابت أنهم في مثل هذا الوقت لم يكونوا يفكرون في الغجرية وضرورة إنقاذها، بل كان همهم الأكبر منصباً على تخريب نوتردام. وفي رأينا أن عدداً كبيراً منهم كان يرى في إنقاذ الاسميرالدا حجة ومبرراً، هذا إذا كان اللصوص في حاجة إلى ما يبرر سرقاتهم.

وفي الوقت الذي كانوا فيه يتجمعون لبذل آخر مجهود لهم حول العمود الخشبي، حيث يمسك كل أنفاسه، ويجمد عضلاته لتزويد أكبر طاقة ممكنة للضربة الحاسمة، بينما كان يحدث هذا كله ـ ارتفعت في الفضاء صرخات نكراء، أشد نكراً من تلك التي انفجرت أثر سقوط العمود الخشبي. أما الذين بقوا أحياء، فقد راحوا ينظرون. ـ سيلين منبثقين من الرصاص الذائب يسقطان فوق كتلة المجتمعين أمام الباب. لقد انهار هذا البحر الخضم من الرجال تحت المعدن الذائب، الذي أحدث ثقبين أسودين ينبعث منهما دخان كثيف بين الرجال المجتمعين، كما تصنع المياه الساخنة التي تسقط فوق الثلوج. كان يتمدد على الأرض أموات تَكلَّست أجسادهم أو كادت وهم يتحركون حركة الاحتضار ويرسلون صرخات مؤلمة. وانتشرت حول هذين السيلين الثاقبين من النار الذائبة قطرات رهيبة فثقبت عدداً كبيراً من جماجم وعظام من كان هناك من الناس. كانت الصيحات ممزقة للقلوب. وقد هربوا جميعاً، بعد أن ألقوا العمود الخشبي فوق الجثث كلهم سواء، أشجعهم، وأجبنهم. وخلت ساحة بارفيس مرة أخرى.

ثم ارتفعت العيون كلها نحو أعالي الكنيسة. فكان ما رأته مدهشاً حقاً. لقد رأت في قمة الردهة العليا في نقطة أعلى من الوردة المركزية المنحوتة، ناراً عظيمة يرتفع شررها في دوامة هائلة بين برجي الأجراس، لقد كانت ناراً هائلة غاضبة، تنتزع منها الريح، بين وقت وآخر، شعلة دخانها المتصاعد. وتحت هذه النار، بل تحت الحاجز العلوي القائم،

يلفظ ميزابان هائلان بشعان دون توقف هذا المطر الساخن، الذي يكشف عن جريانه الفضي فوق ظلمات الشرفة السفلى. وكلما اقترب هذان السَّيْلان من الرصاص الذائب نحو الأرض، انتشرا على شكل باقة كبيرة، كالماء الذي ينبثق من ثقوب المصفاة. وبين الوجوه المنحوتة الهائلة التي تبدو في أعلى الكنيسة بين البرجين الكبيرين كانت العيون ترى بين وقت وآخر وجهاً قبيحاً بشعاً يمر أمام الشعلة الحامية كالخفاش أمام المصباح المشتعل.

وشاع صمت راعب بين اللصوص، لم تسمع خلاله غير صرخات الكهان والشمامسة المغلق عليهم في ديرهم، والذين كانوا في قلق أشد من قلق الخيل في اسطبل يحترق، كما لم تسمع إلا ضجة النوافذ التي لا تكاد تنفتح حتى تنغلق بأسرع مما انفتحت، وصفير الرياح في اللهب، وحشرجات الموتى الأخيرة، والرعشة الدائمة لمطر الرصاص الذائب فوق بلاط الساحة.

في هذه الأثناء تجمّع زعماء اللصوص عند باب منزل آل جوندولوريا يتشاورون. وكان دوق مصر يجلس فوق حجر ويتأمل في خوف ديني عميق، اللهب الخيالي الذي يلمع على علو مئتي قدم في الفضاء، بينما كان كلوبان ترويفو يعض قبضتي كفيه بغضب ثائر ويدمدم قائلاً: «من المستحيل أن ندخل الكنيسة.»

فأردف العجوز ماتياس: «كنيسة قديمة من الجن!»

ثم صرخ دوق مصر قائلاً: «هل ترون هذا الوحش الذي يروح ويجيء أمام النار؟»

قال كلوبان: «يا اللّه! هذا هو قارع الأجراس اللعين، هذا هو كوازيمودو.»

والغجري يهز رأسه ويردد: «أقول لكم، إن هذا هو روح سابناك، الماركيز الكبير، شيطان الحصون. إن له شكل جندي مسلح، ورأس أسد. وقد يركب في بعض الأحيان حصاناً بشعاً. إنه يحيل الرجال إلى

حجارة يبني بها الأبراج. وهو يقود خمسين فوجاً من الجنود. إنه نفسه. لقد عرفته. وقد يلبس في بعض الأوقات ثوباً ذهبياً على طريقة الأتراك.»

وسأل كلوبان قائلاً: «أين بَل فيني ـ دي ـ لاتوال؟»

فأجابته إحداهن: «لقد مات.»

وقال أندري لاروج وهو يضحك كالأبله: «إن نوتردام تُزوِّد أوتيل ـ ديو بكثير من العمل.»

وأردف كلوبان يقول: «أليست لنا وسيلة لاقتحام هذا الباب؟» فأشار دوق مصر بحزن ظاهر إلى جدولي الرصاص اللذين يسيلان على شرفة الكنيسة. ثم قال: «لقد شوهدت كنائس غير هذه تحمي نفسها بنفسها.»

فأردف كلوبان: «وهل يجب أن نرجع على هذه الحالة الرثة، ونتركهم يشنقون غداً أختنا؟»

قال أحد اللصوص: «لنحاول مرة أخرى.»

فهز ماتياس رأسه وقال: «إننا لن ندخل من الباب. ومن الواجب أن نجد نقطة الضعف في درع هذه الجنية الهرمة.»

قال كلوبان: «إنني سأعود إليها! فمن يسير معي؟ وبهذه المناسبة، أين الطالب جوهان؟»

فأجاب أحدهم: «لا شك أنه قد مات. فإننا لم نعد نسمعه يضحك.» وقطب ملك التونيين حاجبيه.

ـ «والمعلم بطرس جرنجوار؟»

قال أندري لاروج: «لقد هرب أيها القائد كلوبان منذ بلغنا جسر الشانجور.»

فضرب كلوبان الأرض بقدمه ثم قال: «إنه هو الذي دفعنا إلى الهجوم، ثم تخلى عنا إبان العمل!»

ـ «إنه ثرثار جبان.»

وصرخ أندري لاروج: «أيها القائد كلوبان، هاك هو الطالب الصغير.»

قال كلوبان: «حمداً لك يا بلوتو! ولكن ما الذي يجره من ورائه؟»

لقد كان حقاً جوهان، يركض لاهثاً بأسرع ما تتيحه له ثيابه الحديدية الثقيلة ووراءه سلم يجرها شجاعاً على بلاط الساحة، ولهاثه أشد من لهاث النملة المشدودة إلى قشة من العشب تزيدها طولاً بخمسة وعشرين ضعفاً.

والطالب يصرخ ويقول: «إنه الانتصار. هاكم سلم الحمالين لميناء سان ـ لوندري.»

فاقترب كلوبان منه وقال: «ماذا تريد أن تصنع بهذه السلم، أيها الطفل؟»

ـ «لقد وجدتها. وكنت أعرف أين توجد. ـ لقد كانت تحت حظيرة منزل الضابط الملازم.»

قال كلوبان: «ولكن ماذا عساك تصنع بها؟»

فنظر جوهان إليه نظرة الخبيث الكفوء، وصفق بإصبعه كما تصفق الصناجات. لقد كان رائعاً في تلك البرهة. ثم قال: «تسأل ماذا أفعل بها أيها الملك المعظم؟ هل رأيت هذه الصفوف من التماثيل ذات الوجوه البلهاء هناك فوق الأبواب الثلاثة الكبيرة؟»

ـ «نعم.»

ـ «إنها ردهة ملوك فرنسا.»

قال كلوبان: «وماذا يعنينا من هذه الردهة؟»

ـ «انتظر قليلاً! إن في طرف هذه الردهة باباً لا يغلق إلا بمغلاق عادي، سأصعد إليه بهذا السلم، وهناك أكون في الكنيسة.»

ـ «دعني أيها الطفل أصعد أولاً.»

- «أبداً أيها الرفيق. فالسلم ملك لي. تعال معي، ستكون الثاني.»

قال كلوبان الشرير المتجهم: «ليخنقك بلزاموت. إنني لا أريد أن أكون وراء أي إنسان.»

وانطلق جوهان جارياً في الساحة يجر وراءه سلمه وهو يصرخ: «إليّ أيها الأبناء!»

ونصبت السلم في برهة قصيرة وعلقت بحاجز الردهة الأسفل. وازدحمت جموع اللصوص مرسلة هتافات عالية تستعد للصعود. ولكن جوهان قد احتفظ بحقه فوضع القدم الأولى على درجات السلم. كانت المسافة طويلة. فردهة ملوك فرنسا ترتفع اليوم عن سطح الأرض ستين قدماً. وكان جوهان يصعد بطيئاً تثقله أسلحته ودروعه، يمسك السلم بإحدى يديه ويدفع باليد الأخرى قوسه الفولاذية ذات النابض الحديدي. وألقى نظرة على جثث اللصوص الممدة فوق درجات الباب الكبير ساهماً حزيناً ثم قال: «واأسفاه! هذه كومة من الجثث جديرة بنشيد الألياذة الخامس.» ثم تابع صعوده، واللصوص يلحقون به. وكان فوق كل درجة من درجاتها واحد منهم. فامتد بهم خط متموج من الظهور المدرعة، حتى ليقال إنهم أفعى كبيرة بقشور من الفولاذ تنتصب ضد الكنيسة ورأسها هو جوهان الذي كان يصفر ويكمل بذلك شكل هذا الخيال الموهوم.

وأخيراً وصل جوهان وصفق له جمهور اللصوص. فأطلق صيحة فرح بعد أن شعر أنه قد أصبح سيد الكنيسة. ثم توقف فجأة كأنه الحجر الجامد. لقد رأى وراء تمثال أحد الملوك، كوازيمودو نفسه مختبئاً في الظلام، وعينه ترسل شرراً.

وقبل أن يصل الرجل الثاني من المحاصرين، انقض كوازيمودو على طرفي السلم وانتزعهما بقوة غير بشرية ثم قذف بالسلم في الفضاء، بعد أن أرجحها قليلاً وسط هتافات الخوف والقلق، فسقطت بمن عليها من اللصوص كأنها العنقود. أما السلم فقد بقيت مستقيمة فترة قصيرة، ثم لم تلبث أن رسمت قوساً رهيبة لدائرة نصف قطرها ثمانون قدماً وهبطت نحو

الأرض بأسرع مما يهبط جسر متحرك تقطعت سلاسله. وانفجرت سيول من الشتائم ثم انتشر صمت راعب وانسحب بعض من المشوهين زاحفين تحت كومة الأموات.

أما جوهان فروللو فقد كان في موقف حرج جداً. كان في الردهة أمام قارع الأجراس الرهيب، وحيداً، منعزلاً عن رفاقه، بجدار عمودي يرتفع ثمانين قدماً. وبينما كان كوازيمودو منهمكاً في انتزاع طرفي السلم، جرى الطالب نحو الباب الذي كان يظنه مفتوحاً. وكم كانت خيبته حين وجد أن كوازيمودو قد أغلقه وراءه. وهنا اختبأ جوهان وراء ملك حجري، لا يجرؤ على التنفس، مثبتاً نظره في الأحدب المخيف بوجه مذعور.

والواقع أن الأصم لم ينتبه إليه أول الأمر. ولكنه لم يلبث أن التفت وانتصب مرة واحدة حين رآه.

واستعد جوهان لصدمة قاسية، ولكن الرجل الأصم بقي جامداً لا يتحرك، مكتفياً بالالتفات نحو الطالب الذي كان ينظر إليه.

وقال جوهان: «هُوْ! هُوْ! لِمَ تنظر إليَّ هكذا بعينك المفردة الساهمة؟» وشد قوسه بينما كان يتكلم وأطلق سهمه يصفر وهو يقول: «سأغير لقبك. وسأجعل الناس يلقبونك بالرجل الأعمى.»

أما السهم فقد أصاب ذراع الأحدب اليسرى. فلم ينزعج كوازيمودو منه أكثر من انزعاج الملك فارامون من خدش يصيبه. ومد يده الأخرى فانتزع بها السهم ثم حطمه هادئاً فوق ركبته الضخمة. ولم يجد جوهان من الوقت ما يسمح له بإطلاق سهم آخر. فقد نفخ كوازيمودو نفخة صاخبة ثم انقض كالجرادة على الطالب الذي تفلطحت دروعه حين اصطدم بالجدار. وهنا رأى الناس على ضوء المشاعل في الظلمة الباهتة، شيئاً رهيباً.

لقد أمسك كوازيمودو ذراعي الطالب بيده اليسرى، فاستسلم الطالب بعد أن تأكد من مجيء أجله. وأخذ كوازيمودو ينتزع بيده اليمنى في

صمت شديد، وبطء متجهم رهيب، الأسلحة التي كان يحملها الطالب. فبدا كوازيمودو والطالب قرداً يقشر جوزة.

وعندما وجد الطالب نفسه، أعزل، عارياً، ضعيفاً، لم يحاول أن يتكلم، بل انطلق يضحك ويغني في جرأة طفل في السادسة عشرة من عمره، الأغنية الشعبية المعروفة آنذاك.

ولم يتم أغنيته. فقد شوهد كوازيمودو واقفاً فوق حاجز الردهة يؤرجح الطالب بيد واحدة فوق الهاوية الهائلة وكأنه مقلاع في يده، ثم سمعت ضجة كضجة علبة عظيمة تصطدم منفجرة بجدار، ورؤي شيء يسقط ثم يقف عند ثلث المسافة فوق نتوء من البناء العظيم. لقد كان جسداً ميتاً بقي معلقاً هناك، مطوياً تحطمت قواه، وخلت جمجمته.

وارتفعت صيحة رعب بين اللصوص وصرخ كلوبان: «إلى الانتقام.» ثم تتابع عواء شديد انتشرت به غضبة صارخة بين المهاجمين الذين أثارهم موت الطالب المسكين. وخجل الناس من أنفسهم بعد أن تكرر فشلهم أمام هذا الأحدب. ووجد الغضب سلالم كثيرة، وضاعف المشاعل، وألفى كوازيمودو نفسه بعد دقائق قليلة ضائعاً أمام هذه المنملة الهائلة التي تصعد مهاجمة من كل مكان. فالذين لم يكونوا يملكون سلّماً كانوا يملكون حبالاً ذات عقد، والذين لم يكونوا يملكون حبالاً كانوا يتسلقون نتوءات البناء. فلم تعد هناك سبل لمقاومة هذا المد الزاحف من الوجوه المخيفة.

وفي هذه الأثناء امتلأت ساحة بارفيس بألف مشعل وانكشف المشهد واضحاً مضيئاً بعد أن كان غارقاً في الظلمات. لقد أصبحت ساحة بارفيس ترسل الضياء عبر الفضاء. أما اللهب الذي كان يتصاعد فوق سقيفة الكنيسة فقد بقي مشتعلاً يضيء المدينة حتى أقصاها. وبدت المدينة متأثرة منفعلة. وانتشرت قرعات الإنذار من أمكنة بعيدة. أما اللصوص فقد كانوا يصرخون، ويلهثون، ويجدفون، ويصعدون، وكوازيمودو يقف عاجزاً أمام هؤلاء الأعداء، يرتجف خوفاً على الغجرية، ينظر إلى الوجوه

الغاضبة تقترب من الردهة شيئاً فشيئاً، يسأل معجزة من السماء، ويلوي ذراعيه يأساً وألماً.

5 ـ حيث يصلي لويس الحادي عشر

في ظننا أن القارئ لم ينسَ أن كوازيمودو قد شاهد، وهو ينظر إلى باريس من قمة برج الأجراس، ضوءاً يلمع من بعيد، يرسل شعاعه عبر زجاج في أعلى طبقة من طبقات بناء قاتم مرتفع، قبل أن يشعر بمجيء اللصوص، وأن هذا البناء موجود في اتجاه باب سانت انطوان. أما البناء فهو الباستيل، وأما المصباح فهو مصباح لويس الحادي عشر.

والواقع أن لويس الحادي عشر كان يومئذ في باريس وفي عزمه أن يغادرها بعد غد قاصداً حصنه في مونتيلز ـ لا ـ تور. مؤثراً البقاء بعيداً عن باريس عاصمة بلاده.

وفي تلك الليلة بالذات آثر أن ينام في غرفة متواضعة من غرف الباستيل، تاركاً للآخرين رياش اللوفر وأثاثه المريح وغرفه الفسيحة. يُضاف إلى هذا كله أن قصر الباستيل أشد حصانة من اللوفر وأكثر قوة.

كانت غرفته في الباستيل، التي يحتفظ بها لنفسه دائماً، قائمة في أعلى طبقة من طبقاته. إنها ذات شكل دائري، ولها نافذة واحدة ذات ألواح زجاجية ملونة وعوارض حديدية. كما أن لها مدخلاً واحداً فقط. وهي خالية من الرياش الثمين الذي تزهو به غرف قصر اللوفر، ليس فيها غير كرسي واحدة، مما يدل على أن شخصاً واحداً من نزلائها ذو حق في الجلوس. وإلى جانب الكرسي منضدة يغطيها بساط ذو رسوم على هيئة العصافير، وعلى هذا الغطاء أوراق وأدوات كتابية، وفي أقصى الغرفة سرير عادي بسيط خال من كل زركشة وأبهة.

وفي الوقت الذي نتحدث فيه إلى القارئ عن هذه الغرفة نستطيع أن نؤكد له أنها كانت قائمة. وقد مرت ساعة على إعلان إطفاء الأنوار،

فالليل مدلهم، لا يزعجه في ظلمته غير مصباح شمعي وحيد موضوع على المنضدة ليبعث النور نحو خمسة أشخاص متجمعين في الغرفة على أشكال مختلفة.

أما أولهم فقد كان سيداً ذا لباس رائع اختلطت فيه زينة ذهبية وأخرى فضية وزركشات مختلفة الأشكال. وكانت لهذا السيد هيئة رديئة، في وجهه كبرياء، لا يرى الناظر إليه عند الوهلة الأولى غير الخيلاء والتيه، وعند الوهلة الثانية غير المكر والخديعة.

كان حاسر الرأس، واقفاً وراء الكرسي التي يشغلها رجل عجوز متغضن الوجه واليدين، مطوي على نفسه، رقيق، هزيل، قريب ما بين الردفين، خلت ثيابه من كل أبهة أو رواء، وقد علت رأسه طاقية وسخة لا تكاد تكشف إلا عن شعرات قليلة ضئيلة. وكان رأسه شديد الانخفاض بحيث لا يكاد يُرى شيء من وجهه الغارق في الظلمة. أما أرنبة أنفه التي يسقط فوقها شعاع من النور فهي بالغة الطول فيما يظهر. هذا هو لويس الحادي عشر نفسه.

أما خلفهما فقد وقف رجلان في زي فلامندي هما غليوم ريم وجاك كوبانول الفلامنديان اللذان شاهدا مسرحية «السر» في البهو الكبير كما يذكر القارئ مع السفراء الفلامنديين الآخرين. ويذكر القارئ أيضاً أن لهذين الرجلين صلة وثيقة بسياسة لويس الحادي عشر السرية الخاصة.

وفي أقصى القاعة يقف رجل في الظلمة الشديدة، جامداً كالتمثال، قوياً ذا أطراف مجتمعة، وزي عسكري، ووجه مربع، مثقوب بعينين في أعلى رأسه، ومشقوق بفم كبير واسع، برزت أذناه، وفيه شيء من الكلب والنمر.

وقد عريت رؤوسهم كلها من الغطاء عدا الملك نفسه.

أما السيد الخبيث المتكبر فقد كان يقرأ على الملك شيئاً مكتوباً على ورقة طويلة يحملها بيده، والملك منصت في انتباه شديد، بينما كان كوبانول الفلامندي يقول لرفيقه في صوت كالهمس: «إنني قد تعبت من

الوقوف، أفليست هنا كرسي أجلس عليها؟»

بينما يجيبه رفيقه ريم بالنفي، وقد أرفق جوابه بابتسامة قلقة.

أردف كوبانول قائلاً: «إنه مؤلم لي حقاً أن أجد نفسي مرغماً على التكلم بصوت خافت. لكم أتمنى أن أجلس القرفصاء كما يجلس الحذَّاء، وكما كنت أفعل في دكاني.»

ـ «كن حذراً أيها المعلم جاك.»

ـ «أواه! أيها المعلم غليوم! وإذن فنحن لا يسعنا هنا إلا أن نقف على أقدامنا؟!»

قال ريم: «أو على الرُّكَب.»

وهنا ارتفع صوت الملك فَسَكَتا.

ـ «خمسون درهماً لأثواب خدمنا، واثنتا عشرة ليرة لمعاطف كتاب تاجنا! حسن جداً! إنك تبذر الذهب وتصبه! فهل أنت مجنون يا أوليفيه؟»

ورفع العجوز رأسه وهو يتكلم فأضاءالنور الصفحة الجانبية لوجهه الحزين المتهدل. ثم انتزع الأوراق من يدي الرجل الواقف إلى جانبه. وصرخ وهو ينقل عينيه المقعرتين بين الأوراق: «إنك تخربنا» واندفع الملك يستعرض النفقات التي استحدثت في ميزانية القصر. ثم عقب قائلاً: «اسمع يا أوليفيه، إن نفقاتنا تزيد في كل السنوات. وهذا شيء لا يسرنا أبداً. إن ميزانيتنا لم تتجاوز حتى سنة 79: 36 ألف ليرة ولكنها في سنة 80 قد بلغت 43 ألفاً ونيفاً، وستبلغ في هذه السنة أربعة أضعاف المبلغ الأول. هذا شيء مخيف!»

ثم توقف لاهثاً، وتابع بعد ذلك يقول بحماسة ظاهرة:

ـ «إنني لا أرى من حولي غير أناس يسمنون من هزالي! إنكم تمصون قطعي الذهبية من كل مكان حتى من مسام جلدي!»

وسكت الجميع. وقد جرت العادة أن يتركوا لهذه الثورات منصرفاً تمر منه. ثم تابع يقول: «إنني سأريكم ما إذا كنت الملك أم لا!»

وهنا بدت في شفتيه ابتسامة من يحس بسلطانه، ثم رق وهدأ والتفت نحو الفلاماندين يقول:

ـ «إن هؤلاء السادة لا يصنعون شيئاً فهم يوحون إليّ حين يقفون أمامي أنهم كهذه الزركشات الإنجيلية التي تحيط بإطار الساعة. والساعة كما لا يخفى تستطيع أن تستغني عنها دون أن تنقطع عن الدوران والعمل.»

وتعاقبت قراءة أوليفيه للأوراق، بعد أن استرجعها من الملك، وتعليقات الملك الصاخبة على كل فقرة من الفقرات.

قال الملك أخيراً وهو يمسك ذراعي الكرسي بيديه: «آه! لقد أتيت إلى الباستيل لأرى هذا القفص الذي أنفقت عليه مثل هذه النفقة البالغة. سأراه وتقرأ لي أنت خلال ذلك تفصيلات نفقاته. ثم أشار إلى الرجل الأخرس الواقف في أقصى القاعة أن يتقدمه وإلى الفلاماندين أن يتبعاه قائلاً لهما: «تعالا أيها السيدان الفلاماندیان وانظرا. هذا شيء يبعث على الفضول.»

وجرت الجماعة الملكية خارج الغرفة، فتقدمها خدم ضامرون بمصابيحهم وانتشر أمامهم ووراءهم عدد من الجنود المدججين بالأسلحة والدروع الثقيلة. وتابع الجميع طريقهم عبر الممرات والسلالم المحفورة في داخل هذا السجن الكبير يتقدمهم قائد السجن ويفتح للملك المريض المتهافت المحدودب الذي يسعل وهو يسير، دروب السجن وغرفه وحجيراته.

كانت كل الرؤوس عند الدخول إلى أية حجيرة مرغمة على الانحناء غير رأس الملك العجوز.

وبعد أن بلغوا باب الحجيرة الأخيرة وانتظروا ربع ساعة تقريباً حتى استطاع السجانون أن يفتحوه لكثرة ما كان عليه من الأقفال. دخلوا إلى غرفة واسعة فسيحة عالية الأركان وقد ارتفع في وسطها عمود كثيف ضخم من الحديد والخشب. كانت الغرفة خالية. إنها أحد تلك الأقفاص

المشهورة والمعدة لسجناء الدولة ممن يدعون ببنات الملك. وقد ظهرت في الجدران نافذتان أو ثلاث، وبدا الباب قطعة ضخمة من الحجر، كتلك التي تغلق بها القبور، إنه من هذه الأبواب التي لا تستعمل أبداً إلا للدخول. والفرق بين هذه الغرفة والقبر أن الميت المدفون هنا هو كائن حي.

وراح الملك يمشي وئيداً حول هذا البناء وهو يتفحصه بعناية ظاهرة، بينما كان أوليفيه يقرأ عليه تفصيلات النفقات التي اقتضاها هذا البناء.

وصرخ الملك فجأة يقول: «يا اللّه!» ثم نظر من حوله وأنصت. والظاهر أن شيئاً كان يستيقظ في داخل هذا القفص. لقد كان يسمع صدى سلاسل حديدية تصطدم بخشب أرض الغرفة. وارتفع صوت ضعيف بدا خارجاً من القبر يقول: «رحماك! يا صاحب الجلالة!» ولكن الملك ورفاقه لم يروا المتكلم. والحق أن هذا الصوت قد أرعد الموجودين حتى السيد أوليفيه نفسه. والملك وحده هو الذي بدا وكأنه لم يسمع شيئاً. ورجع السيد أوليفيه إلى قراءة مذكراته بإشارة منه.

ـ «رحماك! أيها الملك! أقسم لك إن كاردينال دانجيه هو الذي ارتكب جريمة الخيانة.»

قال الملك: «تابع القراءة يا أوليفيه.»

ـ «وأسفاه! يا صاحب الجلالة! ألا تصغي إليّ؟ أؤكد لك أنني لم أكتب شيئاً لغبطة السيد غويان، فالكاتب هو الكاردينال لوبالو!»

وعلّق الملك على ما يقرأه أوليفيه قائلاً: «إن أجور النجّار مرتفعة جداً. أهذا هو كل شيء؟»

ـ «كلا، يا صاحب الجلالة. فهناك الزجاج أيضاً.»

ـ «رحمتك وغفرانك، يا صاحب الجلالة! ألا يكفي أن أموالي المصادرة قد سلمت كلها لقضاتي، وأن آنية بيتي قد أعطيت إلى السيد دي تورسي، وأن مكتبتي قد منحت إلى السيد بطرس دوريول، وأن

طنافسي وسجاجيدي قد أعطيت أيضاً إلى حاكم روسيّون؟ أنا بريء. هاك أربعة عشر عاماً وأنا أرتجف في قفص من الحديد. رحمتك وغفرانك يا صاحب الجلالة! إنك ستجد عاقبة غفرانك عند اللّه.»

قال الملك: «وكم هو مجموع النفقات؟»

فأجاب أوليفيه: «ثلاثمائة وسبع وستون ليرة ذهبية وثمانية دراهم وثلاثة دوانيق.»

فصرخ الملك قائلاً: «يا عذراءنا! هاك قفصاً يبعث على الخراب!»

وانتزع المذكرات من بين يدي السيد أوليفيه. وراح يعد النفدات وأقدارها على أصابعه، متفحصاً بصورة دورية كلاً من القفص والمذكرات.

وفي هذه الأثناء كان يسمع بكاء السجين. فكان شيئاً محزناً حقاً، وراحت وجوه القوم تتبادل النظرات وهي باهتة صفراء.

ـ «أربعة عشر عاماً يا صاحب الجلالة! هذه أربعة عشر عاماً! منذ شهر نيسان من عام 1469. أصغ إليّ يا صاحب الجلالة باسم القديسة والدة الإله! لقد استمتعت طوال هذا الوقت بنور الشمس أمّا أنا، الضعيف المسكين، فهل لن أرى ضوء النهار أبداً؟ غفرانك! يا صاحب الجلالة! كن رحيماً. إن الرحمة فضيلة ملكية جميلة وهي التي توقف سيل الغضب وتكبح جماحه.»

ـ «هل تظن جلالتك، أن إصرار الملك على معاقبة كل جريمة إرضاء له؟ على أني يا صاحب الجلالة لم أخنك أبداً، إنه السيد دانجيه. في قدمي سلسلة حديدية ثقيلة، وفي طرفها كرة حديدية ضخمة، هي أثقل كثيراً من أن يبررها أي شيء: ها! يا صاحب الجلالة! أشفق عليّ!»

ولم يلبث الملك أن أدار ظهره يريد الخروج من الغرفة. واعتقد السجين عندما ابتعد النور وخفت الضجة أن الملك قد ترك الغرفة. فصرخ في يأس المستغيث: «يا صاحب الجلالة! يا صاحب الجلالة!»

وأغلق الباب. ثم لم يعد يرى شيئاً ولا يسمع غير صوت السجان الأبح ينشد ويغني عند أذنيه.

وصعد الملك إلى حيث ملجأه، وموكبه يتبعه، ترعده استغاثة المحكوم الأخيرة. وفجأة، توجه جلالته نحو حاكم الباستيل يقول له:

ـ «قل لي، بهذه المناسبة، ألم يكن أحد في هذا القفص؟»

أجاب الحاكم مندهشاً من السؤال: «يا اللّٰه! يا صاحب الجلالة!»

ـ «ومن هو إذن؟»

ـ «إنه السيد أسقف فردون.»

والملك يعرف هذا أكثر من أي شخص آخر. ولكنها طريقته الخاصة التي لا ينفك يستعملها أبداً.

قال وكأنه يفكِّر في هذا الموضوع ببساطة الرجل الساذج، لأول مرة: «غليوم دي هارانكور، صديق كاردينال لوبالو. يا للأسف الشيطاني!»

وبعد هنيهة فتح باب ملجأ الملك ثم أغلق مرة أخرى على الأشخاص الخمسة أنفسهم وقد رجعوا إلى أوضاعهم السابقة وأحاديثهم الخافتة.

وقد وضعت على المنضدة، خلال غياب الملك، رسائل مختلفة، فضّها هو بنفسه بعد رجوعه. ثم أخذ يقرأها سريعاً، الواحدة تلو الأخرى. ثم أشار إلى أوليفيه، الذي كان فيما يظهر، يشغل عنده وظيفة الوزير، أن يأتي بريشة، وراح يملي عليه أجوبته، دون أن يطلعه على محتويات الرسائل. فكتب أوليفيه راكعاً أمام المنضدة في وضع مزعج جداً.

كان غليوم ريم يراقب ما يحدث حوله.

والملك يتحدث بصوت منخفض جداً، بحيث إن الفلاماندين لم يعودا يسمعان شيئاً، غير كلمات متفرقة لا تكاد تعني شيئاً عندهما.

ثم رفع الملك صوته في فقرتين متباعدتين، وعندما همّ في مرة ثالثة

أن يملي رسالة بصوت مرتفع وبدأ فيها ثم كاد يكملها، فتح الباب ودخل شخص جديد بوجه خائف مضطرب وهو يصرخ: «يا صاحب الجلالة! في باريس ثورة شعبية!»

وتقلص وجه لويس الوقور، ولكن انفعاله لم يلبث أن ذهب كالبرق اللامع. فاحتفظ بهدوئه وقال بوقار العميق:

ـ «أيها السيد جاك، إنك تدخل بصورة مفاجئة جداً!»

ـ «هناك ثورة يا صاحب الجلالة!»

أما الملك الذي كان قد نهض واقفاً، فقد أمسك بذراع جاك وقال له هامساً في أذنه، في غضب مكظوم، ونظرة متجهة نحو الفلامانديين: «اسكت، أو تكلم بصوت منخفض!»

وفهم جاك. فقص على الملك تفصيل ما يحدث. فلم يلبث الملك أن انفجر ضاحكاً وقال: «الحقيقة! إنك يجب أن تتكلم بصوت مرتفع. فلِمَ تخفض صوتك، إننا لا نخفي شيئاً على صديقينا الفلامانديين.»

ـ «ولكن، يا صاحب الجلالة...»

ـ «تكلم بصوت مرتفع!»

أما السيد جاك كواكتيا فقد أذهلته الدهشة وبقي صامتاً.

فأردف الملك: «وإذن ـ تكلم أيها السيد ـ تقول إن هناك اضطراباً بين الرعاع في مدينتنا الطيبة باريس؟»

ـ «نعم، يا صاحب الجلالة.»

ـ «وتقول: إنها موجهة ضد السيد قاضي قصر العدالة؟»

فأجاب جاك متلعثماً، وكان ما يزال مندهشاً من تغيّر الملك المفاجئ: «هذا ما تنبئ عنه الظواهر الخارجية.»

فأردف الملك يقول: «وأين التقى رجال الحرس بهذا الجمهور؟»

ـ «لقد أتى من حي اللصوص الكبير متجهاً نحو جسر الصرافين. وقد التقيته أنا شخصياً حين كنت آتياً إلى جلالتك عملاً بأوامرك. لقد

سمعت بعضهم يصرخ قائلاً: «ليسقط قاضي القصر!»

ـ «وما الذي يشكونه منه؟»

قال جاك: «آه! يشكون من أنه سيدهم فقط.»

ـ «حقاً!»

ـ «نعم، يا صاحب الجلالة. إنهم رعاع من بلاط العجائب. وقد مرَّ وقت طويل على شكواهم منه. إنهم لا يريدون الاعتراف به.»

فابتسم الملك ابتسامة الرضى بعد أن حاول جاهداً أن يخفيها.

ـ «إنهم يزعمون، في كل ما يقدمونه من العرائض إلى البرلمان أنهم لا يعترفون إلا بسيدين، جلالتك وإلههم، الذي هو الشيطان فيما أعتقد.»

قال الملك: «ها! ها!»

وكان يفرك يديه. ويبتسم هذه الابتسامة الخاصة التي تبعث الضياء في وجهه. لم يكن قادراً على إخفاء فرحه، رغم محاولته إخفاء هذا الفرح. ولم يفهم أحد من المشاهدين سببه حتى السيد أوليفيه نفسه. وبقي قليلاً صامتاً، على هيئة المفكر، السعيد ثم سأل فجأة: «هل هم في قوة كبيرة؟»

فأجاب جاك: «نعم، يا صاحب الجلالة.»

ـ «وكم عددهم؟»

ـ «ستة آلاف على الأقل.»

فلم يسع الملك إلا أن يقول: «حسن جداً.» ثم أردف: «وهل هم مسلحون؟»

ـ «بكل أنواع الأسلحة الشديدة.»

فلم يبد الملك قلقاً أمام هذا العرض. وقد اعتقد السيد جاك أن عليه أن يضيف: «ولئن لم تنجد جلالتك السيد القاضي، فإنه حتماً ضائع.»

قال الملك بلهجة جدية كاذبة: «سنرسل النجدة. سنرسلها على التأكيد. إن قاضي القصر صديقنا. ستة آلاف! الظاهر أنهم مصممون. إن

الشجاعة شيء معجب، وهي تثير حفيظتنا. ولكن من حولنا الليلة من الرجال قليلون. ـ وغداً صباحاً يكون الوقت مناسباً.»

فعقب جاك ضاحكاً: «حالاً، يا صاحب الجلالة! إن إقطاعة القاضي ستخرب عشرين مرة قبل أن تبزغ شمس الغد، وستنتهك خلال ذلك حرمة كل شيء، بل سيشنق القاضي نفسه. أرسل يا صاحب الجلالة قوة قبل الصباح، إكراماً للّه!»

ونظر الملك إليه وقال: «قلت لك غداً صباحاً.»

وكانت نظرته من تلك النظرات التي لا جواب لها أبداً.

ثم رفع لويس الحادي عشر صوته بعد صمت قصير، وقال: «أيها السيد جاك، يجب أن تعرف ذلك؟ فما هي...؟ ثم أردف: «ما هي حقوق القاضي الإقطاعية؟»

وانطلق جاك يحدد للملك منطقة قاضي القصر الكبير في وسط باريس معدداً أسماء الشوارع والأحياء حتى حي بلاط العجائب نفسه.

قال الملك وهو يحك أذنه اليسرى بكفه اليمنى: «وإن ما عددته يكوّن جزءاً كبيراً من مدينتي! آه! لقد كان القاضي ملكاً على هذا كله؟»

وهنا تابع الملك كلامه حالماً، وكأنه يحدث نفسه: «حسن جداً! أيها القاضي! لقد كانت هنا في حوزتك قطعة لطيفة من باريسنا!»

ثم انفجر قائلاً: «يا اللّه؟ من هم هؤلاء الذين يزعمون لأنفسهم مناصب القضاة والسادة بيننا. يستوفون رسومهم من كل جهة، وعدليتهم وجلادهم في مفترق كل طريق بين أفراد شعبنا. بحيث إن الفرنسي هو كاليوناني الذي يعتقد بأن له من الآلهة ما يساوي عدد الينابيع في أرضه، وكالفارسي الذي كان يرى آلهته في عدد النجوم، بينما يرى هذا الفرنسي أن له ملوكاً في عدد ما يراه من المشانق! لعمري إن هذا شيء رديء جداً، والفوضى لا تسرني أبداً. إنني أريد أن أعلم ما إذا كان من رحمة اللّه بنا أن يكون في باريس حاكم غير الملك، وهيئة قضائية تشريعية غير

البرلمان، وامبراطور غيرنا نحن في هذه الامبراطورية! يجب، قسماً بروحي، أن يأتي يوم لا يكون فيه في فرنسا غير ملك واحد، وسيد واحد، وقاض واحد، وقاطع للرؤوس واحد، كما ليس في الجنة إلا إله واحد!»

ثم رفع قبعته أيضاً، وتابع، غارقاً في حلم دائم بلهجة وهيئة الصائد الذي يحفز كلابه ويثيرها ويدفعها: «حسن جداً! يا شعبي العزيز! حطّم هؤلاء السادة المزورين! تابع مهمتك. خرِّبهم! واشنقهم! وأنزل قوارعك بهم!... آه! إنكم تريدون أن تكونوا ملوكاً أيها السادة؟ اذهب! أيها الشعب! اذهب!»

وانقطع هنا عن الكلام، وعض شفتيه كأنه يريد أن يبتلع فكرته التي كادت تنفلت من فمه، مثبتاً نظره الثاقب في كل من الأشخاص الخمسة الذين كانوا يحيطون به، وفجأة، قال: وهو يمسك قبعته بيديه وينظر إليها: «أوه! سأحرقك إن كنت تعرفين ما في رأسي!»

ثم عقب قائلاً وهو ينقل بصره من حوله قلقاً شديد التنبه كالثعلب الذي يهم بالدخول إلى جحره: «لا بأس! سنساعد القاضي. والمؤسف أن ما عندنا الآن من القوات قليل جداً. فغداً نعيد الأمن إلى نصابه وسنشنق كل من تقع عليه يد العدالة.»

قال كواكيتا: «بالمناسبة يا صاحب الجلالة، لقد نسيت أن أخبرك أن الحراس قد ألقوا القبض على اثنين من المحرضين في هذه العصابة. فإذا رغبت جلالتك في رؤيتهما، فهما موجودان هنا.»

وصرخ الملك: «طبعاً أريد رؤيتهما، فكيف تنسى شيئاً كهذا! ـ اذهب سريعاً يا أوليفيه وائتني بهما.»

وخرج أوليفيه ثم رجع بعد قليل يرافقه السجينان ويحيط بهما عدد من الجهود الرماة. أما الأول فله وجه أبله. ثمل. يلبس ثياباً رثة ويجر قدمه جراً. وأما الثاني فله وجه باهت ضاحك قد عرفه القارئ من قبل.

ونظر الملك إليهما صامتاً ثم توجه فجأة إلى الأول:

ـ «ما اسمك؟»

ـ «جوفروا بانسبورد.»

ـ «ما هي مهنتك؟»

ـ «لص.»

ـ «ماذا كنت تريد أن تفعل في هذه الثورة؟»

ونظر اللص إلى الملك وهو يؤرجح ذارعيه على هيئة بلهاء. ثم قال:

ـ «لست أدري، لقد كانوا يذهبون، فذهبت معهم.»

ـ «ألم تكن تريد الاعتداء على سيدك قاضي القصر؟»

ـ «أعرف أنهم كانوا يريدون أخذ شيء من أحد الناس. هذا كل ما في الأمر.»

فتقدم أحد الجنود ووضع بين يدي الملك سلاحاً أخذ من هذا اللص.

فسأل الملك: «هل تعرف هذا السلاح؟»

ـ «نعم، إنه منجلي، فأنا مزارع.»

ـ «وهل تعرف رفيقك؟» وقد أشار الملك إلى السجين الآخر.

ـ «كلا، لا أعرفه.»

ـ «يكفي هذا». ثم أشار الملك إلى الرجل الصامت الذي عرفناه في أول هذا الفصل قائلاً: «أيها السيد تريستان، هذا رجل لك.»

فانحنى الرجل الصامت وأشار إلى اثنين من الجنود الرماة أن يأتيا به.

وفي هذه الأثناء اقترب الملك من السجين الثاني الذي كان يتفصد عرقاً.

ـ «اسمك؟»

ـ «بطرس جرنجوار، يا صاحب الجلالة.»

ـ «مهنتك؟»

ـ «فيلسوف، يا صاحب الجلالة.»

ـ «كيف تسمح لنفسك أيها السخيف بالاعتداء على صديقنا قاضي القصر، وما قولك في هذه الحركة الشعبية؟»

ـ «لم أكن معهم يا صاحب الجلالة.»

ـ «ألم يقبض الحراس عليك وأنت بين الجموع؟»

ـ «كلا، يا صاحب الجلالة. كانت مصادفة كتبت عليّ في لوح القدر. إنني كاتب مسرحيات. أتضرع إلى جلالتك أن تصغي إليّ. إنني شاعر. لقد كنت أمرّ من هناك، بتأثير الحالة النفسية الساهمة التي يحس بها أمثالي فيخرجون إلى الشوارع أثناء الليل. لقد كانت مصادفة غريبة. وقبض عليّ خطأ. وأنا بريء من هذه العاصفة المدنية. لقد رأيت جلالتك أن اللص لم يعرفني.»

قال الملك بين جرعتين من شراب بعض الحشائش: «اسكت! لقد صدعت رأسنا.»

وتقدم تريستان قائلاً وهو يشير إلى جرنجوار: «هل يمكن أن نشنق هذا أيضاً؟»

فأجاب الملك في لامبالاة ظاهرة: «بوه! لا أرى ما يمنع من ذلك!»

قال جرنجوار: «أما أنا فأرى كثيراً من الموانع.»

كان فيلسوفنا في هذه البرهة أكثر اخضراراً من حبة الزيتون. وقد رأى أنه لم يبق له أمام برود الملك ولامبالاته غير شيء واحد يستعين به، شيء مثير، فتهالك بين قدمي الملك وهو يصرخ في صوت اليائس:

ـ «يا صاحب الجلالة! هل تتفضل فتصغي إليّ. وهلا امتنعت جلالتك عن الانفجار والإرعاد فوق شيء ضئيل مثلي أنا. إن صاعقة الإله الكبيرة لا تصيب زهرة من الخس. يا صاحب الجلالة، إنك ملك مهيب عظيم، فأشفق على رجل مسكين شريف، قد يقبل على ثورة، إذا استطاعت قطعة من الثلج أن تعطي شرراً.

يا صاحب الجلالة، إن العفو هو من شيم الأسود والملوك. وا أسفاه أن القسوة تزيد من ثورة النفوس، ولفحات الريح الثلجية لا يسعها أن ترفع المعاطف عن الأجساد، أما الشمس التي ترسل أشعتها شيئاً فشيئاً بحيث تنتزع الثياب كلها حتى لا يبقى منها غير القميص، هذه الشمس يا صاحب الجلالة، هي أنت. فلست من هؤلاء الذين يشتركون في تحريك الثورات والثائرين. إنني أحد رعاياك الأمناء. إن غيرة الزوج الشريفة على امرأته وبر الأبناء بالآباء، هما ما يجب أن يتصف به أحد رعايا الملك أمام ملكيه. وإن أي انفعال آخر يصيبه إن هو إلا غضبة سريعة. لئن عفوت عني أيها الملك، فإنني سأقع على ركبتي أدعو لك بالخير والنجاح ليلي ونهاري. والملوك يا صاحب الجلالة يتباهون إذ يحمون رجال الفكر والقلم، وأنا واحد منهم. أما شنقهم فهو طريقة فاسدة جداً في حمايتهم. إنك ترى يا صاحب الجلالة أنني لست لصاً تافهاً، وأنني قد تفوقت في دراستي وأن لي من الفصاحة والبيان ما لا يخفى على جلالتك. اغفر لي! واعف عني! تكن بذلك قد قمت بعمل لطيف جداً مع سيدتنا العذراء، وأقسم لك إنني خائف جداً من فكرة أن أكون أنا المشنوق!»

وراح جرنجوار يقبل حذاء الملك ثم رفع بصره راجعاً نحو الملك الذي كان منهمكاً بحك ركبته. ثم التفت إلى تريستان لارميت وقال له:

«دعه.»

وسقط جرنجوار على مؤخرته، وقد استخفه فرح عظيم. فدمدم تريستان: «إلى الحرية! إن جلالته لا يريد أن يُعوَّق قليلاً في القفص.»

وخرج جرنجوار خوفاً من صدور أمر جديد مناقض، وقد فتح له تريستان باب الغرفة على غير رضى منه. وخرج الجنود يدفعونه بقبضات أيديهم الغليظة، واحتملها جرنجوار كما يحتمل الفيلسوف الرواقي آلامه.

والواقع أن سرور الملك قد بدا في كل ما حوله بعد أن بلغه نبأ الثورة على قاضي قصر العدالة. وقد عرف عنه أنه أقدر على إخفاء متاعبه. أما سروره فلا يلبث حتى يشيع وينتشر في سهولة فائقة.

وصرخ جاك كواكتيا: «ماذا أصاب الوخزة الحادة التي تحس بها جلالتك والتي دعوتني من أجلها؟»

قال الملك: «الحقيقة أنني أحس بألم شديد. ففي أذني صفير، وفي صدري نار متقدة.»

فأمسك كواكتيا بيد الملك على هيئة الرجل الكفوء وراح يعد له نبضاته.

قال غليوم ريم بصوت خافت: «انظر يا كوبانول. إن بلاط الملك كله هو هذان الرجلان: طبيب له وجلاد للآخرين.»

واتخذ وجه كواكتيا الطبيب لوناً قاتماً ثم دمدم يقول: «أوه! أوه! الواقع أن هذا شيء خطير.»

قال الملك قلقاً: «أليس كذلك؟»

ـ «إن هذه الظاهرة قد تقضي على صاحبها خلال ثلاثة أيام.»

فصرخ الملك: «يا للعذراء! والدواء! ما هو؟»

ـ «إنني أفكِّر فيه.»

ثم جعل الملك يخرج لسانه، وهز رأسه، وكشر قليلاً، وقال وسط هذه الحركات: «يا صاحب الجلالة إن عندك وظيفة شاغرة، ولي ابن أخ لم يصب شيئاً من فيض عطائك حتى الآن.»

فأجابه الملك: «إنها لابن أخيك. ولكن أخرج هذه النار من صدري.»

ـ «أما وجلالتك على مثل هذه السماحة، فإنك لن تبخل عليّ في مساعدتي على إنجاز أساس بيتي في شارع سانت ـ أندريه ـ دازار.»

قال الملك: «أوه!»

ـ «إنني أكاد أفلس يا صاحب الجلالة، وإنه لمؤسف حقاً أن يخلو البيت من سطوحه.»

فدمدم لويس الحادي عشر: «أيها الجلاد، إلى أين تريد أن تصل بي؟»

ـ «إنني بحاجة إلى ألفي ليرة.»

فصرخ الملك: «آه أيها القاتل. إنه لا ينتزع مني سناً إلا إذا كانت ماسية.»

قال كواكتيا: «هل سأفوز بسطحي؟»

ـ «نعم، وإذن إلى الشيطان، ولكن اشفني.»

وهنا ظن أوليفيه، والملك في غمرة من بشاشته، أن دوره قد آن أوانه فاقترب من الملك وقال: «يا صاحب الجلالة...»

قال لويس الحادي عشر: «وماذا تريد أنت؟»

ـ «إنك تعرف يا صاحب الجلالة أن السيد سيمون رادان قد مات.»

ـ «وما معنى ذلك؟»

ـ «وقد كان مستشار الملك.»

ـ «وماذا تقصد؟»

ـ «أقصد يا صاحب الجلالة، أن وظيفته شاغرة.»

وهنا اتخذ وجه أوليفيه المتكبر تعبيراً متواضعاً. فنظر الملك إليه وقال بلهجة جافة:

ـ «لقد فهمت.»

ثم أردف يعدد لأوليفيه الوظائف الكثيرة التي أسندت إليه ابتداء من سنة 68، وأنهى خطابه الطويل قائلاً: «الخراب والظلم لاحقان بالكبرياء دائماً وأبداً. إفهم هذا واسكت.» فدمدم أوليفيه وقد سمع ما قاله الملك بلهجته الحازمة: «إنني أرى أن الملك اليوم مريض. وهو يعطي كل شيء إلى الطبيب.»

وسمع الملك، ولكنه لم يثر أبداً. بل اكتفى بتذكير أوليفيه أنه قد أسند إليه أيضاً وظيفة السفير في غان لدى السيدة ماري. ثم قال له: «لا داعي لغضبنا. فنحن صديقان قديمان. لقد تأخر الوقت. وأنهينا عملنا. فاحلق لي لحيتي.»

الواقع أن قراءنا لم يكونوا ينتظرون أن يروا في السيد أوليفيه هذه

الشخصية الرهيبة التي وضعتها الأقدار، صانعة المآسي، وسط مهزلة لويس الحادي عشر الدامية عبر زمن طويل. ولن نحاول أن نتحدث مطولاً عن هذه الشخصية الفريدة. فقد كان لحلاق الملك ثلاثة أسماء: كان يدعى في البلاط تأدباً باسم أوليفيه لُوْدَانْ، أما في الطبقات الشعبية فهو أوليفيه الشيطان. وأما هو فقد كان يدعو نفسه بأوليفيه الرديء.

وإذن فقد بقي أوليفيه الرديء جامداً، يُظهر للملك استياءه، وينظر إلى الطبيب نظرات شزراء. ويقول بين أسنانه: «نعم، نعم! الطبيب.»

فأردف الملك قائلاً ببساطته الفريدة: «نعم، إن للطبيب عندي من الرصيد ما ليس لك. فهو يسيطر علينا في جسدنا كله، أما أنت فلا تمسك إلا بالذقن فقط، هيا يا حلاقي المسكين احلق لي. بعد أن تأتي بما تحتاج إليه من أدواتك.»

وخرج أوليفيه ينفذ الأوامر بعد أن رأى أن الملك قد اختار المزاح وأن لا سبيل إلى إغضابه.

ونهض الملك ثم اقترب من النافذة وفتح مصراعيها بهياج غير عادي ثم صرخ وهو يصفق بيديه: «أوه! نعم، هاك حمرة في سماء المدينة. إنها إقطاعية قاضي القصر تحترق. لا يمكن أن يكون هناك شيء آخر. فهاك أنت أخيراً أيها الشعب الطيب تساعدني على تحقيق انهيار هذه السيادات المتنفخة!» ثم التفت نحو الفلاماندیین وقال لهما: «اقتربا يا سيدَيَّ وانظرا، أليست هذه ناراً حمراء؟»

واقترب الفلامانديان.

قال غليوم ريم: «إنها نار عظيمة.»

وأضاف كوبانول وقد أرسلت عيناه شرراً: «أوه! تذكّرني هذه النار باحتراق منزل السيد دامبركور. يجب أن تكون هناك ثورة كبيرة.»

قال الملك وقد بدا الفرح في نظراته كما بدا في نظرات كوبانول: «ألا ترى يا كوبانول أن مقاومة الثوار هناك صعبة جداً؟»

ـ «سترغم جلالتك على التضحية بعدد غير قليل من فرق رجال الحرب.»

فأجاب الملك: «أوه! أنا! هذا شيء مختلف. هذا إذا كنت راغباً في إيقاف الثورة! . .»

فأجاب كوبانول بجرأة جاهرة:

ـ «إذا كانت هذه الثورة ما أفترضه، فإنك سترغب جداً يا صاحب الجلالة!»

قال لويس الحادي عشر: «إنني بفرقتين من رجالي الرماة قادر على تجميد هؤلاء الرعاع.»

فأردف كوبانول رغم إشارات ريم وتحذيراته يقول:

ـ «يا صاحب الجلالة، لقد كان السويسرانيون رعاعاً أيضاً، ولكن دوق دي بورغونيا، السيد الكبير، لم يسعه إلا أن يحذر هؤلاء القذرين. ولم يلبث جيشه أن انهار أمام هؤلاء الرعاع كما ينفجر لوح زجاجي حين يصطدم بحصاة من الحجارة.»

فأجاب الملك: «يا صديقي إنك تتحدث عن معركة. أما هنا فلا يوجد غير حركة تمرد. وسأبلغ هدفي حين أقطب حاجبي.»

فردد الآخر في غير اهتمام:

ـ «هذا ممكن، حتى الآن لأن ساعة الشعوب لم تحن بعد.»

وظن ريم أن عليه أن يتدخل فقال: «أيها المعلم كوبانول، إنك تتكلم مع ملك عظيم.»

فأجابه كوبانول الحذَّاء بلهجة وقور: «أعرف ذلك.»

قال الملك: «دعه يتكلم. إنني أحب الصراحة في القول.»

ثم وضع يده على كتف كوبانول وقال له:

ـ «ماذا كنت تقول، أيها المعلم جاك؟ . . .»

ـ «أقول، يا صاحب الجلالة، إنك قد تكون على حق، وإن ساعة الشعب عندكم لم تحن بعد.»

فنظر لويس الحادي عشر إليه نظرة ثاقبة وقال:

ـ «ومتى تأتي هذه الساعة؟»

ـ «ستسمع دقاتها.»

ـ «في أية ساعة سأسمعها؟»

وهنا قرَّب كوبانول الملك من النافذة وقال له بلهجته الهادئة الجافية: «أصغِ إليّ يا صاحب الجلالة! يوجد هنا سجون ومدافع وبورجوازيون وجنود وجرس إنذار باقتراب الخطر. فإذا قرع الجرس، ودوت المدافع، وانهارت السجون في ضجة عالية، واقتتل الجنود والبورجوازيون فقد دقت الساعة.»

وأصبح وجه لويس الحادي عشر مربداً حالماً. وبقي صامتاً فترة من الزمن، ثم ربت بيده على جدار السجن الكبير قائلاً: «أوه! أوليس أنك لن تنهار بسهولة أبداً، يا باستيلي الطيب؟

ثم أردف يقول ملتفتاً إلى الفلاماندي الجريء: «هل رأيت ثورة في حياتك، أيها المعلم جاك؟»

قال الحذَّاء: «لقد صنعت واحدة منها.»

قال الملك: «كيف تعمل لصنع ثورة؟»

فأجاب كوبانول: «ليس هناك شيء من الصعوبة. فهناك مائة طريقة لصنعها. والمهم أن يكون الناس في المدينة متأففين غير راضين. والحالة هذه ليست من الندرة بقدر ما يظن بعض الناس. والشيء الثاني هو نفسية سكان المدينة الثائرة. أما سكان غان فهم خليقون دائماً بالثورة. إنهم يحبون ابن الأمير دائماً. ولكنهم لا يحبون الأمير أبداً. وهكذا أفترض أن يأتيني بعض الناس في دكاني، صباح يوم، ويقولوا لي: «أيها الأب كوبانول، الأمر كيت وكيت، وسيدة فلاندر تريد أن تنقذ وزراءها، أو أي شيء آخر.» أما أنا فأترك عملي وأخرج إلى الشارع ثم أصرخ قائلاً: «إلى السلاح! وأقف فوق برميل من براميل الشارع ثم أقول ما يعنّ لي من

القول، أي كل ما أجده في نفسي، والمرء يجد في نفسه شيئاً يقوله دائماً حين يكون من الشعب. وعندئذ يجتمع الناس ويصرخون ويدقون أجراس النجدة، فيتسلح الرعاع بأسلحة الجنود التي انتزعت منهم ثم يلتحق بهم أبناء السوق، وينطلق الجميع! وسيكون الأمر كذلك أبداً، ما دام هناك سادة في الإقطاعات، وبورجوازيون في المدن، وفلاحون في الأرياف.»

فسأله الملك: «وعلى من تثورون هكذا؟ هل تنقلبون على قضاتكم، أو ساداتكم؟»

ـ «قد يكون هذا. وقد تكون الثورة موجهة ضد الدوق نفسه، تبعاً للظروف.» واتجه الملك إلى كرسيه وهو يقول مبتسماً: «آه! إنهم هنا لا يثورون حتى الآن إلا على القضاة!»

وفي هذه البرهة دخل أوليفيه يتبعه خادمان يحملان أدوات زينة الملك، ومما بعث الدهشة في لويس الحادي عشر أن مدير شرطه باريس وقائد الحرس يرافقانه، وهما يبدوان مضطربين. والحلاق الحقود يبدو مضطرباً أيضاً، ولكن وراء اضطرابه سرور ولذة:

قال الحلاق: «يا صاحب الجلالة، أسألك أن تغفر لي إقدامي على إنبائك بخبر سيئ مثير.»

قال الملك: «ما هو هذا الخبر؟»

فأردف أوليفيه في هيئة الرجل الخبيث الذي يجد لذة في توجيه طعنة عنيفة قائلاً: «يا صاحب الجلالة، ليست ثورة الشعب ثورة على القاضي.»

ـ «على مَنْ إذن؟»

ـ «عليك يا صاحب الجلالة.»

فانتصب الملك العجوز قائلاً: «أفصح يا أوليفيه! أفصح! وامسك رأسك جيداً، قسماً بصليب القديس «لُو» لئن عرفت أنك تكذب في هذه الساعة، فإن السيف الذي قطع رأس السيد دي لوكسامبورغ قادر أن يقطع رأسك.»

كان القسم رهيباً. ولم يفه لويس الحادي عشر به إلا مرتين اثنتين في حياته.

وفتح أوليفيه فمه ليجيب: «يا صاحب الجلالة...»

فقاطعه الملك بعنف بالغ قائلاً: «اركع على ركبتيك»، ثم قال لتريستان: «راقب هذا الرجل!»

وركع أوليفيه على ركبتيه ثم قال ببرود: «يا صاحب الجلالة، لقد حكمت ساحرة الموت من قبل محكمة البرلمان. فالتجأت إلى نوتردام. وأردا الشعب أن يخرجها عنوة واقتداراً، وها هما السيدان رئيس الشرطة وقائد الحرس، آتيان من منطقة الاضطرابات، وهما قادران على تكذيبي إن لم يكن ما أرويه هو الحقيقة فالشعب يحاصر نوتردام بالذات.»

قال الملك بصوت خافت، وقد اصطبغ بالصفرة، وسرت فيه رجفة الغضب: «نوتردام! إنهم يحاصرون نوتردام، سيدتي الطيبة، في كاتدرائيتها! قف يا أوليفيه، إنك على حق: وإنني أمنحك وظيفة سيمون رادان. إنك على حق. ـ فهم إذن يهاجمونني أنا شخصياً. إن الساحرة في رعاية الكنيسة، والكنيسة في رعايتي. وأنا الذي كنت أظن أن الثورة ثورة على القاضي!»

وهنا أخذ الملك يروح ويجيء، وقد أرجع الغضب إليه شبابه. لقد امتنع عن الضحك. لقد أصبح رهيباً. لقد تحول الثعلب فأصبح فهداً. كان يبدو مختنقاً حتى كاد يعجز عن الكلام، وارتجفت شفتاه وتشنجت يداه المعروقتان. وفجأة رفع رأسه، وبدت عينه العميقة مفعمة بالضياء وانفجر صوته كالبوق قائلاً: «ضع يدك يا تريستان! ضع في هؤلاء المناكيد يدك! اذهب يا صديقي تريستان! فاقتل! واقتل! واقتل!» ومرت العاصفة، ثم أقبل على مقعده يجلس وقال في غضب بارد مركّز: «هنا، يا تريستان! في الباستيل خمسون رمحاً لفيكونت دي جف، مما يضع في يديك ثلاثمائة حصن، تأخذها كلها. وتوجد أيضاً سرية جنود الرماة التي يقودها السيد شاتوبار، ولك أعوانك في إدارة شرطتك. وتجد في أوتيل

سان بول أربعين رامياً من حرس وليّ العهد، تأخذهم أيضاً، ثم تجري بهؤلاء جميعاً نحو نوتردام. ـ آه! أيها الرعاع في باريس، إنكم تتحدون تاج فرنسا، وقداسه نوتردام وسلام هذه الجمهورية! ـ ضع فيهم السيف يا تريستان! فلا يفلت أحد منهم إلا ليحمل إلى مون ـ فوكون». وانحنى تريستان يقول: «حسن جداً! يا صاحب الجلالة!»

ثم أضاف بعد صمت: «وماذا أصنع بالساحرة؟»

قال الملك بعد تفكير: «آه! الساحرة! ـ أيها السيد داستونفيل، ماذا يريد الشعب أن يصنع بها؟»

فأجاب مدير شرطة باريس: «أتصور يا صاحب الجلالة أن الشعب راغب في شنقها.»

فبدا الملك مستغرقاً في تفكيره ثم قال لتريستان: «ضع السيف في رقاب الناس، واشنق الساحرة.»

قال ريم بصوت خافت لرفيقه كوبانول: «هذا هو الواقع، يعاقب الشعب على أنه يريد، ثم يعمل له ما يريد.»

فأجاب تريستان: «وهل نشنقها إذا كانت باقية في ملجئها من الكنيسة؟»

قال الملك وهو يحك أذنه: «الحِمَى! ومع ذلك فإن من الواجب أن تشنق هذه المرأة.»

وهنا، بدا الملك وقد أخذته فكرة مفاجئة، فجثا على ركبتيه أمام كرسيه ورفع قبعته، ووضعها على المقعد وقال وهو ينظر في ورع بالغ إلى تمائم من الرصاص كانت تثقل صدره، ويداهُ مضمومتان: «اغفري لي يا سيدتي الطيبة. فلن أفعلها غير هذه المرة. يجب أن تعاقب هذه المجرمة. أؤكد لك أيتها السيدة العذراء، بأنها ساحرة ليست جديرة بحمايتك. وأنت تعرفين أيتها السيدة أن كثيرين من الأمراء الورعين قد انتهكوا حرمة الكنائس لمجد اللّه وخدمة الدولة. واعلمي يا سيدة باريس، أنني لن أفعل هذا مرة أخرى، وسأعطيك تمثالاً جميلاً من الفضة شبيهاً

بذاك الذي أعطيته في السنة الماضية إلى سيدتنا العذراء في أكوي. لتكن إرادتك يا رب، آمين.»

ورسم إشارة الصليب، ثم لبس قبعته وقال لتريستان: «خذ معك السيد دي شاتوبار. واقرع أجراس النجدة وحطم مقاومة الجماهير. واشنق الساحرة. وإنني أفهم مما قلته لك أن تشرف شخصياً أنت على التنفيذ. وستقدم إليّ تقريراً بذلك. ـ هيا يا أوليفيه، إنني لن أنام في هذه الليلة. فاحلق لي لحيتي.»

وانحنى تريستان لارميت ثم خرج. وهنا صرف الملك كلاً من ريم وكوبانول بإشارة من يده قائلاً: «ليحفظكما اللّه يا صديقي الفلامانديين. خذا لنفسيكما بعض الراحة فإن الليل قد تقدم، ونحن أقرب إلى الصباح منا إلى المساء.»

وانسحب الرجلان متجهين إلى جناحيهما بقيادة قائد الباستيل، وكوبانول يقول لرفيقه: «هُومْ! لقد ضقت ذرعاً بهذا الملك الذي يسعل! لقد رأيت شارل دي بورغونيا ثملاً، فكان أقل خبثاً من لويس الحادي عشر المريض.»

فأجابه ريم: «ذلك أيها المعلم جاك، أن الخمرة عند الملوك أقل قسوة من شراب الحشائش.»

6 ـ اللهب الكاذب الصغير

هبط جرنجوار نحو شارع سانت ـ انطوان، وهو يترك الباستيل، بسرعة فائقة. ولم يكد يبلغ باب بودوايا، حتى اتجه مباشرة نحو الصليب الحجري الذي ينتصب في وسط هذه الساحة، كما لو أنه استطاع أن يرى في الظلمة شكل رجل يلبس زياً أسود اللون جالساً على درجات الصليب. قال جرنجوار: «هل أنت هنا أيها المعلم؟»

ونهض الرجل ذو السواد قائلاً: «موتاً وشهوة! لقد جعلتني أغلي

كالمرجل يا جرنجوار وقد أعلن الرجل المقيم في برج سان ـ جرفاه الساعة الواحدة والنصف من الصباح.»

فأجاب جرنجوار: «الخطأ هو خطأ الحرس والملك. لقد نجوت بأعجوبة! كأن القدر قد كتب لي أن أنجو دائماً من الشنق.»

قال الآخر: «أنت مختلف عن كل شيء! لنذهب سريعاً. هل معك كلمة السر؟»

ـ «تصوّر أيها المعلم، أنني رأيت الملك. لقد كانت مغامرة عجيبة.»

ـ «أوه! وماذا يعنيني من مغامرتك؟ هل معك كلمة السر؟»

ـ «نعم، إنها معي، كن مطمئناً. إنها «اللهب الكاذب الصغير».»

ـ «حسن جداً، فبدونها لا نستطيع أن ننفذ إلى الكنيسة. لقد قطع اللصوص الشوارع كلها. ومن حسن حظنا أنهم قد وجدوا مقاومة شديدة. فقد نصل في الوقت المناسب.»

ـ «نعم، أيها المعلم. ولكن كيف سندخل إلى نوتردام؟»

ـ «إنني أحمل مفتاح الأبراج.»

ـ «وكيف سنخرج؟»

ـ «يوجد وراء الدير باب يطل على الماء. لقد أخذت مفتاحه وأعددت عند الضفة قارباً في هذا الصباح.»

فأردف جرنجوار: «لقد نجوت من الشنق بطريقة رائعة جداً.»

قال الآخر: «ها! هيا بنا سريعاً.»

واتجه كلاهما بخطى واسعة نحو المدينة القديمة.

7 ـ شاتوبار ينطلق نحو المعركة!

يذكر القارئ دون ريب الموقف الحرج الذي وجد كوازيمودو نفسه فيه. لقد فقد الأصنم الشجاع، كل أمل، لا في إنقاذ نفسه، فهو لم يكن يفكِّر فيها أبداً، بل في إنقاذ الغجرية. لقد كان يجري كالضائع في الردهة،

معتقداً أن اللصوص سيختطفون نوتردام. وفجأة امتلأت الشوارع المجاورة بعدد كبير من الفرسان الذين يحملون الرماح والقسي. وامتد خيط طويل من المشاعل، وقد انصبت هذه الضجة على الساحة كأنها العاصفة.

وبدا اللصوص خائفين مضطربين.

أما كوازيمودو، الذي لم يكن يسمع شيئاً، فقد شاهد السيوف اللامعة، والمشاعل، وحديد الحراب والرماح، والخيول التي عرف على رأسها القائد شاتوبار، كما شاهد اضطراب اللصوص واختلاط الأمر عليهم: الخوف عند بعضهم، والبلبلة عند أحسنهم وأشجعهم. واسترجع بفضل هذه النجدة المفاجئة مزيداً من القوة بحيث استطاع أن يلقي بالمهاجمين الأولين خارج الكنيسة.

والواقع أن الجنود القادمين هم من قوات الملك التي بدأت تشترك في المعركة.

أما اللصوص فقد عملوا بشجاعة، ودافعوا عن أنفسهم يائسين. لقد أُخذوا من الأمام والخلف وعن الجوانب.

فكانت المعركة معركة مخيفة، اشترك فيها فوبوس بشجاعة فائقة، ومن لم يؤخذ من اللصوص بالسيف فقد أخذ بالرمح. أما اللصوص أنفسهم، الذين لم يكونوا مسلحين تسليحاً حسناً، فقد أزبدوا وأرعدوا. كانوا، رجالاً ونساء، وأطفالاً، ينقضون على مؤخرات الخيول وصدورها ويتعلقون بها كالقطط بأسنانهم وأظافر أيديهم. وآخرون يضربون الرماة بمشاعلهم في وجوههم. وفريق ثالث يضرب الفارس في عنقه فإذا ترجل مزقه تمزيقاً.

وقد لوحظ أن من بينهم رجلاً يحمل منجلاً لامعاً كبيراً يحصد به قوائم الخيول. لقد كان مخيفاً حقاً. كان يغني ويقذف بمنجله ثم يضمه إليه. ويترك بعد كل ضربة من ضرباته دائرة من الأطراف المقطعة. يتقدم كذلك ببطء هادئ وبلهاث الحصّاد المنتظم الذي يحصد حقلاً من القمح. لقد كان هذا الرجل هو كلوبان ترويفو الذي لم يلبث أن أصيب فوقع ميتاً.

في هذه الأثناء فتحت النوافذ. وخرج الجيران الذين سمعوا صيحات رجال الملك فاشتركوا في المعركة. وأخيراً، استسلم اللصوص. اجتمع عليهم التعب ونقصان الأسلحة، ودهشة المفاجأة، وطلقات النوافذ، وصدمة رجال الملك الجريئة، كل ذلك قد قضى عليهم. فاقتحموا صفوف المهاجمين واتجهوا هاربين إلى كل جهة، تاركين في ساحة بارفيس عدداً كبيراً من الأموات. وعندما شاهد كوازيمودو، الذي لم يكف عن القتال، هذه الهزيمة، جثا على ركبتيه ورفع يديه نحو السماء، ثم انطلق يجري، وقد أثمله الفرح، بسرعة الطائر نحو الغرفة، التي دافع عنها بشجاعته الفائقة ولم يبقَ في رأسه غير فكرة واحدة هي الركوع أمام تلك التي أنقذها للمرة الثانية. ولكنه لم يلبث حين دخل إلى الغرفة حتى وجدها خالية خاوية.

الكتاب العاشر

1 ـ الحذاء الصغير

كانت الاسميرالدا نائمة في الوقت الذي هاجم فيه اللصوص الكنيسة. ولم تلبث الضجة المتعاظمة حول البناء أبداً، وثغاء العنزة التي استيقظت قبلها، أن أيقظتها هي أيضاً. فنهضت جالسة فوق فراشها، ثم أصغت، ونظرت ولم تلبث حتى خرجت من الغرفة وانطلقت لترى ما يحدث في الساحة بعد أن أفزعتها الضجة ولهب النيران.

كان لمشهد الساحة، والرؤى التي تتحرك فيها، وفوضى الهجوم الليلي، ولهذا الجمهور القبيح المخيف، الذي يقفز أفراده كما تقفز أعداد هائلة من الضفادع، متلفعة بالظلمات، ولصخب المجتمعين الناعب، وهذه المشاعل الحمراء القليلة، جارية متصادمة على هذه الظلال، كنيران الليل التي تكتسح سطح المستنقعات الضبابي، لقد كان لهذا المشهد كله وقع معركة خفية بين أشباح السحرة ووحوش أحجار الكنيسة. وكانت أول فكرة خطرت لها، وهي المتأثرة بأساطير الغجر، أنها قد وقعت على الكائنات الملعونة الخاصة بالليل فجرت خائفة نحو غرفتها مختبئة تحت غطائها.

ومع ذلك فقد اختفى ضباب الخوف شيئاً فشيئاً وبدأت الفتاة تشعر أمام الضجة المتعاظمة، وإشارات أخرى مختلفة، أنها أمام حقيقة واقعة. وأن القضية لم تعد قضية أشباح، بل قضية كائنات بشرية. وهنا تشكل خوفها بشكل جديد دون أن يزيد. وفكّرت في إمكانية حدوث تمرد شعبي

رغبة في انتزاعها من ملجئها. فرزحت تحت وطأة اليأس من حياتها مرة أخرى، وضياع أملها، وحبيبها فوبوس، الذي كانت تراه دائماً في رؤى مستقبلها، ومن العدم العميق في ضعفها، واليأس من إمكانية كل هرب، وكل مساعدة، ثم ضياعها، وعزلتها، هذه كلها وآلاف أخرى من الأفكار الراعبة، قد جعلتها تجثو على ركبتيها، وتضع رأسها في سريرها، وتضم يديها فوقه، مفعمة بالقلق والرعدة. فراحت، وهي الغجرية الوثنية، تضرع باكية إلى الإله المسيحي، أن ينقذها، وتصلي للسيدة العذراء مضيفتها. إذ إن من لا يؤمن بشيء، يجد نفسه دائماً في فترات من حياته على دين الهيكل الذي يقع تحت يديه.

وبقيت راكعة كذلك مدة طويلة جداً، ترتجف في الحقيقة، أكثر مما تصلي، وتتثلج أطرافها كلما أحست باقتراب أنفاس الجماهير الغاضبة منها، وهي غير مدركة ما كانوا يصنعون، أو ما يريدون، ولكنها كانت تستشعر فقط باقتراب نهاية مخيفة.

وفي غمرة هذا القلق الرهيب سمعت وقع خطوات بالقرب منها. فالتفتت فإذا أمامها رجلان، دخل أحدهما، وكان يحمل مصباحاً إلى غرفتها، فأرسلت صيحة هزيلة.

قال الصوت الذي لم يكن غريباً عنها: «لا تخافي، هذا أنا.» فسألت الفتاة: «من أنت.»

ـ «بطرس جرنجوار.»

فطمأنها هذا الاسم. ورفعت عينيها، فعرفت الشاعر. وكان إلى جانبه شخص أسود ملفع من الرأس حتى القدمين قد صدمها بصمته.

وأردف جرنجوار قائلاً: «آه! لقد عرفتني دجالي قبلك.»

والواقع أن دجالي لم تنتظر حتى يعلن جرنجوار عن نفسه، فلم يكد يجتاز عتبة الغرفة حتى أقبلت تمرغ رأسها بحنان على ركبتيه.

قالت الغجرية بصوت خافت: «من معك هناك؟»

فأجابها جرنجوار: «كوني مطمئنة. إنه أحد أصدقائي.»

وهنا تجمع الفيلسوف فوق أرض الغرفة بعد أن وضع المصباح جانباً وراح يلاعب العنزة بحماسة وشوق.

لكن الرجل الأسود لم يسمح له بمتابعة ملاعبته العنزة. فاقترب منه وهز كتفيه بعنف شديد. فنهض جرنجوار يقول: «هذا صحيح، لقد نسيت أننا من أمرنا على عجل ـ ومع ذلك فليس هناك مبرر أيها المعلم لقسوتك هذه. ـ إن حياتك في خطر يا طفلتي الجميلة العزيزة، وكذلك حياة دجالي. إنهم يريدون أن ينتزعوك من حمى الكنيسة. فنحن أصدقاؤك، وقد أتينا لإنقاذك. فاتبعينا.»

فصاحت مضطربة: «هل هذا صحيح؟»

ـ «نعم، صحيح جداً. تعالي سريعاً!»

ـ «إنني راغبة حقاً في النجاة بنفسي. ولكن لِمَ لا يتكلم صديقك؟»

قال جرنجوار: «ذلك لأن أباه وأمه كانا غريبين جداً بحيث جعلا منه إنساناً ذا مزاج ميال إلى الصمت.»

لقد وجب أن تكتفي الفتاة بهذا التفسير. ثم أخذ جرنجوار بيدها وحمل رفيقه المصباح وسار أمامهما. كان الخوف قد أضاع رشاد الفتاة، بحيث إنها انساقت وراء الرجلين دون أية مقاومة. والعنزة تتبع الجميع قافزة، فرحة برؤية جرنجوار، والذي جعله يتعثر في سيره بسبب إيلاجها قرنيها بين ساقيه. فكان الفيلسوف يقول: «هذه هي الحياة، فكلما نجونا من الهلاك، جاء أصدقاؤنا في الغالب فألقوا بنا في التهلكة!»

وهبط الجميع سلم الأبراج، ثم اجتازوا الكنيسة، المفعمة بالظلمات والوحدة، هادرة في الوقت نفسه بأصداء الضجيج، مما كان يُحدث تعاكساً رهيباً مخيفاً، ثم خرجوا إلى باحة الدير من الباب الأحمر. وكان الكهان قد أخلوا الدير وهربوا نحو الأسقفية يصلون مجتمعين، والباحة خالية أيضاً، وقد تجمّع بعض الخدم على أنفسهم في بعض زواياها خوفاً

ورهباً. ثم تابعوا طريقهم نحو الخارج حيث كانت تبلغهم ضجة اللصوص المهاجمين، أكثر اختلاطاً. ومع ذلك فقد كانوا في خطر. لقد كانت الكنيسة والأسقفية من أقرب الأبنية إليهم. وبدا لهم أن في الأسقفية فوضى داخلية شديدة. لقد كانت كتلتها المظلمة مخططة بالأضواء التي تجري من نافذة إلى أخرى.

وسار الرجل ذو المصباح مباشرة حتى بلغ طرف اللسان الأرضي الذي يصل الكنيسة بالماء، وكان هناك وراء كرمة منخفضة عند الشاطئ، قارب صغير. فأشار الرجل إلى جرنجوار ورفيقته أن يهبطا إليه، وتبعتهما العنزة. ونزل الرجل رابعهم. ثم قطع حبل الإرساء وأبعد القارب عن الضفة بواسطة عود خشبي صلب طويل. وجلس في المقدمة وانطلق يجدف بمجدافيه ليصبح بعيداً عن اليابسة. وقد بذل جهداً كبيراً للابتعاد عن الأرض بسبب سرعة نهر السين في هذه المنطقة.

كان أول ما عني به جرنجوار أنه وضع العنزة على ركبتيه. ثم اتخذ مجلساً له في مؤخرة القارب ولحقت به الفتاة تحس بخوف غامض من الرجل المجهول.

ولم يكد يحس الشاعر بابتعاد القارب حتى صفق بيديه وقبَّل دجالي بين قرنيها وقال: «أوه! لقد نجونا نحن الأربعة.» ثم أضاف: «قد نرغم في بعض الأوقات على استقبال السعادة، أو استعمال الحيلة لتحقيقها.»

هذا والقارب يطفو وئيداً متجهاً نحو الضفة المقابلة. والفتاة تراقب المجهول بخوف خفي، وقد كان يبدو لها بعد أن أغلق المصباح الذي يحمله شيئاً يشبه الطيف. وكلما باعد ذراعيه، وهو يجدف، خالهما الرائي جناحي خفاش. علِى أنه لم يكن قد نطق بعد بكلمة واحدة، أو أرسل نفساً واحداً على الأقل.

قال جرنجوار: «قسماً بروحي إننا جد فرحين وكم أتمنى أن يحدثني صوت بشري. فالصوت البشري موسيقى محببة إلى الأذن البشرية. قولي شيئاً يا طفلتي الجميلة؟ قولي كلمة واحدة، أرجوك! وبهذه المناسبة

أخبرك أن لك تكشيرة صغيرة فريدة، هل ما تزالين تكشّرينها؟ هل تعرفين يا صديقتي أن البرلمان قد أصدر تشريعاً بشأن انتزاع الملتجئين من ملاجئهم، وأنك كنت معرضة لخطر كبير في غرفتك في نوتردام! واأسفاه! لقد بنى العصفور عشه في شدق التمساح. أيها المعلم هاك القمر يظهر مرة أخرى، شرط ألا تُرى أنت أبداً! ـ إننا نفعل خيراً بإنقاذ الفتاة، ومع ذلك فإنهم يشنقوننا إن وقعت أيديهم علينا. هيا، لا أحد يجيبني منكما. فما هذا المزاح الرديء الذي تتصفان به كلاكما؟!»

«هل يجب أن أتكلم وحدي. أحذرك أنني رأيت لويس الحادي عشر. إنه ملك عجوز كريه خبيث. وهو بخيل جداً مع الرجال الأكفاء. إنني لا أحب هذا الأمير. وأنت أيها المعلم، هل تحبه؟»

فترك الرجل الأسود رفيقه الشاعر يثرثر، وتابع نضاله ضد التيار المائي العنيف.

فأردف جرنجوار فجأة: «أيها المعلم، بهذه المناسبة، ألم تلاحظ سيادتك ونحن نجتاز ساحة بارفيس، عبر هؤلاء اللصوص الثائرين، هذا الشيطان المسكين الصغير، الذي كان أصمُّك منهمكاً في سحق رأسه على حاجز ردهة الملوك؟ إنني لم أتعرف إليه، لقصر نظري فهل عرفته أنت؟»

والرجل المجهول لا ينبس ببنت شفه. بل توقف فجأة عن التجديف، وقد انهارت ذراعاه تعبتين محطمتين، وهبط رأسه فوق صدره، وسمعته الاسميرالدا يتنهد بصورة متشنجة، فارتعدت من جانبها. لقد كانت قد سمعت هذه التنهدات من قبل. ثم رجع الرجل مستعيداً بعض ما ذهب من قوته إلى التجديف، بعد أن كان الماء يجر القارب في تياره.

والواقع أن الضجة حول نوتردام قد تضاعفت ونمت في تلك البرهة. وقد كانت تسمع صيحات واضحة جلية. وفجأة شاع نور مائة مشعل كشفت عن خوذات رجال مسلحين انتشروا في الكنيسة في كل طبقاتها، في الأبراج والردهات والقاعات المختلفة. وقد بدت هذه المشاعل كأنها

تبحث عن شيء، ولم تلبث هتافات أصحاب المشاعل أن بلغت آذان الهاربين رغم ابتعادهم. كانت تقول: «الغجرية! الساحرة! إلى الموت أيتها الغجرية!» وتركت البائسة رأسها يهبط فوق صدرها وتابع الرجل المجهول تجديفه نحو الضفة بغضب شديد، بينما كان فيلسوفنا يفكِّر، وهو يضم العنزة بين ذراعيه، ويحاول الابتعاد عن الفتاة برفق، وهي التي كانت تلتصق به، التصاقها بالملجأ الوحيد الذي بقي لها.

واهتز القارب أخيراً يعلن عن وصوله إلى الشاطئ الذي كان خالياً من الناس. فلا تسمع فيه غير الهتافات تأتي من ضفة النهر المقابلة مطالبة برأس الفتاة.

وفي هذه الأثناء خرج الجميع إلى اليابسة. وأعلن جرنجوار أنه سيكتفي بحماية العنزة، وأنه سيترك أمر الاسميرالدا إلى الرجل المجهول. ثم لم يكد ينفصل عنهما وتشعر الفتاة بوجودها وحيدة مع الرجل المجهول حتى سرى الرعب في مفاصلها كلها ونظرت من حولها تفتش عمن تلتجئ إليه. وبينما كان الرجل المجهول يجري سريعاً محتفظاً بصمته السابق وقع نظرها على نافذة مضيئة، فتجمدت فجأة، وبذلت مجهوداً فائقاً، ثم صاحت: «النجدة!»

وهنا بدا أحد البورجوازيين وفتح نافذته وهو في قميص نومه والمصباح في يده، ثم نظر إلى الرصيف بهيئة بلهاء، وقال شيئاً لم تسمعه الفتاة، ثم أغلق النافذة مرة أخرى وانطفأ أمامها كل أمل في النجاة.

أما الرجل الأسود فبقي أيضاً صامتاً، يمسكها جيداً! ويتابع سيره. فاستسلمت له وتبعته محطمة منهارة.

كانت بين وقت وآخر تستجمع بعض قوتها وتقول له بصوت متقطع عبر صدى خطواتها فوق بلاط الشارع ولهاثها:

ـ «من أنت؟ من أنت؟» ولكنه لا يجيب أبداً.

وبقيا كذلك حتى بلغا، عند نهاية الرصيف النهري الذي كانا

يجتازانه، ساحة غير صغيرة. وكان فيها قليل من ضوء القمر. فعرفتها الفتاة. ولا سيما بعد أن شاهدت في وسطها صليباً أسود منتصباً. إنها المشنقة في ساحة جريف. وتوقف الرجل، ثم التفت إليها، ورفع قناعه. فقالت متمتمة متلعثمة: «لقد كنت أعرف أنه هو أيضاً!»

لقد كان الكاهن نفسه.

فقال الكاهن: «أصغي إليّ!» وارتعدت حين سمعت هذا الصوت الكريه الذي لم تكن قد سمعته منذ عهد بعيد، ثم تابع قائلاً: «نحن هنا، سأتحدث إليك. وهذه هي ساحة جريف. وهي نقطة حرجة جداً. لقد أسلم القدر أحدنا إلى الآخر. وسأقرر أمر حياتك أنت، وروحي أنا. هذه ساحة، وتلك ليلة، لا يرى شيء وراءهما. أصغي إذن إليّ... سأقول لك أولاً: لا تحدثيني عن فوبوس لا تحدثيني عنه أبداً، هل تفهمين؟ فإذا نطقت بهذا الاسم، فإنني لا أدري ما أفعل، ولكن ما سأفعله شيء رهيب.»

«لقد صدر عن البرلمان تشريع خاص بتحويلك إلى المشنقة، وقد أتيت لإنقاذك من بين أيديهم. وها هم يلاحقونك، انظري.» ومد ذراعه نحو المدينة القديمة. وكان البحث عنها في الواقع مستمراً. والضجة تقترب منهما. والجنود في الطرف الآخر من الرصيف يحملون المشاعل بأيديهم ويصيحون: «الغجرية! أين الغجرية؟ موتاً لها وسحقاً!» ـ «إنك ترين أنهم يلاحقونك. فأنا لا أكذبك ولكنني أحبك. ـ لا تفتحي فمك لتقولي لي إنك تكرهينني. لقد عزمت ألا أسمع شيئاً من هذا.. أتيت لإنقاذك. ـ فدعيني أكمل حديثي. ـ إنني أستطيع أن أنقذك تماماً، وقد أعددت العدة لذلك. وعليك أن تريدي هذا الإنقاذ. ثم جرى بها نحو المشنقة وأشار إليها بإصبعه وقال ببرود: «اختاري واحداً منا نحن الاثنين.»

فانتزعت نفسها من بين يديه وسقطت عند قدمي المشنقة وضمت هذه الركيزة الكثيفة القاتمة إلى صدرها، ثم نظرت إلى الكاهن من فوق

كتفيه، لكأنها عذراء عند قدم الصليب. أما الكاهن فقد وقف جامداً لا حراك به، وإصبعه مرتفعة أبداً نحو المشنقة، محتفظاً بحركته كأنه التمثال.

وأخيراً قالت له الغجرية: «إن المشنقة تبعث في نفسي من الرعب أقل مما تبعثه أنت فيها.»

وهنا هبطت ذراعه، ونظر إلى الأرض في انهيار عميق ودمدم قائلاً: «لئن استطاعت الحجارة أن تتكلم لأعلنت قائلة: هذا رجل بائس حقاً.»

ثم أردف يقول وقد تركته الفتاة الراكعة يتحدث: «إنني أحبك. إن حبي شيء حقيقي. أفلا ترين شيئاً من النار التي تحرق قلبي؟ واأسفاه أيتها الفتاة! ليلاً ونهاراً، نعم، ليلاً ونهاراً، ألا يستحق هذا الشقاء شفقتك؟ إنه حب الليل والنهار، قلت لك، إنه عذاب شديد. ـ إن ألمي بالغ يا طفلتي! ـ وهو شيء جدير بالعطف والرحمة. إنك ترين أنني أحدثك برقة بالغة. لكم أتمنى ألا يصيبك فزع مني. وأخيراً، رجل يحب امرأة، فليس الخطأ خطأه. أوه! يا إلهي! كيف ذلك! هل لن تغفر لي أبداً؟ هل ستكرهني أبداً؟ وهل هذه هي النهاية؟ هذا ما يجعلني رديئاً خبيثاً، بل شيئاً كريهاً مخيفاً لنفسي أنا أيضاً. إنك لا تشيحين ببصرك عني فقط بل تفكرين في شيء آخر على ما أظن؟ بينما أحدثك واقفاً مرتعداً عند حدود أبديتنا نحن الاثنين! لا تحدثيني أبداً عن الضابط! ـ ماذا! إنني أركع عند قدميك، فلا أقبلهما، لأنك تأبين أن ألمسهما، بل أُقبّل الأرض التي تطأينها بهاتين القدمين. ماذا! سأبكي كالطفل، وسأنتزع من صدري، لا الألفاظ، بل القلب والأحشاء، لأقول لك حبي، كل هذا لا يفيدني شيئاً، كل هذا! ومع ذلك فليس في قلبك غير الحنان والرحمة، إنك تشعين بأروع الرقة، إنك ساحرة طيبة، رحيمة. واأسفاه! ولكنك لا تملكين خبثاً إلا لي أنا وحدي! أوه! يا للقدر الغاشم!»

وغطى وجهه بيديه. وسمعته الفتاة ينفجر باكياً. وكانت هي المرة الأولى التي يبكي فيها. كما كان في وقفته هذه أشد ضراعة وبؤساً من ركوعه، من جثوه على ركبتيه.

ثم تابع يقول بعد أن ذهب عنه بكاؤه: «هيا بنا، لقد ذهب عني بكائي، فلا أجد بعد ذلك ما أقوله. مع العلم أنني كنت فكَّرت طويلاً فيما يجب أن أقوله لك. أما الآن فإنني أرتجف وأرتعد، وأنهار في الفترة الحاسمة، وأحس بشيء أرفع منا يضمنا نحن الاثنين، وأتمتم متلعثماً. أوه! سأسقط على الأرض إن لم تشفقي عليّ وعلى نفسك. لا تلقي بنا إلى التهلكة أنا وأنت. فلو كنتِ تعرفين كم أحبك! وأي قلب هو قلبي! أوه! أي هرب من الفضيلة وأي هرب يائس من نفسي! أوه! لأقل لك كل شيء! شيئاً أشد رهبة وفظاعة! أوه! أشد فظاعة وهَوْلاً مما تتصورين!...»

وأصبح وجهه، وهو يرسل هذه الكلمات الأخيرة، ضائعاً تائهاً. ثم سكت قليلاً وأردف، وكأنه يُكلِّم نفسه، بصوت قوي: «قابيل، ماذا صنعت بأخيك؟»

وساد صمت آخر. ثم تابع: «ماذا صنعت به يا إلهي؟ لقد ضممته إليّ، وربيته، وغذوته، وأحببته، وعبدته، ثم قتلته! نعم، يا إلهي، إنهم قد سحقوا له رأسه أمامي على حجارة بيتك، وذلك بسببي أنا، بسبب هذه المرأة، بسببها هي...» وأخذ صوته ينطفئ شيئاً فشيئاً، ويكرر بصورة آلية عبارته الأخيرة: «بسببها هي!... بسببها هي!...» وعجز لسانه بعد ذلك عن أن ينطق بحرف واضح، وظلّت شفتاه ترتجفان. وفجأة سقط أرضاً على نفسه وكأنه شيء ينهار، وبقي جامداً لا حراك به، ورأسه بين ركبتيه. ثم رجعت نفسه إليه بعد أن سحبت الفتاة قدمها من تحته. ومرَّر يده بطيئاً على وجنتيه ونظر في ذعر إلى أصابعه المبتلة قائلاً: «ماذا! لقد بكيت!»

والتفت فجأة نحو الغجرية في قلق لا سبيل إلى التعبير عنه:

«وأسفاه! لقد نظرت إليّ أبكي ببرود! أيتها الطفلة، هل تعرفين أن هذه الدموع هي ألسنة من اللهب؟ هل صحيح أن الرجل الذي نكرهه عاجز عن أن يبعث أي انفعال طيب في أنفسنا؟ إنك جديرة بالضحك حين

تريننى أموت. أما أنا فلست أحب أن أراك ميتة! كلمة! كلمة واحدة، غفران واحد! لا تقولي لي إنك تحبينني! قولي لي فقط إنك تريدين هذا الحب، إنه يكفيني: وسأنقذك. أما إذا كان العكس... أوه! الساعة تمر. أتضرع إليك بكل شيء مقدس! لا تنظري حتى أصبح كهذا الحجر الذي يطالب بك أيضاً! فكري أنني أمسك بزمام مصيري ومصيرك، أنني فاقد لعقلي، إنه شيء رهيب، أن أترك كل شيء يسقط، وأن هوة لا قرار لها موجودة تحتنا، حيث يتبع سقوطي سقوطك عبر الأبدية! كلمة طيبة! قولي كلمة! لا شيء غير كلمة واحدة!»

وفتحت فمها لتجيبه، فجثا أمامها على ركبتيه ليلتقط ما تقول، معتقداً أن قلبها قد رق له، فإذا بها تعلن قائلة: «إنك قاتل مجرم.»

وأمسك بها الكاهن بين ذراعيه في غضب مروع شديد، وانطلق يقهقه قهقهة راعبة بشعة. «حسن جداً، نعم. إنني قاتل مجرم! أنتِ لا تريدنني عبداً لك، سأكون إذن سيدك. سأجرك إلى كمين أعددته لك. وستتبعينني، يجب أن تتبعيني، أو أضعك بين أيدي جلاديك». وكانت عينه تقذف بشرر غضبه.

ـ «قلت لك إنني لحبيبي فوبوس، وإن فوبوس هو من أحب فقط، وإنه هو الجميل حقاً! أما أنت أيها الكاهن، فعجوز. إنك قبيح! اغرب عن وجهي!»

وأرسل صيحة عنيفة، كصيحة البائس حين تمسه حديدة حمراء قائلاً: «موتي إذن!» وأرادت الفتاة أن تهرب حين شاهدت الهول في عينيه. فأمسك بها، وهزها بعنف، ثم ألقى بها أرضاً، وجرى سريعاً نحو زاوية برج رولان يجرها وراءه على الأرض من كفيها الجميلتين.

وصرخ بصوت مرتفع: «جودول! جودول! هذه هي الغجرية! انتقمي لنفسك!»

وشعرت الفتاة أن شيئاً قد أمسك بها من مرفقها. فنظرت إليه. فإذا به ذراع معروقة تخرج من كوة في الجدار فتطبق عليها ككماشة من حديد.

قال الكاهن: «امسكي بها جيداً. إنها الغجرية الهاربة. لا تتركيها أبداً. سأذهب باحثاً عن الجنود. وسترينها تشنق أمامك.»

فكان الجواب ضحكة رهيبة منطلقة من داخل الجدار. ورأت الغجرية الكاهن يبتعد جارياً نحو جسر نوتردام.

وعرفت الفتاة، الحبيسة الخبيثة، فحاولت أن تتخلص منها وقد أخذ الرعب منها مأخذه. فتلوَّت، وانتفضت انتفاضة اليأس، ولكن الحبيسة كانت تمسك بها بقوة عجيبة. حتى لكأن هذه اليد المعروقة قد أصبحت شيئاً أقوى من السلسلة، أقوى من حلقة الحديد.

ثم انهارت قوتها، واستولى عليها الخوف من الموت. ففكَّرت في جمال حياتها، في الشباب، في منظر السماء، في مشاهد الطبيعة، في فوبوس، في كل ما كان يهرب، وكل مكان يقترب، في الكاهن الذي ذهب يشي بها، في الجلاد الذي سيأتيها، في المشنقة التي كانت قائمة في الساحة. فأحست بالرعب يسري في جسدها كله حتى بلغ مفرق رأسها ومغارس شعرها، وسمعت قهقهة الحبيسة المخيفة التي كانت تقول لها بصوت خافت: «ها! ها! ها! ستشنقين!»

ثم التفتت كالمتيمة نحو الكوة، ورأت وجه الحبيسة الوحشي وقالت لها وقد كادت تفارقها الحياة: «ماذا صنعت لك؟!»

فلم تجبها الحبيسة بل انطلقت تنشد: «ابنة الغجر! ابنة الغجر! ابنة الغجر!»

أما الاسميرالدا البائسة فقد تركت رأسها يهبط تحت شعرها، مدركة أنها لم تكن تتحدث مع كائن بشري.

وفجأة صاحت الحبيسة، كم لو أن سؤال الغجرية قد احتاج إلى هذا الوقت كله لكي يبلغ عقلها: «تقولين، ماذا صنعت لي؟ ـ آه! ماذا صنعت لي! أيتها الغجرية؟ أصغي إليّ إذن: كان لي طفل! هل تسمعين؟ نعم طفل واحد! ـ لقد كانت صبية جميلة صغيرة! ـ صغيرتي آنياس، ورددت

الجملة الأخيرة وهي تقبّل شيئاً في الظلمات ـ أرأيت يا ابنة الغجر لقد أُخذت طفلتي مني، لقد سرقوها، لقد أكلوها. هاك ما صنعت لي.»

فأجابت الفتاة كالحمل: «واأسفاه! قد لا أكون ولدت يومذاك!»

فرددت الحبيسة: «نعم، لقد كنت ولدت يومذاك. كنت موجودة. إنها كانت تكون اليوم في عمرك تماماً! ـ هاك خمسة عشر عاماً وأنا هنا، خمسة عشر عاماً وأنا أتألم، خمسة عشر عاماً وأنا أصلي، خمسة عشر عاماً وأنا أضرب رأسي بالجدران الأربعة. ـ قلت لك، إنهن الغجريات اللاتي سرقنها مني، هل تسمعين ما أقول؟ وهن اللاتي أكلنها بأسنانهن. ـ أليس لك قلب؟ هل تتصورين ما معنى أن يلعب طفل، أو يرضع ثدي أمه، أن ينام. إنه شيء بريء جداً ـ هذا ما أخذته مني، هذا ما قلته لي! واللّه في عليائه يعرف ذلك! ـ أما اليوم فقد جاء دوري، وسآكل الغجرية. ـ أوه! كم أتمنى أن أعضك لولا الحواجز الحديدية تحول دون ذلك. رأسي كبير جداً! ـ يا للمسكينة الصغيرة! اختطفت وهي نائمة! ولو أيقظتها لصاحت وصرخت كثيراً، أخذتها ولم أكن هناك! ـ آه، أيتها الأمهات الغجريات، لقد أكلتن طفلتي! تعالين فانظرن طفلتكن.»

وراحت تقهقه تارة، وتصر بأسنانها تارة أخرى، وبدأ الفجر يرسل خطوطه الأولى. وانبعث شعاع رمادي يضيء هذا المشهد في اختلاف وغموض، هذا وقد ظنت الفتاة أنها كانت تسمع صدى سنابك خيل الفرسان يقترب من الجهة الثانية.

فصاحت وهي تضم يديها، وقد سقطت على ركبتيها، منثورة الشعر، مجنونة من الذعر: «أيتها السيدة أشفقي عليّ. إنهم يقتربون. إنني لم أصنع لك شيئاً. هل تريدين أن تريني أموت أمام عينيك هذه الميتة المخيفة؟ إن فيك أقباساً من الشفقة، أنا واثقة من ذلك. هذا شيء مخيف. اتركيني أنجو بنفسي. اتركيني! رحماك! لا أريد أن أموت هكذا!»

قالت الحبيسة: «أرجعي طفلتي إليّ!»

ـ «رحماك! رحماك!»

ـ «أرجعي طفلتي!»

ـ «دعيني، بحق السماء!»

ـ «أرجعي طفلتي!»

وسقطت الفتاة مرة أخرى، لاهثة، محطمة، منقطعة، ثم تمتمت تقول: «واأسفاه! إنك تبحثين عن طفلتك. وأنا أبحث عن أبويَّ!»

ـ «أرجعي إليّ ابنتي آنياس الصغيرة. فإذا كنت لا تعرفين أين هي من هذا العالم فموتي إذن. وسأقول لأمك الغجرية حين تأتي مطالبة بك، سأقول لها: «انظري أيتها الأم إلى هذه المشنقة! أو أرجعي طفلتي إليّ. ـ هل تعرفين أين هي يا فتاتي الصغيرة؟ انظري. ـ هاك هو حذاؤها، إنه كل ما بقي لي منها. هل تعرفين أين فردته الأخرى! قولي لي أين هو وسأنطلق باحثة عنه جاثية على ركبتي حتى نهاية العالم.»

ومدت إلى الغجرية الحذاء المطرز الصغير الذي استطاعت الفتاة أن تتبيَّن شكله وألوانه على ضوء الفجر الباهت.

قالت الغجرية وهي ترتعد: «أريني هذا الحذاء. يا إلهي! يا إلهي!»

وفي الوقت نفسه، فتحت التميمة التي كانت تعلقها في عنقها بيدها الأخرى فدمدمت جودول تقول: «ابحثي في تميمة الشيطان!»

وانقطع صوتها فجأة، وسرت الرجفة في جسدها كله، وصاحت بصوت صادر من أعماق أحشائها تقول: «ابنتي!»

كانت الغجرية قد أخرجت من تميمتها حذاء آخر صغيراً يشبه حذاء الحبيسة.

وقابلت الحبيسة بسرعة البرق بين الحذاءين، ثم التصقت بحواجز الكوة وجهها المشع، مفعماً بفرح سماوي، مرددة: «ابنتي! ابنتي!»

فأجابت الغجرية: «أماه! أماه!»

كان الجدار والحديد يحجزان بينهما.

فصاحت الحبيسة: «أوه! الجدار! أوه أن أراك ولا أضمك! يدك! يدك!»

ومدت الغجرية ذراعها عبر الكوة. فانقضّت الحبيسة تطبع عليها شفتيها، وبقيت غارقة في هذه القبلة، لا يشير إلى حياتها، غير انتفاضة باكية في وسطها، بين فترة وفترة. كانت تبكي بغزارة، صامتة في الظلام، كمطر في الليل. وكانت الأم المسكينة تصب فوق هذه اليد المعبودة، فيوضاً من بئر دموعها العميقة السوداء، حيث رشحت آلامها فيها قطرة قطرة عبر خمسة عشر عاماً.

وانتصبت فجأة، وألقت شعرها الأشيب إلى الوراء، وراحت تهز الحاجز بيديها هزاً عنيفاً ثائرة كاللبوة. فامتنعت الحواجز وصمدت. ثم أتت ببلاطة كانت تستعملها مخدة لها وضربت بها الحواجز بأقصى ما تملك من العنف، فانهار أحدها. ثم انخلعت كلها أمام الضربة الثانية - فقد تصبح يدا الأم في لحظة كهذه مفعمتين بقوة هائلة فائقة غير بشرية.

واتسعت فتحة الكوة ومدت الأم يديها تحمل ابنتها وتدخلها وهي تقول: «تعالي! أرفعك من الهاوية!»

ولم تكد تصبح فتاتها داخل الحجيرة، حتى وضعتها رقيقة رفيقة بها. ثم راحت تضمها إلى صدرها، أو تحملها بين ذراعيها كما لو أنها ما تزال آنياس، الطفلة الصغيرة اللعوب. وكانت تروح وتجيء في الحجيرة الضيقة، ثملة، فرحة، صائحة، منشدة، مقبِّلة لطفلتها، تتحدث إليها وهي تنفجر ضاحكة، أو تسكب دموعاً غزيرة، كل ذلك تفعله مرة واحدة، في حماسة فائقة عجيبة.

كانت تقول: «ابنتي! ابنتي! إنها عندي! هاك هي! لقد أرجعها اللَّه إليّ. تعالوا جميعاً! هل هناك من يرى ابنتي التي استرجعتها؟ كم هي جميلة أيها السيد المسيح! لقد جعلتني أنتظر خمسة عشر عاماً، يا إلهي، ولكن لتعيدها إليّ جميلة شابة فتية. - فالغجريات لم يأكلنها إذن! من قال

ذلك؟ يا ابنتي الصغيرة! يا ابنتي الصغيرة! قبّليني. هؤلاء الغجريات الطيبات! كم أحب الغجريات!.»

«إنك أنت إذن. ولهذا كان قلبي ينبض عنيفاً كلّما مررت بي. وأنا التي كنت أرى في ذلك حقداً وكرهاً! اغفري لي، يا آنياس، اغفري لي. لقد كنت خبيثة معك، أليس كذلك؟ إنني أحبك. ـ هل ما زلت تحتفظين بشارة صغيرة في عنقك؟ أريني إياها. آه! ما تزال موجودة، أوه كم أنت جميلة!»

«هل رأيت يا صغيرتي؟ سنذهب من هنا. وسنكون سعيدتين. لقد ورثت شيئاً في ريمس، في بلدنا. هل تعرفين ريمس؟ آه! لا، إنك لا تعرفينها. لقد كنت صغيرة جداً.»

وأخيراً قالت الفتاة، وقد استرجعت شيئاً من قوتها بعد الذي سرى في جسدها من الانفعال الشديد: «كانت هناك غجرية طيبة، ماتت في السنة الماضية تقول لي دائماً: «احتفظي يا صغيرتي بهذه التميمة. إنها كنز لك. وستجدين بها أمك، إنك تحملين أمك في عنقك. لقد تنبأت المسكينة بحادث اليوم.»

وانطلقت الحبيسة تتحدث في غير انقطاع وهي تردد قولها: «سنكون سعيدتين!»

في هذه الفترة تجاوبت جدران الحجيرة بأصداء سنابك خيل في الساحة وصليل سيوف ورماح، وقد بدت الخيول آتية من نوتردام فسقطت الغجرية في ذراعي الحبيسة تقول لها:

ـ «أنقذيني! أنقذيني يا أمّاه! ها هم يأتون!»

فاصطبغ وجه الحبيسة بلون أصفر.

ـ «يا للسماء! ماذا تقولين! لقد كنت نسيت! إنهم يلاحقونك! فماذا صنعت؟»

فأجابت الطفلة البائسة: «لست أدري، كل ما في الأمر أنني محكومة بالموت.»

قالت الفتاة ضائعة: «نعم، بالموت. إنهم يريدون قتلي. ها هم آتون لشنقي. هذه المشنقة لي! أنقذيني! أنقذيني! إنهم يصلون! أنقذيني!»

وتسمرت الحبيسة كأنها تحلم ثم رددت: «لا! هذا حلم تحدثينني عنه. لقد بقيت خمسة عشر عاماً وأنا أبحث عنها. وها هي الآن جميلة، فتية، تحبني، وتكلمني، إنهم يأتون اليوم ليأكلوها، على مرأى مني، أنا أمها! لا، أبداً، هذا شيء غير ممكن. واللّه لا يسمح به أبداً!» وهنا توقف الفرسان. وسمعت الحبيسة صوتاً يقول من بعيد: «لقد قال الكاهن: إننا سنجدها هنا قرب حجر الجرذان.»

وانتصبت الحبيسة تقول في صيحة يائسة: «إنك على حق يا ابنتي. إنهم يطلبون موتك! هذا شيء مخيف! يا للعنة! ووضعت رأسها في الكوة، ثم جذبته سريعاً وقالت بصوت خافت: «ابقي هنا! لا تتنفسي، فالجنود في كل مكان. ولن تستطيعي الخروج أبداً. فالسماء شديدة الضياء.

ولم تلبث الفتاة التي وضعتها أمها في زاوية مظلمة لا تُرى من الخارج، أن سمعت من يقول: «من هنا أيها القائد فوبوس دي شاتوبار!» فتحركت، فأشارت أمها إليها أن تبقى حيث هي لا تتحرك. واقتربت الأم من الكوة التي أحاطت بها سيوف ورماح. فرأت عدداً كبيراً من الجنود قد وقفوا صفوفاً متراصة في الساحة. وترجل قائدهم ثم اتجه نحوها.

قال الرجل: «أيتها العجوز، إننا نبحث عن ساحرة محكومة بالموت، قد قِيل لنا إنها عندك.»

فاتخذت الأم المسكينة هيئة من لا تبالي، ثم قالت: «لست أفهم مما تقول شيئاً.»

قال الآخر: «يا اللّه! ربما كان يهذي هذا الكاهن؟ أين هو؟»

قال الجندي: «لقد اختفى يا سيدي.»

فأردف القائد يقول لها: «أيتها العجوز المجنونة، قولي لنا ولا تكذبي. لقد تُركت فتاة في عهدتك فأين هي؟»

ولم تنكر الحبيسة، خوفاً من إثارة الشبهات بل قالت: «إذا كنت تقصد الفتاة الكبيرة التي سُلِّمت إليّ، فإنها قد عضتني وتركتها. هذا ما حصل.»

ـ «لا تكذبي أيتها العجوز، أتعرفين من أنا؟ إنني تريستان لارميت.»

ـ «ليس عندي ما أقوله لك غير هذا ولو كنت الشيطان لارميت.»

ـ «وإذن فقد نجت الساحرة بنفسها! فأي اتجاه أخذت؟»

فأجابت جودول: «أظن أنها جرت نحو شارع موتون.»

وكاد تريستان يتركها لولا أن أحد الرماة قد قال: «اسألها يا سيدي لماذا تحطمت كوتها الحديدية.»

فأعاد هذا السؤال قلقاً جارفاً إلى نفس الحبيسة. ولكنها لم تفقد هدوءها فقالت: «لقد كانت هذه الحواجز دائماً كذلك.»

فردد الجندي: «ولكنها البارحة مساء كانت حسنة جيدة.»

قال كريستان في نفسه بعد أن نظر إلى الحبيسة: «إنني أرى هذه العجوز مضطربة.»

وأيقنت الأم أن كل شيء متعلق بها فأردفت: «هذا جندي ثمل، لقد مرت سنة على الحادث يوم صدمت جحري عربة مثقلة، وشتمت صاحبها.»

وقال جندي آخر: «هذا صحيح.»

وبعد محاورة طويلة مستمرة، اقتنع تريستان أن الغجرية قد فلتت هاربة. واتجه نحو حصانه. ثم التفت قليلاً إلى الوراء ولبث صامتاً. وبعد قليل هز رأسه وعلا حصانه فقالت الأم وقد عصر قلبها ألم شديد مفزع ونظرت إلى فتاتها المتجمعة في الزاوية: «لقد نجوت.»

أما الفتاة التي بقت طوال هذا الوقت جامدة لا تكاد تتنفس فقد سمعت صوتاً يقول لتريستان: «سيدي، ليس من مهمتي أن أشنق الساحرات. فسأتركك تتابع عملك. وسألتحق بسريتي إنها بدون قائدها.»

واستخف هذا الصوت قلب الفتاة. إنه صوت فوبوس دي شاتوبار فقفزت نحو الكوة وهي تصيح: «فوبوس! إلي يا فوبوس!»

وكان فوبوس قد ابتعد. ولكن تريستان ما زال موجوداً.

وانقضت الأم على ابنتها تزمجر، وجذبتها إلى الوراء في عنف بالغ وقد غرزت أظافرها في عنقها. ولكن سبق السيف العذل. لقد رأى تريستان كل شيء.

وهنا أربد وجهه وابتسم ابتسامة الذئب وقال: «فأرتان في فخ واحد.»

قال الجندي: «لقد كنت أشك في ذلك.»

فربت تريستان على كتفه، وأضاف: «إنك قط ماهر طيب.»

ثم قال: «أين هنريت كوزان؟»

فخرج رجل من صفوف الجند، وبيده حبال غليظة. إنه مرافق تريستان لارميت الذي كان يرافق لويس الحادي عشر.

قال تريستان: «أعتقد يا صديقي أن هذه الفتاة هي الساحرة التي نبحث عنها. فهل سُلّمك معك لتشنقها؟»

فأجاب الرجل: «نعم، هناك سلم موجودة بالقرب من الساحة». ثم تابع مشيراً إلى الصليب الأسود: «وهل ستشنقها بهذه المشنقة؟»

ـ «نعم.»

قال الرجل وهو يبتسم ابتسامة أشد حيوانية من ابتسامة تريستان:

ـ «ليست الطريق طويلة أمامنا.»

فأجاب تريستان: «أسرع! وستضحك بعد ذلك.»

وهنا لم تعد الحبيسة تقول شيئاً. بل وقفت أمام الكوة تنقل بصرها بين الجنود. وحينما اقترب كوزان الجلاد منها بدت له مخيفة رهيبة، فتراجع إلى الوراء وقال: «سيدي من سنشنق منهما؟»

ـ «الشابة.»

ـ «هذا خير وأحسن. فالعجوز تبدو صعبة مزعجة.»

واقترب كوزان من الكوة. فجعلته نظرات العجوز يخفض بصره ثم قال: «سيدتي...»

ـ «ماذا تريد؟»

ـ «لا أريدك أنت بل الأخرى.»

ـ «أية أخرى؟»

ـ «الشابة.»

فانطلقت تهز رأسها صائحة: «ليس هنا أحد، ليس هنا أحد! ليس هنا أحد أبداً!»

فأردف الجلاد: «بل هي هنا. فدعيني آخذها. إنني لا أريد أن أسيء إليك أبداً.»

قالت ساخرة: «آه! إنك لا تريد أن تسيء إليّ، إليّ أنا!»

ـ «دعيها لي أيتها السيدة، هذا ما يريده رئيس الشرطة.»

فرددت بصوت مجنون: «ليس هنا أحد.»

ـ «قلت لك: بلى، لقد رأينا جميعاً أنكما اثنتان.»

قالت ساخرة أيضاً: «انظر. أولج رأسك في الكوة.»

فنظر الجلاد إلى أظافر العجوز ولم يجرؤ.

قال تريستان بعد أن صف جنوده على شكل دائري: «أسرع!»

فرجع الجلاد إليه يقول: «سيدي من أين أدخل؟»

ـ «من الباب.»

ـ «لا يوجد باب.»

ـ «من النافذة.»

ـ «إنها ضيقة جداً.»

قال تريستان غاضباً: «وسِّعها إذن! أليست عندك معاول؟»

هذا والأم تنظر فاقدة أملها، لا تدري ما تصنع، ولكنها لا تريد أن تؤخذ ابنتها منها.

واتجه كوزان فحمل أدوات الحفر ولحق به خمسة أو ستة من رجال الشرطة وبأيديهم الروافع وأعواد الحديد. ثم اتجهوا نحو الكوة جميعاً يرافقهم تريستان.

قال تريستان: «أيتها العجوز، سلمي هذه الفتاة طوعاً.»

فنظرت إليه وكأنها لم تفهم ما يقول.

فأردف: «وما الذي يمنعك من تسليم هذه الساحرة لتشنق عملاً بإرادة الملك.»

فانطلقت تضحك ضحكتها الوحشية وتقول: «ما الذي يمنعني؟ إنها ابنتي». وسرت الرجفة في أوصال الجميع حتى كوزان، الجلاد نفسه.

فرددت: «قلت لك إنها ابنتي!»

قال تريستان: «اثقبوا الجدار.»

أما الأم فأخذت تروح وتجيء كما يفعل الوحش محبوساً في قفصه، وهي تصرخ صرخات مخيفة. والجنود يرتعدون وقد امتد الصقيع إلى قلوبهم.

وفجأة رفعت بلاطتها ورمت بها الجنود الذين كانوا يُعملون معاولهم في الجدار. فلم تصب أحداً منهم لارتجاف يديها. ثم اتجهت نحو فتاتها، تضمها إلى صدرها، وتصغي إلى المسكينة وهي تقول: ««فوبوس! فوبوس!». هذا وتريستان يحث جنوده على العمل. كانت تتمتم تارة وتصرخ تارة أخرى، تقول لهم: «أيها اللصوص! هل حقاً ستأخذون ابنتي مني، قلت لكم إنها ابنتي. أيها القتلة السفاكون البائسون! النجدة! النجدة! إلى النار! ولكن، هل ستأخذونها مني كذلك؟ أين هو هذا الذي يسمّونه إلهاً؟»

وهنا توجهت نحو تريستان بفم مزبد، وعين ضائعة، تحبو على

قوائمها الأربع وهي تقول: «اقترب قليلاً وخذ مني ابنتي! ألا تفهم ما تقوله المرأة من أن هذه الفتاة هي ابنتها؟ ألا تدري معنى أن يكون لنا طفل؟ ها! أيها الذئب ألم تبت ليلة مع ذئبتك؟ ألم ترزق بذئب صغير؟ وإذا كان لك صغار، أفلا تحس بشيء يتحرك في أحشائك حينما يعوون؟»

وأخرج من الجدار حجر كبير فانطلقت المرأة تسد الفجوة بجسدها. ولوت ذراعيها، وضربت الأرض برأسها وصاحت وقد أخذ منها التعب مأخذه:

ـ «النجدة! إلى النار! إلى النار.»

قال تريستان ببروده المعهود: «أما الآن فخذوا الفتاة.»

ونظرت الأم إلى الجنود نظرة جعلتهم يؤثرون التراجع على التقدم.

فأردف تريستان: «هيا إلى الأم. وأنت يا كوزان!» فلم يتقدم أحد منهم.

فصاح تريستان: «إن رجالي المحاربين، يخافون امرأة من النساء!»

قال كوزان: «سيدي، هل تسمي هذه امرأة؟»

قال آخر: «إن لها لبدة لبوءة.»

وتردد الجنود قليلاً ثم تقدموا نحو جحر الجرذان.

فانتصبت الحبيسة على قدميها ثم تركت ذراعيها تهبطان فوق حقويها وسالت من عينيها دموع كبيرة غزيرة. وانطلقت تتكلم بصوت بالغ الضراعة، شديد الرقة، عميق التأثير، بحيث إن عدداً من الجنود الذين كانوا جديرين بأكل اللحم البشري، قد مسحوا الدموع في مآقيهم.

«سادتي! سادتي الجنود، كلمة واحدة! إنه شيء يجب أن أقوله لكم ألا ترون؟ إنها ابنتي. أصغوا لي. إنها قصة طويلة. إنني أعرفكم أيها الرقباء. لقد كنتم فائقي الطيبة معي يوم كان الأطفال يرجمونني بالحجارة. ألا ترون؟ ستتركون ابنتي، حينما تعرفون حقيقة ما حدث! إنهم الغجريون الذين سرقوها مني واحتفظت بحذائها خمسة عشرة عاماً. انظروا، هكذا

كانت قدمها في ريمس! ستشفقون عليّ، أليس كذلك؟ لقد سرقها الغجريون وأخفوها خمسة عشر عاماً. فظننتها ميتة. وقضيت هنا خمسة عشر عاماً، في هذا الكهف، محرومة من النار أثناء الشتاء. هذا شيء شديد القساوة. الحذاء الصغير العزيز! لطالما صحت وناديت حتى استجاب اللّه دعائي. فأعاد ابنتي إليَّ في هذه الليلة، إنها معجزة من اللّه. وهي لم تمت فأنا واثقة أنكم لن تأخذوها مني. ولو كنت أنا المحكومة بالموت لما قلت شيئاً، أما هي، هي الصغيرة، طفلة في السادسة عشرة من عمرها! دعوها تستمتع بضياء الشمس! ـ ماذا صنعت لكم؟ لا شيء، وأنا أيضاً. لقد عرفتم أنني لا أملك إلاّها، وأنني امرأة عجوز، وأنها بركة أرسلتها السيدة العذراء إليّ. ثم إنكم جميعاً طيبون. لم تكونوا تعرفون أنها ابنتي. . أما الآن فقد عرفتم. أوه! إنني أحبها أيها الرئيس الكبير، وإنني أؤثر أن يصيبني ثقب في أحشائي على أن تصاب بخدش في إصبعها، إن لك هيئة السيد الطيب النبيل! وما أقوله لك يفسِّر وضعي وحالتي، أليس كذلك؟ أوه! لو كانت لك أم يا سيدي! أنت القائد! دع لي ابنتي! إنني أركع عند قدميك كما يركعون أمام السيد المسيح! وإني لا أسأل أحداً شيئاً، فلي حقل صغير في ريمس ورثته عن عمي ماهيا بودوان. لست متسولة. لا أريد شيئاً، بل أريد ابنتي! أوه! أود الاحتفاظ بطفلتي! إن الإله الذي أعادها إليّ لم يعدها لغير غاية! أما الملك! تقول الملك! إنه لا يسره أن تقتل فتاتي الصغيرة! والملك رجل طيب! هذه ابنتي، لي أنا! إنها ليست للملك! وليست لكم! أريد أن أذهب! نريد كلتانا أن نذهب بعيداً عنكم! وماذا في الأمر؟ امرأتان تمران، فلتُتْركا! دعونا نمر! نحن من ريمس. أوه! إنكم طيبون أيها الجنود، وإنني أحبكم جميعاً! إنكم لن تأخذوا مني ابنتي الصغيرة! أوليس اختطافها مني شيئاً مستحيلاً؟ طفلتي! طفلتي!»

لن نحاول إعطاء القارئ صورة عن حركاتها، ولهجتها، ودموعها التي كانت تمتصها وهي تتكلم، ويديها اللتين كانت تضمهما ثم تلويهما،

وابتساماتها المحزنة، ونظراتها الغارقة، وتأوهاتها، وتنهداتها، وصيحاتها البائسة المجنونة والمتقطعة.

أما تريستان فإنه قطب حاجبيه بعد أن سكتت، ليخفي دمعة تسيل من عينه التي كانت كأنها عين النمر. ومع ذلك فقد تغلّب على ضعفه وقال بلهجة صارمة حاسمة: «هذا ما يريده الملك.»

ثم انحنى على أذن كوزان وقال له: «اعمل بسرعة وأنجز ما عهدت إليك بإنجازه.»

والظن الغالب أن تريستان كاد يشعر بانهياره أمام ما أصابه من الانفعال.

وتقدم الجلاد والجنود. فلم تفعل الأم شيئاً بل ألقت بجسدها فوق ابنتها. ورأت الغجرية الجنود يقتربون. فبعث فيها الذعر من الموت بعضاً من قوتها فصاحت بلهجة محزنة مستعصية على التعبير: «أماه! ها هم يأتون! ارحميني يا أماه!» ـ «نعم يا حبي، سأحميك!» قالت الأم هذه العبارات بصوت منطفئ وضمتها بذراعيها إلى صدرها، وغطتها بقبلاتها. وبقيتا كذلك على الأرض والأم فوق الابنة، فبدتا طيفاً جديراً بالرحمة.»

وحمل الجلاد كوزان، الفتاة من وسطها. فلم تكد تحس بيديه الغليظتين حتى زفرت قائلة: «أوه!» ثم أغمي عليها. وأراد الجلاد الذي كانت تتساقط دموعه على الفتاة قطرة قطرة، أن يحملها بين ذراعيه. فحاول فك ذراعي الأم اللتين أحاطتا بها، إلا أنهما كانتا شديدتي التعلق بالجسد الفتي حتى كاد يتعذر انتزاعه منهما. وهنا جر كوزان الفتاة إلى خارج الحجيرة تتبعها أمها وهي مغمضة عينيها.

وفي هذه الأثناء كانت الشمس قد ارتفعت وكان في الساحة عدد من الناس ينظرون ما كان يسحب على الأرض نحو المشنقة، فلا يجرؤون على التقدم خوفاً من تريستان الذي يمنع الفضوليين من الاقتراب في العادة.

أما نوافذ المنازل حول الساحة فقد كانت مغلقة جميعها. وكان يُرى فقط في قمة نوتردام رجلان يبدوان وكأنهما ينظران.

وتوقف كوزان أمام السلم الرهيبة، لا يكاد يتنفس، متأثراً بما كان يراه أمامه، ثم وضع الحبل في عنق الشابة الجميلة. وعندما أحست الفتاة بخشونة لمسات القنَّب في عنقها، فتحت عينيها ورأت أمامها ذراع المشنقة الحجرية المعروقة، ممدودة فوق رأسها، فانتفضت وصرخت بصوت مرتفع يمزق نياط القلوب: «لا! لا! لا أريد!» أما الأم التي غمرت رأسها في ثياب فتاتها، فلم تنبس ببنت شفة. بل سَرَت رعدة في جسدها كله، وتضاعفت قبلاتها لطفلتها. وانتهز الجلاد هذه الفرصة ليفك ذراعي الأم فانفصلت ذراعاها عن الابنة بفعل اليأس والخور. وهنا حمل الجلاد الفتاة على كتفه، التي تدلى جسدها منها مطوياً في خطوطه الرائعة الممشوقة، ثم وضع قدمه في درجات السلم ليصعد.

فتحت الأم، التي كانت متجمعة على بلاط الشارع، عينيها وانتصبت واقفة، دون أن ترسل أية صيحة، وانقضت انقضاض الحيوان الكاسر على فريسته، وعضت يد الجلاد. حدث هذا كله كالبرق الخاطف. فصاح الجلاد من الألم. وجرى الجنود ينجدونه، وبذلوا جهداً كبيراً في انتزاع يده من فم الأم. ثم دُفعت العجوز دفعاً شديداً، ولوحظ أن رأسها قد اصطدم ببلاط الساحة ثقيلاً شديداً. فرفعت. ثم تركت نفسها تسقط مرة أخرى.

لقد ماتت.

أما الجلاد الذي لم يترك الفتاة، فقد تابع صعوده على السلم.

2 ـ المخلوقة الجميلة ذات الثوب الأبيض

قلنا إن كوازيمودو قد رجع إلى ملجأ الفتاة في الكنيسة فلم يجدها. وإنها اختطفت أثناء دفاعه عنها. فأمسك شعره بيده وضرب الأرض بقدمه

دهشة وألماً. وانطلق يركض في الكنيسة. ثم دخل الجنود الرماة وعلى رأسهم تريستان فساعدهم المسكين في البحث عن الفتاة، اعتقاداً منه أنهم آتون لإنقاذها. وحينما يئس تريستان من العثور عليها وترك الكنيسة، بقي كوازيمودو يصعد وينزل ويدخل إلى كل الحجيرات واضعاً تحت كل قبة مشعلاً من المشاعل، يائساً مجنوناً. وحينما ثبت أنها لم تعد هناك، وأنها قد اختطفت أخذ يمر بكل مكان كان تجلس فيه أو تجري من فوقه، خافضاً رأسه، لا صوت يخرج منه، ولا دموع تسيل من عينه، بل لا يكاد يخرج أنفاسه. تركه الرماة ليطاردوا الفتاة في شوارع المدينة القديمة. وبقي كوازيمودو وحيداً منهوك القوى، ثم استند إلى أحد الأعمدة خوفاً من أن يسقط إلى الأرض.

وأخيراً استجمع بعض شجاعته، وسار على رؤوس أصابعه، ثم نظر، ودخل، فوجد الفراغ! كانت غرفة الفتاة خالية. ولكن الأصم البائس جعل يدور فيها ببطء، يرفع السرير وينظر تحته كما لو أن من الممكن أن تختبئ الفتاة بين الفراش وبلاط الأرض. ثم هز رأسه وجمد كالأبله. وفجأة سحق مشعله غاضباً بقدمه، وقذف الجدار برأسه دون أن يقول شيئاً أو يرسل تنهيدة، فسقط مغمى عليه.

وحينما رجع إليه وعيه، ألقى بنفسه على السرير، وتقلب فوقه، وقبَّل موضع الفتاة في ثورة عصبية ظاهرة، واحتفظ بوضعه هذا كأنه يحتضر، ثم نهض يتفصد عرقاً، لاهثاً، ضائع الوعي، وانطلق يدق رأسه بالجدران وفي عزمه أن يحطمه. ثم سقط مرة أخرى منهوك القوى. فسحب نفسه إلى خارج الغرفة وجلس القرفصاء أمام الباب. وبقي هكذا ساعة أو تزيد، مثبتاً بصره في الحجرة الخالية، وفي قلبه حزن الأم التي تجلس بين سرير خال ونعش ممتلئ.

جلس يفكِّر فيمن يمكن أن يكون خاطف الفتاة، وخطرت صورة الكاهن في رأسه، ولكن إخلاصه له وبره به قد قاوما غيرته ويأسه. ثم تذكر أن الكاهن هو الذي يحمل مفتاح باب السلم التي تقود إلى غرفة

الفتاة، وتذكر أيضاً تفصيلات أخرى كثيرة. وبينما كان يركّز فكره كله في الكاهن، رأى في الطبقة العليا في نوتردام شخصاً يمشي متجهاً نحوه. لقد عرف أنه الكاهن نفسه. كان كلود يسير بخطى بطيئة وقور. لا ينظر إلا أمامه، بل يتجه نحو البرج الشمالي، وبدا كأنه يفتش عن شيء عبر السطوح. ومرّ الكاهن بكوازيمودو دون أن يراه.

وهنا لحق كوازيمودو سيده ليعرف ما يستهدفه من صعوده إلى البرج.

على أن المسكين لم يكن يعرف ما يجب أن يفعله أو يقوله، لقد اصطدم كل من الكاهن والغجرية في قلبه.

كان كوازيمودو يقترب من الكاهن في خطوات الذئب. فلم يحس به الكاهن الذي كان يوجه انتباهه إلى شيء آخر. وتسمر الرجلان. وحاول كوازيمودو أن يسأله عما فعل بالغجرية، ولكن الكاهن كان يبدو آنذاك خارج العالم. كان في تلك الدقائق العنيفة من الحياة، التي لا يحس فيها المرء بانهيار الأرض من تحته. فعيناه مثبتتان على مكان ما، وقد بقي جامداً صامتاً، وفي صمته وهدوئه من الوحشية ما جعل كوازيمودو يتردد في الاصطدام به. ولكنه اكتفى بمتابعة خط بصره فوقع على ساحة جريف.

لقد رأى الكاهن ينظر. وشاهد جمعاً من الناس والجنود في الساحة حول السلم المنصوبة عند المشنقة. ورجلاً يجر شيئاً أبيض يتعلق به شيء أسود. ثم وقف هذا الرجل أمام المشنقة.

وهنا حدث شيء لم يستطع كوازيمودو أن يتبينه بسبب تجمع الجنود. وفي هذه الأثناء صعد الرجل على السلم وعلى كتفه فتاة في زيّ أبيض وفي عنقها حبل. إنها هي. لقد عرفها كوازيمودو.

وبلغ الرجل أعلى السلم، حيث صحح وضع عقدة الحبل. بينما جثا الكاهن على ركبتيه ليرى ما يحدث بوضوح أشد وأبلغ.

وفجأة أبعد الرجل سلم المشنقة، وشاهد كوازيمودو المسكين،

جسد الفتاة يتأرجح. كما شاهد تشنجات رهيبة تسري عبر الجسد كله. والكاهن من جانبه، يتأمل هذا المشهد المخيف، الرجل والفتاة والعنكبوت والذبابة، وقد مد عنقه، وكاد يخرج عينيه من محجريهما.

وهنا انفجرت في فم الكاهن قهقهة شيطان، قهقهة لا يملكها رجل إلا حين يفقد رجولته ومعناه الإنساني. أما كوازيمودو فلم يسمع هذه القهقهة ولكنه رآها. وتراجع قارع الأجراس قليلاً وراء الكاهن، ثم انقض عليه فجأة. وقذف به في الهاوية بيديه الغليظتين. فصرخ الكاهن: «يا للعنة!» ثم سقط في الفضاء.

ولم يكد يجتاز من هذا الفضاء قليلاً حتى علق بأحد الميازيب فأمسك به يائساً. وبينما كان يهم بإرسال صرخة أخرى شاهد شبح كوازيمودو المنتقم الرهيب. فسكت.

كان كوازيمودو قادراً على إنقاذه بأن يمد إليه يده. ولكنه لم يكن ينظر إليه. لقد كان ينظر إلى المشنقة. كان ينظر إلى الغجرية. واتكأ البائس المسكين على الحاجز الذي كان الكاهن بالقرب منه، وجرت دموعه سخية على خده في صمت عميق، دموع لم يكن قد سكبها حتى وقتئذ غير مرة واحدة.

وفي هذه الأثناء كان الكاهن يلهث، جبهته الصلعاء تتفصد عرقاً، وأظافره تدمى على الحجر وركبتاه تتخدشان بحجارة الجدار. كان يعلم أنه سيسقط في الهاوية حين تتمزق ثيابه العالقة بحجر الميزاب أو تنهار يداه أو يتفتت طرف الحجر الذي يمسك به، فينتشر الرعب في جسده. وحينما وجد أن انتفاضاته كلها لن تجديه نفعاً آثر الصمت والجمود. ومرّ وقت قصير، بدت فيه عيناه ضائعتين زائغتين، وراحت أصابعه تنزلق شيئاً فشيئاً، وذراعاه تضعفان، وثقل جسده يزيد. ونظر إلى الساحة تحته، التي تجمَّع فيها عدد من الفضوليين يدهشهم أن يتسلى أحد المجانين بالتأرجح فوق مثل هذه الهوة. وسمعهم الكاهن يقولون بصوت واضح: «ولكن هذا البائس سيكسر عنقه!»

أما كوازيمودو فكان يبكي.

وأيقن الكاهن من فشل كل محاولة للاستنجاد. فبذل آخر جهد له، وحاول أن يتسلق المسافة التي تفصله عن السطح. ونجح في الارتفاع قدماً واحدة فقط. ثم انهار أنبوب رصاصي كان يتكئ عليه. وتمزق ثوبه، وانهارت يداه، فأغمض البائس عينيه وترك الميزاب. وسقط.

أما كوازيمودو فنظر إليه يسقط.

ومن الطبيعي ألا يكون السقوط من مثل هذا الارتفاع الهائل، سقوطاً عمودياً، فقد دار جسد الكاهن على نفسه دورات متعددة، حتى اصطدم بالأرض فلم يُبدِ حراكاً.

وهنا رفع كوازيمودو نظره نحو الغجرية التي كان يرى جسدها معلقاً بالمشنقة يتشنج من بعيد تحت الثوب الأبيض تشنجات الاحتضار ثم خفضه نحو الكاهن المتمدد عند قدم البرج، وقد تشوه جسده تشوهاً رهيباً وقال باكياً متنهداً من أعماق صدره: «أوه! لقد أضعت كل ما كنت أحبه!»

3 ـ زواج فوبوس

عندما أتى ضباط الأسقف العدليون في المساء، لرفع جثة الكاهن الممزقة كان كوازيمودو قد اختفى.

وانتشرت الأقاويل حول هذه المغامرة. إن أحداً لم يكن يشك في أن اليوم الذي يجب أن يختطف كوازيمودو الشيطان، الكاهن الساحر، لم يأتي بعد. وافترض الجميع، أن الكاهن قد تحطم جسده وهو يتناول الروح، كالقرود التي تحطم القشرة لتأكل الجوزة.

ولهذا لم يدفن الكاهن في أرض مقدسة.

أما لويس الحادي عشر فقد توفي في شهر آب من العام التالي 1483.

وأما جرنجوار فقد نجا بالعنزة، وسجل نجاحاً كبيراً في فن

التراجيديا. وبدا بعد أن درس التنجيم، والفلسفة، وفن البناء، وكل هذه الفنون الجنونية، أنه قد قد اختار فن التراجيديا، أكثر الفنون جنوناً. وهو ما كان يسميه جرنجوار: «أن تكون للمرء نهاية فاجعة»، كما أن فوبوس دي شاتوبار قد بلغ نهايته المفجعة، فتزوج.

4 ـ زواج كوازيمودو

قلنا إن كوازيمودو قد اختفى من كنيسة نوتردام يوم موت الغجرية والكاهن. والواقع أن أحداً لم يره بعد ذلك اليوم، ولم يعرف حقيقة ما انتهى إليه أمره.

وفي الليلة التي تلت عذاب الاسميرالدا رُفع جسدها عن المشنقة، وحُملت تبعاً للعادة إلى كهف مونفوكون، كان مونفوكون، كما قال سوفال: «أقدم وأروع مشنقة في المملكة.»

كان قائماً في ضاحية من ضواحي باريس، وهو بناء ذو شكل غريب، يشبه مذبحاً سلتياً، كانت تقدم فيه القرابين البشرية.

أما فيما يتعلق باختفاء كوازيمودو العجيب فهاك كل ما استطعنا أن نقع عليه من الحقائق:

حينما تقرر إخراج جثة أوليفيه لودان أو الحلاق من كهف مونفوكون خلال سنتين على التقريب أو ثمانية عشر شهراً بعد الحوادث التي ختمت بها هذه القصّة، وقد شنق أوليفيه قبل ذلك بيومين، ومنحه شارل الثامن الحق في أن يدفن في سان لوران مع خير الأموات، وُجد بين كل هذه الهياكل البشعة، هيكلان، أحدهما يضم الآخر إليه بصورة فريدة. وأحد هذين الهيكلين، هيكل مرأة، وقد بقيت عالقة به قطع من ثوب أبيض، وفي عنق هذا الهيكل تميمة من الحرير مزينة بزجاج أخضر، وُجدت مفتوحة وخالية. والحق أن هذه الأشياء قد كانت من التفاهة بحيث إن الجلاد لم يكن راغباً فيها. أما الآخر الذي كان يضمها، فهو هيكل رجل.

وقد لوحظ في عموده الفقر انحناءً ظاهراً، وأن جمجمته غارقة بين عظمتي الكتفين، وأن إحدى الساقين أقصر من الأخرى. هذا ولم يكن في هذه العظام كسر في العنق، فثابت إذن أنه لم يشنق. فالرجل الذي ينتمي إليه هذا الهيكل قد أتى إلى هنا ومات. وحينما حاول البعض أن يفصله عن الهيكل الآخر الذي كان يضمه إليه، سقط غباراً منثوراً.

فهرست

الكتاب الأول

الكتاب الثاني

الكتاب الثالث

الكتاب الرابع

الكتاب الخامس

الكتاب السادس

الكتاب السابع

الكتاب الثامن

الكتاب التاسع

الكتاب العاشر

فيكتور هيجو

أحدب نوتردام

إن فيكتور هيجو، ليس شاعراً عظيماً فحسب، بل هو كاتب رواية عظيم، لقد كتب «البؤساء» فكانت أعظم الروايات الإنسانية في الأدب العالمي، على ما يقول تولستوي...

وكتب أيضاً «أحدب نوتردام» فجاء بالمعجز الرائع الذي أحلّه مكانة رفيعة وخاصة بين كتّاب الرواية العالمية.

لقد تُرجمت رواية «أحدب نوتردام» إلى جميع لغات العالم، وها هي ترجمتها العربية الكاملة. كما أخرجت على شاشة السينما مرات ومرات، وكذلك مثّلت في مسلسلات تلفزيونية بكل لغات العالم. وكانت تحظى في كل مرّة بإعجاب النقّاد والمشاهدين لما تنضح به من روح إنسانية ونقد لاذع وتصوير لعصر من عصور التاريخ.

في هذه الرواية تصوير جميل ورائع لبشاعة الوجه والجسد، الذي يكتنف أرق المشاعر النبيلة والوفاء. إنها من الأعمال التي تقرأها أجيال البشرية جيلاً بعد جيل وتحتفظ على مرور السنين بروعتها ومكانتها في الأدب العالمي.

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 22 212+ فاكس: 305726 22 212+
بيروت: ص.ب: 113/5158
هاتف: 750507 1 961+ فاكس: 343701 1 961+
markaz@wanadoo.net.ma cca_casa_bey@yahoo.com

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس - مقابل ثكنة الحلو - بناية فرنسبنك
هاتف: 306666 1 961+ فاكس: 701657 1 961+
ص.ب: 1085 - بيروت: 2045 8402 - لبنان
www.malayin.com malayin@malayin.com

ISBN 9953-63-459-9
9 789953 634593